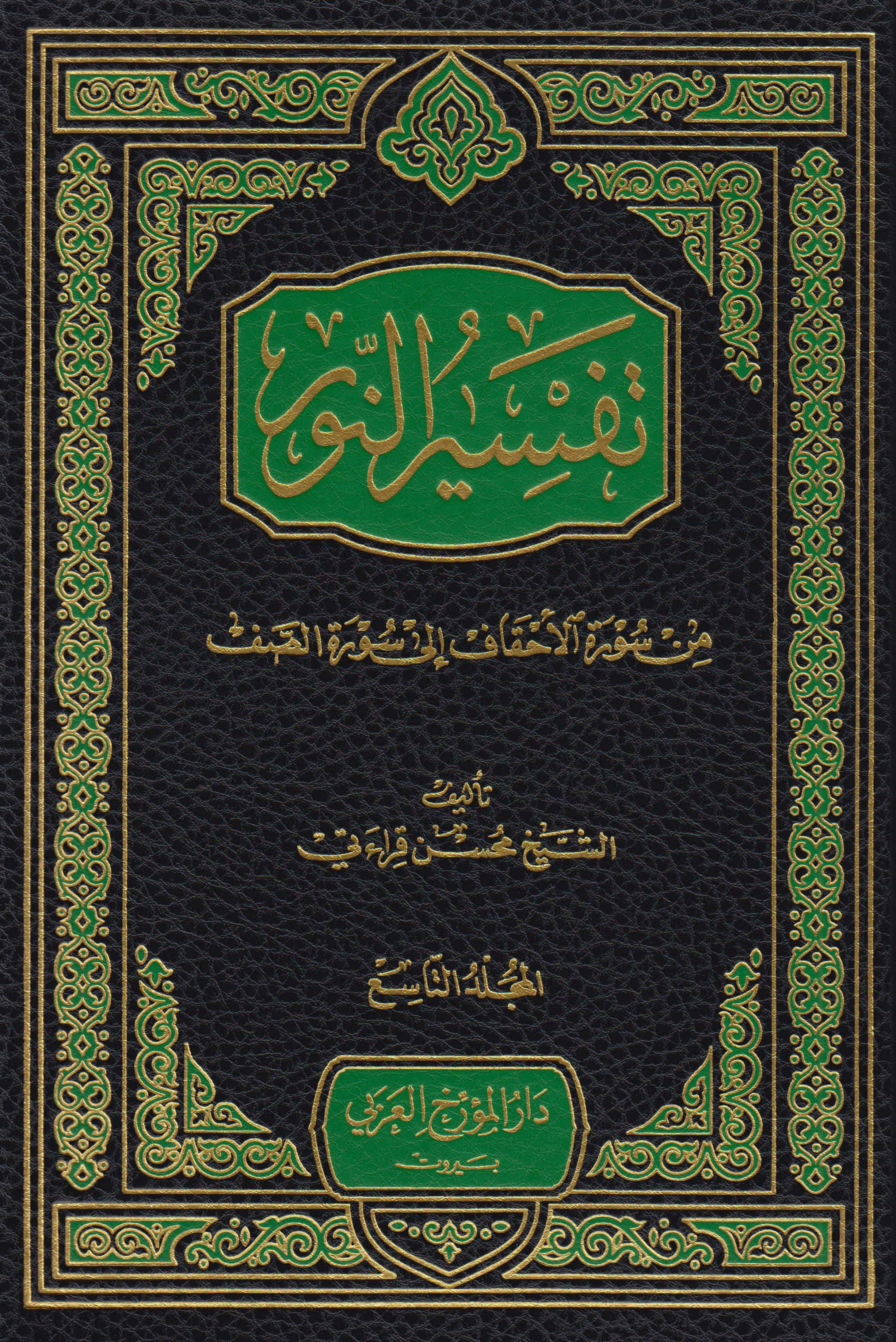

تفسير النور
من سورة الأحقاف إلى سورة الصف
تأليف
الشيخ محسن قراءتي
المجلد التاسع
دار المؤرخ العربي
بيروت


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

تفسير النور



من سورة الأحقاف إلى سورة الصف

تأليف

الشيخ محسن قراءتي

ترجمة

محمد حسن زراقط

المجلد التاسع

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان

الطّبعَة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م



طبع هذا الكتاب بالتعاون مع
المركز الثقافي للدروس القرآنية





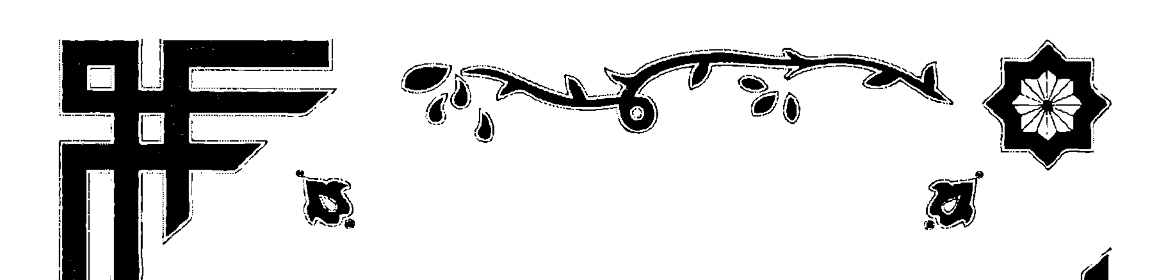
دار المؤرّخ العربي

بيروت - حارة حريك - قرب جامع الحسنين - فوق صيدلية دياب - ط ٢

تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص.ب: ١٢٤ / ٢٤

البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com

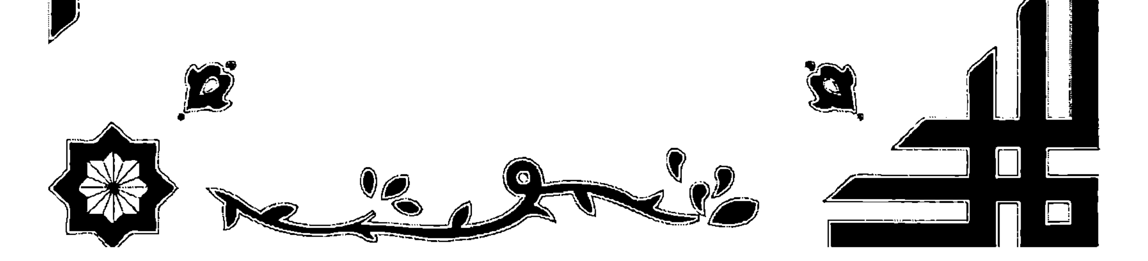
www.al-mouarekh.com



سُورَةُ الأَحْقَافِ

السورة: ٤٦ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ٣٥



ملامح سورة الأحقاف

تقع هذه السورة، بحسب ترتيب المصحف الشريف، في أوّل الجزء السادس والعشرين. وتتألّف من خمس وثلاثين آية، وهي من السور المكّية.

«الأحقاف» جمع حقف، وهو المعوّج من الرمل، وتتضمّن معنى الحركة والانتقال، وهو اسم ديار عاد. سمّيت بسبب طبيعتها وما في أرضها من رمل. وقد سمّيت السورة بهذا الاسم لما فيها من ذكر قوم عاد ونبيّهم هود عليه السلام.

وهذه السورة هي آخر السور السبعة التي تبدأ بالحرفين «حم»، ويليهما الحديث عن نزول القرآن وأهميته. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ كل ليلة، أو كل جمعة، سورة الأحقاف، لم يصبه الله بروعة في الدنيا، وآمنه من فزعة يوم القيامة»[١].



(١) مجمع البيان، ج٩، ص١٣٦؛ التفسير الاثني عشري.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ٣﴾

إشارات:

- تُعرف السور السبع الآتية: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، بـ«الحواميم السبعة»؛ وذلك لأنها تبدأ بالحرفين المقطّعين «حم».
- يستفاد من تكرار قوله تعالى: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ...﴾، في أول السور المذكورة أعلاه، أن الأمور المهمّة يجب أن تتكرر.
- العزّة من الأوصاف التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم، ووصف بها كتابه، فقال عن نفسه: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، ووصف بها كتابه في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾[١]، كما وصف بها رسوله والمؤمنين في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].
- لقد خلق الله العالم على أساس الحكمة والحق، فإذا شاهدنا في خلق الله ما لا نفهمه، لا بد من أن نتهم أنفسنا وليس الله. وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]. فالمشكلة في قصور علمنا، وليست في خلق الله سبحانه.
- بالتأمّل في الآيات التي تأتي بعد الحرفين المقطّعين «حم»، نكتشف أنّ مصدر القرآن:

ـ علم الله وعزته، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٤].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٤١.
(٢) سورة المنافقون: الآية ٨.
(٣) سورة الدخان: الآيتان ٣٨ و٣٩.
(٤) سورة غافر: الآية ٢.

ـ رحمته ومحبته، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[(١)].

ـ قدرته سبحانه وحكمته، ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ... ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(٢)].

وكذلك يستفاد منها أن القرآن كتاب بيّن يستحقّ التفكر والتعقل، ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٣)].

وأنّه كتاب مبارك ومنشأ للبركة، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾[(٤)].

عدم الالتفات إلى فناء الدنيا، وتوهّم خلودها، من أهم أسباب انحراف الإنسان؛ ولذلك يكشف لنا القرآن عن سعي الإنسان الحثيث إلى الخلود بطرق عدة:

فتراه يسعى أحياناً للخلود من خلال جمع الثروة وتكرار إحصاء ما يملك: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾[(٥)].

أو تراه يبني الحصون والقلاع، ظناً منه أنّ حصونه وقلاعه تحميه من الموت: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[(٦)].

أو تراه يؤسس الجيوش ويوسع دائرة سلطته: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[(٧)].

أو يحاول مواجهة الموت حدوداً وحفظ نفسه منه: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾[(٨)]. ويغفل عن أن للعمر مهما طال حدوداً لا بد من أن يبلغها وهو قبل ذلك في حالة انقضاء وتناقص مستمر، ولا شيء يدفع الموت عن الإنسان: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[(٩)]. ولأجل ذلك كله نجد أن القرآن يحذّر الإنسان من الغفلة والركون إلى الدنيا، ويلفت نظره إلى وجود أجل محدود يسعى الإنسان بإرادته وبغير إرادته نحوه: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[(١٠)].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢.
(٢) سورة الشورى: الآية ٣.
(٣) سورة الزخرف: الآيتان ٢ و٣.
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٥٥.
(٥) سورة الهمزة: الآيتان ٢ و٣.
(٦) سورة الشعراء: الآية ١٢٩.
(٧) سورة القصص: الآية ٣٩.
(٨) سورة الحشر: الآية ٢.
(٩) سورة النساء: الآية ٧٨.
(١٠) سورة الأحقاف: الآية ٣.

التعاليم:

١ ـ القرآن منزلٌ من عند الله العزيز الحكيم، ويعجز غيره سبحانه عن الإتيان بمثله، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٢ ـ على الرغم من نزول القرآن من عند الله وعجز الإنسان عن الإتيان بمثله، فإنّه ليس عاجزاً عن فهمه وإدراك معانيه، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٣ ـ لما كان نزول القرآن مستنداً إلى عزة الله وحكمته، فمن البديهي أن تهدف تعاليمه وبرامجه التي يقررها للحياة الإنسانية، في غاياتها النهائية إلى عزّة الإنسان واستقامته وثباته، ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٤ ـ عزّة الله مقترنة بالحكمة، ﴿ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

٥ ـ النظام الهادف لا يتحقّق من دون برنامج واضح المعالم، ومن هنا كان كل من التكوين والتشريع مبنياً على أساس الحكمة، ﴿ٱلْكِتَٰبِ... ٱلْحَكِيمِ... خَلَقْنَا... بِٱلْحَقِّ﴾.

٦ ـ في عالم الخلق الإلٰهيّ ونظامه لا محل للخطأ والانحراف، والضعف، والهوان، والعبث، ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٧ ـ السماوات والأرض، بل وعالم الوجود كله، لها نهاية وغاية تصل إليها، ولا يقع شيء من المخلوقات الإلٰهيّة في مجال الصدفة، ﴿خَلَقْنَا... بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٨ ـ من لوازم النظام وكون الخلق بالحقّ، وجود عالم بعد هذا العالم، فلولا يوم القيامة لفقد كثير من حالات التفاوت والاختلاف بين الناس مبرره ولبقي كثير من الجرائم من دون عقاب، ﴿مَا خَلَقْنَا... إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٩ ـ تخضع الظواهر المخلوقة لله كلّها لحساب ونظام محدد، منذ نشأتها وحتى بلوغها غاياتها التي تنتهي عندها، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٠ ـ يعدّ الانتباه إلى عدم خلود الدنيا وما فيها من نعم وظواهر، من العوامل المساعدة على قطع تعلق القلب بها، وهو من المنبهات على ذلك: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١١ ـ يهدف نظام التكوين والتشريع إلى هداية الإنسان، ولكن مع ذلك فإن بعض الناس يكفرون ولا يستفيدون من هذا النظام، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾.

١٢ ـ يسير الوجود كله باتجاه الحق، والإنسان وحده هو الذي ينحرف عن هذا الخط يميناً أو يساراً، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾.

١٣ ـ يعدّ التهديد والترهيب من أسس النظام التربوي والتعليمي، ﴿أُنذِرُواْ﴾.

١٤ ـ من مؤشرات الاختيار والإرادة الحرة عند الإنسان قدرته على الانحراف والإعراض عن طريق الحق، ﴿مُعۡرِضُونَ﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾

إشارات:

- **«أثارة»**، بمعنى الآثار الباقية وعلامات وجود الشيء.
- يؤمن المشركون في داخل نفوسهم بوجود الله وبخلقه السماوات والأرض، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[1]؛ ولأجل ذلك يوبّخهم الله ويؤنّبهم على تركهم التوجّه إليه في المهمّات وطلبهم العون من الأصنام والأوثان وغيرها.
- منطق التوحيد ومستنداته قوية إلى درجة تمكّن الموحّد من مجادلة المشركين وإفحامهم.
- عن أبي عبيدة قال: سألت الإمام الباقر عليه السلام عن قول الله تعالى، ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ...﴾، **«قال: عنى بالكتاب التوراة والإنجيل، وأثارة من علم فإنّما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء»**[2].

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٥.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٩؛ حديث ٦.

التعاليم:

١ ـ النبيّ ﷺ خاضع في جميع ما يتعلق بشؤون الرسالة إلى الوحي، ومطيع لما يوحى إليه حتى في مقام مجادلة الكافرين والمشركين، ﴿قُلْ...﴾.

٢ ـ يمكن لطريقة السؤال والجواب أن تكون مجدية في إحياء الفطرة، ودعوة الناس المسؤولين إلى التفكّر وإعادة النظر في ما يؤمنون به أو ينكرونه، ﴿أَرَءَيْتُم... مَاذَا خَلَقُوا۟﴾.

٣ ـ الثبات على المعتقد من الشروط الأساس في التبليغ. وعلى المبلّغ أن لا يسمح لليأس بأن يدبّ في نفسه، عندما يعرض عنه الذين يدعوهم، ﴿مُعْرِضُونَ قُلْ أَرَءَيْتُم﴾.

٤ ـ لا يجوز بناء الاعتقاد على ما يفهمه الآخرون، بل على المرء أن يؤمن بما يفهم وما يرى، ﴿أَرَءَيْتُم... أَرُونِى﴾.

٥ ـ لا ينبغي طلب العون والمساعدة إلا من الموجود الذي لديه القدرة على الخلق والإيجاد. ومن هنا يمكن القول إنّ جذور التوحيد العبادي موجودة في التوحيد في الخالقية، ﴿مَا تَدْعُونَ... مَاذَا خَلَقُوا۟﴾.

٦ ـ الأصنام والآلهة الموهومة التي تعبد من دون الله عاجزة من جميع الجهات، فلا قدرة لها على الخلق ولا دور لها لا في خلق الأرض ﴿...مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ...﴾، ولا في خلق السماوات ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٧ ـ في الجدل لا بدّ من الاستناد إلى المشتركات (وفي الآية جرى استناد الجدل مع المشركين إلى إيمانهم بخالقية الله)، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٨ ـ يجب احترام الكتب السماوية النازلة قبل القرآن وتقديرها، ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾.

٩ ـ يجوز الاستناد في مقام الجدال والنقاش إلى الدليل الفطري الشهودي ﴿أَرَءَيْتُم﴾، أو النقلي: ﴿بِكِتَٰبٍ﴾، أو العقلي: ﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، والشرك لا دليل عليه.

١٠ ـ كل دعوى لا بدّ من أن تستند إلى دليل، ولا تقبل الدعوى من دونه، ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ... أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾.

١١ ـ ترتبط قيمة آثار الماضين وما تركوه من إرث ثقافيّ وغيره، بما تشتمل عليه من علم ورشد، ﴿أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾

إشارات:

- الانحراف المعرفي هو أسوأ حالات الانحراف. والابتعاد عن الله، واللجوء إلى غيره، هو من الانحرافات المعرفية؛ وذلك لأنّ غير الله لا يملك ضرًّا ولا نفعاً.
- من الآيات المشابهة لهذه الآية في المعنى، الآية ٢٩ من سورة يونس، إذ يقول آلهة المشركين يوم القيامة، للذين كانوا يعبدونهم: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.
- ما أبعد الفرق بين المعبود الذي يسمع الدعاء ويستجيب له، ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] وبين المعبود الذي لا يستجيب ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾، إما لأنّه لا يسمع، وإمّا لأنه لا يقدر على الاستجابة حتى لو سمع، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[2].

الفرق بين دور الله ودور غيره في حياة الإنسان:

أ ـ أما دور الله في حياة الإنسان، فهو:

١ ـ الخالق، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾[3].

٢ ـ ربّ الإنسان ورب العالمين جميعاً، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.
(٢) سورة فاطر: الآية ١٤.
(٣) سورة الرحمن: الآية ٣.
(٤) سورة الحمد: الآية ٢.

٣ ـ رؤوف بالناس، ﴿بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

٤ ـ يسمع الدعاء، ﴿سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[٢].

٥ ـ يجيب المضطر[٣]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

٦ ـ يهدي الإنسان وخصوصاً من ينفتح عليه، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٤].

٧ ـ يدافع عن الإنسان وينصره ولا سيّما إذا كان من الصالحين، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[٥].

٨ ـ يأخذ بيد الإنسان في طريق الرشد والتكامل، ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾[٦].

٩ ـ يمنح الإنسان الطمأنينة، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٧].

١٠ ـ يعلّم الإنسان، ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[٨].

١١ ـ يزيد الإنسان عندما يشكره، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٩].

١٢ ـ يشفي الإنسان عندما يمرض، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[١٠].

١٣ ـ تتعلق به الآمال بالمغفرة في المستقبل، ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[١١].

ب ـ أما دور غير الله في حياة الإنسان، فهو:

١ ـ لا قدرة لهم على الخلق، ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾[١٢].

٢ ـ في غفلة عن الإنسان وحاجاته، ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[١٣].

٣ ـ لا يسمعون دعاءه، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾[١٤].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٨.
(٣) سورة النمل: الآية ٦٢.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٩٦.
(٦) سورة الجن: الآية ٢.
(٧) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(٨) سورة العلق: الآية ٤.
(٩) سورة إبراهيم: الآية ٧.
(١٠) سورة الشعراء: الآية ٨٠.
(١١) سورة الشعراء: الآية ٨٢.
(١٢) سورة الحج: الآية ٧٣.
(١٣) سورة الأحقاف: الآية ٥.
(١٤) سورة فاطر: الآية ١٤.

٤ ـ لا قدرة لهم على الإجابة، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ﴾[1].

٥ ـ للإنسان أعداء، ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾[2].

٦ ـ لا يملكون دفع الضر عن الإنسان، ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾[3].

٧ ـ عاجزون عن إيصال أي نفع للإنسان أو دفع أي ضر عنه، ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾[4].

وخلاصة القول على لسان النبيّ يوسف عليه السلام، ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[5].

التعاليم:

١ ـ إن الانحرافات الفكرية والاعتقادية هي من أخطر أنواع الانحراف التي تصيب الإنسان، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾.

٢ ـ كل طريق تؤدي إلى غير الله هي ضلال، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

٣ ـ بعض الناس في الدنيا يتوجهون إلى غير الله، والحال أن من يقصدونه ويتوجهون إليه ليس فقط لا ينفعهم في الدنيا بل ينقلب في الآخرة عدواً، ﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ... كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾.

٤ ـ العلاقات والروابط غير الإلٰهيّة تتحول يوم القيامة إلى عداوة وخصام، ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾.

٥ ـ الطلب من غير الله بدل الطلب من الله، ومع الغفلة عنه سبحانه، نوع من العبادة لغيره سبحانه، وتتنافى مع التوحيد، ﴿دُعَائِهِمْ... بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

٦ ـ المعبودون من دون الله في الدنيا غافلون عن عبادة الناس إياهم ويوم القيامة ينكرونهم، ﴿عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ... بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٥.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٦.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٥٦.
(٤) سورة يونس: الآية ١٨.
(٥) سورة يوسف: الآية ٣٩.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

إشارات:

- ﴿مُّبِينٌ﴾ وصف لكلام الأنبياء وما ينقلونه عن الله. وهذا الكلام معجز وبالغ الأثر إلى حدٍّ جعل بعض الناس يعدّونه من السحر، بسبب تأثيره البالغ في النفوس المستعدّة.
- كانت تصدر عن الكافرين الذين لا يؤمنون بالقرآن مجموعة من التصرّفات يمكن الإشارة إليها في ما يأتي:

١ ـ لقد سمعنا من قبل بمثل هذا ولو شئنا لجئنا بمثله، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[1].

٢ ـ يشترطون على النبيّ أن يحذف أو يبدّل الآيات التي تتعرّض للأصنام والأوثان بما لا يعجبهم، ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[2].

٣ ـ المهمّ هو الثروة والملك وليس أي شيء آخر، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟... أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾[3].

٤ ـ يديرون ظهورهم متكبّرين، ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾[4].

٥ ـ يكذّبون بها، ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[5].

٦ ـ يصمّون آذانهم عن سماع آيات الله، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[6].

٧ ـ يعلنون أنّ آيات الله وشريعة الأنبياء بدعة، ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾[7].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣١.
(٢) سورة يونس: الآية ١٥.
(٣) سورة مريم: الآية ٧٣.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ٦٦.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ١٠٥.
(٦) سورة لقمان: الآية ٧.
(٧) سورة سبأ: الآية ٤٣.

٨ ـ يعترضون ويعارضون الأنبياء ولا دليل لهم سوى التعصّب، ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾[1].

٩ ـ يدّعون أنّ آيات القرآن ما هي إلا أساطير بعيدة عن الواقع، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2].

١٠ ـ يتّهمون النبيّ بأنه ساحر ورسالة الله بأنّها سحر، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ عندما تسود روحية اللجاج والعناد، ينكر المرء أوضح الآيات والأدلّة ولا يؤمن بها، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ...﴾.

٢ ـ آيات القرآن واضحة بيّنة ومبيّنة، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾.

٣ ـ معجزات الأنبياء لا تترك أثرها عند ذوي القلوب السوداء المظلمة، على الرغم من إحساسهم بأنّها لافتة للنظر، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ... قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

- «تفيضون» من الإفاضة، وفاض الماء إذا سال منصباً، ومنه استعير «أفاضوا في الحديث» إذا خاضوا فيه.
- إن من يدعي النبوة كاذباً يتولّى الله كشفه وفضح خيانته، ولا يمكن لأحد أن يحول بين الله وبين ما يريد من كشف كذب هذا المدّعي.

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٥.
(٢) سورة القلم: الآية ١٥.
(٣) سورة الأحقاف: الآية ٧.

التعاليم:

١ ـ العناد وقلة التقوى هما سبب صدور الأقوال المختلفة والمتضادة أحياناً في مواجهة الحق، ففي الآية السابقة أخبرنا الله أنهم كانوا يتهمون النبي بالسحر، وفي هذه الآية ينقل عنهم اتهامه بالافتراء على الله، ﴿هَٰذَا سِحْرٌ... ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

٢ ـ لا يجوز ترك الشبهات من دون تقديم الأجوبة المناسبة التي ترفعها، ﴿يَقُولُونَ... قُلْ...﴾.

٣ ـ الافتراء على الله له عقاب لا يمكن أن يمنع من حصوله شيء، ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

٤ ـ كل ما يصدر عن العدو من قول يراد به الفساد، ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ... تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

٥ ـ الإيمان بحضور الله وعلمه بما يدور بين الناس، هو من جهة يحلّ بعض الخلافات بين الناس، ومن جهة ثانية هو سند معنوي للمؤمنين، ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾.

٦ ـ لا بد من الاعتدال في التربية، وعدم سدّ باب العودة إلى الله أمام الناس، واعتماد أسلوبي التخويف والتأميل بالعفو والرحمة الإلٰهيّة، ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ... وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٧ ـ الشدة تؤثر أثرها وتكون ذات قيمة عندما تقرن بالمحبة، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا... وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٨ ـ باب التوبة مفتوح في وجه الناس جميعاً، حتى أولئك الكافرين الذين ينكرون الرسالة ولا يصدقون النبي، ﴿أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ... وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

إشارات:

- «البدع» الشيء المبتدع الجديد. وقد كان المعارضون للنبيّ ﷺ يأخذون عليه أنّهم لم يعتادوا ظهور الأنبياء.

□ ما يعلمه النبيّ ﷺ من الغيب إنما هو بتعليم إلهي: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾[١]، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يطلع على الغيب من غير وحي وتعليم إلهي، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[٢].

□ كل كلام يصدر عن النبيّ مستند إلى الوحي: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[٣]؛ تنطبق هذه الصفة على أفعال النبيّ أيضاً: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[٤]؛ ولأجل هذا وذاك كان قول النبي وفعله حجة على سائر الناس.

التعاليم:

١ ـ أمر الله النبيّ ﷺ برفع الشبهات الاعتقادية وتقديم الأجوبة المناسبة لها، ﴿قُلْ...﴾.

٢ ـ الأنبياء والقادة الإلٰهيّون يعملون بشكل دائم وفق التوصيات والأوامر الإلٰهيّة حتى في حالة الدفاع عمّا يرون أنه حق، ﴿قُلْ مَا كُنتُ...﴾.

٣ ـ النبوّة مسيرة مستمرّة عبر التاريخ، ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٤ ـ لا بد من الإجابة عن الشبهات بالمنطق والحجّة مهما كانت الطريقة التي تثار فيها ومهما تجاوز أصحابها حدود الأدب والمنطق، ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ... ٱفْتَرَىٰهُ...﴾. ففي مقابل هذا الأسلوب نجد أن الله يوصي النبيّ ﷺ بـ ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًا... مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ...﴾.

٥ ـ يوصي الله الأنبياء والنبي محمداً ﷺ بالاستفادة من التاريخ؛ لأنّ الناس عادة تنفر من الجديد الغريب، ما يقتضي تذكيرها بأن ما تستغربه له ما يشبهه في تاريخ الإنسانية، ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٦ ـ لا تلازم بين الرسالة وبين معرفة كل شيء، ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

---

(١) سورة هود: الآية ٤٩.

(٢) سورة الجنّ: الآيتان ٢٦ و٢٧.

(٣) سورة النجم: الآيتان ٣ و٤.

(٤) سورة الأحقاف: الآية ٩.

٧ ـ على القائد أن يكون صادقاً مع قومه، ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾.

٨ ـ في الأمور المشتركة يجب البدء بالنفس والحديث عنها، ثم بعد ذلك الحديث عن الآخرين، ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾.

٩ ـ ليس من واجب النبيّ إجبار الناس على الإيمان، وينحصر دوره في الإنذار والتحذير من الكفر وعدم الإيمان، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

١٠ ـ عند دوران الأمر بين التحذير وإعطاء الفرصة وإثارة الأمل في النفوس، يجب تقديم التحذير على الثاني، في دعوة أهل الغفلة والعناد، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾

إشارات:

- لا غنى في بعض المواقف الدعوية عن بيان حقيقة المدعوّ لرفع غروره أو الحيلولة بينه وبين الغرور والاعتداد بالنفس، وهذا ما نراه في القرآن الكريم في أكثر من مورد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى مخاطباً نساء النبيّ ﷺ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾[2]. وفي هذه الآية يلفت القرآن نظر مشركي مكة إلى شهادة بعض اليهود بصدق النبي في دعواه الوحي، ونزول القرآن عليه من الله، وينبههم أيضاً إلى أنّ كفرهم لن يعود بالضرر إلا عليهم.

- يشير أكثر المفسرين عند تفسير هذه الآية إلى أن المراد من «الشاهد» فيها هو عبد الله بن سلام الذي شهد لصالح النبيّ ﷺ والقرآن بين عدد من بني قومه[3].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤. (٢) سورة التحريم: الآية ٥.

(٣) البرهان في تفسير القرآن، ج٥، ص٣٨.

التعاليم:

١ ـ على الإنسان أن يفكر في مواقفه ويعيد النظر في أفكاره؛ كي لا يكون عدم إيمانه ببعض الأمور نابعاً من التعصب والغرور، وهذا ما يدعو الله سبحانه إليه في قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾.

٢ ـ ينبغي عدم التعصب والتشدد في حالات الدعوة والجدل مع المعارضين، بل ينبغي إثارة الاحتمالات وترك باب النقاش مفتوحاً، فالنبي ﷺ على الرغم من إيمانه الجازم برسالته، إلاّ أن الله يدعو إلى قول: ﴿إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ يحسن الاهتمام ببعض الأفراد الذين يراهَن عليهم لمواقعهم الاجتماعيّة والعلمية أو غير ذلك، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

٤ ـ تمتد جذور الكفر في تربة الاستكبار وتتغذى منها؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾ فاستخدم كلمة «استكبرتم» بدل «كفرتم».

٥ ـ من وسائل الدعوة وطرقها المقارنة بين قوم وقوم وبين فرد وأفراد آخرين لتحفيز بعضهم وإثارة حماسهم عندما يقارنون بغيرهم، ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ﴾.

٦ ـ الاستكبار عن الإيمان وفي مواجهة الوحي ظلم، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ... ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٧ ـ الظلم يحرم الإنسان من البصيرة ويحول بينه وبين فرص الهداية وتقبل الألطاف الإلٰهيّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾

إشارات:

- يجعل بعض الكفار أنفسهم معياراً للتمييز بين الحقّ والباطل، ومن ثم يقولون كما ينقل القرآن عنهم: لو كان الإيمان بالإسلام خيراً لما سبقنا إليه أحد.

□ بعد ربط النبيّ ﷺ رسالته برسائل الأنبياء السابقين ووضع نفسه ضمن تلك المسيرة الطويلة في تاريخ البشرية، بدأ الكافرون بالاعتراض على أصل النبوة بعد أن كان الاعتراض أولاً على نبوة نبي محدد هو رسول الله ﷺ، فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

التعاليم:

١ ـ يرى الكفار أنهم أكثر وعياً وأدق في تشخيص الخير من الشر من المسلمين، ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾.

٢ ـ الإعلام المضاد للإسلام، ومحاولات توهينه، ليست جديدة، بل تعرض هذا الدين لمثل هذه الحملات منذ الأيام الأولى لبدء دعوته، ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾.

٣ ـ القرآن كتاب هداية من دون أدنى شكّ، ولكنّ المشكلة هي في من لا يؤمن به كفراً وعناداً، ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾.

٤ ـ ليس للعدو منطق واحد، أو أسلوب واحد للمواجهة، بل يختار سبلاً عدة لإضعاف الإسلام ومحاربته، فتارة يقولون لو كان في الإسلام خير لقبلناه وسارعنا إليه، ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾، وأخرى يعترضون بغرابة على بعث النبيّ بينهم، فعندما يشار إلى تاريخ النبوّة في البشرية، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

٥ ـ يحتاج الداعي والمربّي إلى شرح المواقف المضادة للدعوة وتقديمها للمؤمنين بها، لما في ذلك من تحصين وإذهاب عنصر المفاجأة من الدعوات المضادة، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ... فَسَيَقُولُونَ...﴾.

٦ ـ لا ينبغي للقائد أن يكتفي ببيان الواقع، بل عليه أن يتوقّع الدعاوى المضادة التي ربّما يعمل عليها الأعداء، ﴿...فَسَيَقُولُونَ...﴾.

٧ ـ مشركو عصر البعثة كانوا على درجة عالية من العناد، بلغت بهم إلى إنكار القرآن، بل واعتبار مضامينه كذباً قديماً، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

٨ ـ الشبهة المعاصرة التي تدعي أن القرآن يصلح لزمن النبيّ ﷺ ولا يصلح لهذا العصر ليست شبهة جديدة، بل كان المعاصرون للنبي يثيرون مثل هذه الشبهة في وجه الدعوة الإسلاميّة، ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

٩ ـ قبح الكذب والافتراء أمر فطري يتفق عليه الناس جميعاً مؤمنين كانوا أم كفاراً؛ ولذلك نجد أن الكفار في مواجهتهم الإسلام يتهمونه بالكذب ليسقطوه، ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- تعدّ هذه الآية تتمّة ومتابعة للآية التاسعة التي تقول على لسان رسول الله ﷺ إنه نبيّ جديد، ولكنه ليس بدعاً من الرسل، فقد سبقه أنبياء قبله. وتؤكد هذه الآية هذه الحقيقة بإشارتها إلى كتاب النبيّ موسى عليه السلام؛ وينطبق هذا الحكم على النبيّ عيسى عليه السلام وكتابه، ولم تشر إليه الآية، وربّما ذلك بسبب كثرة عدد المعارضين للنبي ﷺ من اليهود في المدينة، مضافاً إلى قبول التوراة إجمالاً بين المسيحيين، وإيمانهم بها ككتاب مقدّس.

- إبراهيم عليه السلام من الأنبياء الذين وُصفوا بالإمامة في قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[1]؛ ووُصف كتاب موسى بهذا الوصف أيضاً في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. والنبيّ ﷺ إمام للناس في سيرته: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2]. والمؤمنون هم أيضاً أئمة للناس في سلوكهم وتصرّفاتهم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[3].

- تتشابه أوصاف النبيّ ﷺ في الآية التاسعة من هذه السورة مع أوصاف القرآن

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

في هذه السورة، فقد وُصف النبي بالنذير، ووُصف القرآن هنا بهذا الوصف، ووُصف النبيّ ﷺ بالبشير هناك، ونسبت البشرى الحسنة إلى القرآن في هذه الآية.

التعاليم:

١ ـ يعدّ إرسال الكتب السماوية من السنن الإلٰهيّة، ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾.

٢ ـ يحتاج الناس إلى إمام وقدوة يهتدون بهديه، والكتاب السماوي هو أحد مصاديق هذه القدوة، ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ﴾.

٣ ـ تختلف القيادة والزعامة النبوية عن الزعامة والقيادة السلطانية، فسلطة السلطان مبنية على الغلبة في أكثر الأحيان، وأما سلطة الأنبياء فهي مبنية على الرحمة والعطف، ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ﴾.

٤ ـ لا ينبغي أن ينسينا مديح الحاضرين واحترامهم مديح غيرهم ممن يستحق المديح والثناء، ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ... وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ...﴾.

٥ ـ الانسجام بين الكتب السماوية من الأدلة على صدقها وحقانيتها: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ... وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ...﴾.

٦ ـ الاحترام والانتصار ببعض الماضين من أساليب مواجهة الاتهام وتخريب السمعة، ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ... وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ...﴾.

٧ ـ للقرآن حق كبير على الكتب السماوية السابقة لتأييده إياها وتصديقه بها، ﴿...وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ...﴾.

٨ ـ يؤدي الكتاب السماوي دورين، هما: الإنذار والبشارة للظالمين والمحسنين، ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

٩ ـ الإيمان بالكتاب السماوي إحسان، وإنكاره ظلم وعدوان، ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

إشارات:

- ليس المطلوب هو التلفّظ بجملة: «ربنا الله»، بل المراد هو الاعتقاد بمضمونها، وما يترتّب على هذا الاعتقاد من اختيار طريق الحقّ والسير فيه، وفي الحقيقة، إنّ الثبات في طريق الحقّ أهمّ بدرجات من إعلان الإيمان.
- «الخوف» يتعلق بالمستقبل، و«الحزن» يكون لما مضى.
- لا بدّ من قول الحقّ والتصريح به: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، على أن يكون مقترناً بالثبات عليه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾، والعمل بما يتناسب مع الاعتقاد به: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.
- يطلب الإنسان بالفطرة الراحة والاستقرار والخلود في الآخرة، وقد جعل الله ذلك كله مرهوناً بالإيمان والعمل الصالح.
- الثبات على الحقّ من الأمور الصعبة والمرهقة، ولكنّ الثواب الموفور والنعمة الكبيرة التي تترتب عليه تسهّله وتخفف من معاناة الثابتين عليه، ومن هنا نعلم ضرورة جعل الثواب على الأعمال المرهقة والمتعبة.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي للإنسان أن يغترّ بما هو عليه من الإيمان، بل لا بد من الاطمئنان إلى الثبات إليه في ما يأتي من أيامه، ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾. ومن هنا نجد النبيّ يوسف عليه السلام يدعو ربه بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من المقام، بقوله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[1].

٢ ـ الإيمان بالله سبحانه من وسائل رفع الخوف وقطع منابته، ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ... فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

(١) سورة يوسف: الآية ١٠١.

٣ ـ السائر في طريق الحق وسبيل الله هو وحده الذي لا يشعر بالحزن ولا يندم على ما فات من حياته، ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٤ ـ الخلود في الجنّة هو الثواب الذي وعد به الله على الإيمان والثبات عليه وعلى العمل الصالح، ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟... خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

٥ ـ الجنّة ثواب لأهل العمل لا لأهل القول غير المقترن بالعمل، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

- الكُره هو المشقة التي تنال الإنسان من ذاته، والكَره هو ما يناله من خارج في ما يحمل عليه ويلزم به[1]. و﴿أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ﴾ أي حقق في نفسي الرغبة في الشكر؛ لأن الوزع في اللغة له معان منها الولوع بالشيء.
- الإحسان إلى الوالدين من الأمور المهمة عند الله. وقد وردت كلمة «وصينا» في القرآن خمس مرات، ثلاث منها تتعلق بالإحسان إلى الوالدين[2].
- أشارت الآية إلى مراحل نمو الإنسان وتطوّره من حياته الجنينية إلى بلوغه الأربعين، وقد عد سن الأربعين سنّ الكمال والرشد، لقوله تعالى: ﴿إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.
- يُعلم من الآية أنّ أقل مدة الحمل هي ستة أشهر، ويُعلم ذلك من طرح مدة الرضاع وهي حولين كما في آية أخرى، من الثلاثين شهراً المذكورة في هذه الآية.

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة «كره».

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٨؛ وسورة لقمان: الآية ١٤؛ والآية التي نحن بصدد البحث حولها.

□ للأم حق كبير على الولد نظراً إلى المصاعب التي تقاسيها خلال حمله وولادته وتربيته، وهذا يفسّر التوصيات المؤكّدة على الاهتمام بحقّ الأمّ وتقديم الأمر ببرّها على الأمر ببرّ الأب[1].

التعاليم:

١ ـ الأمر بالإحسان إلى الوالدين توصية الأديان كلها عبر التاريخ، ويستفاد هذا المعنى من استخدام الآية صيغةَ الماضي للأمر بالإحسان، فقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، بدل نوصي.

٢ ـ الإحسان حقّ إنسانيّ على الولد للوالدين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ولم يقل: «ووصينا الذين آمنوا».

٣ ـ يجب الإحسان إلى الوالدين مسلمين كانا أم غير مسلمين، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

٤ ـ تماسك الأسرة وترابطها، وحفظ مكانة الأبوين فيها، من الأمور التي يوليها الله اهتماماً خاصاً، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

٥ ـ المطلوب والمدعو إليه شرعاً هو كل شكل من أشكال الإحسان وليس الإنفاق وحده؛ وذلك لورود المأمور به وهو الإحسان مطلقاً غير مقيّد بقيد.

٦ ـ لا بدّ من أن يكون الإحسان واضحاً وظاهراً لا لبس فيه، وليس خفياً وبقدر الضرورة، وذلك لأن التنوين في اللغة العربيّة يدلّ على التعظيم وقد وردت كلمة «إحساناً» مع التنوين.

٧ ـ الإشارة الإلٰهيّة إلى الخدمات التي يقدّمها الوالدان للولد تثير في نفس الولد الرغبة في خدمة الوالدين والقيام بذلك مقروناً بالمحبّة والإقبال، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ... حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾.

٨ ـ كمال الإحسان في الخدمة المباشرة لهما من دون وسيط، ﴿بِوَٰلِدَيْهِ

---

(١) التفسير الأمثل، والكافي، ج٢، ص ١٥٩.

إِحْسَٰنًاۖ...﴾، ويستفاد هذا المعنى من حرف الجرّ الداخل على كلمة «والديه».

٩ ـ الالتفات إلى الإحسان السابق من قبل الأم إلى الولد يثير في نفس الولد الشوق والرغبة في مبادلتها الإحسان، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ﴾.

١٠ ـ حق الأمّ على الولد أعظم من حقّ الأب، ويستفاد هذا المعنى من ذكر الأم وحدها بعد ذكر الوالدين معاً.

١١ ـ كل الأحكام الإلٰهيّة (الأوامر والنواهي) لها علل وأسباب ومبررات، وقد أشارت الآية إلى بعضها، ﴿وَوَصَّيْنَا... حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ﴾.

١٢ ـ سنّ الأربعين هي أقصى مرحلة يصل إليها الإنسان في مسيرة تكامله ونموّه، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

١٣ ـ الشكر لله يحتاج إلى التأييد والدعم الإلٰهيّ، ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

١٤ ـ تمرّ بعض النعم الإلٰهيّة على الإنسان عبر الآباء والأمهات، ﴿أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾.

١٥ ـ البلوغ الجسدي والعقلي من الأمور الممهدة للبلوغ المعنوي، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

١٦ ـ شكر الله على النعم التي أنعمها الله على الوالدين فيه شيء من الإحسان إلى الوالدين أيضاً، ﴿أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ... وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾.

١٧ ـ أفضل سبل الشكر لله تعالى العمل الصالح، ﴿أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ... وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾.

١٨ ـ ترتبط قيمة العمل الصالح بالمداومة عليه واستمراره، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾، ويستفاد هذا المعنى من استعمال الفعل المضارع الدال على الاستمرار والتكرار.

١٩ ـ من شروط صلاح العمل رضا الله به، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

٢٠ ـ الذرّية الصالحة من الأمور التي يفتخر بها الآباء ويطلبونها من الله، ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ﴾.

٢١ ـ أفضل أشكال الدعاء ما ضمّنه الداعي الدعاء للوالدين والأولاد، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ... وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾.

٢٢ ـ على الإنسان أن يتوب عن ترك الشكر لله وترك الإحسان بالوالدين، ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ... إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

٢٣ ـ من أدعية الصالحين طلبهم من الله التوبة والتسليم لله والموت على الإسلام، ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- لقبول الأعمال درجات عدة، هي:

أ ـ القبول العادي، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ب ـ القبول الحسن، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[2].

ج ـ القبول الأحسن، ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ ونقرأ في الدعاء: «فتقبله منا بأحسن قبولك»[3].

- إنَّ الأعمال كلها مهما عظمت تفقد قيمتها إن لم يتقبّلها الله، حتى لو كانت بناء الكعبة، ومن هنا نجد النبيّ إبراهيم عليه السلام يطلب من الله أن يتقبّل منه عمله في رفع القواعد من الكعبة مقترناً بالعمل، ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾[4].

- أعمال الإنسان تنقسم من جهة حكمها الشرعي إلى: واجبة، ومحرّمة، ومستحبّة، ومكروهة، ومباحة. ويوم القيامة يعمد الله إلى أفعال الإنسان فيتقبّل أحسنها وهو الواجبات والمستحبّات، ويعفو ويتجاوز عن غيرها أو المكروهات

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٧.
(٣) الكافي، ج٤، ص ١٦٥.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

والمحرّمات، وأما المباحات فلا يجري عليها لا القبول ولا الرفض[١].

❑ لا يخلو سبب خلف الوعد من حالات منها: العجلة في إصدار الوعد وعدم التفكير قبل التعهد به، والثانية: أن يعد ثم لا يقدر على الوفاء، وكلتا الحالتين لا يمكن نسبتهما إلى الله القادر العالم.

التعاليم:

١ ـ قيمة العمل بقبوله عند الله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾.

٢ ـ الإحسان بالوالدين والشكر لله تعالى من العوامل الممهدة لقبول الأعمال الصالحة عند الله سبحانه، ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ... أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾.

٣ ـ لا ينحصر قبول الأعمال بالصالحين المعصومين، بل إن من يعصي ويتوب يقبل الله منه ويتجاوز عن سيّئاته، ﴿إِحۡسَٰنًا... أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ... وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

٤ ـ الإحسان إلى الوالدين والشكر لله من العوامل المساعدة على قبول الأعمال الصالحة والعفو عن السيّئات، ﴿إِحۡسَٰنًا... أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ... فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾.

٥ ـ الإحسان إلى الوالدين، من مفاتيح أبواب الجنان، ﴿إِحۡسَٰنًا... أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ... فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾.

٦ ـ لا يخلف الله وعده، ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾.

٧ ـ مهمة الأنبياء عبر التاريخ كانت نقل الرسائل والوعود الإلٰهيّة للناس: ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

---

(١) انظر كتب التفسير عند تفسير هذه الآية، ولا سيما مجمع البيان، والميزان في تفسير القرآن.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

❑ «أف»، كلمة تقال لإظهار الانزعاج والغضب، وفيها شيء من الإهانة وسوء الأدب خاصة مع الأبوين.

❑ بعد أن ذكر الله في الآية السابقة البرّ والإحسان بالوالدين وغيرهما مما ورد في الآية كالإيمان وشكر النعم الإلٰهيّة، تعرّضت هذه الآية للحديث عن العقوق وعاقبة الولد العاق.

❑ إن من لا يؤمن بالله يخسر كل ما أنعم الله به عليه في الدنيا ويتلفه من دون فائدة أو منفعة تعود عليه، ثم يحشر يوم القيامة خاسراً لا يلوي على شيء.

التعاليم:

١ ـ على الرغم من عقوق الولد وصدور الإهانات عنه إلى والديه وقول «أف لكما»، إلّا أن إيمان الوالدين ومحبتهما للولد يدعوانهما إلى الحرص على هدايته بدعوته مباشرة أو بالدعاء إلى الله بأن يهديه: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ﴾.

٢ ـ عادة ما يكون منكر المعاد فاقداً للأدب، ولا يؤثّر فيه الدليل ولا البرهان، ﴿قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾.

٣ ـ الولد حر في الاختيار واتخاذ قراراته في العقيدة وغيرها وهو وحده المسؤول عن أعماله، ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ... وَيْلَكَ آمِنْ﴾.

٤ ـ الوالدان مسؤولان عن هداية الولد ودعوته إلى الحق ومطالبان بالإصرار على ذلك مهما كان موقف الولد ورد فعله، ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ... وَيْلَكَ آمِنْ﴾.

٥ ـ يتحمّل الآباء مسؤولية التربية المعنوية للولد كما يتحملان مسؤولية تربية جسده، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ... بَلَغَ أَشُدَّهُ... وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ﴾.

٦ ـ من أساليب التربية تذكير الآباء أبناءهم بالآخرة والمعاد، ﴿ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

٧ ـ إنكار المعاد من الأسباب الموجبة عدمَ الالتزام اتجاه الأبوين، ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ... مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٨ ـ يرى منكرو المعاد أن المؤمنين متخلفون رجعيون، بينما يرون أنفسهم متطوّرين تقدميين، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٩ ـ الكفر بالمعاد وعقوق الوالدين والجرأة عليهما، في القول والفعل، من الأعمال التي يترتب عليها العذاب الحتمي يوم القيامة، ﴿...أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾.

١٠ ـ عناد الأبناء في الكفر من موانع استجابة دعاء الوالدين في حقّهم، ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾.

١١ ـ لله سنة واحدة في جميع المنحرفين تجري عليهم على حد سواء، ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾.

١٢ ـ إنكار المعاد قديم ومعروف بين الجن والإنس عبر التاريخ، ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

١٣ ـ الجنّ مخلوق مستعد للتكليف كالإنسان، ويموت ويبعث ويحاسب يوم القيامة، ﴿أُمَمٍ... مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

١٤ ـ إنكار المعاد والكفر به، والانحراف الفكري والعقدي، أمر يترتب عليه الخسران في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

١٥ ـ القرآن يدين الأذى الذي يصدر عن الولد اتجاه أبويه حتى لو كان كلمة صغيرة، ويحكم على فاعله بالخسران، ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ...إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾

إشارات:

- «ليوفيهم»، التوفية أخذ الشيء كاملاً، والمراد من هذا التعبير، هنا، نيل كل واحد من الناس ثوابه أو عقابه كاملاً.
- لا تتسع الدنيا للثواب والعقاب الكاملين؛ وذلك لقصر أمدها، ولأن الثواب والعقاب الذي ينال الشخص فيها قد يصيب غيره من الناس المحيطين به. فخذ مثلاً الأنبياء الذين قاموا بهداية ملايين البشر وإنقاذهم من الشرك والفساد وأشكال الانحراف، فمثل هؤلاء ماذا يمكن أن يكون ثوابهم؟ حيث إن أهم نعم الدنيا كالطعام والشراب وأنواع اللباس لا تساوي شيئاً، ولا قيمة لها لأنّ الكافر ينال نصيبه منها في الدنيا. وفي المقابل خذ مثلاً بعض المجرمين الذين يقتلون عشرات الناس ويعذبونهم، فما هو الجزاء العادل لهم، الإعدام هو أقصى عقوبة قد تنالهم؛ ولكنه في نهاية المطاف قتل واحد في مقابل عشرات ليس فيه تكافؤ ولا عدل.

التعاليم:

١ ـ السعادة والشقاء في الآخرة درجات ومراتب ينال منها الإنسان بمقدار عمله، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾.

٢ ـ العمل هو المعيار الذي على أساسه تحدد درجة الإنسان يوم القيامة، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾.

٣ ـ المحاسبة على الأعمال، ثواباً وعقاباً، هي أحد أهداف البعث ويوم القيامة، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

٤ ـ يوم القيامة هو يوم الثواب للمؤمنين والعقاب للمفسدين والكافرين، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

٥ ـ لا يمحو تطاول الزمان أعمال الإنسان، بل يراها يوم القيامة ماثلة أمامه

يحاسب على كل صغيرة وكبيرة فيها، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ ويجازى لا ينقص من ثوابه ولا يزاد في عقابه، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾

إشارات:

- يبدأ الإنسان بالتحسّر على ما فاته من نعم الدنيا ومقدراتها التي كان يمكن أن يستفيد منها في آخرته، من اللحظات الأولى لرحلة الموت وما بعده. وعن علي عليه السلام: «يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره»[1]. وفي القرآن آيات عدّة تشير إلى هذه الحالة التي يمر بها الإنسان بعد الموت ومنها قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[2]. ويواجه الإنسان بأن يقال له: خسرت الطيبات وأفنيتها ولم تدخر منها شيئاً.
- يوم القيامة يعرض الكافرون على النار في بعض الأحيان قبل دخولهم إليها، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾؛ وفي حالات أخرى تعرض النار عليهم، ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ﴾[3]؛ وفي حالات أخرى يُقذف المجرمون فيها؛ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾[4].

التعاليم:

١ ـ يتعرّض المجرمون يوم القيامة للعذاب النفسي والروحي والجسدي، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ﴾، فهم ينالون نصيبهم من التحقير مع حظهم من عذاب النار.

٢ ـ الاستفادة من الطيبات في الحياة الدنيا حلال مشروع للإنسان: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ

---

(١) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.
(٢) سورة الحاقة: الآيتان ٢٨ و٢٩.
(٣) سورة الكهف: الآية ١٠٠.
(٤) سورة الحاقة: الآيتان ٣٠ و٣١.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾[1]. وهذا بخلاف صرفها واستغلالها في غير محلها، ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾.

٣ ـ عقوبة التكبّر في الحياة الدنيا ذل وهوان في الآخرة، ﴿تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

٤ ـ الاستكبار من مقدمات الفسق وممهدات سبيله، ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ... تَفۡسُقُونَ﴾.

٥ ـ التكبّر صفة نفسية تنعكس فسقاً في السلوك والتصرّف الخارجي، ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ... تَفۡسُقُونَ﴾.

﴿۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٢١﴾

إشارات:

- «الأحقاف» جمع حقف؛ وحقف الشيء حقوفاً من باب قعد: اعوجّ فهو حاقف، ويقال للرمل المعوجّ حِقْف، والجمع أحقاف مثل حمل وأحمال، والأحقاف رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها، وهي أماكن رمليّة لا تطأها قدم حتّى تغور في الأرض لنعومة الرمل، والتحقيق أنّ الأحقاف أراضٍ في جنوبيّ مملكة الحجاز، بين اليمن وعمان وعدن[2].
- وصف القرآن ثلاثة من الأنبياء بأنهم إخوة أقوامهم، وهم: صالح وشعيب وهود ﷺ، وسبب ذلك إما رابطة الدم بين النبيّ وبين قومه، وإما المحبّة الأخوية التي يكنّها النبي من هؤلاء لقومه وحرصه على هدايتهم.
- في تفسير نور الثقلين: «أمر المعتصم أن يحفر بالبطاينة بئر، فحفروا ثلاثمئة قامة فلم يظهر الماء، فتركه ولم يحفره، فلما ولي المتوكل أمر أن يحفر ذلك البئر أبداً حتى يبلغ الماء، فحفروا حتى وضعوا في كل مئة قامة بكرة حتى انتهوا إلى صخرة فضربوها بالمعول، فانكسرت فخرج منها ريح باردة، فمات

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤.

(٢) حسن مصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٢، ص ٣٠٥، مادة: «حقف».

من كان بقربها. فأخبر المتوكل بذلك، فلم يدر ما ذاك. فقالوا: سل ابن الرضا وهو أبو الحسن بن محمد العسكري عليه السلام، فكتب إليه يسأله عن ذلك، فقال: تلك بلاد الأحقاف وهو قوم عاد الذين أهلكهم الله عز وجل بالريح الصرصر»[1].

التعاليم:

١ ـ المعرفة بأخبار الأقدمين فيها عبر وتؤخذ منها دروس، ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾.

٢ ـ تعامل الأنبياء مع أقوامهم كان تعاملاً أخوياً، ﴿أَخَا عَادٍ﴾.

٣ ـ في رواية التاريخ يحسن حذف التفاصيل غير المهمة، والاهتمام بذكر المفاصل الأساس المليئة بالأسرار والعبر، ﴿وَٱذۡكُرۡ... إِذۡ أَنذَرَ﴾.

٤ ـ من الوسائل التي يستخدمها الأنبياء في الدعوة الإنذار، ﴿إِذۡ أَنذَرَ﴾.

٥ ـ أول من يبدأ الأنبياء بدعوتهم هو قومهم والأقربون إليهم، ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾.

٦ ـ لا تمنع البيئة الجغرافية الصعبة الأنبياء من القيام بأعباء الرسالة التي هم مكلفون بأدائها، ﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾.

٧ ـ إرسال الأنبياء من السنن الإلهيّة الثابتة عبر التاريخ، ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾.

٨ ـ الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله وحده، في رأس أولويات الأنبياء وبرنامج عملهم، ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

٩ ـ من أفضل وسائل الدعوة لفت النظر إلى آثار الأعمال في المستقبل، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

التعاليم:

١ ـ لا ينتظر الأنبياء الناس حتى يسألوا، بل هم يتصدون لذلك ابتداء ويبادرون إلى الدعوة، ﴿أَجِئۡتَنَا﴾.

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص١٧.

٢ ـ قد يلتبس أمر الشرك عند بعض الناس إلى حدّ يرون أنه الحق وأن التوحيد وعبادة الله وحده باطل وإفك، ﴿لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾.

٣ ـ العلم بحقائق عالم التكوين كلّها من صفات الله وحده، ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ علم الأنبياء محدود، وهم يقرّون بذلك ويعترفون به، ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (والإقرار بعدم العلم مطلوب في بعض الأحيان).

٥ ـ واجب الأنبياء ومهمتهم الأساس إبلاغ رسالة الله إلى الناس، ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾.

٦ ـ طلب نزول العذاب واستعجاله بدل التأمّل في دعوة الأنبياء إلى الحقّ، من مؤشرات الجهالة، ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- العارض هو الغيم المتراكم الذي يظهر في السماء وينتشر بحيث يغطي الأفق، والأودية جمع «وادي» وهو محل سكن قوم عاد.
- «تدمّر» أي تهدم وتبيد كل شيء.
- تشير الآيتان إلى أن قوم عاد الذين كانوا يعانون القحط وقلّة المطر، استبشروا خيراً عندما رأوا الغيم مقبلاً عليهم، فحسبوا أنه يحمل إليهم المطر، ولكن فرحتهم لم تطل، بل علموا بعد قليل من الانتظار أن هذا الغيم يحمل إليهم العذاب الذي كانوا يستعجلون.

التعاليم:

١ ـ عذاب الله لا ينزل إلا بعد تمام الحجة، ﴿وَأُبَلِّغُكُم... رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢ ـ لا تحمل الغيوم مطر الرحمة دائماً، بل تكون في بعض الحالات مؤشراً يحمل العذاب والأعاصير، فهؤلاء قوم هود استبشروا بالغيوم المتجهة إلى أرضهم، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾؛ إلّا أن هوداً عليه السلام الذي كان يعلم سر هذه الغيوم شرح لهم حقيقة الأمر وقال: ﴿بَلْ هُوَ... رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ﴾.

٣ ـ الطبيعة مسخرة لله تعالى، فهي معبر لطفه وكرمه، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[1]، وهي في الوقت عينه وسيلة من وسائل غضبه ونزول عذابه على من يستحق من الناس، ﴿...رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ﴾.

٤ ـ العذاب الأليم ليس خاصاً بالآخرة بل الدنيا أيضاً، فهي قد تكون ظرفاً لمثل هذا العذاب، ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ﴾.

٥ ـ عندما يحلّ عذاب الله لا يحول شيء دونه، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٦ ـ لا تسير الرياح والغيوم من دون حساب دقيق، بل هي تسير بأمر الله وإرادته، ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

٧ ـ الآثار التي تبقى بعد الأمم الماضية تشتمل على العبرة والدروس التي ينبغي للآتين الاستفادة منها، ﴿لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

٨ ـ قلع المجرمين واستئصالهم من السنن الإلٰهيّة، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾.

٩ ـ يهلك الله الناس بسلوكهم وطريقة تصرفهم، ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ قد يبدو للإنسان أنّه يحصل على ما يحصل عليه بجهده وتعبه، ولكن حقيقة

(١) سورة الحجر: الآية ٢٢.

الأمر وواقع الحال أنّ ذلك كله بتمكين ومساعدة من الله، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ﴾.

٢ ـ عندما تتلاشى القوى العظمى، على غيرها أن يعيد النظر في حساباته ويجدد التأمّل في نفسه، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ... وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ﴾.

٣ ـ ليست المقدرات والإمكانات وسيلة للرشد والتطوّر بالضرورة، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ... فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾.

٤ ـ الهداية والرشاد من الصفات النفسية التي تحتاج إلى الإرادة، فما لم تتوفر هذه الإرادة والرغبة في الصلاح فلن يؤثر شيء في هداية الإنسان وصلاحه، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ... إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾.

٥ ـ الثروة والمقدرات المادّية في يد أهل الصلاح تتحول إلى وسيلة مساعدة على الصلاح، وأما في أيدي الفاسدين فتتحول إلى مصدر عذاب ونقمة عليهم، ﴿مَكَّنَّهُمْ... فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ... إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾.

٦ ـ إنكار الكفار واستهزاؤهم بآيات الله من أسباب فنائهم ونزول العذاب عليهم، ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

٧ ـ بين الجزاء الإلٰهيّ والعمل تناسب وانسجام، وبعبارة أخرى الجزاء من جنس العمل، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

التعاليم:

١ ـ الهلاك ونزول العذاب الإلٰهيّ لا يكون إلا بعد إتمام الحجة، ﴿أَهْلَكْنَا... وَصَرَّفْنَا﴾.

٢ ـ على الإنسان أن يتأمّل في تاريخ الأمم القريبة منه، لأنها الأكثر تأثيراً في الاتعاظ وأخذ العبرة، ﴿مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾.

٣ ـ من الضروري تنويع طرائق التبليغ، ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾.

٤ ـ الرشد والصلاح يكمنان في عودة الإنسان إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يجب على الإنسان أن يستلهم العبَر من عجز ما يُعبد من دون الله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾.

٢ ـ الرغبة في القرب من الله أمر فطري عند الإنسان، وحتى عابدو الأوثان يعبدونها لتقرّبهم من الله، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾.

٣ ـ على الإنسان أن يثق ويعتمد على من يمكن أن يقف إلى جانبه في أوقات الشدة والحاجة، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾.

٤ ـ الأمل في نيل العون من الأوثان خيال ووهم لا أساس له، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

- الاستماع إلى القرآن يفتح آفاق الإنسان الواعي، وبحسب القرآن، الوعي ليس من خصوصيات الإنسان وحده، بل هو صفة موجودة عند الجنّ أيضاً.
- ربّما تكون هذه الآية تعريضاً بالكفّار الذين يدّعون الوعي والفهم، وفي هذه الآية يقول الله لهم إنّ بعض الجنّ أكثر وعياً منكم، فهم عند استماعهم إلى بعض القرآن تحولوا إلى مبلّغين ودعاة.

التعاليم:

١ ـ تتحرك المخلوقات بحسب الإرادة الإلٰهيّة، ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾.

٢ ـ الجنّ كالإنسان يتّصف بالوعي والقدرة على الاختيار، وله من العقل ما يجعله أهلاً لتحمل التكليف الإلهيّ، بل وإرشاد بني جنسه، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... قَالُوا أَنصِتُوا﴾.

٣ ـ يعلم الجنّ أن الإنصات من آداب الاستماع إلى القرآن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... قَالُوا أَنصِتُوا﴾.

٤ ـ على المرء أن يتحرك للعمل بعد معرفته بالحقّ، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾.

٥ ـ على المرء أن يبدأ بالدعوة من أهله والأقربين منه، ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾.

٦ ـ عندما يكون المدعوّ مستعداً تتحقق هدايته بأقل جهد ممكن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ... وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

٧ ـ الجنّ كالإنسان من ناحية توفّره على حياة اجتماعية، ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ... وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ نبيّ البشر هو نفسه نبيّ الجنّ، وبعض الجنّ مكلّفون بتبليغ الدين ونقل تعاليم الأنبياء إلى بني جنسهم، ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾.

٢ ـ معرفة الجنّ بتاريخ الأنبياء السابقين وبالكتب السماوية النازلة عليهم، ﴿كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾.

٣ ـ معرفة الجنّ بمضمون الكتب السماوية ومحتواها، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٤ ـ الانسجام بين الكتب السماوية وتصديق بعضها بعضها الآخر، من الأدلة على صدقها وصحة نسبتها إلى الله، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٥ ـ آمن بعض الجنّ بمجرد سماعهم بعض الآيات، بينما بعض البشر لم تؤثّر

فيهم دعوة النبيّ على الرغم من عشرته لهم وعيشه بين ظهرانيهم سنين طويلة، ومن هؤلاء أبو لهب وأبو جهل، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾.

٦ ـ طريق الحقّ هو الطريق المستقيم، وهو الطريق المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- الإيمان، والاستغفار، والتقوى، وقرض الحسنة، من سبل نيل المغفرة الإلٰهيّة في القرآن الكريم.
- تشير هذه الآية إلى أصول العقيدة الإسلاميّة كلها ألا وهي التوحيد: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾، والنبوة: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾، والمعاد: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ تحسن الاستفادة من العواطف والعلاقات الاجتماعيّة في الدعوة إلى الله: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾؛ حيث تكرر الخطاب بهذه الطريقة مرتين في سياق الدعوة.

٢ ـ الأنبياء يدعون الناس إلى الله، ولا يدعون إلى أنفسهم، ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ يحسن بيان نتائج الأعمال وآثارها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿أَجِيبُوا۟... يَغْفِرْ لَكُم﴾.

٤ ـ يجبر الإيمان بعض الذنوب كالكفر والشرك ويلغيها، بينما بعض الذنوب لا تغفر بالإيمان، كالاعتداء على حقوق الناس، ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، (فكلمة «من» في اللغة العربيّة للتبعيض، والمعنى يغفر لكم بعض ذنوبكم).

٥ ـ الجن مكلّفون كالبشر، وفي حالة العصيان يحاسبون ويعاقبون ويجري عليهم غضب الله وسخطه، ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ... عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ يتمتع الجنّ بالقدرة على الاختيار، ﴿أَجِيبُوا۟... وَمَن لَّا يُجِبْ﴾.

٢ ـ يجب أن يقترن كلٌّ من الترغيب والترهيب بالآخر، ﴿يَغْفِرْ لَكُم... فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾.

٣ ـ يوصل الكفر الإنسانَ إلى مأزق ومضيق، لا يكون قادراً على الخلاص منه، ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾، ولا يمكن لأحد من المخلوقات أن يغني عنه أو ينجيه منه، ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾.

٤ ـ كل سبيل غير سبيل الله ضلال وانحراف، ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ... فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

- «لم يعي»، من العي وهو العجز وعدم القدرة.
- إذا كانت هذه الآية تتمة لكلام الجنّ، فإنها تدلّ على أن البحث حول المعاد كان مطروحاً بينهم.

التعاليم:

١ ـ التأمّل في قدرة الله يكشف عن إمكان المعاد، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟... عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢ ـ قدرة الله لا حدود لها، ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾.

٣ ـ هل يرى منكرو المعاد أن خلق السماوات والأرض أهون من إعادة خلق

الإنسان وإحيائه بعد موته، حتى ينكروا المعاد على أساس هذا التقييم، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ... بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٣٤﴾

إشارات:

□ تشير الآية ٢٠ إلى عرض الكافرين على النار، مع توبيخهم وتأنيبهم على إذهاب طيباتهم في الحياة الدنيا، بينما تشير هذه الآية إلى سؤالهم عن حقانية المعاد والحساب بعد الموت، ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

التعاليم:

١ ـ يجمع الله في الآخرة، على من يستحق العذاب، العذاب الجسدي والروحي، ﴿يُعۡرَضُ... أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾.

٢ ـ يعترف الكافرون يوم القيامة بربوبيّة الله سبحانه، وبحقانية يوم القيامة، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾.

٣ ـ لا ينفع الاعتراف والإقرار يوم القيامة، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ... فَذُوقُواْ﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾

إشارات:

□ العزم هو الإرادة والتصميم على فعل شيء، ومن الجذر نفسه تشتق كلمة عزيمة بمعنى الفريضة في الشريعة، والمقصود من «أولي العزم» الأنبياء أصحاب الشرائع، وهم: ١ ـ نوح، ٢ ـ إبراهيم، ٣ ـ موسى، ٤ ـ عيسى، ٥ ـ النبي محمد (عليهم جميعاً الصلاة والسلام). وقد ورد ذكرهم مجتمعين في قوله

تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[1].

□ أشار القرآن، في آيات عدة، إلى صبر الأنبياء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا...﴾[2] وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ العناد والأذى الموجَّه من الكفار إلى النبيّ ﷺ بلغ حدا دعا الله إلى تهدئة النبيّ ودعوته إلى الصبر، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ...﴾.

٢ ـ الالتفات إلى العقوبة التي سوف تلحق بالكفار يوم القيامة من الأمور المحرضة على الصبر والثبات، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟... فَٱصْبِرْ﴾.

٣ ـ يحتاج الإنسان إلى نموذج وقدوة عندما يدعى إلى خصال الخير، ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ﴾.

٤ ـ يتفاوت الأنبياء في درجاتهم ومنازلهم عند الله تعالى، ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وليسوا جمعياً في الصبر على درجة واحدة، ﴿كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٥ ـ النبي محمد ﷺ من أولي العزم، ولو لم يكن منهم لما دعاه الله إلى الصبر كما صبروا ولا كلفه بما كلفهم، ﴿كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

٦ ـ بلغ الكفار من العناد حداً احتاج معه النبي صاحب «الخلق العظيم» والذي هو رحمة للعالمين، إلى أن يدعوه الله إلى عدم استعجال نزول العذاب عليهم، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

٧ ـ يحتاج القائد إلى سعة الصدر والصبر، ﴿فَٱصْبِرْ... وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٥.

٨ ـ من السنن الإلٰهيّة في التعامل مع العباد الإمهال والصبر عليهم، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

٩ ـ العمر في الدنيا لا يساوي إلا ساعة من نهار عندما يقاس بالآخرة، ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾.

١٠ ـ القرآن من أفضل وسائل التبليغ بل هو عين البلاغ وأرقى درجاته، ﴿بَلَـٰغٌ﴾.

١١ ـ الفسق من أسباب الهلاك لكل من الفرد والمجتمع، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

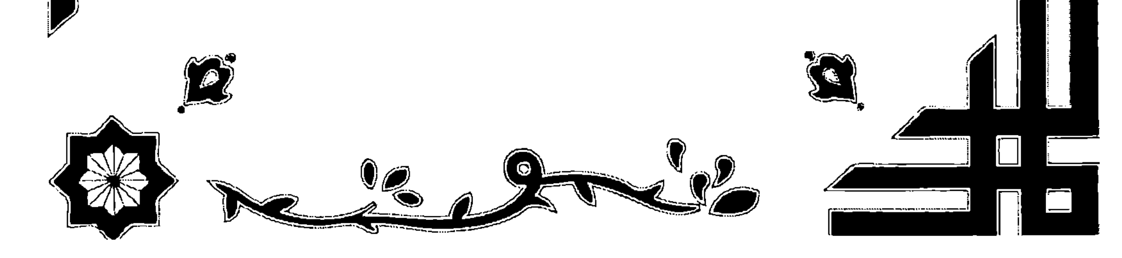
والحمد لله ربّ العالمين



سُورَةُ مُحَمَّدٍ

السورة: ٤٧ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ٣٨



ملامح سورة محمد

تتألف هذه السورة من ثمانٍ وثلاثين آية.

أخذت السورة اسمها من اسم النبيّ محمد ﷺ لوروده فيها.

الجهاد وقتال الأعداء من أهم موضوعات هذه السورة؛ ولذلك تسمّى سورة القتال.

من الموضوعات المهمّة التي تعرضها هذه السورة المقارنة بين المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة، وتشير كذلك إلى المنافقين وسلوكهم وكيفية تصرفهم في المدينة. كما تتحدث عن موضوعات أخرى كالحديث عن الأسر وتحرير أسرى الحرب، وتدعو إلى الإنفاق وتنهى عن المداهنة غير المبرّرة مع الأعداء.

ورد حديث حول هذه السورة مفاده: «**من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا، فليقرأ سورة محمد ﷺ؛ فإنّه يراها آية فينا وآية فيهم**»[1].

وفي الرواية عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلي المغرب بهذه السورة[2].



(١) تفسير مجمع البيان.

(٢) تفسير المراغي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ①﴾

إشارات:

❑ في القرآن إحدى عشرة سورة تبدأ بالتهديد والوعيد لأعداء الإسلام، غير سورة الأحزاب، ففيها أمر موجّه إلى النبيّ ﷺ، وهذه السور هي:

١ ـ سورة الأنعام، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

٢ ـ سورة التوبة، ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾.

٣ ـ سورة الأحزاب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

٤ ـ سورة محمد، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ سورة الممتحنة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

٦ ـ سورة المنافقون، ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾.

٧ ـ سورة المعارج، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

٨ ـ سورة البيّنة، ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

٩ ـ سورة الفيل، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾.

١٠ـ سورة الكافرون، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

١١ـ سورة المسد، ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

❑ يمكن أن يفهم من قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معنيان:

أ ـ الصدّ بمعنى الإعراض، أي أنهم هم أنفسهم أعرضوا عن سبيل الله.

ب ـ الصدّ بمعنى المنع، وعلى هذا المعنى يكون المراد أنهم يمنعون الناس من سلوك سبيل الله[1].

---

(١) تفسير مخزن العرفان.

☐ وكذلك يمكن تفسير قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بطريقتين:

أ ـ أن يكون المراد منه أن الله سبحانه يبطل أعمالهم الحسنة، كالصدقات والإنفاق وما شابه؛ بسبب كفرهم فتكون هباءً لا قيمة لها، فيأتون يوم القيامة وليس شيء منها في ديوان أعمالهم.

ب ـ أن يكون المراد منها أن الله سبحانه وتعالى يبطل كيدهم للإسلام فلا تؤثر مؤامراتهم ومكائدهم في إعاقة انتشار الإسلام وهزيمة المسلمين.

☐ أعمال الكفار هباء لا قيمة لها، وهذا ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من آية من آياته:

ـ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾[1].

ـ ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[2].

ـ ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ في علم الدعوة يبدو أن البدء من دون مقدمات ولا تمهيد يترك أثراً في بعض الحالات، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٢ ـ الانحرافات ليست منفصلة بعضها عن بعضها الآخر، فكل انحراف يتبعه عادة انحراف ملازم له، فبعض الناس لا يكتفون بعد الإيمان، بل يسعون لصدّ الناس عن سبيل الله، ﴿كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ﴾.

٣ ـ جهود الكفار لن تصل إلى غاياتها، وسوف يعلمون هم وغيرهم من الناس عاجلاً أم آجلاً بأن جهودهم كانت عبثاً لا طائل منها، ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٤ ـ يصرف بعض الناس الكثير من الجهد لقطع سبيل الله ومنع الناس من الإيمان، ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٨.
(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٥.
(٣) سورة النور: الآية ٣٩.

٥ ـ عقوبات الكافرين متنوّعة، منها إحباط أعمالهم وتركها من دون جدوى، ﴿كَفَرُوا... أَضَلَّ﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

- كلمة «بال» تعني إما العمل والحالات والشؤون المرتبطة بالإنسان، وإما الروح والقلب.
- يدلّ تكرار كلمة «آمنوا» على ضرورة الجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول، وكذلك على أنّ العمل الصالح لا بد من أن يقترن بالرؤية الصائبة في مجال المعتقد.
- ليس المراد من ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جميع الأعمال الصالحة، لأن الإنسان لا طاقة له على القيام بجميع الأعمال الصالحة، وكذلك لا يراد منه أن جميع أعمال المؤمنين صالحة؛ لأنه سبحانه يعقّب بعد ذلك بقوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[1]، بل المراد القيام بالأعمال الصالحة في كل مجال قدر الوسع وبحسب الطاقة.
- المراد من قوله تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ معنى عامّ يشمل القرآن والسنّة؛ لأننا نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[2].
- كما أنزل الله تعالى أحكام الصلاة والصوم على رسوله، أنزل عليه أيضاً حكم الخليفة من بعده في حجّة الوداع، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[3]. وعلى ضوء ذلك فالبشارة في هذه الآية لا تشمل إلا من آمن بكل ما أُنزل على رسول الله، في الميادين والساحات قاطبة.

---

(١) تفسير أطيب البيان.

(٢) سورة التحريم: الآية ٣.

(٣) سورة المائدة: الآية ٦٧.

التعاليم:

١ ـ الإيمان من المفاهيم ذات الدرجات والمراحل، وهو يقبل التكامل والزيادة والنقص، ﴿ءَامَنُواْ... وَءَامَنُواْ﴾.

٢ ـ الإيمان والعمل صنوان لا ينفك أحدهما عن الآخر، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ﴾.

٣ ـ الإيمان يصبح شيئاً ذا قيمة عندما يؤدّي إلى العمل الصالح، ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾.

٤ ـ اتّباع تعاليم الأنبياء مطابق لمعيار الحق، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

٥ ـ أحكام الشريعة تهدف أولاً وأخيراً إلى تنمية الإنسان على الصعيد المعنوي والروحي، ﴿نُزِّلَ... مِن رَّبِّهِمْ﴾، وبعبارة أخرى إنّ من مقتضيات الربوبيّة الإلٰهيّة إنزال برنامج عمل يوصل الإنسان إلى رشده وينمي ملكاته.

٦ ـ معيار الحق والحقيقة، مطابق للوحي والأوامر الإلٰهيّة، ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٧ ـ لا يتكلم النبي ﷺ وفق هواه ورغباته، بل ينقل ما يوحى إليه من ربه، ﴿بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ... مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٨ ـ لا يكفي لنيل اللطف الإلٰهيّ الإيمان وحده، بل يحتاج الإنسان، مضافاً إلى الإيمان بالله والرسول، الاتّباع والطاعة، ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ... كَفَّرَ عَنْهُمْ... وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

٩ ـ الإيمان والعمل الصالح يصلحان ما مضى ويبشران بمستقبل أفضل، ﴿كَفَّرَ... وَأَصْلَحَ﴾.

١٠ ـ الكفر والإيمان متضادان في تأثيرهما في العمل، فالكفر يجعله هباء والإيمان يصلحه، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ... أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ... وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

١١ ـ المعاصي والسيّئات لا تحول دون صلاح الإنسان، ومن يردِ الصلاح ويعزم عليه، يتولَّ الله تكفير سيئاته أولاً، ثم يصلح حاله، ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

١٢ ـ يتعهّد الله المؤمنين بالرعاية المعنوية والدعم الروحي، فهو يهدد الكفار أوّلاً ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ثم يبشر المؤمنين بالصلاح، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

- من الأساليب التربوية التي اعتمدها القرآن في هذه الآيات أسلوب المقارنة بين الكفار والمؤمنين.
- في هذه الآية يفصل الله بين الإيمان والكفر على أساس الحقّ والباطل، وهذا هو منطق القرآن في محاجّة المعارضين.

التعاليم:

١ ـ عاقبة الإنسان ومصيره حسنَيْن كانا أو سيئَين مرتبطين بأفكاره وبما يحمل من معتقدات، ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ... وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ... ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾.

٢ ـ الميل إلى الباطل من العوامل المساعدة على الكفر، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾.

٣ ـ كل ما قابل الحقّ وعارضه باطل لا أساس له، وبين الحق والباطل لا وجود لطريق ثالث، ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ... اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾.

٤ ـ الباطل منسوب إلى الإنسان وبعيد عن ساحة الله سبحانه، والحق وحده من الله وهو مبثوث في كل ما خلق، ﴿الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٥ ـ القرآن من أبرز مصاديق الحقّ وأوضحها، ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾. وفي الآية السابقة نقرأ قوله تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

٦ ـ ضرب الأمثلة التوضيحية من الأساليب التربوية القرآنية البارزة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ...﴾.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

- «أثخنتموهم»: من «ثخن»؛ والإثخان الغلبة الكاملة والسيطرة الشاملة على العدوّ. «وثاق»: كل شيء يستعمل للتقييد، كالحبل وغيره.
- الجهاد في الإسلام يهدف إلى مجموعة من الأمور، هي:

أ - الدفاع عن النفس أو عن الآخرين من المظلومين، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾[1]، ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[2].

ب - رفع الفساد ودفعه، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[3].

ج - حماية مراكز التوحيد وأماكنه، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾[4].

د - الدفاع عن أحكام الله وحدود شريعته، ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾[5].

- تتحدث هذه الآية عن حالة القتال والحضور في ميدان الحرب؛ أي عندما تكونون في ساحة المواجهة، ويكون المراد استئصال الإسلام باستئصالكم، لا تهنوا ولا تضعفوا، وقاتلوا الكفار واقتلوهم، وبعد أن تغلبوهم وتسيطروا على أعدائكم، وتأسروا من تأسرونه، وتضع الحرب أوزارها، اعملوا بما يراه القائد من مصلحة وحرروا من يأمر بتحريره بفدية أو بغير فدية.

ومن هنا من الخطأ تفسير الآية بالأمر بقتل الكافر أينما وجد، ويستند هذا

---

(١) سورة الحجّ: الآية ٣٩.
(٢) سورة التوبة: الآية ٣٦.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٣.
(٤) سورة الحجّ: الآية ٤٠.
(٥) سورة التوبة: الآية ٢٩.

الفهم الخاطئ إلى الغفلة عن القرينة الدالة على غير هذا المعنى وهي كلمة «حرب».

□ سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[1].

التعاليم:

١ ـ لا تجيز الشريعة قتل الكافر؛ بسبب كفره، بل يجوز قتل من هو في ساحة المواجهة والحرب، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٢ ـ على المجاهد المسلم أن يكون مستعداً للقتال وأن يتحلّى بأعلى درجات الشجاعة، ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

٣ ـ يجب أن تكون الأهداف واضحة وحساسة تؤثر في الأعداء وتصيب منهم مقتلاً، ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾.

٤ ـ لا ينبغي التفكير في الأسر والغنائم قبل أن يحكم المسلمون سيطرتهم على الأعداء، ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾.

٥ ـ في الحرب والمواجهة لا بد من الحسم وإحكام الضربة كي لا يسيء العدو الاستفادة من التساهل والإهمال فيفر الأسرى، ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾.

٦ ـ لا بد أن تعطى الصلاحيات الكافية للقائد الميداني؛ ليتصرّف بما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

٧ ـ ليس الهدف من الحرب السيطرة والسلطة، بل الهدف الأساس هو رفع الظلم ودفعه، ومن هنا فإن العفو هو أحد التوصيات الإسلاميّة بعد الاطمئنان من عجز العدو عن العودة إلى ظلمه، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

٨ ـ الجهاد بحسب الإسلام يحتاج إلى الشدّة، ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، كما يحتاج إلى الرحمة والعطف، ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

---

(١) تفسير الفرقان.

٩ ـ تحرير الأسرى من دون فدية ومقابل مقدّم على تحريرهم ببدل مالي وفدية، ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

١٠ ـ الحرب وساحة القتال من الساحات الأساس لاختبار الله للناس، ﴿لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

١١ ـ الجهاد في الإسلام يهدف إلى حفظ دين الله، لا إلى فتح البلاد، والاستعمار، والتهديد، ومنافسة الحكام، أو الانتقام، أو غير ذلك من الأهداف البعيدة عن الأخلاق الإسلاميّة، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٢ ـ على الرغم من أنّ بعض المجاهدين يسقطون شهداء في سبيل الله ولا يرون نتيجة أعمالهم في الدنيا، فإنَّ الله لا يضيع أعمالهم ولا يحرمهم من نيل ثوابها، ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

١٣ ـ الحرب ساحة اختبار إلهيّ، والكفار هم وسيلة الاختبار في مواجهة المجاهدين، والشهداء يجتازون الاختبار بنجاح، ﴿لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ... فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

التعاليم:

١ ـ الهداية الإلٰهيّة دائمة ومستمرة، وينالها الإنسان حتى بعد موته وشهادته، ﴿قُتِلُواْ... سَيَهْدِيهِمْ﴾.

٢ ـ على الإنسان أن لا يشغل نفسه بأموره الخاصة وأمور عائلته، عند ذهابه إلى ساحة القتال، فالله هو الذي يتولّى هذه الأمور عنه، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

٣ ـ بالشهادة في سبيل الله تصلح أمور الإنسان كلّها، ويغضّ النظر عن كل نقص أو خلل كان في حياته، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

٤ ـ يتولى الله سبحانه إدارة أمور الشهيد في سبيل الله، ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

٥ ـ الترغيب بذكر الآثار الحسنة التي تترتب على الأمور الصعبة، من أهم

الأساليب التي تشجّع الإنسان على الإقدام واستسهال المصاعب، ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ... سَيَهْدِيهِمْ... وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾.

٦ ـ المعرفة المسبقة بالآثار والثواب الذي يناله الإنسان على العمل، من الأمور التي تثير الرغبة في الإقدام على ذلك العمل، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾

إشارات:

❑ الإنسان كائن محدود، وما يصله من العون والنصر من الله محدود أيضاً؛ ولكن ذلك لا يعني أبداً أن الله سبحانه محدود أو عونه ونصره كذلك، بل عونه ونصره مستندان إلى قدرته غير المتناهية.

❑ لقد علّق الله مجموعة من الأمور على مجموعة أخرى، كما يأتي:

ـ علّق ذكره للإنسان على ذكر الإنسان إياه، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[(١)].

ـ علّق نصره الإنسانَ على نصر الإنسان إياه، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[(٢)].

ـ وعلّق البركة وزيادة الرزق على الشكر، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[(٣)].

ـ وعلّق وفاءه بعهد الإنسان على وفاء الإنسان بعهده، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[(٤)].

❑ عن الإمام علي عليه السلام: «... فلم يستنصركم من ذلّ، ولم يستقرضكم من قلّ، **استنصركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد؛ أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً...»**[(٥)].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) سورة محمد: الآية ٧.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٤٠.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.

التعاليم:

١ ـ من لوازم الإيمان ومكمّلاته العمل على نشر الدين ونصره والدفاع عنه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ الجهاد في مواجهة الكفار المحاربين من مصاديق نصر دين الله، ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ... إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ الثواب والأثر الذي يترتب على العمل منسجم معه ومشابه له، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾.

٤ ـ كل من يتولّى الدفاع عن الإسلام، بالعمل واللسان أو الفكر، يتولى الله الدفاع عنه وحمايته، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾.

٥ ـ تلقي الألطاف الإلٰهيّة يتوقّف على جهد الإنسان، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، وبالتالي فإنّ انتظار المدد والعون الإلٰهيّ من دون عمل لا معنى له.

٦ ـ تثبيت الأقدام من أهم الألطاف الإلٰهيّة وأبرزها، ﴿يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، (ويستفاد هذا المعنى من الإشارة إلى تثبيت الأقدام، بعد الحديث عن النصرة الإلٰهيّة مباشرة)

٧ ـ الثواب الإلٰهيّ دائماً هو أكثر من أعمال الإنسان، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- التعس: العثرة والميل إلى السقوط
- المقارنة من أفضل طرق التربية. فقد أشار الله سبحانه في الآيات السابقة إلى المؤمنين الشهداء وقال: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وعندما وصل الحديث إلى الكفار وصفهم بقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وفي هذه المقارنة بشارة للمؤمنين المجاهدين.

وبالطريقة عينها أشارت الآيات إلى تثبيت أقدام المؤمنين، وفي المقابل أشارت إلى الكفار ودعت عليهم بالتعس والسقوط.

التعاليم:

١ ـ يجوز لعن الكفار المعاندين، ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

٢ ـ الكفر مصدر وأساس للهلاك والفناء، ﴿كَفَرُوا... أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٣ ـ كره أوامر الله ونواهيه مؤشر من مؤشرات الكفر أو درجة من درجاته، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا... كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ يوجد بين كفر الإنسان وكرهه لما أنزل الله وبين العذاب الإلٰهيّ ترابط وتناسب، ﴿كَفَرُوا... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا﴾.

٥ ـ كره القرآن والإعراض عنه يترتب عليه إحباط العمل وفقدان أعمال الخير قيمتها، ﴿كَرِهُوا... فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٦ ـ الرغبة والإقبال على العمل يعطيه أو يزيد في قيمته، وكذلك الإقدام على العمل مع الكره له يفقده قيمته حتى لو كان بحد نفسه ذا قيمة، ﴿كَرِهُوا... فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

- التدمير: إدخال الهلاك على الشيء، و«التدمير على»، يزيد المعنى قوة وشدة.
- يربط القرآن بين الهلاك والعذاب النازل على البشر وبين طبائعهم وأخلاقهم وأعمالهم:

ـ فمن الناس من يهلكه الله لطغيانه: ﴿فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[1].

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٥.

- ومنهم من يهلكه لعناده وكفره: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا... إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾(١).
- ومنهم من يهلكه لممارسته الحيل والمكر: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).
- ومن الناس من يدمرهم لذنوبهم: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾(٣).
- وبعض الناس يهلكهم الله ويدمرهم لظلمهم: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾(٤).

التعاليم:

١ ـ الغافل الذي لا يستفيد ولا يعتبر بما مرّ على غيره من الناس، يستحق العتاب واللوم، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾.

٢ ـ السير في الأرض والسياحة من الأمور المدعوّ إليها عندما تقترن بالاعتبار وأخذ الدروس من مصير الأمم السابقة، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا... فَيَنْظُرُوا﴾.

٣ ـ تأثير التعرف إلى التاريخ ودراسة سير الأمم السابقة في الإيمان وتكوين الرؤية الكونية، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا... فَيَنْظُرُوا﴾.

٤ ـ لا ينبغي النظر إلى آثار العمران والرفاه الذي كان عند الأمم السابقة فقط، وإنما يجب النظر أيضاً إلى العاقبة والمصير الذي أصابها، ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾.

٥ ـ أعمال الله ليست عبثاً وليست عشوائية وإنما هي وفق قوانين محددة وحسابات دقيقة، ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

٦ ـ إرادة الله هي التي تغلب على حركة التاريخ وإرادة الظالمين، ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾.

٧ ـ العذاب والعقاب الإلٰهيّان لا ينحصران بنماذج محددة من دون غيرها، بل يأخذان أشكالاً عدة، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

---

(١) سورة الأحقاف: الآيتان ٢٥ و٢٦.
(٢) سورة النمل: الآية ٥١.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٤.
(٤) سورة الكهف: الآية ٥٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١﴾

إشارات:

□ كلمة «مولى» في هذه الآية تعني الصديق والنصير، وليس الولاية بمعنى السلطة، لأن سلطة الله عامة شاملة للكافر والمؤمن.

□ قد يبدو المؤمنون في هذه الدنيا من دون ولي ولا نصير، ولكن الله هو مولاهم، ﴿ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، كما يقول في آية أخرى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1]. وفي المقابل قد يبدو الكافرون ذوي أولياء وناصرين، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[2]، ولكن الأمور تظهر على حقيقتها يوم القيامة ويتبيّن ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

التعاليم:

١ ـ الإيمان سبب من أسباب كسب الحماية الإلٰهيّة، والكفر من أسباب خسارة هذه الحماية وفقدها، ﴿ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

٢ ـ يوم القيامة لا يستفيد الكافرون من أي ناصر أو ولي، ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ۝١٢﴾

إشارات:

□ يشبّه الله في هذه الآية الكفار بالأنعام والحيوانات في الأكل، وجهات التشابه بين الطرفين ربما تكون فيما يأتي من وجوه:

أ ـ أهم الأمور عند الحيوانات الأكل والطعام، وعلى حد تعبير أمير المؤمنين

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦. (٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

علي ﷺ: «**همّها علفها**»[1]، والكافرون لا همّ لهم إلا التمتع بالأكل وغيره: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[2].

ب ـ الحيوانات مشغولة وغافلة، والكفار غافلون عن يوم القيامة وعن مسؤولياتهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[3].

ج ـ لا تميّز الحيوانات بين حلال الطعام وحرامه، وبعض الناس كذلك لا يهمهم التمييز بين حلال الطعام وحرامه، فيأكلون كل ما تناله أيديهم من دون التفات إلى الحلال والحرام، ومن دون توقف عند حدود حقوق الآخرين: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾[4].

□ عن أمير المؤمنين علي ﷺ: «**من كانت همته ما يدخل في بطنه، كانت قيمته ما يخرج منها**»[5].

التعاليم:

١ ـ دخول المؤمنين إلى الجنّة تجلٍّ من تجلّيات الولاية الإلٰهيّة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا... إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ﴾.

٢ ـ مقام أهل الإيمان والعمل الصالح على درجة من الرفعة تجعل الله يتولى إكرامهم بإدخالهم الجنّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ﴾.

٣ ـ المعيار والأساس في الحكم على الناس هو الغاية والنهاية، ولا قيمة لمظاهر الدنيا وما فيها من جمال، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي... وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

٤ ـ لا مانع في الدعوة إلى الحقّ من الاستفادة من ميول الناس ورغباتهم، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي...﴾.

٥ ـ لا مانع من التملّك والتمتّع بنعم الله في حدود ما أحلّه سبحانه، وما ينتقده القرآن ويعترض عليه هو تجاوز الحدود المعقولة والقوانين المشروعة، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الكتب، الكتاب ٤٥.
(٢) سورة النجم: الآية ٢٩.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
(٤) سورة الفجر: الآية ١٩.
(٥) غرر الحكم.

٦ ـ الشغف بالبطن وحصر الاهتمام بها من أسوأ الرذائل النفسية؛ وذلك لأن الجاه والمنصب لا يُعرضان على الإنسان في كل ساعة، وأما البطن فإنها يمكن أن تشغله عن الكمال في كل لحظة وحين، وربما لأجل ذلك جرى الفصل بين التمتع وبين الأكل، ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾.

٧ ـ حياة الكفار في حقيقتها حيوانيّة في الدنيا جهنّمية في الآخرة، ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

٨ ـ في تقييم الأمور والأشياء لا بد من النظر إلى العاقبة، ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- يتعرض الأنبياء خلال أدائهم مهمة الدعوة للكثير من التهم كالاتهام بالشعر والسحر والكهانة والجنون وغيرها، ولا يكتفي الكافرون بذلك بل يضيفون إلى الاتهام التهديد بأمور عدة منها:
  أ ـ القتل: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[1].
  ب ـ التعذيب: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[2].
  ج ـ الإبعاد والنفي: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ﴾[3].
  د ـ السجن: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[4].
- يهدئ الله في هذه الآية من روع النبيّ ﷺ ويشدّ عزيمته، بالمقارنة بين الأمم السابقة وبين أهل مكة، ويعده بأنه يمكن أن يهلك أهل مكة كما أهلك من قبلهم على الرغم من أنهم أشد من هؤلاء قوة وبأساً.
- على الرغم من أن رسول الله خرج من تلقاء نفسه من مكة، فإنَّ الله ينسب الإخراج من مكة إلى أهلها المشركين، وذلك لأنهم ضيقوا عليه وهدده فخرج.

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٠.
(٢) سورة الشعراء: الآية ١١٦.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٨٨.
(٤) سورة الشعراء: الآية ٢٩.

التعاليم:

١ ـ معرفة التاريخ تشدّ عزيمة الإنسان وتزيد من قدرته على التحمل، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾.

٢ ـ الأقوام التي نزل عليها عذاب الله كثيرة ومتعدّدة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ... أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

٣ ـ لا ينبغي أن يخشى المؤمن غير القوة الإلٰهيّة، لأن كل قوة غير قوة الله لا قيمة لها، ﴿أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ... أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

٤ ـ ينال الكافرون حظهم من العذاب في الدنيا أحياناً، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، مضافاً إلى ما ينتظرهم من العذاب في الآخرة، ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

٥ ـ الهلاك والفناء هو الغاية المحتومة لكل القوى الظالمة، ﴿أَشَدُّ قُوَّةً... أَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

٦ ـ كثيراً ما يكون الأذى والتضييق في محل مصدراً للخير والبركة في محل آخر، ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾، فعلى الرغم من أن الله يؤنّب أهل مكة ويحمّلهم مسؤولية إخراج النبيّ منها، فإنَّ الهجرة كانت لها آثارها التي لا شك في أنها كانت في مصلحة مسيرة الدعوة الإسلامية.

٧ ـ يجب أن يتوقَّع المصلحون والدعاة إلى الله كل احتمالات الأذى والتضييق، وأن يكونوا مستعدين لتحملهما في سبيل الرسالة التي يحملون، ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾.

٨ ـ لا قوة يمكن أن تنصر من يحل عليه غضب الله، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

□ البيّنة من البون وهو المسافة الفاصلة بين شيئين لا اتصال بينهما، ولما كان الدليل والبرهان يفصلان بين الحق والباطل سُمِّيَ البرهان والدليل بينة[1].

□ يتسلّح الأنبياء بالدليل والبرهان، ولكن الناس لثقتها بما هي عليه من السلوك

---

(١) التفسير الأمثل.

والمعتقد، أو موافقة منها لشهواتها ورغباتها، تواجه دعوة الأنبياء وتعارضها.

❑ رسالة النبي محمّد ﷺ مبنية على البينات والدلائل الإلٰهيّة، ولا تستند إلى رغباته وأهوائه، ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾[1].

التعاليم:

١ ـ مستند المؤمن ومعتمده الدليل والبرهان، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أما الكفار فإنهم يستندون إلى الأهواء والرغبات، ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

٢ ـ يوجد تقابل وتعارض بين محورية الله ومحورية الذات، فمن لا يتواضع للدليل ويقر به، يكون في الجهة المقابلة؛ أي في ضفة الهوى والهوس، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ... زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

٣ ـ الإنسان يكره القبيح بالفطرة وينفر منه، وإذا أراد لسبب أو آخر فعل أو حبّ أمر قبيح زيّنه أو زُيّن حتى يراه حسناً فيتبعه، ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

٤ ـ من مقتضيات الربوبيّة البينة وكشف الحقيقة، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٥ ـ بعض الأفعال أو الأشياء قبيحة بحد ذاتها لا تتغير عما هي عليه من القبح، مهما زُيّنت وأدخل عليها من التحسينات، ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

٦ ـ يلجأ الإنسان، لتحقيق رغباته وميوله، إلى تزيين الأفعال القبيحة وتحسينها، ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

❑ ما قيل بالإجمال في وصف الجنّة في الآية الثانية عشرة، ورد تفصيله في هذه الآية، ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ... وَأَنْهَٰرٌ... وَأَنْهَٰرٌ...﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٧.

□ في الجنّة أنهار عدة متنوّعة ذكرتها هذه الآية، ولكن جماعة خاصة يسميهم القرآن بالمقرّبين، خصّهم بعين خاصة بهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[١].

□ لكل شيء كمال، وكمال الماء أن لا تكون له رائحة، وكمال اللبن أن لا يتغيّر طعمه، وكمال المشروبات لذّة طعمها، وكمال العسل خلوصه وصفاؤه.

□ عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «**إذا صار أهل الجنّة ودخل ولي الله إلى جنانه ومساكنه واتكأ كل مؤمن منهم على أريكته [يسألهم الله عن رغبتهم بخير مما هم فيه] فيقولون نعم ربنا فأتنا خيراً مما نحن فيه. فيقول لهم تبارك وتعالى: رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، ثم قرأ علي بن الحسين عليه السلام الآية الثانية والسبعين من سورة التوبة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾**»[٢].

□ ربما يكون المراد من المغفرة في الجنّة محو الله ذكرى الذنوب والمعاصي من أذهان المؤمنين فلا تعود تعكر عليهم صفو حياتهم في الجنّة[٣].

التعاليم:

١ ـ ينبغي أن يستفاد لدعوة الناس إلى الحقّ من جمال الجنّة وما فيها من نعيم، في مقابل مغريات الحياة الدنيا وزينتها، ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

٢ ـ ينال المتقون، الذين يغضون الطرف عن لذائذ الدنيا الفانية، لذات الآخرة ونعيمها الخالد، ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

٣ ـ بعث الأمل بحسن العاقبة من العوامل المساعدة على تبنّي الحق والإيمان به، ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

٤ ـ التنوّع من الرغبات الطبيعية عند بني البشر، ﴿أَنْهَٰرٌ... أَنْهَٰرٌ﴾.

---

(١) سورة المطففين: الآية ٢٨.
(٢) بحار الأنوار، ج٨، ١٤٠ ـ ١٤١.
(٣) تفسير راهنما.

٥ ـ تجتمع في الجنّة النعم المادّية واللذات الحسّيّة، إلى جانب النعم الروحية والمعنوية، ﴿أَنْهَٰرٌ... وَمَغْفِرَةٌ﴾.

٦ ـ تمتاز نِعَمُ الجنّة بالخلوص والنزاهة عن كل ما يعكّر صفوها ويكدّرها، ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ... لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾.

٧ ـ لا يغير ماء الجنّة وهواؤها رائحة النعم الموجودة فيها ولا يخربه، ﴿...لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾.

٨ ـ النعم التي ينالها أهل الجنّة مقرونة بمغفرة الله ورضاه، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

٩ ـ تتوفر في الجنّة كل أشكال الفواكه والثمار التي يرغب فيها الإنسان، ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

١٠ ـ يشرب أهل جهنّم الماء الحار المذلّ، ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾.

١١ ـ الترغيب والترهيب يؤثران عندما يقترنان، ﴿أَنْهَٰرٌ... مَآءً حَمِيمًا﴾.

١٢ ـ المعاد الجسماني حقيقة قرآنية يدل عليها الحديث عن العسل واللبن، وتقطيع أمعاء الكافرين، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

١٣ ـ بين جسم الإنسان في الدنيا وجسمه في الآخرة تفاوت وفرق كبيران.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- بعد الإشارة إلى حال المؤمنين والكافرين تولّت هذه الآية الحديث عن طريقة تعامل المنافقين مع الوحي الإلٰهيّ إلى النبيّ ﷺ، وفيها يخبر الله نبيّه ﷺ أن بعض الكافرين الذين يظهرون الإسلام يشاركون المسلمين مجالسهم ويستمعون إلى الوحي كما يستمع المسلمون، ولكن لما كانوا محرومين من نعمة الإيمان فإنهم عاجزون عن فهم كلام الله ولذلك بعد أن يغادروا المجلس يبدأون بطرح الأسئلة والاستفسار حول ما قيل فيه.

ويطمئن الله رسوله إلى أنّ هذه الأسئلة ليست ناشئة من رغبة في المعرفة، أو من عجز في البيان عند النبيّ ﷺ، بل منشؤها طبع الله على قلوب المنافقين وخضوعهم لأهوائهم التي تمنعهم من فهم الحق أو اتّباعه إن فهموه.

❑ يستفاد من ورود جملة ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ بعد جملة ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أن الإنسان، عندما يدير ظهره للحق ويعرض عن الفهم، يقع تحت سيطرة الهوى والشهوة[1].

التعاليم:

١ ـ يستفاد من الآية أن الناس جميعاً كانوا يشاركون في مجلس النبيّ ﷺ، سواء في ذلك المؤمن والكافر والمنافق، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

٢ ـ من الواجب كشف أسرار المعارضين للحق للناس، وفضح خفايا مواقفهم وحركاتهم، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾.

٣ ـ السعي لبث الفرقة والاختلاف والتشكيك في أوساط خواص أهل الحق من الأهداف التي يحاول المنافقون الوصول إليها، ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ... قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾.

٤ ـ باب السؤال والاستفهام في الإسلام مفتوح، ولكن عندما يكون الهدف من السؤال التشكيك وتضعيف إيمان الناس يختلف الأمر ويتحول السؤال إلى أمر يستحق عليه صاحبه التوبيخ والتأنيب، ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

٥ ـ الوحي النازل على رسول الله ﷺ علمي ومربّ للعلماء، ﴿لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾.

٦ ـ تشكيك المسلمين في إيمانهم شكل من أشكال الغزو الثقافي، ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾.

٧ ـ يعدّ الإنسان نفسه ليطبع على قلبه بعمله السّيىء واتّباعه الهوى، وبالتالي يعجز بعد ذلك عن فهم الحق ومعرفته، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

---

(١) تفسير هدايت.

٨ ـ لا ينبغي أن يغترّ الإنسان بكثرة عدد المحيطين به، والمشاركين في مجلسه، فربما كان كثير منهم معاندين للحق، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ... طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

٩ ـ الطبع على القلب وسد أبواب الفهم والتمييز في وجه الإنسان من الآثار المترتبة على السخرية من القرآن ومحاولات التشكيك فيه، ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا... طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

١٠ ـ عندما يبتلى الإنسان بالطبع على القلب يصبح عاجزاً عن فهم كلام الله وفهم كلام رسوله، ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾.

١١ ـ الإنسان في الأصل وبحسب الفطرة قابل ومستعد للفهم وتمييز الحق من الباطل، ولكنه يفقد هذه الميزة نتيجة بعض الأفعال والتصرفات التي يقوم بها؛ فكلمة «طبع» تكشف عن تبدل الحال الأصلية إلى غيرها.

١٢ ـ من يحارب رسول الله ﷺ يكن في حرب مع الله سبحانه، ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ... مَاذَا قَالَ ءَانِفًا... طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

١٣ ـ الأهواء الإنسانيّة والرغبات متعدّدة ومتنوّعة، ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

١٤ ـ طاعة الله واتّباعه تتنافى مع اتّباع الهوى ولا تجتمع معه، ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

•

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾

إشارات:

- تذكر الآية السابقة الذين يستمعون إلى الوحي ويحضرون مجلس النبيّ ﷺ ولكنّ ذلك كله لا يؤثّر فيهم، بينما تشير هذه الآية إلى صنف مختلف من الناس، وهو الذين اهتدوا فتولّاهم الله وزادهم هدىً.
- عبارتا «زادهم هدىً» و«زدني علماً» لا تدلان بالضرورة على زيادة العلم والهدى فحسب، بل تدلان أيضاً على زيادة في الاستعداد والقدرات التي يتمتع بها صاحب العلم والمتمتع بالهداية.

□ ما يزيد المؤمنين هدىً أمور عدة، هي:

أ - الآيات والمعارف التي يشتمل عليها الوحي.

ب - كلام النبيّ ﷺ والحكم الصادرة عنه.

ج - الصبر على الأذى وتحمله الاستهزاء الصادر عن المنافقين[1].

التعاليم:

١ - الاهتداء والتأثر بالتعاليم الإلٰهيّة، يرفعان استعداد الإنسان للهداية برعاية إلٰهيّة خاصة، ﴿ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ﴾.

٢ - الهداية مفهوم ذو مراحل ومراتب، ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾.

٣ - قبول الهداية يرفع القدرات الروحية للإنسان، ﴿زَادَهُمْ﴾، ودليل ذلك أن الله سبحانه قال: ﴿زَادَهُمْ﴾ ولم يقل زاد هدايتهم أي الزيادة طارئة عليهم.

٤ - الخطوة التي يخطوها الإنسان يقابلها الله بخطوات، ﴿ٱهْتَدَوْا۟﴾ الفعل هنا من الإنسان؛ ﴿زَادَهُمْ... وَءَاتَىٰهُمْ﴾ الفعل هنا من الله سبحانه.

٥ - الهداية الحقيقة والواقعية هي التي تنتهي بالإنسان إلى الاتصاف بالتقوى، ﴿ٱهْتَدَوْا۟... وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

٦ - التقوى هدية وثواب إلهي يتفضّل الله به على المهتدين: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

□ «أشراط» جمع شرط وهو الآية والعلامة، والمراد من قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ بعثة النبيّ ﷺ بناء على رواية عنه ﷺ[2]. وذلك أنه آخر الأنبياء وكتابه آخر الكتب السماوية، وهو الحجة الإلٰهيّة الأخيرة على الناس. وبالتالي فإن الفساد والمعاصي والكفر والإنكار تساعد كلها على تعجيل قيام الساعة.

□ على الرغم من أنّ كلمة «ساعة» تستعمل عادة للدلالة على يوم القيامة، فإنّه لا

---

(١) انظر: تفسير الصافي. (٢) تفسير مجمع البيان.

مانع أن يكون المراد منها في بعض الموارد اقتراب الجزاء والعقاب الإلٰهيّ في الدنيا مقدمة ليوم القيامة.

□ عن عبد الله بن عبّاس قال: «حججنا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع فأخذ باب الكعبة ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: ألا أخبركم بأشراط الساعة؟ وكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان الفارسي، فقال: بلى يا رسول الله، فقال: من أشراط الساعة إضاعة الصلوات واتّباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم أصحاب المال، وبيع الدين بالدنيا»[1]. ويحصي بعض الروايات عدد أشراط الساعة فتصل به إلى مئة علامة[2].

التعاليم:

١ ـ الكفار قساة القلوب لا يؤمنون مهما قدم لهم من أدلة، وينتظرون قيام الساعة حتى يؤمنوا، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾.

٢ ـ تقوم الساعة فجأة ويهلك عندها الكافرون من دون سابق إنذار، ﴿تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾.

٣ ـ الساعة ويوم القيامة لهما علامات ومؤشرات تدل عليهما، ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

٤ ـ لا ينبغي أن يطول أمل الإنسان بانفتاح باب التوبة في وجهه بشكل دائم، فقد يعي الإنسان ويجد باب التوبة مقفلاً في وجهه، ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

□ «مُتَقَلَّب» مصدر ميمي بمعنى الانقلاب والانتقال من مكان إلى مكان، والمثوى مصدر ميمي بمعنى الاستقرار والاطمئنان.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ٢٥.

(٢) تفسير البرهان.

□ عبارة: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ وردت في سورة غافر في الآية ٥٥. وبما أنّ الأنبياء جميعاً معصومون، فلا بدّ من أن يكون المراد من هذه أحد أمور، هي:

أ - الاستغفار بما هو عبادة لله سبحانه، من دون أن يتوقّف على صدور الذنب.

ب - الاستغفار من ترك الأولى، أي الاستغفار من أجل ترك بعض الأمور التي كان من الأولى بالأنبياء أن يقوموا بها.

ج - من أجل أن يتعلّم الناس الاستغفار.

د - الاستغفار طلباً لارتفاع الدرجات.

هـ - أن يكون المراد من الاستغفار الاستغفار من الذنوب التي ارتكبها الناس في حقّ الأنبياء.

و - ليس بالضرورة أن يكون الاستغفار من أجل التقصير، بل يكون من أجل القصور. وذلك أنّ العبد عندما يعي قصوره وعجزه أمام عزّة الله وعظمته يطلب منه سبحانه المغفرة[١].

□ يرى بعض المفسّرين أن كلمة ذنب لا تدلّ دائماً على المعصية، بل تدل في بعض الاستعمالات على الذنب بمعنى التبعة والأثر الذي يترتب على الفعل، وبناءً عليه يكون المراد من «ذنب النبيّ» تبعات أعماله وجهوده في سبيل الدعوة الإسلاميّة، ومواجهة الكافرين؛ أي الأذى الذي يناله منهم كالقتل والاعتداء والهتك. وبالتالي يكون المراد من الاستغفار الطلب من الله أن يخفي آثار هذه الأعمال وانعكاساتها السلبية عند الكافرين[٢].

□ لم تقتصر الدعوة إلى الاستغفار على النبيّ محمّد ﷺ، بل ورد في القرآن دعوة أنبياء آخرين إلى ذلك مثل: داود، وموسى، وإبراهيم عليهم السلام.

□ في القرآن حالات من استغفار الأنبياء لأناس آخرين، كاستغفار إبراهيم عليه السلام

---

(١) انظر: كتب التفسير عند تفسير هذه الآية، ومن ذلك مثلاً: مجمع البيان، التفسير الكبير، والميزان.

(٢) الفرقان في تفسير القرآن.

لأبويه وللمؤمنين[(١)] واستغفاره لعمّه[(٢)]، وكذلك استغفار يعقوب عليه السلام لأبنائه[(٣)]، وكذلك أيضاً استغفار موسى عليه السلام لأخيه[(٤)]. وتتسع دائرة المستغفرين لتشمل الملائكة واستغفارهم للناس[(٥)]. وفي هذه الآية يعدّ استغفار النبيّ صلى الله عليه وآله للمؤمنين والمؤمنات شكلاً من أشكال الشفاعة.

التعاليم:

١ ـ بعد أن رأيت واطلعت على ثواب المؤمنين، وعقاب الكافرين، اعلم أن كل هذه الأعمال تستند إلى إرادته تعالى، ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾.

٢ ـ الإيمان والتوحيد لا يكونان عن تقليد واتّباع أعميين، بل لا بد من أن يستندا إلى العلم والمعرفة، ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا ما يعبّر عنه علماء الكلام والفقهاء بعدم جواز التقليد في أصول الدين.

٣ ـ يقتضي النظام والقانون الإلٰهيّ أن تجري بعض أفعال الله بوسائط وأسباب حتى لو كانت تلك الأفعال مثل المغفرة والعفو الإلٰهيّ عن البشر، فالله على الرغم من قدرته على المغفرة لعباده والعفو عنهم إلا أنه يريد أن يغفر لهم بواسطة دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ... وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.

٤ ـ على القائد أن يكون عطوفاً رحيماً بعامة الناس من أتباعه ومريديه، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ... وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.

٥ ـ دعاء النبيّ صلى الله عليه وآله واستغفاره يشمل المؤمنين والمؤمنات، والمعيار هو الإيمان، وليس الجنس، ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.

٦ ـ لا ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يراهنوا على استغفار النبيّ صلى الله عليه وآله ويغفلوا عن

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤١.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٨٦.

(٣) سورة يوسف: الآية ٩٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية ١٥١.

(٥) سورة الشورى: الآية ٥؛ وسورة غافر: الآية ٧.

الله فهو الحاضر المحيط بأعمال العباد وأفعالهم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

٧ ـ يجب أن يبدأ المرء بإصلاح نفسه قبل إصلاح غيره من الناس، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨ ـ جميع الناس في حاجة إلى لطف الله وعنايته حتى الرسل والأنبياء، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ (العظمة من خصائص الله وصفاته، والضعف والعجز من خصائص البشر، وعلى جميع الناس طلب العفو من الله سواء في ذلك العفو عن الذنب أو العفو عن القصور).

٩ ـ العفو والمغفرة من الأمور التي يريدها الله، ولذلك يدعو الأنبياء إلى طلب المغفرة للناس ليكون ذلك واسطة في المغفرة لهم، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠ ـ إحاطة علم الله بأفعال العباد من الأمور التي تثير الخشية في نفوس الناس وتدعوهم إلى طلب العفو والمغفرة منه سبحانه وتعالى، ﴿وَاسْتَغْفِرْ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

١١ ـ علم الله لا حدود له، فلا يغيب عنه سبحانه شيء، وسواء في ذلك الحركة أم السكون، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠)﴾

إشارات:

- كلمة «سورة»، مصطلح قرآني يدلّ على مجموعة من الآيات، وبالتالي ليس مصطلحاً وضعه المسلمون بعد فترة من نزول الوحي. والمراد من الإحكام، في السورة المحكمة في الآية، إحكام الآيات وعدم تشابهها.
- مرضى القلوب في الآية هم بعض المؤمنين وليسوا المنافقين؛ لأن المنافقين لا يقال عنهم مؤمنين، وعليه يمكن أن يجتمع الإيمان مع مرض في القلب.

التعاليم:

١ ـ بعض المؤمنين على استعداد دائم، ينتظرون الأمر بالجهاد في سبيل الله، وهم يعلنون ذلك ويرددونه على ألسنتهم، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢ ـ يضبط المؤمنون كل حركاتهم ومسيرة حياتهم على إيقاع الأوامر الإلٰهيّة؛ ولذلك ينتظرون نزول الوحي ليمتثلوا ما فيه من تكاليف، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.

٣ ـ الجهاد من الأمور الخاضعة للأمر الإلٰهيّ، ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.

٤ ـ لا يصدر الأمر بالجهاد إلا بطريقة واضحة لا لبس فيها، ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾.

٥ ـ الجهاد والحرب ليسا هما الهدف الأساس للأوامر الإلٰهيّة، بل هما أحد الأهداف التي تتضمّنها السورة، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾.

٦ ـ التكليف بالقتال من الأمور التي يمتحن بها الناس، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ﴾.

٧ ـ يمكن الحكم على الناس، ومعرفة ما يختلج في نفوسهم، من طريقة نظرهم ومن النظر إليهم، ﴿رَأَيْتَ... يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾.

٨ ـ الخوف من الجهاد من علامات مرض القلب وضعف الإيمان؛ ومن هنا فإنّ ضعاف الإيمان ومرضى القلوب يعاينون الموت عند توجّه الأمر بالقتال إليهم، ويصبح حالهم شبيهاً بحال المحتضر الذي يكابد الموت، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

٩ ـ الدعاء على الكافرين بالموت من الشعارات ذات الأصل القرآني، ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

▫ المراد من «الطاعة» الطاعة المطلقة في جميع الأمور. وعبارة: «عَزَمَ ٱلْأَمْرُ»

معناها ظهور الوضع الذي يحتاج إلى عزم وإرادة قوية نافذة، وبعض المفسّرين يرى أن معناها شدّة الحرب ومصاعبها.

❑ بعض ضعاف الإيمان لا يكتفون بالامتناع والتمرّد على الأمر بالجهاد، بل يحاولون تبرئة أنفسهم من تهمة الخوف والجبن باختراع الحجج والأقاويل غير المترابطة، والقرآن الكريم يذكر مجموعة من حججهم ودعاواهم، ومن ذلك:

- دعوى العجز عن تحمّل أعباء الحرب، ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾.
- دعوى عدم الأمن على عيالهم وبيوتهم، ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾[١].
- الطقس حارّ، ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾[٢].
- دعوى الخوف من الوقوع في المعصية، حيث ادّعوا، في معركة تبوك، أنهم يخشون النظر إلى النساء الروميات والافتتان بهنّ، ولذلك امتنعوا عن المشاركة في تلك الغزوة، ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾[٣]. ويعلق الله على دعواهم هذه بقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.
- أو يدّعون أن الوقت غير مناسب للحرب والقتال، ومن الأفضل تأجيل الخروج إلى وقت آخر، ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا﴾[٤].
- أو يتعللون بالخشية من الضرر الذي ربّما يصيبهم من الخروج إلى القتال، ﴿نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾[٥].

وفي هذه الآية ينصح الله سبحانه بالطاعة والالتزام بأمر الجهاد، والقول الصواب فإنّه أفضل وأحسن عاقبة، ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ المؤمن يلتزم أمر الله بالجهاد ويطيعه، ﴿طَاعَةٌ﴾.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٣.
(٢) سورة التوبة: الآية ٨١.
(٣) سورة التوبة: الآية ٤٩.
(٤) سورة النساء: الآية ٧٧.
(٥) سورة المائدة: الآية ٥٢.

٢ ـ يجب أن يكون كل من القول والعمل صحيحاً، ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

٣ ـ يجب أن يكون الحديث حول الأوامر الإلٰهيّة صحيحاً وبالطريقة المناسبة، ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

٤ ـ الجهاد والدفاع من الأمور المقبولة التي تشهد الفطرة والعقل بصحتها، ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

٥ ـ منشأ الخوف من الجهاد هو عدم الصدق في العمل، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾.

٦ ـ أمر الله بالجهاد يصبّ في مصلحة الإنسان وليس في مصلحة الله سبحانه، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

□ يحتمل المفسرون في معنى قوله تعالى ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾، معنيين:

أ ـ الإعراض وإدارة الظهر للجهاد والانشغال بإثارة الخلافات وقطع الأرحام.

ب ـ الولاية والسلطة على الناس، من أجل الإفساد في الأرض وقمع الآخرين.

ويبدو أن المعنى الثاني لا ينسجم مع سياق الآيات[1].

□ الآية موجّهة إلى ضعاف الإيمان من الناس؛ أي إلى أولئك الذين يتحفّظون على المشاركة في الجهاد، حفظاً لنفوسهم وأرواحهم، فيقول الله لهم: لا تحسبوا أنّ الفرار من الجهاد يحميكم من الموت، فإنكم بترككم الجهاد تساعدون على انتشار الفساد في الأرض، ما يؤدّي في نهاية المطاف إلى أن تصابوا بشرّ أعمالكم، وتعودوا إلى سنن الجاهلية، فتبيحوا لأنفسكم قتل أبنائكم كما كانوا يقتلون أبناءهم.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن.

التعاليم:

١ ـ الإعراض عن الدين والأوامر الإلٰهيّة من المقدمات المساعدة على انتشار الفساد في الأرض، ﴿...إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

٢ ـ قطيعة الرحم من الذنوب المعادلة للإفساد في الأرض، ﴿تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

٣ ـ عندما ينتشر الفساد في الأرض يعم كل المجالات فلا يرحم الإنسان أرحامه، ﴿تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾،

٤ ـ الفارّون من الجهاد مفسدون في الأرض، قاطعون للأرحام، يلعنهم الله، ﴿تَوَلَّيْتُمْ... تُفْسِدُوا... وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ... أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

٥ ـ الحرمان من رحمة الله من آثار الأعمال التي نقوم بها في حياتها، ﴿تُفْسِدُوا... وَتُقَطِّعُوا... لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

٦ ـ عدم الاستفادة من النعم الإلٰهيّة يشبه الحرمان منها، فمن له أذن لا يسمع بها هو كالأصمّ، ومن له عين لا يبصر بها هو كالأعمى، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

٧ ـ أعظم الحرمان وأبشعه الحرمان المعنوي، كالحرمان من معرفة الحقيقة، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

٨ ـ الاستخدام الخاطئ للنعم الإلٰهيّة من علامات البعد عن رحمة الله، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

- ترتبط هذه الآية بالآية السابقة فتشير إلى أنّ عدم تدبّر القرآن من نتائج العمى الذي يصاب به الإنسان، إثر اللعن الإلٰهيّ.

- الأمر بتدبّر القرآن ورد في غير موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى

فـي سـورة ص، الآيـة ٢٩: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

التعاليم:

١ ـ القرآن الكريم ليس كتاب قراءة وتلاوة فحسب، بل هو كتاب تأمّل وتدبّر، والقراءة مقدمة للتدبّر، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٢ ـ يدعو الله الناس جميعاً إلى تدبّر القرآن والتأمّل فيه، ولا تقتصر الدعوة على جماعة خاصة من الناس، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٣ ـ يذمّ الله الذين يتعاملون مع القرآن بطريقة سطحية ساذجة، ويصف قلوبهم بالمقفلة، ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾.

٤ ـ من الشروط الأساس والضرورية لفهم القرآن والنفوذ إلى عمق معانيه انشراح الصدر وسلامة القلب، ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾.

٥ ـ القلب من طرق المعرفة ووسائلها، ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾.

٦ ـ تدبّر القرآن الكريم من علامات سلامة العقل والقلب، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٥﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ يحتمل معنيين أحدهما تزيين القبيح من الأعمال، والآخر التسهيل؛ أي إنّ الشيطان يسهّل للإنسان طريق الانحراف.

□ «أملى»: أي أمهل، أو أمدّ وأعان.

□ الأعمال التي ينسبها القرآن إلى الشيطان متعدّدة، هي: الوسوسة[1]، الأمر

---

(١) سورة الناس: الآيتان ٤ و٥.

بالفحشاء والقبائح[١]، تزيين الأعمال السيّئة[٢]، التخويف[٣]، العداوة[٤]، الوعيد بالفقر[٥]، خلف الوعد[٦]، الإسراف[٧]، الصدّ عن ذكر الله[٨]، الاختلاف والتفرقة[٩]، التمرّد[١٠]، التشكيك[١١]، الشرك والانحراف[١٢]، وطول الأمل[١٣]. وفي مقابل هذه الأمراض التي ينشرها الشيطان في المجتمع الإنساني، يدلّنا القرآن على الدواء المناسب، وهو أمران: أحدهما النظر إليه كعدوّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾[١٤]؛ والآخر الاستعاذة بالله من شرّه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾[١٥]؛ وإلا فإنّ الشيطان الخارجي: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ والشيطان الداخلي: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾[١٦] سوف يتكاتفان ويقضيان على منابع الخير في الإنسان، ويقودانه إلى الهلاك.

التعاليم:

١ ـ الالتفات والاستماع إلى وسوسة الشيطان من الآفات التي يُخشى منها على

---

(١) سورة النور: الآية ٢١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٨؛ وسورة الأنعام الآية ٤٣.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ٩١.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.

(٦) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

(٨) سورة النساء: الآية ٦٠.

(٩) سورة الإسراء: الآية ٥٣؛ وسورة طه: الآية ٢٠.

(١٠) سورة مريم: الآية ٤٤.

(١١) سورة الحج: الآية ٣.

(١٢) سورة النمل: الآية ٢٤؛ وسورة القصص: الآية ١٥.

(١٣) سورة محمّد: الآية ٢٥.

(١٤) سورة فاطر: الآية ٦.

(١٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠٠.

(١٦) سورة طه: الآية ٩٦.

الإيمان، ويُخاف أن تكون عاقبتها الارتداد عن الدين، وسوء العاقبة، ﴿ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ﴾.

٢ ـ الارتداد عن الدين، بعد اتضاح الحقّ، عمل رجعي يتضمّن التخلّف، ﴿ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾.

٣ ـ طريق الحقّ واضح لا لبس فيه، والمعرفة به تحمّل الإنسان المسؤولية عنه، ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾.

٤ ـ لا بدّ من مواجهة وسوسات الشيطان بجدّ، وإلا فإنّ العلم وحده لا ينفع الإنسان ولا يحميه، ﴿تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾.

٥ ـ التزيين وطول الأمل من الأسلحة التي يستخدمها الشيطان في حرف الإنسان عن الحقّ، (وكلّ من يزيّن قبائح الأعمال يتّصف بصفة شيطانية)، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

❑ المنافق يسعى لحفظ نفسه ولو من خلال الاحتماء بمن يخالفه، ويكتفي ببعض وجوه الشبه والاشتراك بينه وبينهم، ووفق هذه القاعدة عقد منافقو المدينة الصلات وبنوا العلاقات مع اليهود، وتحالفوا معهم على معاداة النبيّ ﷺ[١].

❑ ربّما يكون المراد من قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ الكفار الذين أشار إليهم تعالى في أول السورة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[٢].

---

(١) تفسير نمونه.

(٢) الميزان في تفسير القرآن.

التعاليم:

١ ـ الأشخاص الكارهون، وغير الراضين في المجتمع، يستهدفهم العدوّ بمؤامراته ويخترق بهم المجتمع، ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا... سَنُطِيعُكُمْ﴾.

٢ ـ يعطي المنافقون الوعود بالنصرة والتضامن مع الذين يكرهون أحكام الله وتشريعاته، بل ويعدونهم بالطاعة والامتثال، ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا... سَنُطِيعُكُمْ﴾.

٣ ـ المنافقون والكفار وأعداء الإسلام يتضامنون ويتحالفون في بعض الأحيان، ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

٤ ـ من علامات الارتداد عن الدين التعاون مع الكارهين لأحكام الله، ﴿ارْتَدُّوا... سَنُطِيعُكُمْ﴾.

٥ ـ طاعة المنحرفين عن الحقّ عمل يقابل باللوم والتأنيب حتى لو كان طاعة في بعض الأمور، ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

٦ ـ بعض الناس ينافقون من أجل حفظ مصالحهم الخاصة، فيتعاونون مع المؤمنين أحياناً، ومع الكافرين أحياناً أخرى، وعلى وفق قول المثل المشهور: «**ضربة على الحافر وضربة على المسمار**»، ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾.

٧ ـ يعقد المنافقون تحالفاتهم مع من يتحالفون معهم في السر والخفاء، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

٨ ـ على المنافقين أن يعوا أن الله يطلع على أسرارهم ويعلم ما يسرّون وما يعلنون، وقد يعرّضهم للفضيحة في أي لحظة، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

٩ ـ لو أنّ الإنسان لا يغفل عن اطلاع الله على الخفايا والأسرار لترك كل المؤامرات وتصرّف بشفافية ووضوح مع الناس جميعاً ولتطابق باطنه مع ظاهر حاله، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾

إشارات:

- التوفي والاستيفاء من مادة وفي، ومعناها أخذ الشيء واسترداده كاملاً، وتستعمل هذه الكلمة في القرآن بمعنى الموت، وذلك أنّ الموت فيه أخذ الروح من الجسد.
- في الآية ٥٠ من سورة الأنفال ما يشبه هذا المعنى حول الكافرين وموتهم.
- ربّما يكون عذاب المرتدّين في وجوههم لقوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ من باب تجسّم الإقبال على غضب الله وسخطه، والعذاب الذي ينالهم من أدبارهم تجسّم إعراضهم عن الله تعالى ورضوانه.

التعاليم:

١ ـ يبتلى الذين يعملون على صدّ الناس عن الحقّ والهدى بتشديد نزع الروح عليهم وإذلالهم في ذلك الوقت، ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾،

٢ ـ ليس الموت انعداماً وفناءً، وإنما هو، في الرؤية القرآنية، توفية وأخذ كامل للروح بواسطة الملائكة، ﴿تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٣ ـ تبدأ رحلة العذاب عند المنافقين المرتدّين من اللحظات الأولى لمسيرة الموت، ﴿تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

٤ ـ الالتفات إلى الحدود التي يعمّر الإنسان فيها على الأرض، وإلى انتهاء المؤامرات بالعذاب الإلٰهيّ وغضبه، ربّما ينفع في التوقف عن التورّط في حياكة المؤامرات، ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ... يَضْرِبُونَ﴾.

٥ ـ معاداة القرآن والوحي الإلٰهيّ توجب غضب الله وبطلان الأعمال، ﴿ذَلِكَ... فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٦ ـ الكفار مختارون في طريقة تصرّفهم ومواقفهم، ﴿اتَّبَعُوا... وَكَرِهُوا﴾، إلا

أنّهم مضطرون لتحمّل النتائج المترتبة على ما اختاروه من فعل أو قول، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٧ ـ قد يؤدّي الإنسان بعض الأعمال الحسنة، ولكنه يسلط عليها ما يحرقها ويزيل قيمتها، ﴿ٱتَّبَعُوا... وَكَرِهُوا... فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

٨ ـ الحركة في الطريق التي لا ترضي الله تؤدّي إلى الإحباط، وتوجب التوبيخ والتأنيب، ﴿ٱتَّبَعُوا... وَكَرِهُوا... فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ (٣٠)﴾

إشارات:

- «الضغن» والأضغان الحقد الشديد.
- عن الإمام علي عليه السلام: **«ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»**[1].
- ورد في سبب نزول الآيات، أنها نزلت عندما اتهم بعض المنافقين رسول الله صلى الله عليه وآله بأنه حابى صهره وابن عمه في غدير خم، يوم أخذ بيده وأعلن خلافته من بعده[2].

التعاليم:

١ ـ من النفاق، ومن علامات مرض القلب، سوء الاستفادة من ستر الله وإمهاله في الفضيحة وكشف العيوب، ﴿أَمْ حَسِبَ﴾.

٢ ـ لا تقتصر فضيحة العاصين وكشف ما يضمرون من أحقاد على يوم القيامة، بل قد ينالهم شيء من الهتك في الدنيا أيضاً، ﴿أَمْ... أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة ٢٦. (٢) انظر: البرهان في تفسير القرآن.

٣ ـ يقدر الله على إرباك المنافقين وإظهار ما يضمرون في قلوبهم في طريقة حديثهم، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم﴾.

٤ ـ الحسد والضغينة من عوامل ظهور النفاق وكشف المستور والمضمر، ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... أَضْغَٰنَهُمْ﴾.

٥ ـ الوجه مرآة تحكي ما في باطن الإنسان وتكشف عوراته، ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾.

٦ ـ لا يكفي أن يكون الكلام نفسه مؤدّباً، بل يجب أن تكون طريقة الكلام ولحنه كذلك أيضاً. والمنافق قد يضبط لسانه، ولكنه يعجز عن التحكم في لحن الكلام وطريقة أدائه، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

- «الابتلاء» من مادة «بلي» وبلوته اختبرته اختباراً لمعرفة الحقيقة. ولما كان الله يعرف حقيقة الناس والأشياء، فالبلاء الإلٰهيّ يتضمّن معنى ظهور الجودة والرداءة من دون التعرّف إلى الحال[1].
- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ ليست بمعنى العلم في مقابل الجهل، بل بمعنى ظهور العلامة والتميّز.
- أشارت الآية السابقة إلى أنّ الله لا يعلم ظاهر أحوال الناس فحسب، وإنّما يعلم أسرارهم أيضاً، وعليه فإن الاختبار لا يهدف إلى المعرفة واطلاع الله على ما لم يكن مطلعاً عليه، بل ليظهر المستحقّ من الناس من غيره، كما ربّما يحصل مع الإنسان في بعض الحالات، فإنهم يعلمون قدرات من يعمل لهم الأعمال، ولكنّهم يطلبون منهم العمل ليعطوهم الأجر في مقابل ما عملوا.
- تمييز الناس بعضهم عن بعض له مراحل عدة؛ المرحلة الأولى: يمتاز فيها

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات، مادة «بلي».

الناس على أساس الإيمان والكفر؛ المرحلة الثانية: يمتاز فيها المؤمنون على أساس الجهاد والفرار منه؛ والمرحلة الثالثة: يمتاز فيها المجاهدون على أساس الصبر والقدرة على الاحتمال. وبالتالي فإن الإنسان في حالة اختبار دائمة.

❑ من الآية ١٦ حتى هذه الآية كان الحديث عن سمات المنافقين والذين في قلوبهم مرض. وقد رسمت هذه الآيات ملامحهم العامة والمشتركة، ويمكن الإشارة إلى أبرز ما ورد في هذا السياق وفق ما يأتي:

١ ـ الاستخفاف بكلام النبيّ ﷺ وأقواله: ، ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ **[سورة محمد: الآية ١٦]**.

٢ ـ الخوف من الجهاد: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ﴾ **[سورة محمد: الآية ٢٠]**.

٣ ـ الإفساد في الأرض وقطع الأرحام: ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ **[سورة محمد: الآية ٢٢]**.

٤ ـ الارتداد عن الحقّ: ﴿ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ...﴾ **[سورة محمد: الآية ٢٥]**.

٥ ـ الاغترار بوعود الشيطان: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ **[سورة محمد: الآية نفسها]**.

٦ ـ التآمر وإعلان التحالف مع المعارضين للنبيّ ﷺ: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ **[سورة محمد: الآية ٢٦]**.

٧ ـ العمل بما يسخط الله: ﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ **[سورة محمد: الآية ٢٨]**.

٨ ـ كراهة ما يرضي الله: ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ **[سورة محمد: الآية ٢٨]**.

٩ ـ الحقد والضغينة: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ **[سورة محمد: الآية ٢٩]**.

وفي مقابل هذه الصفات والخصائص القبيحة يواجههم الله بإقفال قلوبهم،

ولعنهم وإبعادهم عن رحمته، وتعذيبهم بضرب وجوههم وأدبارهم، وحبط أعمالهم.

التعاليم:

١ ـ الاختبار أمر عام وحتميّ وهو من السنن الإلٰهيّة، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾. حرفا اللام والنون في الآية للدلالة على القسم والتأكيد.

٢ ـ من الميادين والمجالات التي يُختبر فيها الإنسان ميدان الحرب والقتال، ينكشف فيها النفاق ويظهر ما خفي من المرء فيها، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾.

٣ ـ الصبر والثبات من الصفات المهمة في ساحة الجهاد، ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٤ ـ في ميادين الاختبار تظهر صحة أقوال الإنسان وصحة ما ينسب إليه من أخبار، ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

٥ ـ معيار التقييم عند الله هو النجاح في العمل، ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

- صدّ الناس عن سبيل الله يأخذ أشكالاً عدة، منها: تحريف القوانين والشرائع الإلٰهيّة، والبدعة في الدين، وتشكيك الناس في عقائدهم من خلال إثارة التساؤلات حول صحة بعض المعتقدات الدينيّة كما في قوله تعالى: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ﴾[1]، وإضعاف الأنبياء والقادة الإلٰهيّين

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٥.

واتهامهم بالكهانة والسحر والشعر، أو تهديد الناس الذين يميلون نحو الدين ويقبلون دعوة الأنبياء، وإشغال الناس بالقضايا التافهة وغير الضرورية، وإثارة أجواء الفتنة وإشعال الحروب، وتشريع القوانين المقيّدة التي تعيق إقبال الناس على التعاليم الإلٰهيّة، وأخيراً تولية من لا يستحق وإعطاؤه عناوين ومناصب دينية.

- في بعض الحالات يصاب الإنسان بانقلاب في معايير الاختيار، فبدل أن يفتح قلبه للحقّ ويسير في دروب الكمال، تجده يحارب الحقّ ويسير في الاتجاه المعاكس للكمال والرشد:

- يعادي الله ويصرّ على العناد، ﴿كَفَرُوا... مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾.
- يعاند الرسول ويحاربه، ﴿وَشَآقُّوا ٱلرَّسُولَ﴾.
- يمارس عداوته على الناس من خلال منعهم من الهداية وسدّ سبلها في وجوههم، ﴿وَصَدُّوا عَن﴾.
- بل يعادي نفسه ويبطل أعماله، ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

التعاليم:

١ ـ الكفر هو منشأ الظلم للنفس والأنبياء والمجتمع كله، ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا... وَشَآقُّوا﴾.

٢ ـ يتمّ الله الحجّة على الناس، جميعاً، بإرسال الأنبياء وإظهار الحق وتبيينه للناس، ﴿...مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾.

٣ ـ الكفر والعصيان، الصادران عن العصاة والكافرين، لا يصل منهما إلى الله شيء ولا يضرّانه في شيء، ﴿لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾.

٤ ـ العناد، بعد وضوح الحق، من أسباب حبط الأعمال الحسنة وإبطال آثارها، ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٣﴾

إشارات:

□ ورد في القرآن والحديث ذكر أسباب عدّة تؤدي إلى إبطال العمل، ومن هذه الأسباب:

١ ـ المنّ والأذى للفقراء بعد أو مع الصدقة عليهم: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[١].

٢ ـ إساءة الأدب في العلاقة مع النبيّ ﷺ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ... أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٢].

٣ ـ العجب والحسد، فقد ورد في الدعاء: «إلهي عبّدني لك ولا تفسد عبادتي بالعجب»[٣]، وورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»[٤].

٤ ـ الشرك: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٥].

٥ ـ الرياء الذي هو درجة من درجات الشرك: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[٦].

□ وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: **«من قال سبحان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنّة... فقال رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنّة لكثير! قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقونها»**[٧].

□ في معنى عبارة: «لا تبطلوا أعمالكم» احتمالات ثلاثة، وذلك بالنظر إلى صدر الآية، وهذه الاحتمالات هي:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.
(٢) سورة الحجرات: الآية ٢.
(٣) دعاء مكارم الأخلاق.
(٤) الكافي، ج٢، ص٣٠٦.
(٥) سورة الزمر: الآية ٦٥.
(٦) سورة النساء: الآية ٣٨.
(٧) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٥.

أ - حافظوا على إيمانكم ولا تتحولوا إلى الشرك، فتذهب أعمالكم سدىً؛ لأنّ الشرك يحبط الأعمال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1].

ب - لا تتركوا طاعة رسول الله ﷺ فتبطل أعمالكم.

ج - لا تمنّوا على النبيّ ﷺ أعمالكم وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾[2].

التعاليم:

١ - على الرغم من أنّ المخاطب بالقرآن كله هو المؤمنون، فإنَّ إظهار توجيه الخطاب إليهم في بعض الآيات قد يكون المراد منه بيان التقدير الإلٰهيّ للمؤمنين، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾.

٢ - لا بدّ من مراعاة قدر الأشخاص ورتبهم عند الحديث معهم أو عنهم، ويستفاد هذا المعنى من تقديم ذكر الله على ذكر رسوله، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

٣ - للإيمان لوازم ومترتبات، أهمّها طاعة الله والرسول، واتّباع ما يأمران به، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

٤ - الأوامر والقوانين الدينيّة بعضها صادر عن الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾، وبعضها صادر عن النبيّ: ﷺ ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، ولكل من هذين الصنفين خصائصه، ومنها خصوصية الثبات وهي في الأحكام الإلٰهيّة غالباً، ومنها خصوصية التبدل بحسب الظروف والأوضاع، وهي صفة موجودة في كثير من الأحكام التي تصدر عن رسول الله ﷺ بصفته الحاكم والقائد للمجتمع الإسلامي.

٥ - النبيّ ﷺ معصوم، تجب طاعته من دون أي قيد أو حدود، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

٦ - لا ينبغي أن يغترّ المؤمن بكثرة أعماله، فقد يأتي بما يحبط هذه الأعمال ويبطل آثارها، ﴿...الَّذِينَ آمَنُوا... وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٥. (٢) سورة الحجرات: الآية ١٧.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

- عندما ندقق في موضع هذه الآية نجدها بين آيتين تخاطبان المؤمنين، وهذا يشير إلى إمكانية التحول من الإيمان إلى الكفر، وهو خطر كبير وسوء عاقبة، ليس هناك ما هو أسوأ منه.
- على الرغم من الوعد الإلٰهيّ بالمغفرة الشاملة، إلا أنّه توجد بعض الاستثناءات، وأهمها استثناء الشرك والكفر والموت عليهما، فقد ورد في بعض الآيات الوعيد بعدم المغفرة والتوبة في هاتين الحالتين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ الكفر من الأسباب التي تؤدّي إلى بطلان الأعمال التي أتى بها الإنسان في فترة إيمانه، ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ... ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٢ ـ المهم هو الحالة التي يكون الإنسان عليها عند مغادرة الدنيا، وذلك بأن يموت الإنسان على الإيمان، ﴿...كَفَرُوا۟... ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

٣ ـ الكفر ومعاندة الحقّ من الأفعال التي تترك أثرها وتصدّ الناس عن الإيمان والعمل الصالح، ﴿كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ باب المغفرة والتوبة مفتوح إلى اللحظات الأخيرة من حياة الإنسان وقبل أن تبدو عليه أمارات الموت، ﴿مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

- «يتركم» من الوتر بمعنى النقصان.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٥٣.

□ **سؤال**: يقول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[1] وفي هذه الآية يذمّ الدعوة إلى السلم فيقول: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ فكيف يمكن التوفيق بين الآيتين؟

الجواب: كل آية تنظر إلى جهة خاصة وتتحدث عن بعد من الأبعاد فالآية التي تنهى عن الدعوة إلى السلم تنهى عن الدعوة إلى ذلك إن كان منشأها الوهن والجبن، فهذا ما يتمنّاه العدوّ ويرغب فيه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[2]، وأما عندما يكون ذلك من باب الرحمة فلا مانع منه بل هو أمر مطلوب.

□ المراد من المعيّة بين الله والمؤمنين ليس المعيّة العامة له سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[3]، بل المعيّة الخاصة التي يتوفّر عليها المؤمنون المجاهدون والتي ينالون بموجبها النصر والعزّة والرعاية الإلٰهيّة الدائمة. وقد ورد هذا المعنى في آيات أخر منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

□ قد يطرأ الشك وعدم التصديق على أذهان بعض المسلمين عندما يقول الله لهم: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ وذلك عندما ينظرون إلى قلة عددهم وعتادهم، ولذلك يتبع الله ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾[5].

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي للمؤمن أن يهن أو يضعُف، ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾.

٢ ـ صلابة الجبهة الداخليّة من شروط النصر الأساسية، ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾.

٣ ـ لا ينبغي أن يبادر المؤمنون إلى اقتراح الهدنة والسلام، ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، وأما إذا كان الاقتراح من الجبهة المعادية، ورأى ولي الأمر المصلحة في السلام، فإن له الاستجابة، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦١.
(٢) سورة القلم: الآية ٩.
(٣) سورة الحديد: الآية ٤.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.
(٥) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير.

٤ ـ من الواجب رفع الحالة المعنوية للمسلمين وتذكيرهم بأهميتهم وعلو مقامهم، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾.

٥ ـ النصرة والعون من الله من الأمور المقارنة لحركة المسلمين المجاهدين، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

٦ ـ الله هو الضامن لثواب المجاهدين، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

- اللعب من الأفعال ذات الدوافع الواهية، واللهو من الأعمال التي تتوفر على دوافع عقلانية.

- نهت الآية السابقة عن مهادنة الكفار وإظهار الضعف والتردد في مواجهتهم وهذه الآية تتحدث عن الدنيا واللعب واللهو، وكأنّ فيها تعليلاً وبياناً لأسباب الضعف ألا وهو التعلّق بالدنيا وزينتها.

- يوسف عليه السلام كان في عين أبيه الولد العزيز، وفي عين إخوته الأخ المنافس، وفي عين القافلة التي انتشلته من البئر عبداً، وفي عين زليخا عشيقاً، وفي عين المساجين مفسّر أحلام. والدنيا كذلك تختلف النظرة إليها من شخص لآخر ومن جماعة لأخرى، فهي، في أعين أكثر الناس، ساحة للعب واللهو، وفي عيون المؤمنين مدرسة للاعتبار ومعرفة الله، وكل ما فيها آية من آيات الله، وسوق للمتاجرة مع الله، ومزرعة للآخرة واكتساب الفضائل.

- لم يخلق الله شيئاً للعب واللهو، وإنما خلقه لحكمة وغاية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[1]؛ ولكن المشكلة هي مشكلة الإنسان الذي يسيء التصرف في خلق الله، ولا يحسن استغلاله.

---

(١) سورة الدخان: الآية ٣٨.

التعاليم:

١ ـ الاستسلام للدنيا والركون إليها من أسباب الضعف الذي يظهر على المؤمنين بين فترة وأخرى، ﴿فَلَا تَهِنُوا... إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

٢ ـ الدنيا لعب ولهو وفاقدة لأي قيمة، عندما تتجرد من التقوى، ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾.

٣ ـ التقوى من آثار الإيمان، ومرحلة أعلى منه، ﴿...وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾.

٤ ـ الإيمان والتقوى هما اللذان يعطيان الدنيا معناها وقيمتها، ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾.

٥ ـ لا تنافي بين الإيمان والتقوى وبين الغنى والثروة، ﴿تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا... وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.

٦ ـ الأمر بالإنفاق، والإطعام، والزكاة، والخمس، والصدقة وغيرها من العبادات المالية، يهدف إلى رشدنا وتطوّرنا الروحي والمعنوي، وليس هو لله أجراً لهدايته إيانا، ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾.

﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- «يحفكم» من الإحفاء بمعنى الإصرار على الطلب والسؤال. و«الأضغان» جمع «ضغن» وهو الحقد.
- بعض الناس يحبّ الدنيا ويتعلّق بها إلى حد يدعوه إلى الحقد على الله، عندما يطلب منه أن يتنازل عن شيء منها.

التعاليم:

١ ـ تظهر الخصال والطبائع الإنسانيّة عند التعامل مع الأوامر الإلٰهيّة، ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾.

٢ ـ البخل والتعلّق بالدنيا من الأمور المذمومة التي ينتقدها الله، ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾.

٣ ـ الله سبحانه لا يكلّفنا ما لا نطيق ولا يوقعنا في الحرج والمشقّة، ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾. والقوانين والتشريعات الإلٰهيّة متناسبة مع الاستعداد والقدرة الإنسانية. ونحن بدورنا، عندما نحاول سنّ بعض القوانين، يجب أن نراعي قدرات المواطنين الذين سوف تطبّق عليهم هذه القوانين.

٤ ـ صدق المودّة يُكتشف في المواقف التي يظهر فيها البخل والكرم، ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

□ **سؤال**: أخبرنا الله في الآية السابقة أنه لا يسألنا أموالنا، وفي هذه الآية يدعونا إلى الإنفاق وينهانا عن البخل؛ فكيف يمكن الجمع بين الآيتين؟

الجواب: وجه الجمع بين الآيتين هو: أن الله عندما يطلب منا المال لا يطلبه له أو لأنبيائه في مقابل الهداية والإرشاد، ولكنه يأمرنا بالإنفاق على الفقراء والمحتاجين في المجتمع، من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، ورفع التفاوت الطبقي، ورفع الغبن عن بعض الفئات الاجتماعية، وبالتالي تخفيف الاحتقان الناتج عن التفاوت في الأوضاع الاقتصاديّة، وذلك كله يصبّ في مصلحة الإنسان نفسه، فمن يبخل بماله إنما يضرّ نفسه ولا يضرّ الله. وبكلمة مختصرة: إن الله لا يسألنا ولا يريد أموالنا، وإنما يأمرنا بإنفاقها على إخوتنا في الدين والإنسانية.

□ في الرواية عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن هذه الآية فضرب بيده على عاتق

سلمان الفارسي فقال: هم هذا وذووه، ثم قال: لو كان الدين في الثريّا لناله رجال من أبناء فارس[١].

❑ تتم عمليّة التربية من خلال المرور في مراحل، هي:

أ - التحذير، ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾.

ب - الدعوة، ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾.

ج - التوجيه والاستدلال، ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

د - التكرار والحسم، ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾.

هـ - إتمام الحجّة والتهديد، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ...﴾.

التعاليم:

١ - قبل الشروع في التبليغ والدعوة لا بد من لفت نظر المدعوّ وتنبيهه، ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

٢ - على الإنسان أن ينفق من أمواله قبل موته، ولا يبخل بها فيتركها للورثة لينفقوا منها هم، ﴿لِتُنفِقُواْ﴾.

٣ - ما يدعو الله إليه ليس هو العمل كيفما كان، بل العمل الخالص لوجه الله، والمقصود به وجهه، ﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٤ - يجب دعوة الناس إلى الإنفاق من أموالهم على من يستحقّ ومن هو بحاجة إليها، ولكن يجب أن يترك لهم الاختيار ولا يجبروا على ذلك، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾.

٥ - قد يحسب البخيل أنّه حرم من لم يأخذ من ماله؛ ولكن الحقيقة أن المحروم الأوّل هو البخيل نفسه، لأنه بخل على نفسه وحرمها من رحمة الله ومحبّته ومن القرب منه سبحانه، ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

---

(١) ذُكرت هذه الرواية في أكثر من كتاب من كتب التفسير ومن ذلك: مجمع البيان، الميزان في تفسير القرآن، التفسير الكبير، روح المعاني، وتفسير شبّر، ونمونه.

٦ ـ البخل صفة نفسية لا ترتبط بالغنى والفقر، فربّ غنيّ يبخل وفقير ليس كذلك والعكس، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾.

٧ ـ الدعوة إلى الإنفاق لا تدلّ على حاجة الله بل: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾.

٨ ـ ينبغي الوضوح مع الناس عند دعوتهم إلى الخير، وإثارة إحساسهم بأن ما يُدْعَوْن إليه إنما هو في مصلحتهم كي لا يقعوا في الغرور، ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟... وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

٩ ـ في التبليغ والدعوة إلى الله لا ينبغي تملّق الناس، على حساب الأحكام والتشريعات الإلٰهيّة، ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟... وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ﴾.

١٠ ـ أحكام الله سبحانه سوف تجد من يعمل بها، حتى لو أعرض عنها بعض الناس، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

١١ ـ ليس التاريخ وحده يحتوي على العبرة، بل التأمّل في المستقبل يلفت نظر الإنسان إلى بعض ما ينبغي أن يلتفت إليه، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

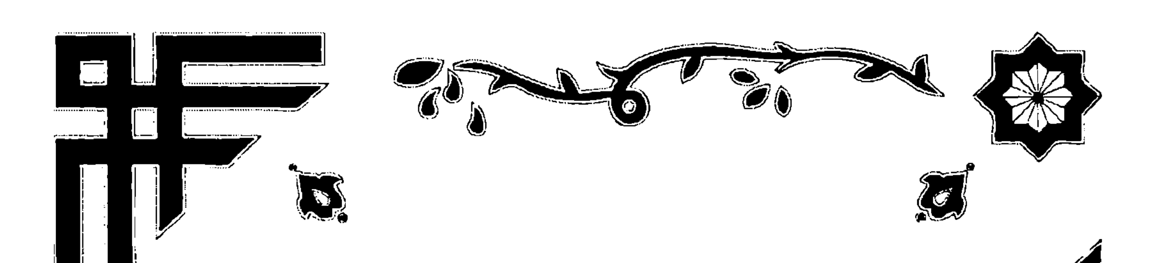
١٢ ـ ترك الإنفاق في سبيل الله من المعاصي الخطيرة التي ربّما تودي بمستقبل أمّة من الأمم أو نظام من الأنظمة، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ﴾.

١٣ ـ التهديد من الأساليب المساعدة في بعض الحالات، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ﴾.

١٤ ـ لا تخلو الأرض من بشر صالحين مستعدّين للالتزام بالأحكام الإلٰهيّة، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾.

١٥ ـ المهمّ والأساس، في حسابات الله، هو وجود بشر مطيعين، وليس وجودي ووجودك، أو وجود هذه الأمة أو تلك، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ (وبقاء دين الله وشريعته لا يتوقف على قوم أو جماعة محدّدة).

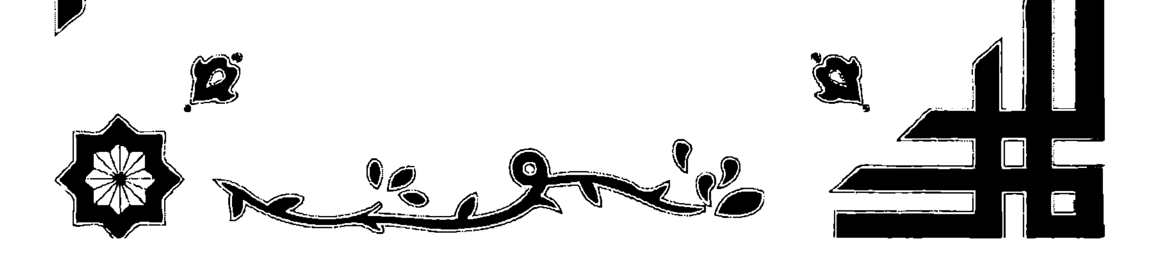
«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الفَتْحِ

السورة: ٤٨ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ٢٩



ملامح سورة الفتح

تتألف هذه السورة من تسع وعشرين آية. نزلت هذه السورة في السنة السادسة للهجرة، بعد صلح الحديبية، في المدينة المنوّرة.

أهم القضايا التي تتحدث عنها هذه السورة هي البشارة بفتح مكّة، وما يرتبط بصلح الحديبية، وبيعة الرضوان، والإشارة إلى المنافقين والمتخلّفين عن الجهاد، وتختم أخيراً بالحديث عن الخصائص التي يتّصف بها النبيّ الأكرم ﷺ.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

إشارات:

- في المراد من الفتح في مطلع السورة احتمالات عدة واختلاف بين المفسّرين، فمنهم من يرى أن المراد هو صلح الحديبية، ومن أصحاب هذا الرأي: الألوسي، وأبو الفتوح الرازي، والعلّامة الطباطبائي، والفيض الكاشاني. ومن المفسرين من يرى أن الفتح هو فتح مكّة، ومن هؤلاء: الشيخ الطوسي، والزمخشري، والفخر الرازي. وكل من الطرفين يستند إلى بعض الروايات الواردة حول السورة.

  وتكمن أهميّة صلح الحديبية في تمهيده لفتح مكّة والانتصارات اللّاحقة التي ترتّبت عليه. ومن جهة ثانية كانت الفكرة الوحيدة التي تدور في رؤوس المشركين هي القضاء على الإسلام والمسلمين. وتوقيع الصلح مع النبيّ ﷺ كان بمثابة اعتراف بالمكانة الاجتماعيّة والسياسيّة للإسلام، وبالتالي قضاء على هذه الفكرة وانتزاعاً لها من رؤوسهم.

- ووصف الفتح بأنه مبين من جهة تضخّم عدد المسلمين، ففي السنة السادسة للهجرة، أي وقت الصلح كان عدد المشاركين مع النبيّ ﷺ ألفاً وأربعمئة مقاتل، وأما عند فتح مكّة فقد ارتفع العدد إلى عشرة آلاف رجل.

- في نظام الهداية الإلٰهيّ لا محل للإبهام والغموض، فكل ما يتعلّق بالدعوة واضح ومبين، ومن ذلك:

  ـ الرسول رسول مبين، ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾[1].

  ـ والقرآن قرآن مبين، ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[2].

(١) سورة الدخان: الآية ١٣. (٢) سورة الحجر: الآية ١.

ـ واللغة التي يخاطب بها العباد لغة مبينة، ﴿وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[(١)].

ـ الإنذار والتحذير أيضاً كذلك، ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[(٢)].

ـ بل حتى النصر والسلم مبين، ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

وعلى ضوء ذلك من يعصِ الله ورسوله يكن في الجهة المقابلة للهداية بشكل واضح وبيّن، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾[(٣)].

□ توجّه هذه الآيات الخطاب إلى رسول الله ﷺ، حيث يقول الله سبحانه له: ﴿فَتَحْنَا لَكَ... لِيَغْفِرَ لَكَ... ذَنۢبِكَ... وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ... وَيَنصُرَكَ﴾. وهـذا الخطاب من المؤشّرات الدالّة على كرامة النبيّ ﷺ وعلوّ مكانته عند الله سبحانه.

□ الـ «ذنب» في أصل اللغة من الذّنَب أو الذيل، وهو أحد أعضاء الحيوان، يكون في مؤخرة البدن، يحمله أو يجرّه خلفه. واستعير للتعبير عن التبعات التي يحملها الإنسان خلفه نتيجة بعض أعماله.

ولا شكّ في أنّ مسيرة الحقّ ترتّب على صاحبها أعباء وتبعات عند المعارضين، وبالتالي هذه الأعمال التي يقوم بها صاحب الحقّ هي ذنوب في نظر المعارضين، أو على الأقلّ يحمّلونه مسؤولية ما يقوم به. وورد في الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام: **«لم يكن أحد عند مشركي مكّة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ؛ لأنّهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمئة وستين صنماً، فلمّا جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم، وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنّ هذا لشيء عجاب. فلما فتح الله تعالى على نبيّه ﷺ [بشره الله بمغفرة هذه الذنوب عند أهل مكّة سواء في ذلك] ما تقدّم وما تأخر؛ لأنّ مشركي مكّة أسلم بعضهم، وخرج بعضهم عن مكّة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه، إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم مغفوراً بظهوره عليهم»**[(٤)].

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٤.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٤) نور الثقلين، ج٤، ص ٤٤٣.

- أمر الله بتحويل القبلة إلى الكعبة في السنة الثانية للهجرة. وجرت وقائع صلح الحديبية في السنة السادسة، وفتح مكّة في السنة الثامنة. يَعِدُ الله سبحانه في هذه الآية بإتمام النعمة فيقول: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾. وفي حجّة الوداع تتمّ هذه النعمة ويكتمل الدين بإعلان ولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وهو ما تشير إليه الآية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾[1].

قصة صلح الحديبية

عزم رسول الله ﷺ على الحج في شهر ذي القعدة في السنة السادسة للهجرة. وقد شجّع المسلمين على مشاركته في هذا السفر، فاجتمع له منهم ما يقرب من ألف وأربعمئة شخص، فأحرموا وتوجّهوا إلى مكّة. وصل الخبر إلى مسامع المشركين من أهل مكّة، فقطعوا على المسلمين الطريق في مكان يعرف بـ «الحديبية» ومنعوهم من متابعة السير إلى مكّة. ولمّا رأى أحد المشركين تعلّق المسلمين برسول الله ﷺ ومحبّتهم له وتبرّكهم بماء وضوئه، أيقن أنّ المواجهة مع المسلمين صعبة، وإبعاد المسلمين عن قائدهم يقرب من المستحيلات.

وكان النبيّ ﷺ قد أوفد عثمان إلى مكّة للتفاوض، فسرى خبر بين الناس أنهم قتلوه، فما كان من رسول الله إلاّ أن بدأ بالاستعداد للقتال، فعبّأ جيشه وأخذ منهم البيعة تحت شجرة، فعرفت تلك البيعة ببيعة الرضوان.

وبعد أيام رجع عثمان سفير رسول الله ﷺ إلى المسلمين حاملاً اقتراح معاهدة صلح بين الطرفين، فدوّنت معاهدة الصلح بحضور ممثلي الطرفين، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام المعاهدة، وجرى توقيعها، ومما جاء في بنودها: أن يحل المسلمون حيث هم ويضحّوا ويحلقوا رؤوسهم، على أن يعودوا إلى العمرة في العام القادم.

وعلى الرغم من أنّ المسلمين لم يؤدوا مناسكهم في مكّة، إلا أنّ قضيّة الصلح والاتفاق على هدنة إلى عشر سنوات، يتمكّن المسلمون في خلالها من

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

الحج والعمرة، كانت نصراً مؤزّراً للمسلمين، وذلك أنّها سدّت أبواب الحرب والعدوان في وجه المشركين، وفتحت أبواب الدعوة على مصراعيها، وبالتالي مهّدت لفتح مكّة بعد مدة لم تكن طويلة.

التعاليم:

١ ـ لا ينحصر الوصول إلى النصر بالحرب والقتال، فربّما تنتصر الأمم بوسائل أخرى كالمعاهدات مثلاً، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا...﴾، فقد سمّى الله صلح الحديبية أو فتح مكة بالفتح المبين أي النصر الواضح.

٢ ـ على المؤمن أن يلتفت إلى أنّ الله حاضر وراء كل توفيق أو نصر يحصل عليه، وليس جهدنا وذكاؤنا وقدراتنا الذاتية، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا...﴾.

٣ ـ اهتمام الله سبحانه بالنبيّ ﷺ وعنايته الخاصة به، ﴿فَتَحْنَا لَكَ... لِيَغْفِرَ لَكَ... وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ... وَيَنصُرَكَ...﴾.

٥ ـ النصر على الأعداء ليس هو الهدف الأخير وغاية المنى، بل وراء النصر نعم أخرى تعقبه، ﴿فَتَحْنَا لَكَ... لِيَغْفِرَ... وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾.

٦ ـ عندما نعمل من أجل الله سبحانه، يتولى الله الأعداء بالنيابة عنّا ويلغي كل محاولاتهم للتشويش علينا، ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

٧ ـ كل الناس بحاجة إلى الهداية الإلٰهيّة إلى الصراط المستقيم؛ حتى النبيّ الأكرم ﷺ، ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

٨ ـ ما يقدمه الله لعباده هو الأفضل دائماً، والأعظم، النصر المبين، والنعمة التامّة، والهداية إلى الصراط المستقيم وإلى غير ذلك: ﴿...فَتْحًا مُّبِينًا... وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ... وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا... وَيَنصُرَكَ... نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾

إشارات:

❑ السكينة من السكون والاطمئنان، وهي حالة من الاستقرار النفسي يمنّ الله بها

على بعض عباده في بعض حالاتهم، فَتُرتّب عليها آثار ونتائج مهمة، منها: عدم الخوف من اللوم، التوكل، عدم الأسى على ما يفوت، عدم الفرح بما ينال، تساوي حالتي الغنى والفقر عنده، والشهرة وضدّها...

□ الرعب والسكينة من الله سبحانه، فكما أنه يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب على حد قوله سبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1]، فكذلك هو الذي يلقي في قلوب المؤمنين السكينة ويظللهم بها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ السكينة الروحية من الألطاف الإلٰهيّة، ومن هنا لا يمكن لأي من الناس أن يهب هذه الحالة لأحد منهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾.

٢ ـ تلقّي اللطف الإلٰهيّ يحتاج إلى استعداد وأهلية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣ ـ محل السكينة والاطمئنان هو القلب، والوسيلة إليه هي ذكر الله سبحانه، ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ويقول سبحانه عن الذكر: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾[2].

٤ ـ الإيمان مفهوم له درجات ومراتب، وهو يقبل الزيادة والنقص، ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾.

٥ ـ يحتاج الإنسان إلى درجة من درجات الإيمان ليصل إلى السكينة، وبعد أن يحصل على السكينة، يترقى في درجات الإيمان وترتفع رتبته، ﴿أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

٦ ـ من الوسائل والطرق لاكتساب السكينة الالتفات إلى جنود الله في السماء والأرض، ﴿أَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥١. (٢) سورة الرعد: الآية ٢٨.

٧ ـ الوجود كله مجنّد بين يدي الله سبحانه، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

٨ ـ الألطاف الإلٰهيّة تصيب من تصيب وفق قواعد العلم والحكمة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥﴾

إشارات:

- كلمة «فوز» في القرآن عندما تقترن بصفات على غرار: كبير، ومبين، وعظيم، تدلّ على السعادة ونيل الخير.

- أشارت الآيتان، الأولى والثانية، إلى نعمٍ أنعم الله بها على نبيّه ﷺ، وفي الآيتين الرابعة والخامسة إشارة إلى مجموعة من النعم أنعم بها سبحانه على المؤمنين.

ونعم النبيّ ﷺ هي: النصر المبين، والمغفرة، وإتمام النعمة، وهدايته ونصرته في ظل الفتح المبين. أما النعم التي أنعم الله بها على المؤمنين، فهي: السكينة، وزيادة الإيمان، ودخول الجنّة، ومغفرة السيّئات[1].

- الجنّة محل للطهارة، لا مجال فيه للخبث المادّي أو المعنوي. ومن هنا، فإن الله يكفّر عن المؤمنين سيئاتهم ثم يدخلهم جنّته. وربّما يكون المراد من التكفير في الآية أنه سبحانه ينسيهم معاصيهم وذنوبهم كي لا يكدّر ذكرُهم إياها خاطرهم وهم في الجنّة يحبرون.

التعاليم:

١ ـ السكينة والاطمئنان من أسباب زيادة الإيمان ومن المقدمات التي تفضي إلى دخول الجنّة، ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ... لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا... لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾.

---

(١) تفسير المراغي.

٢ ـ دخول الجنّة نعمة إلهيّة تشمل المؤمنين والمؤمنات معاً وعلى حد سواء، ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ (وعلى الرغم من أنّ الفتح يتمّ على أيدي الرجال، فإنَّ المرأة شريكة في هذا الفتح، على الأقل برضاها بمشاركة الرجل القريب منها زوجاً أو أباً أو ابناً).

٣ ـ الإيمان لا يعني العصمة من الوقوع في الخطأ والمعصية، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ... وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

٤ ـ يستحق المؤمنون دخول الجنّة بإغضاء الله عن سيئاتهم وتكفيرها لهم، وليس بأعمالهم، ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ... وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

٥ ـ السعادة والفوز الحقيقي هما الجمع بين السكينة في الدنيا والجنّة في الآخرة، ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ... لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ... وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

إشارات:

- «دائرة السوء»: أي ما يحيط بهم كالدائرة من الحوادث المرّة في العاقبة[1].
- بعد أن عرضت الآيات السابقة للنعم الإلٰهيّة على النبيّ ﷺ، وعلى المؤمنين، تشير هذه الآية إلى تهديد الله الموجّه إلى المنافقين والمشركين.
- ذُكر المنافق في هذه الآية قبل المشرك، ولعلّ في ذلك إشارة إلى أن النفاق والمنافق أقبح من الشرك والمشرك.
- ورد في الرواية عن العالم من أهل البيت عليه السلام: «... **والله تعالى لا يعذب عبداً**

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة: سوأ.

بعد التوبة والاستغفار، إلا بسوء ظنّه وتقصيره في رجائه لله ﷻ...» ثم تلا هذه الآية[1].

- عبارة «لله جنود السموات والأرض» وردت في آية سابقة في سياق بيان اللطف الإلٰهيّ، وفي هذه الآية في سياق التهديد والوعيد. وذيّلت الآية السابقة بوصف الله نفسه بالعليم الحكيم، وهذه الآية ذيّلها الله سبحانه بوصف نفسه بالعزيز الحكيم. ولعلّ المراد أن الله يعلم أفعال المؤمنين وأحوالهم وإخلاصهم وضعفهم في بعض الحالات وعندما يغفر لهم لا يغفر لهم لجهله بحالهم. وأما العزة الإلٰهيّة فيراد منها القول للمنافقين والمشركين إن كل جبروتكم سوف يزول وسوف يعاملكم الله بعزته التي لا تضام، ولكنه في الحالين حكيم، يغفر عن علم وحكمة، ويعاقب بعزة وحكمة أيضاً.

التعاليم:

١ ـ من المناسب الجمع بين الترغيب والترهيب في سياق واحد، فيوجّه التهديد إلى من يستحق ويحث على الخير من يتوقع منه الخير، وربما كان ذلك من أجل اكتمال المشهد ووضوح الصورة، ﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ... وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

٢ ـ قد تكون حادثة واحدة نعمة على جماعة من الناس ونقمة على جماعة أخرى منهم؛ فتحاً وفوزاً للمؤمنين وعذاباً على غيرهم، ﴿لِيَغْفِرَ... لِيُدْخِلَ... وَيُعَذِّبَ﴾.

٣ ـ النساء كالرجال على حدّ سواء في اكتساب الفضائل أو الرذائل، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ... وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾.

٤ ـ سوء الظنّ بالله من صفات المنافقين والمشركين، وأما المؤمنون فإنّهم يحسنون الظنّ به سبحانه ويتوكّلون عليه، ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

٥ ـ المنافقون والمشركون في الشيطنة والانحراف شركاء على خطّ واحد، ﴿... ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

---

(١) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٧، ص ٣٩٩.

٦ ـ المؤمن بسبب إيمانه مطمئن متصف بسكينة القلب، وأما المنافق والمشرك فهما، بسبب انحرافهما عن الحقّ وضلالهما، سيّئا الظنّ بالله يعيشان في حالة اضطراب يحيط بهما من كل مكان، ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

٧ ـ المنافق والمشرك في الدنيا والآخرة محرومان من رحمة الله سبحانه، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

٨ ـ أفعال الله سبحانه تجري عبر الأسباب والوسائط، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٩ ـ لله سبحانه جنود وأدوات كثيرة يسخرها لجريان لطفه كما لجريان غضبه ونقمته، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ...﴾.

١٠ ـ استعراض القدرة الإلٰهيّة ينفع لحمل الناس على الإيمان ولزوم التقوى، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- التعزير في اللغة المنع، وفي هذه الآية يراد منه الحفظ والحماية من كل ما يسوء.
- من المعاني التي ربّما تكون مرادة من كلمة «شاهد» في الآية النموذج الأكمل والأتمّ، فعندما يوصف النبيّ ﷺ بأنّه شاهد، معناه أنه نموذج وقدوة، وبكلمة مختصرة: إنسان كامل.
- العبارتان: «تعزروه» و«توقروه» قد يكون المراد من الضمير فيهما الله سبحانه، وقد يكون النبيّ ﷺ، وعلى أي حال تكريم الله واحترامه يكون باحترام النبيّ.

التعاليم:

١ ـ النبيّ ﷺ شاهد على أعمالنا ومطّلع على تصرفاتنا، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾.

٢ ـ من الوظائف الموكلة إلى النبيّ ﷺ مراقبة العباد والشهادة على أعمالهم، والإنذار والبشارة، ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾. ومن الواجبات الملقاة على عاتق الناس الدفاع عن النبيّ ﷺ وعن حياض التشريع الإلٰهيّ وحدود الله، ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾.

٣ ـ من القواعد المهمّة في التربية الجمع بين الترغيب والترهيب (البشارة والإنذار)، ﴿شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾.

٤ ـ البشارة والإنذار، والتحذير والحثّ، من الحاجات الضرورية للإنسان والتي يتوقف عليها اختيارنا الطريق الصحيح، ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾.

٥ ـ حماية حياض الدين والدفاع عن رسول الله من لوازم الإيمان، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾.

٦ ـ لا بدّ من أن يقترن الدفاع عن رسول الله بالاحترام، ومن أن يكون نابعاً من المحبة له، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾.

٧ ـ على الإنسان أن يبقى في حالة ذكر دائمة لله، وأفضل الأوقات للذكر والدعاء هي الصباح والمساء، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

- قيل سميت البيعة بهذا الاسم لأنها عقدت على بيع أنفسهم بالجنّة، للزومهم في الحرب والنصرة. وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنهم بايعوا النبيّ ﷺ في بيعة الرضوان تحت الشجرة على عدم الفرار والقتال بين يديه إلى حدود الموت.

- في الآية عبارتان في حقّ الأوفياء من الناس، وذلك من باب الاهتمام والاحترام، وهاتان العبارتان هما: ﴿يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، و﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾. وأما مع الخائنين فقد أشارت إليهم الآية مرة واحدة بقوله تعالى: ﴿يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾.

التعاليم:

١ ـ العلاقة بالنبيّ ﷺ والدفاع عنه ينبغي أن يكونا دائمين وفي كل حال وليس في أوقات دون أخرى وبشكل موسمي، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ... إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾. والمعنى المشار إليه يستفاد من التعبير بالمضارع الذي يدلّ على الاستمرار.

٢ ـ لا تنافي بين أخذ البيعة من الناس وبين التوكّل على الله وتوحيده، ﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

٣ ـ إنما يحقّق النبيّ ﷺ ويفعل ما يريده الله ويرغب فيه، ولا يقدم النبيّ ﷺ على فعل ليس لله فيه رضاً، ﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

٤ ـ بيعة النبيّ ﷺ هي في الحقيقة بيعة مع الله، ﴿يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

٥ ـ على قائد المسلمين أن يجدد التأكيد على وفاء الناس والتزامهم مرّة بعد أخرى، وذلك لأن القرائن الموجودة في الآية تدلّ على أن هذه البيعة لم تكن البيعة الأولى، وما ورد في الروايات حول نزول الآية يدلّ على هذا المعنى[١].

٦ ـ يترتّب على الدفاع عن رسول الله أن يدافع الله عن الإنسان ويتولّى حمايته، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

٧ ـ لا ينبغي أن يغترّ القائد بحماية الناس إياه والتفافهم حوله، فقدرة الله أبقى من أي شيء آخر، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

٨ ـ ليس الله في حاجة إلى حماية أحد أو دفاعه؛ وعليه يجب على الخائن وناكث العهد أن يلتفت إلى أن الضرر والخسران يرتدّان عليه وقدرة الله فوق قدرته، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ﴾.

٩ ـ نقض العهد ونكثه هو نكث على النفس قبل أن يكون إخلالاً بالميثاق مع الطرف الآخر، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾.

---

(١) تفسير راهنما.

١٠ ـ من الأمور المجدية والمفيدة في مقام الدعوة والإرشاد، بيان عاقبة المحسنين والمسيئين، ﴿فَمَن نَّكَثَ... وَمَنْ أَوْفَىٰ...﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- «الأعراب» هم الذين يسكنون البوادي فراراً من الحضارة والثقافة والالتزامات المدنية. ولا شكّ في أنه لا يراد من هذه الكلمة المعنى المقابل للسكن في المدن، بل تطلق هذه الكلمة على الجماعات التي كانت بعيدة عن الحضارة والثقافة وكانت تقف موقف العداء من رسول الله ﷺ.
- من يتهرّبون من الجهاد يحاولون تبرير فرارهم بأشكال مختلفة ورد كثير منها في القرآن الكريم:

ـ فمرة يتعللون بشدّة الحر، ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾[(١)].

ـ وأخرى يجعلون عذرهم العجز عن مواجهة العدوّ لكثرة عدده، ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾[(٢)].

ـ وثالثة يتخذون من مواقع بيوتهم وأوضاعها حجّة للفرار، ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾[(٣)].

ـ ورابعة يظهرون الخوف من الافتتان بنساء العدوّ إن هم خرجوا إلى قتاله، ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾[(٤)].

ـ وخامسة يتعللون بالانشغال بالأموال والأولاد والعيال، ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٨١.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ١٣.
(٤) سورة التوبة: الآية ٤٩.

❑ يغطّي الفارّون من الجهاد الخوف بالاحتياط، والحرص والطمع بالسعي لتأمين المستقبل، وضعف النفس بالحياء، والفشل بالزهد، والضعف بالقضاء والقدر الإلٰهيّين والرضا بإرادة الله.

التعاليم:

١ ـ من العوامل المساعدة على ترك الجهاد التخلّف الثقافيّ والانحطاط الفكري، ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾.

٢ ـ على القائد أن يستشرف المستقبل ويتوقع مواقف المحيطين به من منافقين وغيرهم، ليقدم الجواب المناسب في الوقت المناسب، ﴿سَيَقُولُ... قُلْ﴾.

٣ ـ كل من يخالف ويتخلّف يحاول تبرير فعله ولو بأعذار واهية، ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾.

٤ ـ الاهتمام بالأهل والولد والأموال والأوضاع الاقتصاديّة تشغل الإنسان عن واجباته الدينيّة والاجتماعيّة ومنها الجهاد، ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾.

٥ ـ التخلّف عن الجهاد معصية، ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾.

٦ ـ دعاء النبيّ ﷺ واستغفاره لغيره من الناس مؤثّر ومجدٍ، والناس يتوقعون من الله أن يقبله، ولذلك يطلبون منه ﷺ الاستغفار والدعاء لهم، ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾.

٧ ـ في بعض الأحيان من المناسب كشف بعض الأمور المستورة وفضحها، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾.

٨ ـ الفرار من الجهاد لا يحمي الأموال والأرواح، ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾.

٩ ـ الدفاع عن الدين من الواجبات التي تسقط بالخوف من الضرر، ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾.

١٠ ـ يبدو أن المنافقين والذين يفرّون من الجهاد لا يعلمون أنّ الله مطّلع على ما يضمرون في قلوبهم، وربّما لو آمنوا بسعة علم الله لما فعلوا ما فعلوه، ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝١٢ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾

إشارات:

- «بور» من البوار، وهو فرط الكساد، يؤدّي إلى الفساد كما قيل كسد حتى فسد. عبَّر بالبوار عن الهلاك، يقال بار الشيء بواراً.
- الإنسان بفطرته الصافية الخالصة ينفر من الأعمال القبيحة، ولا يقدم عليها إلا بعد تزيين الشيطان إيّاها في عينيه.
- يبدو أن الفارّين من الجهاد في عصر النبيّ ﷺ كانوا يظنون أن المسلمين سوف يقضى عليهم ولن يبقى منهم إلا القليل، ولذلك فإنهم خلعوا جلباب الحياء وأظهروا كثيراً مما كانوا يخشون ظهوره من بخل وجبن وغير ذلك من الصفات السيّئة التي يتصفون بها.

التعاليم:

١ ـ يعلم الله ما يدور في خلد الناس وما يضمرون في صدورهم. وهو كثيراً ما يستر عليهم، ولكنه في بعض الحالات يكشف المستور، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾.

٢ ـ كثير من التحليلات والحسابات التي يجريها الإنسان لا تطابق الواقع ولا تكون كما كان يتوقع، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾.

٣ ـ يرتفع منسوب سوء الظنّ عند الإنسان في بعض الحالات، حتى يقارب اليقين، ويودي بالإنسان إلى ما لا تحمد عقباه من مواقف ما كان له أن يتخذها لو دقّق في حساباته التي بناها على الظنّ، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ﴾.

٤ ـ الخوف من الهزيمة من الأسباب التي تدعو الإنسان إلى الفرار من الجهاد، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ﴾.

٥ ـ الاهتمام بالأسرة، إلى حدود تتجاوز المعقول، يتحول إلى عائق عن الجهاد، وداع من دواعي الفرار منه، ﴿لَّن يَنقَلِبَ... إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

٦ ـ قد يبالغ الإنسان في بعض الحالات في محبّة أسرته وأبنائه إلى حد يدعوه إلى التضحية برضا الله والرسول، من دون أن يشعر أنه يتصرّف بشكل غير مناسب؛ بل يحسب ذلك هو الصواب والفعل الحسن، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

٧ ـ سوء الظنّ والحسابات الخاطئة تؤدي إلى بوار قلب الإنسان وخراب شخصيّته، ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

٨ ـ معصية رسول الله ومخالفة أوامره من المؤشرات على عدم صدق الإيمان، ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- في الموارد التي يخبرنا فيها الله سبحانه عن أنّه «يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء» يكون المراد منها، بعد الاعتقاد بعدل الله وحكمته، أن يرى الإنسان نفسه أهلاً للمغفرة في الموارد التي هي محلّ للمغفرة والرحمة، وأهلاً للعقاب والعذاب في الموارد المناسبة لذلك.

التعاليم:

١ ـ من بيده المغفرة والعفو هو صاحب القدرة المطلقة، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ... يَغْفِرُ﴾.

٢ ـ لطف الله يغلب قهره وغضبه، ﴿يَغْفِرُ... وَيُعَذِّبُ﴾. يستفاد هذا المعنى من تقدّم المغفرة على العذاب.

٣ ـ لا بد من التوأمة بين الخوف والرجاء، والأمل والخشية، ﴿يَغْفِرُ... وَيُعَذِّبُ﴾.

٤ ـ باب التوبة مفتوح في وجوه العباد على الدوام، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٥ ـ في الوقت الذي يصلح الله للإنسان ماضيه، هو قادر برحمته على أن يصلح مستقبله بالوعد المتجدد بالمغفرة الدائمة، ﴿يَغْفِرُ... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٦ ـ مغفرة الله سبحانه تنشأ من رحمته وليس من حاجته إلى المغفرة، ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

- ورد في سبب نزول الآية أن بعض المتخلّفين عن الحديبية أرادوا اللحاق بالمسلمين في خيبر فقرر النبيّ ﷺ أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيره، فأرادوا تغيير الأمر عما أراد فكشفهم الله بنزول الآية[1].
- الآيتان ١٢ و١٣ تؤكّدان أنّ سبب ترك الجهاد في الحديبية هو سوء الظنّ بالله وضعف الإيمان. وقد حاول هؤلاء الأشخاص الإصرار على المشاركة في خيبر لينفوا التهمة عنهم، وليثبتوا عدم انطباق الآيتين عليهم.

التعاليم:

١ ـ على أهل القرار أن يرفعوا من الروح المعنوية للمؤمنين. والله في هذه الآية يعد المؤمنين بغنائم خيبر بعد ما أصابهم جراء الحديبية وأحداثها، ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ بدل أن يقول: «انطلقتم إلى الجهاد».

٢ ـ بعض الناس انتهازيون يبحثون عن المغنم فيشاركون في أوقات الرخاء وفي حالات توقع المكاسب، ﴿مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾.

٣ ـ يريد المتخلّفون أن يبدّلوا كلام الله ويحوروا مضمونه، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ لا بد من تخصيص المجاهدين المخلصين ببعض الامتيازات التي لا ينالها الذين يقصّرون في أداء واجباتهم، ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص ١٩١.

٥ ـ على الإنسان القيادي أن يقول ما يريد الله وينسب مضمون كلامه إلى الله، ﴿قُل... كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ لا ينبغي أن يخشى الإنسان التهمة والتهديد، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

٧ ـ يغيّر العدوّ شعاراته وسلوكه بحسب الظروف والأوضاع المحيطة به. ففي بعض الحالات يريد تغيير كلام الله وتحريفه وعندما يعجز عن ذلك يغيّر موقعه ويتحوّل باتّجاه المؤمنين ويتّهمهم بالحسد، ﴿سَيَقُولُ... ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ... فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

٨ ـ عندما يستبدّ الانحراف بالإنسان يعجز عن فهم موقعه وأسباب فشله، فبدل أن يعود إلى نفسه ليفتّش عن نقاط الضعف فيها، يخطئ التحليل فيرجع الفشل إلى حسد المؤمنين، ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

التعاليم:

١ ـ ينبغي إبقاء باب الحوار مفتوحاً مع المخالفين والمعارضين، ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾.

٢ ـ الإخبار عن المستقبل من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾.

٣ ـ لا ينبغي سدّ باب العودة في وجوه المختلّفين على الرغم من تخلّفهم؛ وذلك كي لا نخسرهم إلى الأبد، ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾.

٤ ـ ينغي أن لا نستهين بقدرات العدوّ، ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

٥ ـ على القائد أن يعدّ جيشه ويعرّفه بنقاط قوّة العدوّ وضعفه؛ ليقاتل عن بصيرة ودراية ولا يفاجأ بقوّة عدوّه، ﴿أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

٦ ـ لا ينبغي أن نغفل عن ذكر الحقّ حتّى في حقّ العدوّ، ﴿أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

٧ ـ قوّة العدوّ القتاليّة ليست معيقة للإنسان عن أداء واجباته، ﴿أُولِى بَأْسٍ... تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾.

٨ ـ على المسلمين أن يضعوا نصب أعينهم دعوة العدوّ إلى الإسلام، ولو من خلال رصّ صفوفهم وتقوية بنيتهم الدفاعيّة، ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾.

٩ ـ ساحة الجهاد وميدان الحرب من الساحات التي تظهر ما يخفيه الإنسان في باطنه من طاعة أو معصية، ﴿تُطِيعُواْ... تَتَوَلَّوۡاْ﴾.

١٠ ـ الإحسان وفعل الخير قد يجبر ماضي الإنسان ويصلح ما فات، ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ... فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾.

١١ ـ في التبليغ والدعوة إلى الله يجب تقديم البشارة على التهديد وإثارة الأمل قبل التخويف؛ ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾، قبل قوله: ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

١٢ ـ على الداعية إلى الله أن يقرن الترغيب بالترهيب، ﴿أَجۡرًا حَسَنٗاۖ... عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾

إشارات:

- معيار الإعفاء من الجهاد الأمراض التي تعيق الإنسان عن الحركة والقدرة على القتال كالعمى والعرج، وليس طول القامة وقصرها، أو غير ذلك من الأمور الشكليّة.
- على الرغم من أنّ بعض الناس معفون من الجهاد لعجزهم عن المشاركة في القتال، إلا أنّ هؤلاء يمكنهم المشاركة في الجهاد ولو بالنصيحة ونية الخير، كما ورد في الآية ٩١ من سورة التوبة: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ... حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾.

التعاليم:

١ ـ على المقنّن أن يلاحظ الحالات الخاصة والاستثناءات عند سنّه القوانين،

فيشير إلى الحالات الخاصّة فيخرجها من دائرة القانون العامّ، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...﴾.

٢ ـ لا ينبغي أن يشعر المعاق بأي حرج بسبب عجزه عن القيام بواجبه، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ...﴾. وتجدر الإشارة إلى أنّ الآية تنفي كل أشكال الحرج، لأنّ كلمة «حرج» نكرة في سياق النفي وذلك من صيغ العموم كما يقال في علم الأصول والبلاغة.

٣ ـ التكاليف الإلٰهيّة تكون بحسب الطاقة والقدرة، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ...﴾.

٤ ـ لا يمنع الله العاجزين عن القيام ببعض الواجبات من دخول الجنّة شرط أن يطيعوا في ما هم قادرون على الطاعة فيه، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ... وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾.

٥ ـ النبيّ معصوم ولذلك يجب أن يطاع في كل ما يأمر به، وطاعته من طاعة الله، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٦ ـ المعيار الأساس في دخول الجنّة هو الطاعة، على الرغم من أن الشفاعة تنفع وتساعد في تقريب الإنسان من الجنّة وإبعاده عن النّار، ﴿وَمَن يُطِعِ﴾.

﴿۞لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

- كانت العادة تقضي أن يتصافح المتبايعان بعد عقد البيع، ثم تحوّل ذلك إلى كل اتفاق، وصار يطلق اسم البيعة على التوافقات والعهود التي تتم بين القائد وبين الناس.
- البيعة عهد شرعي يجب الوفاء به والالتزام بمضمونه.
- لا تنافي بين البيعة وبين تعيين الرسول أو الإمام من الله سبحانه، فالبيعة إعلان للطاعة وليست تولية وتكليفاً بالقيادة.

❑ الشجرة في الآية هي الشجرة التي جلس في ظلّها النبيّ ﷺ لأخذ البيعة من المسلمين، ولنزول قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ﴾ سمّيت ببيعة الرضوان.

التعاليم:

١ ـ الإيمان الذي يرضاه الله ويريده هو الإيمان المقرون بالوفاء للرسول والثبات بين يديه، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾.

٢ ـ الدين والسياسة مترابطان، فالله سبحانه يرضى عن المؤمنين الذين يؤدّون واجباتهم تجاه الرسول فيبايعونه على مشاركته أهدافه الاجتماعيّة والسياسيّة وغيرها مما يتعلّق بالشأن العام، ﴿رَضِيَ اللَّهُ... إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾.

٣ ـ من المناسب الإشارة إلى التفاصيل والجزئيات عند توثيق الأحداث التاريخية المهمّة، ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

٤ ـ يخصّ الله ببعض ألطافه من يعلم صدق نياتهم وإخلاصهم في الإيمان، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾.

٥ ـ السكينة هدية من الله يظلّل بها قلوب المؤمنين، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾.

٦ ـ لا تنافي بين إخلاص النيّة وصدقها، وبين الحصول على المكاسب والمغانم، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ... وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

٧ ـ الوفاء لرسول الله من المقدّمات التي تجعل الوفيّ أهلاً لتلقّي الفيض الإلهيّ، ﴿رَضِيَ اللَّهُ... فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

٨ ـ النعم المعنوية أهمّ وأرفع شأناً من النعم المادّية؛ ولذلك تقدّمت الإشارة إليها في الآية، ﴿...فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

٩ ـ الحركة الواحدة إذا صدرت مقرونة بالإخلاص يتبعها من الله أضعافها، ﴿يُبَايِعُونَكَ... فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَأَثَابَهُمْ... وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

١٠ ـ السكينة من مقدّمات النصر والفوز، ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ... وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

١١ ـ النصر لطف من الله وليس تابعاً لقدرات الإنسان نفسه بغضّ النظر عن إرادة الله ومشيئته، ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. ويجدر التذكير بأول السورة حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾.

١٢ ـ عندما يكون العمل فيما يرضي الله لا بدّ من توقع تحقّق وعود الله فهو الحكيم وهو القادر على إنجاز ما وعد، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ۝٢٠﴾

إشارات:

□ وعد الله في الآيتين السابقتين الذين بايعوا النبيّ ﷺ بالفتح القريب. ويرى أكثر المفسّرين أنّ المراد بهذا الفتح هو فتح خيبر. ومن هؤلاء المفسرين: الطبري، والطوسي، والزمخشري، والمراغي، والطبرسي. وخيبر هو حصن من حصون اليهود يقع على بعد مئتي كليومتر تقريباً عن المدينة، وموقع الحصن في مرتفعات صعبة الوصول، محاطة بأراض زراعية. وكان يسكن الحصن وأطرافه ما يقرب من عشرة آلاف يهودي. ولهذا الحصن باب عجيب يروى أنه كان يحتاج إلى أربعين رجلاً لتحريكه.

وقد تحوّل الحصن إلى مقرّ ومأوى للمتربّصين بالإسلام، ولذلك عزم المسلمون على إسقاطه بعد شهر من صلح الحديبية. وقد أرسل النبيّ ﷺ عدداً من الحملات لفتح الحصن واقتحامه، يرأس كل واحدة منها واحد من الصحابة، فباءت جميعاً بالفشل، إلى أن قال في أحد الأيام: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه». وفي اليوم التالي عقد الراية لعليّ عليه السلام.

□ الاهتداء إلى الصراط المستقيم من أعظم النعم الإلهيّة على الإنسان، ولذلك فإنه سبحانه يدعو الإنسان إليه ويندبه إلى طلب هذه الهداية منه سبحانه ليل نهار، في الصلاة وفي غيرها من الحالات، ولا يستثنى من هذه الدعوة أحد من عباده، فها هو سبحانه يصف النبيّ ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾[1]. ومع ذلك هو مأمور بطلب هذه الهداية في كل صلاة عند قراءة

---

(١) سورة يس: الآيتان ٣ و٤.

قوله تعالى ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ من سورة الفاتحة. وإذا كان هذا هو حال النبيّ ﷺ فإنّ حال الإنسان العاديّ أدقّ وأكثر حراجة، وعلينا أن نلتفت إلى الخطر الدائم وهو خطر الانحراف عن هذا الصراط.

التعاليم:

١ ـ السيطرة على غنائم الحرب أمر مشروع ومجاز في قوانين الجهاد الإسلاميّ، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

٢ ـ التنمية الاقتصاديّة وتحسين الأحوال الاقتصاديّة للمسلمين من المواهب الإلٰهيّة والنعم التي يمنّ بها الله على المسلمين، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾.

٣ ـ ما حصل عليه المسلمون من الغنائم في خيبر، وفي غيرها، ليس هو كل ما وعد الله سبحانه، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

٤ ـ العجلة مقبولة في بعض الأحيان، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

٥ ـ الغنائم تكون ذات منفعة ويأنس بها الإنسان عندما تكون مقرونة بالأمن، ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾.

٦ ـ كفّ أيدي العدوّ وأذاه عن المسلمين من النعم الإلٰهيّة، ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾.

٧ ـ على الإنسان أن لا يحكم على الأحداث المؤلمة، أو المفرحة، بحسب ظواهرها فقط وآثارها المباشرة عليه، بل عليه أن يراها مظهراً من مظاهر قدرة الله سبحانه وعلامة من علامات تدخّله في حياة الإنسان، ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٨ ـ الغنيمة، والأمن، والهداية، هي الثواب الإلٰهيّ المعجّل للمؤمنين، ﴿مَغَانِمَ... وَكَفَّ أَيْدِىَ... وَيَهْدِيَكُمْ﴾.

٩ ـ المال والثروة من المزالق التي يُخشى على الإنسان معها من الانحراف والسقوط. ومن مظاهر اللطف الإلٰهيّ بالإنسان اجتماع الثروة مع الهداية، ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً... وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

١٠ ـ على الإنسان أن يطلب الهداية إلى الصراط المستقيم دائماً، حتى بعد بيعة رسول الله والتشرّف برضا الله عنه، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

❑ يحدثنا القرآن الكريم في مواضع عدّة عن الاقتران بين العسر واليسر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]، وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[2]. فقد كانت السنوات الأولى بعد بعثة النبيّ ﷺ سنوات عذاب واتهام وتآمر على الإسلام والمسلمين. والسنوات الأولى بعد الهجرة كانت ملأى بالحروب والمعارك والجرحى والشهداء. وقد تحقق وعد الله باليسر في السنة الأخيرة من حياة النبيّ ﷺ، ويتجلّى ذلك في الوعود والأخبار التي تتضمنّها هذه السورة: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾، ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾.

التعاليم:

١ ـ الوعد بالغنائم في المستقبل مبنيّ على العلم والقدرة الإلٰهيّين، ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾.

٢ ـ على الإنسان أن لا يحسب أنّ الحصول على الغنائم تابع لذكائه وقوّته، بل هو نعمة وتدبير إلهيّ، ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾.

٣ ـ ينبغي أن يلتفت الإنسان إلى نقاط ضعفه حتى وهو في حالات القوّة وعندما يحالفه النجاح، فقد مرّ في الآيات السابقة، ﴿فَتْحًا قَرِيبًا... مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾. وهنا يلفت الله نظر الإنسان إلى ضعفه، حيث يقول: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾.

---

(١) سورة الانشراح: الآيتان ٥.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٧.

٤ ـ يجب أن نثق بوعود الله ونحسن الظنّ به سبحانه، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً... قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾.

٥ ـ آيات القرآن مدرسة للتربية على التوكّل والتوحيد، ومدرسة للإنسان الموحّد، ﴿وَعَدَكُمُ... فَعَجَّلَ... كَفَّ... وَيَهْدِيَكُمْ... أَحَاطَ ٱللَّهُ... وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

٦ ـ من يُطْمَأَنّ إلى وعده ويراهن عليه، هو القادر على الوفاء بالوعد، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- معنى الآية، بناء على ارتباطها بقضية صلح الحديبية، أنّ الإقدام على الصلح والرضا بمعاهدة العدوّ لم يكن سببه ضعفكم وعجزكم عن مواجهة عدوّكم، بل كان لأسباب أخرى فيها مصالحكم، ولو لم تصالحوا وأقدم العدوّ على قتالكم لانتصرتم عليه.
- يوم القيامة يتّضح أنّ الكافر ليس له وليّ ولا نصير حتّى لو كان هو القويّ بحسب الظاهر في الدنيا، والمؤمن على العكس تماماً يستند إلى ولاية الله ونصرته وهو حسبه، حتى لو بدا في الدنيا ضعيفاً قليل الحيلة. وهذا ما يشير إليه الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة بقوله: «**ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك؟**».

التعاليم:

١ ـ لقد قويت شوكة المسلمين بعد ضعفهم إلى حد يعجز العدوّ عنده عن مواجهتهم، ولذلك فهو يلوذ بالفرار عندما تحين ساعة اللقاء، ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ... لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾.

٢ ـ من لم يكن الله ناصره فلا ناصر له، ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- تشبه هذه الآية في معناها قوله تعالى في سورة المجادلة في الآية الحادية والعشرين: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾.
- التاريخ وما فيه من أحداث لا يسير بشكل عشوائي، وإنما هو خاضع للقوانين والسنن الإلٰهيّة، فالغنى والفقر، والعزّ والذلّ، والنصر والهزيمة، كل ذلك خاضع للسنن الإلٰهيّة. ومن السنن الإلٰهيّة انتصار الحقّ على الباطل ولو بعد حين.

التعاليم:

١ ـ الأحداث التاريخية لا تقع صدفةً، بل تسير وفق قانون وخطة ونظام، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾.

٢ ـ قوانين الإنسان تابعة لتجاربه وأخطائه، وأما السنن الإلٰهيّة فهي فوق الزمان والمكان، ولذلك فهي ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

٣ ـ لا تفقد السنن الإلٰهيّة فعاليتها بمرور الزمان، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

- يبدو أنّ الآية تشير إلى صلح الحديبية، وذلك أنّ المشركين كانوا مستعدّين لقتال المسلمين، والنبيّ ﷺ بدوره أخذ البيعة من أصحابه تحت الشجرة كما ورد في آية سابقة من هذه السورة؛ ولكن الأمور انتهت إلى توقيع الصلح، وهذا معنى كف أيدي كل من الطرفين عن الآخر.

□ تشير الآية إلى كفّ الله أيدي المشركين عن المسلمين، وإلى كفّ أيدي المسلمين عن المشركين أيضاً. وهذا الكفّ من الطرفين كان نعمة إلهيّة؛ لسببين، أحدهما، أن الله حفظ قداسة الكعبة والمسجد الحرام ولم يسمح بإراقة الدم فيهما، والأمر الثاني هو نعمة الأمن لعشر سنوات فازداد عدد المسلمين واستطاعوا بعد سنتين أن يدخلوا مكّة فاتحين. وهذا من نتائج الصلح وبركاته. ولو وقعت الحرب لكثر القتل بين المسلمين والمشركين، وأُريقت الدماء في الحرم، ولترتّب على ذلك كله آثار لا يعلمها إلا الله. وربّما لهذه الأسباب جميعاً عدّ الله «صلح الحديبية» «فتحاً».

التعاليم:

١ ـ من السنن الإلٰهيّة الحتميّة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل، لطف الله بالمؤمنين، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾.

٢ ـ النصر والتقدّم وكل ما يصيبه الإنسان من خير هو بتدبير وإرادة إلهيّين، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي...﴾.

٣ ـ الأمن من أذى العدوّ، وخاصة عندما يكون الإنسان بين يديه وفي أرضه، من النعم الإلٰهيّة الكبرى على الإنسان، ﴿بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾.

٤ ـ الصلح في بعض الحالات قد يكون من مؤشّرات النصر والظفر وعلاماته، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ «معكوفاً» أي محبوساً وممنوعاً. والهدي المعكوف أي المحبوس والموقوف للذبح ضمن مراسم الحجّ ومناسكه. والشخص المعتكف هو الذي حبس نفسه في مكان مقدّس لعبادة الله سبحانه.

- «المعرّة» الأمر القبيح المكروه، و«تزيّلوا» أي تميّزوا وانفصل بعضهم عن بعض، والمراد هنا امتياز المؤمنين عن المشركين.
- تشير هذه الآية إلى أحد أسباب الصلح وهو أنه كان بين المشركين عدد من المسلمين يؤدّون مناسك الحج، ولو أصرّ المسلمون على دخول مكّة بالقوّة لأصابوا شيئاً من دماء هؤلاء المسلمين لعدم معرفتهم بهم، فأراد الله أن يحفظ دماء هؤلاء المسلمين فأمر نبيّه بالصلح والمعاهدة.
- عن الإمام الحسن عليه السلام في تبرير قبوله بالصلح مع معاوية: «**فإني تركته لصلاح الأمة وحقن دمائها**»(١).

التعاليم:

١ - لم تكن موافقة المشركين على الصلح مؤشّراً على تنازلهم عن معتقداتهم وشركهم، بل وافقوا عليه وهم كافرون مصرّون على الكفر والعناد، ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ... هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.

٢ - للأضحية في الحجّ مكان محدّد. وقد وجّه الله سبحانه اللوم إلى الكفّار لصدّهم المسلمين عن الوصول إلى حيث يذبحون الأضاحي، ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

٣ - على القيادة الإسلاميّة أن تبيّن أسباب اتخاذ القرار بالحرب والسلم، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ (الأوامر الإلٰهيّة كلها لها أسباب وغايات، وأمر الله بصلح الحديبية سببه الحفاظ على دماء المسلمين المجهولين).

٤ - تقديم الأهمّ على المهمّ من القواعد العقليّة والشرعيّة والعرفية، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ (وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى أنّ حفظ دماء المسلمين أهمّ من خوض الحرب مع المشركين حتى لو كانت احتمالات النصر متوفّرة كما في الآية السابقة).

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٢٠٥؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٤، ص ٣٠.

٥ ـ دماء المسلمين محترمة، ولا فرق بين دم المرأة المسلمة والرجل المسلم، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾.

٦ ـ الإنسان مسؤول عن الدماء حتى لو كان لا يعرف أنّها دماء محترمة، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ... لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾.

٧ ـ يريد الله سبحانه أن لا يصيب المسلمين أيّ أمر قبيح يؤاخذون عليه في الدنيا والآخرة، أو يعاب عليهم في الدنيا والآخرة كذلك، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾.

٨ ـ على القيادة الإسلاميّة أن تدقق في قراراتها وتجيل الفكر في الآثار والنتائج التي يمكن أن تترتّب على أي قرار تتخذه سواء في ذلك الحرب أم السلم، أو غيرهما من القرارات، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ وذلك كي لا يقع المسلمون وقائدهم في خطأ غير مقصود.

٩ ـ لا ينبغي للمسلمين أن يعطوا العدوّ حجّة ومستمسكاً يستفيد منه إعلامياً أو سياسياً، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. فلو دخل المسلمون مكّة عنوةً وقُتل في الهجوم بعض المسلمين خطأ لاستغلّ المشركون هذه الدماء وشنّعوا على المسلمين أنّهم عتاة قساة لا يرحمون حتى أبناء دينهم.

١٠ ـ في بعض الأحيان يكون الصلح وسيلة من وسائل الدعوة والتبليغ، أو على الأقل يفتح أبواب القلوب في وجه الدعوة الإسلاميّة، ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

١١ ـ الكفار مستحقّون للعذاب والعقاب الإلٰهيّ، وإنّ العذاب سيصيبهم حتى في الدنيا عندما يمتازون عن المسلمين، ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ﴾.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ «الحميّة» في الأصل الحرارة، وتستعمل في هذا السياق للدلالة على التعصّب

لأفكار الآباء والأجداد وعاداتهم والتمسّك والتعصّب مذموم عندما لا يكون مبنيًّا على المنطق والدليل، وإلا فإنّ التعصّب للحقّ والإصرار عليه ممدوح مندوب إليه.

- عندما دوّنت بنود الصلح في الحديبية كتب الإمام علي عليه السلام في مطلع وثيقة الصلح جملة «بسم الله الرحمن الرحيم»، فاعترض المشركون لأنهم رأوا أنّ البسملة شعار المسلمين وهم لا يوافقون عليه، وطالبوا أن يكتب عوضاً عنها «باسمك اللهم». ثم اعترضوا على الإشارة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بعبارة: «محمد رسول الله»، وطالبوا بكتابة اسم النبيّ صلى الله عليه وآله دون وصفه بالرسالة. وفي الحالتين قبل النبيّ صلى الله عليه وآله اعتراضهم. وكان ذلك من أمارات التعصّب والحميّة عند المشركين، والاطمئنان والسكينة عند المسلمين.

- يقع الإسلام على طرف النقيض والمواجهة لكل ما يمتّ إلى الجاهلية وآدابها وتقاليدها بصلة، ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[١]، ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[٢]، و﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

- القلب، في الاصطلاح القرآنيّ، محل للعلاقة بين الإنسان والله، ومنبت للفضائل والرشد، ومن جهة أخرى محل للرذائل والمفاسد:

الرشد المعنوي: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾[٣]، ﴿أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، و﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[٥].

منبت الرذائل: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[٦]، ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[٧]، ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٨].

- ورد في الحديث تفسير «كلمة التقوى» بالإيمان[٩].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
(٣) سورة الرعد: الآية ٢٨.
(٤) سورة الفتح: الآية ٤.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٥١.
(٧) سورة الأعراف: الآية ١٠١.
(٨) سورة الزمر: الآية ٤٥.
(٩) تفسير نور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ التعصّب الجاهلي من الدوافع إلى صدّ المسلمين عن المسجد الحرام، ﴿صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ... فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾.

٢ ـ من أساليب مواجهة التعصّب وحميّة الجاهلية السكينة والهدوء، ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ... فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾.

٣ ـ تنمو المفاسد الأخلاقيّة في بيئة الكفر. والإيمان بالله سبحانه من موانع استبداد الغرائز السلبية، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ...﴾.

٤ ـ التعصّب والثبات على الموقف من الصفات الحميدة عندما يكون مستنداً إلى المنطق والبرهان، وما يذمّه الله ويدينه هو التعصّب للجاهلية وقيمها، ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

٥ ـ لا ينبغي مواجهة التصرّفات السيئة بمثلها، ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾.

٦ ـ لا يتخلّى الله عن المؤمنين عندما يواجَهون بالتعصّب وحميّة الجاهلية، بل يشاركهم في مواجهة ما يوجّه ضدّهم، ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾.

٧ ـ لا تتاح السكينة ولا يحصل عليها الإنسان بزيادة العديد والعدّة، بل هي هبة إلهيّة يمنّ الله بها على من يشاء من عباده، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾.

٨ ـ عندما يرى الله ورسوله أنّ الصلح في الحديبية أفضل من الحرب، على المؤمنين أن يلتزموا بذلك ويذعنوا له، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

٩ ـ التقوى تكتسب قيمتها من دوامها واستمرارها، وتفقد قيمتها عندما تكون موسمية وتابعة للظروف والأوضاع المتغيّرة، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

١٠ ـ يجب أن يتوفّر الإنسان على الأهلية والاستعداد لتلقّي اللطف الإلٰهيّ، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

١١ ـ اتخاذ المواقف، واختيار الموقف المناسب منها، ينبغي أن يخضع لمعايير العلم والمعرفة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

□ ورد في كتب التاريخ أن رسول الله ﷺ رأى في منامه أنّ المسلمين يدخلون المسجد الحرام آمنين مطمئنين، محلّقين رؤوسهم ومقصّرين أظافرهم، بعد أداء مناسك العمرة. فأخبر المسلمين بما رأى فدخل عليهم السرور والغبطة بما سمعوا منه واستبشروا خيراً. ولم يطل المقام بهم في المدينة حتى عزموا على الحجّ، ولما وصلوا إلى مشارف مكّة سبقهم خبرهم إلى قريش، فقطعوا عليهم الطريق ومنعوهم من متابعة السير عند الحديبية، وعزموا على قتالهم وقتلهم، فأخذ النبيّ ﷺ البيعة من أصحابه وعزم على الدفاع، ولكن الله أمره بعقد الصلح مع قريش لأسباب عدة أحدها: الحفاظ على دماء المسلمين المقيمين في مكّة كي لا يُقتلوا على أيدي المسلمين خطأً، فيكون ذلك باباً من أبواب التشنيع عليهم من قبَل المشركين، ولغير ذلك من الأسباب. وكان ما أراد سبحانه. وترتّبت على الصلح آثار حسنة جمّة ودخل كثير من الناس في الإسلام في السنتين الأولى والثانية من الصلح.

ولكنهم، على أي حال، لم ينالوا ما كانوا يتوقعون من الحجّ، فأثار ذلك أسئلة في أذهان بعض المسلمين: لمَ لم يتحقّق ما رآه النبيّ في منامه؟! وكان جواب النبيّ هو التطمين وبثُّ الأمل بتحقق هذا الحلم ولو لم يكن في سنتهم هذه. وعاد المسلمون إلى المدينة، وحجوا في العام اللّاحق وأخلى لهم المشركون المشاعر بحسب الاتفاق المعقود بين الطرفين، فحجّوا من دون أن يعكّر صفوهم كدر. ولكن لم تطل مدة وفاء المشركين بعهودهم، ونقضوا الصلح وصار المسلمون في حلّ منه، وفتحوا مكّة من دون أن يراق لأحد دم[١].

□ الآيات: ١١، و١٥، و١٦ تبدأ باستشراف المستقبل، «سيقول»، «ستدعون».
وهذه الآية كذلك تستشرف المستقبل بالحديث عن الرؤيا التي رآها النبيّ ﷺ.

---

(١) انظر: تفسير نمونه، ج٢٢، ص١٠٢.

❑ «الفتح القريب» هو فتح مكّة أو فتح خيبر، وربّما يكون صلح الحديبية، لأنّه في الواقع كان نصراً مؤزّرا للمسلمين.

❑ في الرواية عن عليّ عليه السلام: «**أن رسول الله ﷺ قال: اللهم ارحم المحلّقين، فقيل: يا رسول الله والمقصّرين؟ فقال: والمقصّرين في الرابعة، فالحلق أفضل والتقصير يجزي، قال تعالى: ﴿...مُحَلِّقِينَ... وَمُقَصِّرِينَ...﴾ فبدأ بالحلق وهو أفضل**»[1].

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من أن تتحقّق رؤى الأنبياء وأحلامهم، ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾.

٢ ـ دخول المسلمين إلى مكّة من المغيّبات التي كشفها القرآن قبل تحققها، وهي مصداق من مصاديق إعجازه، ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾.

٣ ـ على الرغم من أنّ الرؤيا كانت رؤيا صادقة من النبيّ ﷺ، إلا أنّ الإخبار عن المستقبل ينبغي أن يقترن بالتعليق على المشيئة الإلهيّة، ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٤ ـ حلق الرأس وتقصير الشعر والأظافر من أعمال الحجّ والعمرة، ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ...﴾.

٥ ـ لا يكفي الأمن الظاهري لتحقيق السكينة والاطمئنان، بل يحتاج ذلك إلى تحقق الأمن الداخلي، ﴿ءَامِنِينَ... لَا تَخَافُونَ﴾.

٦ ـ لا يعلم الإنسان كل الآثار والنتائج التي تترتّب على أعماله؛ ولذلك عليه أن يطيع الله في ما يأمره وينهاه لتحصيل المصالح وتجنّب المفاسد؛ فالمسلمون كانوا يرون الخير في دخول مكّة للحجّ، ولكن المصلحة بحسب علم الله كانت في المهادنة والصلح، ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

٧ ـ ربّ نصر يكمن في المهادنة والصلح، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٦، ص ٣٠٢.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

- تكرّر الوعد الإلٰهيّ بالنصر للإسلام أكثر من مرّة في القرآن الكريم. وربّما كان المراد من ذلك غلبة الحجّة والمنطق. وهذا ثابت للإسلام في كل زمان. وربّما كان بانتشاره وإقبال الناس عليه. ولا مانع أن تدور الأيام لمصلحة الإسلام والمسلمين، كما كانت السيطرة على جزء كبير من العالم في القرون الأولى من تاريخ الإسلام.
- نحن نعتقد أنّ المستقبل للإسلام، بحسب أحد الأسس الاعتقادية التي يؤمن بها المسلمون، وهي ظهور المهدي في آخر الزمان.

التعاليم:

١ ـ غلبة الحقّ على الباطل هدف وغاية، الله وحده هو القادر على تحقيقها، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾.

٢ ـ رمز نصر الإسلام الهداية الإلٰهيّة والانسجام مع ما يقتضيه الحقّ، ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

٣ ـ في الظروف الصعبة وأيام الشدّة يجب إحياء الأمل بالمستقبل في نفوس الناس (ففي ظلّ سيطرة المشركين على مكّة وعجز المسلمين عن الدخول إليها للحج والعمرة، يبشّر الله المسلمين بالغلبة وظهور دينهم على الأديان كلّها)، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾.

٤ ـ الأديان القديمة كلّها كانت لفترة محددة من تاريخ الإنسانية، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾.

ـ يحدثنا القرآن في هذه الآية عن مستقبل البشرية القادم، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

٦ ـ قبول الناس وعدم قبولهم لا أهميّة كبيرة له، وإنّما المهمّ والأساس هو قبول الله وشهادته، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

٧ ـ إذا كنتم تؤمنون بالله، فالواجب عليكم هو الثقة بتحقّق وعوده، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

- «ركّع» جمع راكع. والركوع هو الانحناءة المعروفة في الصلاة، و«سجّد» جمع ساجد، وهو وضع الجبهة على الأرض تعظيماً، وهيئة الجمع هذه هي من صيغ المبالغة، يوصف بها كثيرو الركوع والسجود.
- «سوق» جمع ساق، وهو جذع النباتات، والشطأ هو البرعم. «آزر» بمعنى عاضد وقوّى. و«استغلظ» أي صار صلباً قاسياً.
- الخطاب في أول السورة موجّه إلى رسول الله ﷺ، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾؛ ومحور الحديث في آخر السورة هو رسول الله ﷺ أيضاً، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.
- في هذه الآية من السورة يحدد الله سبحانه ضوابط العلاقات للمؤمنين، على النحو الآتي:

ـ العلاقة مع الغريب مبنيّة على القوّة، ﴿أَشِدَّآءُ﴾.

ـ العلاقة مع الداخل منيّة على التراحم، ﴿رُحَمَآءُ﴾.

ـ العلاقة مع الله أساسها العبودية له سبحانه، ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

ـ قانون العلاقة مع الذات هو السعي وتعليق الأمل على فضل الله، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا﴾.

❑ يحسُن التدقيق في تشبيه مجتمع المؤمنين بالمزرعة والزراعة، لاكتشاف وجوه الشبه بين المشبّه والمشبّه به،

أ - الزرع ينبع من باطن الأرض، والعقيدة تنبع من باطن الإنسان وتنعكس في سلوكه وظاهره.

ب - الزراعة تحتاج إلى بيئة مناسبة، والمجتمع الإسلامي يحتاج إلى بيئة مناسبة ليتحقق ويتطوّر.

ج - الزرع ينمو ويتطوّر شيئاً فشيئاً وبالتدريج، والمجتمع الإسلامي يبدأ بجماعة قليلة ثمّ يبدأ بالنموّ والتطوّر.

❑ عند كتابة وثيقة الصلح أصرّ ممثل المشركين على محو لقب «رسول الله» عن اسم النبيّ ﷺ، وقد آلم ذلك قلب عليّ عليه السلام فامتنع عن محوه تأدّباً، وكأنّ الله أراد أن يرغم أنف المشركين، فأشار إلى رسول الله باسمه ولقبه، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.

❑ أصحاب النبيّ يسعون للجمع بين الدنيا والآخرة. «الفضل» هو النعم المادّية التي ينعم الله بها على المؤمنين، والـ«رضوان» هو النعم المعنوية التي يمنّ الله بها عليهم. وربّما كان معنى الآية أنّ المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ لا يقيمون وزناً لأعمالهم وتضحياتهم، وإنّما يراهنون بعد كل ما يؤدّون من عمل على فضل الله سبحانه.

❑ تشير هذه الآية إلى العلامات الظاهرة على المؤمنين والتي تدلّ على إيمانهم، وهي: الركوع، والسجود، والعلامة في الجبهة من أثر السجود: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾. وتشير أيضاً إلى ثبات العقيدة ورسوخها في باطن الإنسان، ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾.

❑ ورد في إنجيل متى: «وضرب لهم مثلاً آخر، قال: يشبّه ملكوت السماوات ببذرة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله. فمع أنها أصغر البذور كلّها، فحين تنمو تصبح أكبر البقول جميعاً، ثم تصير شجرة، حتى إنّ طيور السماء تأتي وتبيت في أغصانها»[1].

(١) إنجيل متّى، ١٣: ٣١.

□ عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾، قال: «هو السهر في الصلاة».

□ الإسلام دين جامع يشتمل على أبعاد عدّة؛ الشدّة مع الأعداء، والتراحم في العلاقات الاجتماعيّة الداخليّة، وفي الجانب المعنوي كثرة الركوع والسجود.

التعاليم:

١ ـ الوعود الإلٰهيّة واضحة شفّافة لا لبس فيها (الإسلام هو الدين الجامع الذي سوف ينتصر على الأديان كلّها، ونبيّ هذا الدين وحامل رسالته هو رسول الله ﷺ)، ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ... مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ...﴾.

٢ ـ عالميّة الدين الإسلامي تتوقّف على قائد إلهيّ وأصحاب مخلصين، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ... مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

٣ ـ من الأساليب الصالحة والمؤثّرة في التربية تقديم القدوة الصالحة والنموذج اللائق، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾.

٤ ـ الإيمان برسول الله ﴿ءَامَنُوا بِهِ﴾ هو الخطوة الأولى، والمهمّ هو ما بعدها من الخطوات، وهو السير على خطى الرسول والكون معه، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾.

٥ ـ على المؤمنين أن يجمعوا بين الشدّة والصلابة في التعاطي مع الأعداء، والتراحم والمودّة والعطف مع الإخوان وفي العلاقات داخل المجتمع الإسلاميّ، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٦ ـ لا يسمح للمسلم بالحياد في العلاقات بل لا بدّ أن يختار لنفسه موقعاً وموقفاً، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٧ ـ المعيار في العلاقات والمودة والشدة هو الإيمان والكفر، وليس القرابة ورابطة الدم، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

٨ ـ عبادة أصحاب النبيّ ﷺ هي سيرة ونمط حياة وليس عملاً موسمياً في أوقات دون غيرها، ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

٩ ـ يجب أن تكون الصلاة في المجتمع الإسلامي ظاهرة تشاهد بوضوح، ﴿تَرَىٰهُمْ﴾.

١٠ ـ الركوع والسجود من الأمور المحورية في الصلاة، ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

١١ ـ العبادة الممدوحة عند الله هي العبادة المستمرّة، ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

١٢ ـ توجد في الإنجيل والتوراة موارد صحيحة سلمت من التحريف، ولذلك يستشهد القرآن بها، ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

١٣ ـ تشتمل الكتب السماوية السابقة على إخبارات عن الغيب، فها هو القرآن يشير إلى حديث التوراة والإنجيل إلى أصحاب رسول الله، ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

١٤ ـ أمثال الكتب السماوية: طبيعية، عامة، قابلة للفهم من جميع الناس، وفي متناول أذهانهم وعقولهم، ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ...﴾.

١٥ ـ التطوّر الثابت والمستقرّ هو التطوّر التدريجي الطبيعي الذي لا طفرة فيه، ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ...﴾.

١٦ ـ المجتمع الإسلاميّ مجتمع مكتفٍ بنفسه، يعتمد على قدراته الذاتيّة، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾.

١٧ ـ السياسة والدين في الإسلام ليسا طرفي نقيض، بل بينهما تناغم وانسجام، فإلى جانب العبادة والصلاة لا بدّ من اتخاذ موقف من العدوّ يغيظه، ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا... لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

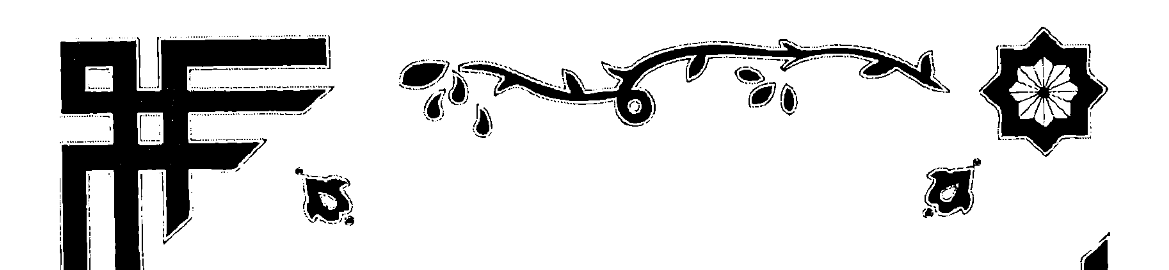
١٨ ـ النمو الكميّ والنوعيّ للمسلمين يغيظ الكفّار ويزعجهم، ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا... لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

١٩ ـ الركوع والسجود مع النبيّ لا يكفي وإن كان حسناً، بل لا بدّ من اتصاف أحوال الإنسان كلّها بالإيمان والعمل الصالح، ليحصل الإنسان على الأجر الذي يطلبه ويرغب فيه، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

٢٠ ـ الثواب الذي يناله المؤمن يصعب استيعابه وفهمه في الدنيا، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٢١ ـ دفع الضرر والمفسدة أولى من جلب المصلحة والنفع؛ ولذلك ذُكرت المغفرة أولاً ثم ذُكر بعدها الأجر العظيم.

«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الحُجُرَاتِ

السورة: ٤٩ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ١٨



ملامح سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنية، وعدد آياتها ثماني عشرة آية.

«الحجرات» جمع حجرة. وسمّيت السورة بهذا الاسم لورود الإشارة إلى الحجرات ومناداة النبيّ ﷺ، من وراء الحجرات، في الآية الرابعة عشرة.

ومن الأسماء التي تطلق على هذه السورة اسم سورة الآداب. وقد تعرّضت لمجموعة من الموضوعات الأخلاقيّة والاجتماعيّة المهمّة منها:

١ ـ آداب التعامل مع النبيّ ﷺ، والنهي عن التقدم عليه ولو برفع الصوت بين يديه.

٢ ـ النهي عن السخرية، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والغيبة، والتجسّس.

٣ ـ تأسيس العلاقات الاجتماعيّة على قواعد: الأخوّة، وإصلاح ذات البين، والتعبئة العامة لمواجهة البغي، والعدل في الحكم، والحذر من بثّ الشائعات الكاذبة.

٤ ـ تأسيس قاعدة تقويم الناس وتفاوت درجاتهم بحسب قربهم من الإيمان وبعدهم عن الكفر والفسق.

٥ ـ اتّباع النبيّ ﷺ بناء على الرغبة والميل والحبّ، واجتناب المنّ عليه لجهة الالتزام بأحكام الإسلام.

وقد تكرّر في هذه السورة، القصيرة نسبياً، توجيه الخطاب إلى الذين آمنوا، خمس مرّات، وهذا يكشف عن اهتمام الله سبحانه بالقضايا الأخلاقيّة والعلاقات الاجتماعية، سواء في ذلك العلاقة بين المسلمين عامة، أو بينهم وبين قيادتهم وولاة الأمر فيهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾

إشارات:

- توجد في القرآن ثلاث سور هي: المائدة، والممتحنة، والحجرات، تشترك في حديثها عن قضايا الدولة والمجتمع، وفي افتتاحها بتوجيه الخطاب إلى الذين آمنوا. ففي مطلع سورة المائدة نقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾، وفي افتتاح سورة الممتحنة، نجد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، وفي هذه السورة نلاحظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.
- تريد هذه الآية أن تربّي المؤمنين على أدب الملائكة، كما يصفهم الله بقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1].
- لا تحدد هذه الآية الموارد التي لا يجوز التقدّم فيها على الله ورسوله، وهذا يعني الإطلاق، وعدم جواز التقدّم في شيء، سواء في ذلك قضايا الحرب والسلم، والاقتصاد والمجتمع، بل والقضايا الفردية التي قد تبدو من الخصوصيات.
- ينهى الله في هذه الآية عن التقدّم على الله ورسوله؛ لأن التقدم يؤدّي إلى ظهور الخلل في المجتمع الإسلامي، وبالتالي يؤدّي تجاوز الحدود التي وضعها الله، والحدود التي أخبر عنها النبيّ ﷺ، إلى تجاوز مصدر التشريع في الحالة الأولى، وتجاوز من له صلاحية التطبيق وإدارة المجتمع في الحالة الثانية.
- يحول العمل بهذه الآية دون الوقوع في الكثير من الأخطاء والمشاكل، وذلك لأن التقدم والمسارعة إلى بعض الأعمال قد يكون في كثير من الحالات مستنداً إلى الرغبة والعجلة، أو مبنيًا على الظن والحدس، وبالتالي يقدم الإنسان على بعض ما يندم عليه لاحقاً. وفي بعض الأحيان يكون التقدّم مزايدة

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٧.

على الله ورسوله، مثلاً، كالانصراف إلى العبادة وترك الدنيا لأهلها، الأمر الذي لم يفعله النبيّ ﷺ، ولم يدعُ إليه، وبالتالي يصدق على مثل هؤلاء المثل المعروف: «ملكيون أكثر من الملك».

- العمل بالتقاليد والآداب التي ليس لها أصل في كتاب الله أو في سنّة رسوله، وليست مستندة إلى العقل والفطرة، هو تقدّم على الله ورسوله.

نماذج التقدّم وأمثلته:

١ ـ قدّم بعض المسلمين أضاحيهم يوم العيد قبل رسول الله ﷺ، فقيل لهم: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٢ ـ بعث النبيّ ﷺ إلى جماعة من الكفّار بعض أصحابه لدعوتهم إلى الإسلام، فعمدوا إلى رسل رسول الله فقتلوهم، ولم يستطع إلا ثلاثة منهم الفرار والعودة سالمين؛ ولكنّهم في طريق العودة مرّوا ببني عامر فقلتوا اثنين منهم انتقاماً لمن قُتل من أصحابهم على يد الكفّار، فلما عادوا عاتبهم النبيّ ﷺ على فعلهم هذا وقتلهم من لا يستحقّ القتل[١]، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٣ ـ أتى وفد من بني تميم إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يختار لهم أميراً، فاقترح أبو بكر لهم واحداً، واقترح عمر آخر، فتشاجرا، وقال أبو بكر: إنما أردت خلافي، فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ... لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾[٢].

٤ ـ أمر الإمام عليه السلام أحد الأشخاص بقراءة دعاءٍ هو: «لا إله إلا الله... يحيي ويميت...»، فأضاف الرجل إليه ويميت ويحيي، فقال له الإمام: يا هذا، لا شك في أنّ الله يحيي ويميت ويحيي، ولكن قل كما أقول، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾[٣].

---

(١) الزمخشري، الكشاف.

(٢) صحيح البخاري، ج٨، ص ١٤٥.

(٣) الشيخ الصدوق، الخصال، ج٢، ص ٦٢.

٥ ـ ورد في بعض الأخبار أنّ بعض أصحاب النبيّ ﷺ حلفوا على ترك بعض الأفعال، كالنوم في الليل، والأكل في النهار، ومعاشرة النساء، فخرج رسول الله ﷺ، ونادى الصلاة جامعة، وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يحرّمون على أنفسهم الطيّبات، ألا إني أنام الليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»[١].

٦ ـ لا خلاف بين المسلمين في أنّ النبيّ ﷺ أباح الزواج الموقت وشرّعه، ولكن لما تولّى الخلافة عمر بن الخطّاب أعلن عن تحريمه ونهى عنه، وبالتالي وقع في ما تنهى عنه هذه الآية.

٧ ـ في السنة الثامنة للهجرة غادر المسلمون المدينة في شهر رمضان وسافروا نحو مكّة، فاختار بعض المسلمين البقاء على صومهم وعدم الإفطار مع أنّهم رأوا أن رسول الله ﷺ قد أفطر، لعدم صحّة الصوم في السفر؛ وهذا شكل من أشكال التقدّم على رسول الله ﷺ.

التعاليم:

١ ـ قبل الشروع في الخطاب والأمر والنهي، لا بد من تهيئة الأجواء وإعداد المخاطب نفسياً، فذلك يساعد على وصول الرسالة المراد إيصالها إلى السامع. ومن هنا، فإن الآية تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وفي ذلك تهيئة لنفوس المؤمنين وإظهار لاحترامهم، بالاعتراف بأنهم أهل للخطاب الإلٰهيّ.

٢ ـ لما كانت الرسالة المراد توجيهها إلى المؤمنين هي رسالة تتعلق بآداب التعامل مع النبيّ ﷺ، فإنّ الآية نفسها تحدثت بأدب مع المؤمنين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾.

٣ ـ تحريم ما أحلّ الله ورسوله، وتحليل ما حرّما، تقدُّمٌ على الله ورسوله، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟﴾.

---

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج٢٣، ص ٢٤٤.

٤ ـ لا يُسمح لأي كان بتشريع قوانين إلى جانب القوانين التي شرّعها الله ورسوله، وكل تشريع بدعة ينهى عنها القرآن، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟...﴾.

٥ ـ القرآن والسنّة النبويّة هما مصدرا التشريع الأساس، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٦ ـ حكم رسول الله هو حكم الله، والإساءة الموجّهة إلى رسول الله كأنّها موجّهة إلى الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٧ ـ التقدّم على رسول الله قلّة تقوىً، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟... وَٱتَّقُوا۟﴾.

٨ ـ أداء التكليف يقوم على ركنين أساسين، هما: الإيمان والتقوى، ﴿ءَامَنُوا۟... وَٱتَّقُوا۟﴾.

٩ ـ يجب على المسلم أن يجمع بين الالتزام العملي، والتسليم الباطني، ﴿ءَامَنُوا۟...﴾.

١٠ ـ كل من يزايد على رسول الله ﷺ، اتّباعاً للعادات والتقاليد، أو الطباع الخاصّة، هو بعيد عن الإيمان والتقوى، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١١ ـ لا يجوز لنا أن نبرّر تطرّفنا ومزايدتنا على الله ورسوله، ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟... إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١٢ ـ الإيمان بحضور الله واطّلاعه على الغيب والشهادة من الأمور التي ترفع منسوب التقوى عند الإنسان، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

إشارات:

- نهت الآية السابقة عن التقدّم على رسول الله والمزايدة عليه، وهذه الآية تنهى عن رفع الصوت بين يديه كما يجهر بعض الناس لبعضهم الآخر، وفي الآية ٦٣ من سورة النور نهي عن دعائه ومناداته كما ينادي بعض الناس بعضهم الآخر.

□ حفظ العمل أهمّ من العمل نفسه. فبعض الأعمال تولد باطلة كالأعمال التي تصدر عن الرياء أو تمتزج بالعجب، وبعض الأعمال تولد صحيحة لكن تبطل بسبب أعمال أخرى تطرأ عليها. وربّما كانت صعوبة الحفاظ على العمل سالماً هي التي جعلت الله يضاعف الثواب على العمل، ولا يثيب على الحسنة بالحسنة، بل على الحسنة بعشر أمثالها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1].

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: **«من قال سبحان الله، غرس الله له بها شجرة في الجنّة، ومن قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنّة... فقال رجل من قريش: يا رسول الله إن شجرنا في الجنّة لكثير! قال: نعم، ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها»**[2].

□ يشير القرآن إلى سببين من أسباب حبط الأعمال، فمرّة يقول إن الكفر والشرك هما سبب الحبط، ومرة أخرى يحذّر من أن إساءة الأدب مع الرسول هي سبب الحبط، ومن الملفت أن يكون أثر قلّة الأدب مع الرسول هو عين أثر الكفر والشرك.

□ لما نزلت هذه الآية قال ثابت بن قيس: أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت رسول الله ﷺ وأجهر له بالقول، حبط عملي، وأنا من أهل النار. وكان ثابت رفيع الصوت. فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: **«هو من أهل الجنّة»**[3].

□ يستفاد من جملة: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أن بعض الأفعال لها آثار وضعيّة تترتّب عليها سواء كان الإنسان قاصداً أم غير قاصد. ومثال ذلك أنّ تناول السمّ يقتل الإنسان من دون أي فرق بين العالم بأنه سمّ وغيره، وكذلك بعض الأفعال تترتّب عليها آثارها الوضعيّة التكوينية، بغضّ النظر عن المعرفة بهذه الآثار أو عدمها، أو حتى ارتكاب الفعل عمداً أو صدوره خطأً دون عمد.

□ على الرغم من أنّ خصوصية النبيّ وعلوّ مقامه لهما أثرهما في الدعوة إلى عدم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٤٥.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، ج٩، ص٢١٧.

رفع الصوت فوق صوته وبين يديه، فإنَّ القرآن يدعونا إلى الالتزام بأدب خفض الصوت في جميع الحالات ومع جميع الناس، كما في وصيّة لقمان لابنه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾(١).

وقد أدّى تطوّر البشريّة إلى تحوّل مشكلة الصوت واحدة من مشاكل العيش في المدن في هذا العصر، تحت عنوان مشكلة التلوّث الصوتيّ، حيث ترتفع الأصوات ويعلو الضجيج تحت عناوين مختلفة، فتارة تحت عنوان الاحتفالات في الأعراس، وأخرى في المواسم الرياضية، وثالثة باسم المساجد ومجالس العزاء، وفي جميع هذه الحالات يتضرر الناس ويخسرون راحتهم وأعصابهم.

نماذج من سوء الأدب مع الرسول:

أ ـ لما حضرت النبيّ ﷺ الوفاة واشتد به الوجع قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، فقال عمر: إن النبيّ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، فقال النبيّ ﷺ: **قوموا عنّي لا ينبغي عندي التنازع**(٢).

وعلى الرغم من أنّ النبيّ لم يتسنَّ له أن يكتب ذلك الكتاب فإنَّ ما قاله في أكثر من مناسبة يدلّ على ما كان يريد أن يكتب، فقد قال مراراً وتكراراً وفي أكثر من مناسبة وموقف، ونقل عنه المحدّثون، قوله المشهور: «**إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»(٣).

ب ـ الإساءة الثانية إلى رسول الله حصلت عندما توفّي الإمام الحسن عليه السلام، وأرادوا أن يدفنوه قرب قبر جدّه ﷺ، فتدخّلت عائشة ومنعت من ذلك بحجّة أنّها لا تريد أن يدفن في بيتها من لا تحبّ، فلما ارتفعت الأصوات تدخّل الإمام الحسين عليه السلام، وقرأ قوله عز وجل: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾، وعليه فإنّ احترام رسول الله واجب بعد موته، كما في حال حياته.

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٩.

(٢) صحيح مسلم، ج٣، ص١٢٩٥.

(٣) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٣٣.

المقدّسات في الإسلام:

□ كل الأمم والشعوب تحترم كبارها وتطلق أسماءهم على أهمّ مؤسساتها ومراكزها ومعالمها المهمّة، كالشوارع، والمدارس، والجامعات، والمطارات، وغير ذلك. والإسلام يشترك في هذه النقطة مع سائر الأمم؛ حيث إنّ عدداً من الأمور في الإسلام لها قداستها واحترامها، من البشر، إلى الأمكنة والجمادات.

ومصدر القداسة في الإسلام هو الله سبحانه، والأشياء تكتسب قداستها واحترامها بحسب درجة قربها من الله سبحانه، وعلينا أن نحفظ هذه القداسة ونؤدّي ما علينا تجاهها، والمقدّسات هي:

١ ـ الله سبحانه هو قدس الأقداس ومصدر القداسة كما تقدّم. وهذه الحقيقة التي قد تغيب عن المشركين في الدنيا، فإنّهم يوم القيامة سوف يعترفون بها ويكتشفون انحرافهم عن جادّة الحقّ والصواب، ويعرفون أنّ مصدر شقائهم وتعاستهم هو في مساواتهم في القداسة وغيرها من الأمور بين الله وبين آلهتهم الموهومة: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. والقرآن مشحون بالآيات التي تدعو إلى تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص، وليس الواجب هو تقديس الذات الإلٰهيّة وحدها بل اسم الله يجب أن يقدّس ويسبّح: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[2].

٢ ـ كتاب الله سبحانه من المقدّسات التي يجب احترامها، ويدلّ على ذلك وصف الله القرآنَ بالعظيم[3]. وعندما يكون القرآن عظيماً فعلينا تعظيمه والاعتراف بعظمته. وعندما يصفه الله بأنّه كريم[4] يجب علينا تكريمه. ولما كان القرآن مجيداً، علينا تمجيده[5].

٣ ـ أنبياء الله وخلفاؤهم بالحق، لهم علينا حقّ الاحترام والتقديس، ولا سيّما

(١) سورة الشعراء: الآية ٩٨.
(٢) سورة الأعلى: الآية ١.
(٣) سورة الحجر: الآية ٨٧.
(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٧.
(٥) سورة ق: الآية ١.

رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، فهؤلاء جميعاً لهم مقامهم ودرجتهم عند الله تعالى. وتشتمل هذه السورة على بعض أشكال الاحترام المطلوب تجاه النبيّ ﷺ، مثل: عدم التقدّم عليه، عدم رفع الصوت بين يديه، وفي محلّ آخر يأمرنا الله بالصلاة على النبيّ ﷺ[1].

ولا ينتهي وجوب احترام النبيّ بوفاته، بل الأدب معه ﷺ مطلوب حتّى بعد وفاته كزيارته[2] وزيارة أوصيائه وذرّيّته، وكل من له صلة به، وخصوصاً العلماء الربانيّين والفقهاء والمراجع العدول الذين وُصفوا في بعض الروايات بأنّهم حجّة الله والرادّ عليهم كالرادّ على الله: «... فإذا حكم بحكم ولم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخفّ وعلينا ردّ، والراد علينا كالرادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله...»[3].

ولا يقتصر الأمر على الأنبياء أنفسهم، بل تسري القداسة إلى ما يرتبط بهم، من أشياء، والمثال القرآني لهذا النوع من الأشياء التابوت الذي وضع فيه موسى ﷺ عندما ألقي في الماء، ثم وضعت فيه بقيّة مما ترك آل داود، فكانت الملائكة تحمله وكان سبباً لسكينة بني إسرائيل وانتصارهم على عدوّهم كما يحكي لنا القرآن الكريم[4].

٤ ـ الأبوان في الإسلام لهما مكانة خاصة يجب احترامهما من أجلها وقد دعانا الله سبحانه في القرآن وفي غيره إلى احترام الأبوين والتواضع لهما، بل قرن شكرهما بشكره[5]. ومما يكشف عن رفعة مقام الأبوين أن الإسلام يعتبر

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٢) صنفت كتب كثيرة في الزيارة والتبرّك، ونشير هنا إلى أحدها وهو كتاب: تبرّك الصحابة، لآية الله أحمدي ميانجي، الذي جمع فيه المؤلّف مئات الروايات الدالة على تبرّك الصحابة برسول الله ﷺ في حياته وبعد وفاته.

(٣) بحار الأنوار، ج١٠١، ص ٢٦٢.

(٤) سورة البقرة: الآية ٨٣؛ سورة النساء: الآية ٣٦؛ سورة الأنعام: الآية ١٥١؛ سورة الإسراء: الآية ٢٣؛ وأخيراً سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٥) سورة لقمان: الآية ١٤.

النظر إليهما برحمة عبادة، ويحرّم السفر المؤذي لهما ويوجب الفقهاء الصلاة تماماً فيه لأنّه سفر معصية.

٥ ـ وتتّسع دائرة القداسة والتعظيم في الإسلام إلى بعض الأزمنة كليلة القدر، وبعض الأمكنة كالمساجد، وبعض الحجارة كالحجر الأسود، وبعض المياه كماء زمزم، وبعض التراب كتربة الإمام الحسين عليه السلام. وفي القرآن الكريم دعوة الله موسى عليه السلام إلى خلع النعلين عند دخوله إلى أحد الأودية، ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾[1]. والمسجد الحرام له احترامه ومكانته التي توجب تنزيهه عن الشرك والمشركين، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾[2] ويدعونا الله إلى التزيّن في أماكن العبادة، ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[3]، كما ويحرّم دخول الجُنُب إلى المساجد والمكث فيها، بقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي﴾[4].

وقداسة المسجد واحترامه من الأمور المسلّمة في الإسلام؛ وما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾[5] موجّهاً الخطاب إلى زكريّا ومريم عليهما السلام، بل إن مريم نفسها نذرت قبل ولادتها برجاء أن تلدَ ذكراً أن تكرّس المولودَ لخدمة المسجد الأقصى، كما يخبرنا الله بقوله على لسان أمّها: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾[6].

٦ ـ والإنسان المؤمن له قداسته واحترامه وكرامته الممنوحة من الله تعالى، وقد ورد في بعض الأخبار أن المؤمن أكرم من الكعبة. ومما ينسجم أو يدلّ على قداسة المؤمن ووجوب احترامه وتعظيمه مجموعة من التشريعات الإسلاميّة كتحريم غيبته، وإيذائه، ووجوب الدفاع عنه وعن حقوقه، وتحريم نبش قبره بعد وفاته وغير ذلك.

التعاليم:

---

(١) سورة طه: الآية ١٢.
(٢) سورة التوبة: الآية ٢٨.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٣١.
(٤) سورة النساء: الآية ٤٣.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٢٥.
(٦) سورة آل عمران: الآية ٣٥.

١ ـ أحسن الأساليب لدعوة الناس وتعليمهم الأدب أن نخاطبهم بأدب واحترام؛ ولذلك نجد أنّ الله يخاطب المؤمنين في مطلع هذه الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ...﴾ وفي ذلك احترام لهم واعتراف بشخصيّتهم.

٢ ـ لا مانع من الدعوة إلى الأدب مع النفس، ولكنّ الدعوة إلى احترام الذات على لسان الآخرين أقوى وقعاً في النفوس، ولذلك فإنّ الله لم يوح إلى رسول قوله: «لا ترفعوا صوتكم فوق صوتي»، بل قال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾.

٣ ـ احترام من يستحقّ الاحترام يترك أثره على أعمال الإنسان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ... أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

٤ ـ في بعض الحالات قد يجني الإنسان على نفسه، ولو من دون أن يشعر، ﴿تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

- الغض النقصان من الطرف والصوت، أي خفض الصوت وعدم التحديق وإمعان النظر إلى غير المحارم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[(١)].
- إذا كان الأدب في الكلام مطلوباً، فإنّ الأدب في السلوك مطلوب بدرجة أولى.
- الهدوء في الكلام من علامات الأدب والوقار.
- يخبرنا الله في هذه الآية عن امتحان قلوب الناس بهذه التكاليف، وذلك أنّ بعض الناس قد يبالغ في إظهار الأدب والاحترام وهو أبعد ما يكون عنه، فليس المطلوب هو غضّ الصوت في الظاهر فحسب، بل يجب أن يكون ذلك نابعاً من الاحترام القلبيّ.

---

(١) سورة النور: الآية ٣٠.

□ يوصف الثواب الإلٰهيّ في كثير من الحالات بأوصاف من قبيل: «كريم»، و«عظيم»، و«كبير»، و«غير ممنون»، وسبب ذلك أنّه يستند إلى إرادة الله ولطفه الذي لا حدّ له.

الأدب في الكلام:

تشير هذه الآية إلى الأدب في الخطاب مع النبيّ ﷺ وفي القرآن الكريم توصيات عدّة لها صلة بما يجب أن يكون عليه الكلام، سواء في أدائه أو في مضمونه، ومن ذلك:

١ ـ أن يكون صادقاً ومطابقاً للواقع، ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[1].

٢ ـ أن يكون طيّباً حسن الوقع في النفوس، ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[2].

٣ ـ أن يكون بليغاً ومؤثّراً، ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾[3].

٤ ـ أن يكون ليّنا، ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[4].

٥ ـ أن يكون كريماً، ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾[5].

٦ ـ وأن يتصف باليسر والسهولة، ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[6].

٧ ـ لا يجوز أن يشتمل الكلام على اللغو والباطل، ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[7]، ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[8].

٨ ـ وأخيراً، وليس آخراً، يجب أن يتطابق القول مع الفعل، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[9].

---

(١) سورة النمل: الآية ٢٢.
(٢) سورة الحج: الآية ٢٤.
(٣) سورة النساء: الآية ٦٣.
(٤) سورة طه: الآية ٤٤.
(٥) سورة الإسراء: الآية ٢٣.
(٦) سورة الإسراء: الآية ٢٨.
(٧) سورة الحج: الآية ٣٠.
(٨) سورة المؤمنون: الآية ٣.
(٩) سورة الصف: الآية ٢.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من مراعاة التوازن بين المخطئ والمحسن، بلوم الأول وذمّه ومدح المحسن والثناء عليه، ففي الآية السابقة يحدثنا الله عن المسيئين إلى رسول الله ﷺ، وفي هذه الآية يشير إلى المؤدّبين ويثني عليهم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ... لَهُم مَّغۡفِرَةٞ...﴾.

٢ ـ الأدب المرحلي والموسمي لا يكشف بالضرورة عن التقوى، بل لا بد من استمراره، ﴿يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾، (الفعل المضارع يدلّ على التكرار والاستمرار).

٣ ـ كلّما اجتمعت المغفرة مع الأجر في القرآن الكريم في جملة واحدة، تقدّمت المغفرة على الأجر؛ وذلك لأنّ الطهارة من الذنوب مقدّمة لتلقّي اللطف الإلٰهيّ، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

٤ ـ ليست العصمة من المعصية من لوازم الإيمان، فربّما يقع المؤمن في المعصية نتيجة ضعف أو إغراء، أو غير ذلك، إلا أنّ المؤمن سرعان ما يعود إلى الله فيغفر الله له، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- يهتمّ الإسلام بالآداب الاجتماعية. ومن هنا، خصّص الله سورة من سور القرآن للحديث عن الآداب، وهي هذه السورة التي تعرف بسورة «الآداب».
- على الرغم من أنّ النبيّ ﷺ لم يعد بيننا وبالتالي لا تنطبق هذه الآية علينا في هذا العصر، فإنَّ الدرس الذي تحتويه درس خالد صالح لكل مكان وزمان؛ ولذلك ينقل عن أبي عبيد القاسم بن سلام قوله: ما أتيت عالماً قط،

فاستأذنت عليه، ولكن صبرت حتى يخرج إليّ، تأوّلت قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[1].

❑ كانت للنبيّ مجموعة من الغرف حول المسجد على عدد زوجاته، لكل واحدة منهنّ غرفتها الخاصة بها، وكانت على درجة عالية من البساطة والبعد عن التكلّف في الزينة أو غيرها. وقد بقيت هذه الغرف قائمة إلى زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان، حيث خرّبها وضمّها إلى المسجد لتوسعته. وليتها بقيت حتى عصرنا هذا ليعرف الناس معنى الزهد وبساطة العيش.

❑ عن عليّ عليه السلام قوله: **«لا عقل لمن لا أدب له»**[2].

التعاليم:

١ ـ قلّة الأدب تكشف عادةً عن قلّة العقل، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٢ ـ يستحقّ الذين يسيئون الأدب مع القادة الإلٰهيّين كالأنبياء التوبيخ والتأنيب، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٣ ـ للبيوت والأسر حرمتها، فلا ينبغي إزعاج الناس في بيوتهم حتّى بمناداتهم من خارج البيوت، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ... لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤ ـ ينبغي التمييز بين من يرفعون أصواتهم بمقتضى العادة والطبع، وبين من يرفعون أصواتهم كمؤشّر على قلّة الأدب، ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٥ ـ علينا أن نحترم برامج الناس وطريقة إدارتهم لأوقاتهم. فالنبيّ بحاجة إلى الراحة، فلا يجوز إزعاجه في أي وقت من الليل أو النهار، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾.

٦ ـ المسؤوليّات الاجتماعيّة لا ينبغي أن تشغل الإنسان عن إعطاء بعض الوقت لأسرته، ﴿صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾.

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، طبعة دار الفكر، ج ٤٩، ص ٧٨.

(٢) علي بن محمد الليثي الواسطي، عيون الحكم والمواعظ، ص ٥٣٩.

٧ ـ يبدو أنّ النبيّ ﷺ كان يخصّص جزءاً من وقته للناس فيخرج للقائهم فيه، ﴿صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾.

٨ ـ ينبغي أن نتعامل مع المسيئين على قاعدة الرحمة والإصلاح، فلا نصدّهم أو نيأس منهم. ومن هنا فإنّ الله سبحانه، وعلى الرغم من لومه وتأنيبه الذين يزعجون النبيّ ﷺ، فتح باب الرحمة والمغفرة لعلّ هؤلاء يصلحون أحوالهم، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ... وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

❑ ورد في عدد من الروايات، في كتب السنّة والشيعة، أنّ هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة الذي كلفه النبيّ ﷺ بالذهاب لجمع الزكاة من قبيلة بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم خصومة في الجاهلية، فعندما وصل إليهم خرجوا لاستقباله فظنّ أنهم يريدون به شرًّا، فقفل راجعاً وأخبر النبيّ بما حصل معه على أساس الظنّ، فنزلت الآية في النهي عن الأخذ بخبر الفاسق، والدعوة إلى التثبّت قبل ترتيب الآثار على أخباره[1].

❑ من الواضح أنّ فسق الوليد بن عقبة لم يكن معلوماً، وإلا لما عزم النبيّ على قتال بني المصطلق بناء على خبره، ولما أرسله من الأوّل لجباية الزكاة، وقد علم فسقه بعد نزول الآية.

❑ عن الحسين عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «**وما أنت يا وليد بن عقبة، فوالله ما ألومنّك أن تبغض عليًّا عليه السلام وقد جلدك في الخمس ثمانين جلدة، وقتل أباك صبراً بيده يوم بدر، أم كيف لا تسبّه وقد سماه الله مؤمناً في عشر آيات من القرآن وسمّاك فاسقاً**»[2] وتلا الآية.

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص١٩٩.

(٢) نور الثقلين، ج٥، ص ٨٢.

□ **سؤال**: كيف يمكن التوفيق بين الأمر بالتبيّن والتثبّت في هذه الآية، وبين النهي عن التجسّس في الآية الثانية عشرة من السورة نفسها؟

الجواب: التجسّس حرام عندما يكون في الأمور الشخصيّة التي لا علاقة لها بالحياة الاجتماعيّة للناس. وأما في مثل الحالة المذكورة في هذه الآية وعندما يترتب على خبر الفاسق آثار لها صلة بالحياة الاجتماعية، فالأمر مختلف تماماً، فلا نتجسّس لنهتك ستر أحد، بل يدعونا الله إلى التثبّت والتبيّن كي لا نريق دم أحد هدراً. وبين الحالتين فرق شاسع.

ما هو الفسق؟ ومن هو الفاسق؟

□ الفسق في اللغة الخروج، ويقال فسقت النواة من التمرة أي خرجت منها. وفي الاصطلاح القرآني هو الخروج عن الصراط المستقيم الذي لا بد من لزومه في كل تفاصيل الحياة الفردية والاجتماعية. وبالتالي الفسق هو المعنى المقابل للعدالة، والفاسق هو الذي يرتكب الكبيرة ولا يتوب منها.

□ وردت كلمة الفسق ومشتقاتها أربعاً وخمسين مرّة في القرآن الكريم، واستعملت في موضوعات ومصاديق عدّة، منها:

١ ـ في وصف انحراف فرعون وقومه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[١].

٢ ـ في وصف المنافقين وذوي الوجوه المتعدّدة، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٢].

٣ ـ في وصف الذين يؤذون الأنبياء، ويتمرّدون على أوامرهم، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ... ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٣].

٤ ـ في وصف الذين لا يحكمون بما أنزل الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٤].

---

(١) سورة النمل: الآية ١٢.
(٢) سورة التوبة: الآية ٦٧.
(٣) سورة المائدة: الآية ٢٤ ـ ٢٦.
(٤) سورة المائدة: الآية ٤٧.

٥ ـ في حالة أهل الحيلة والمكر، ﴿...بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[١].

٦ ـ في وصف الذين يتركون واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟... بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[٢].

٧ ـ في وصف الذين يرجّحون البقاء في البيوت، والتجارة، والأسرة والأقارب، والأمور المادّيّة على الجهاد في سبيل الله، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ... أَحَبَّ... بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٣].

٨ ـ في حالة التعبير عن الانحرافات الجنسيّة والسير وراء الشهوات والوقوع في أسرها (فقد أطلق الله لقب الفاسقين على قوم لوط لارتكابهم الموبقات الجنسيّة من علناً دون أن ينكر أحد منهم على الآخر فعلته)، ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[٤].

٩ ـ في وصف الأكل من الأطعمة المحرّمة، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ...﴾[٥].

١٠ ـ في وصف الذين يتّهمون النساء الشريفات في شرفهن ويفترون عليهنّ، ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ... وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٦].

التبيّن، دواء أدواء المجتمع:

□ لقد كان الأنبياء عبر التاريخ يواجهون مجتمعات مبتلاة بأنواع من الأمراض الاجتماعيّة والأخلاقية، وعلى الرغم من مرور الزمان وتطوّر الحياة الإنسانية، ما زالت بعض هذه الأمراض موجودة ومصدر معاناة للبشرية، ومن هذه الأمراض:

ـ التقليد الأعمى للآباء والأجداد، واتّباعهم في تقاليدهم وعاداتهم مهما كانت من دون إعادة نظر فيها.

ـ السير وراء الخيالات والشائعات، والتنبّؤات والأحلام الواهية.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٣.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٦٥.
(٣) سورة التوبة: الآية ٢٤.
(٤) سورة العنكبوت: الآية ٢٤.
(٥) سورة المائدة: الآية ٣.
(٦) سورة النور: الآية ٤.

- الحكم وبناء المواقف على غير معرفة أو بصيرة.

- الانتقاد من دون علم، والقول والكتابة بعيداً عن المعرفة.

والعلاج الناجع لهذه الأمراض وكثير مما يشابهها، هو التبيّن والفحص قبل الإقدام على أيّ موقف أو سلوك. وهو ما ورد في هذه الآية الشريفة.

□ وقد ورد في القرآن الكريم ما يشبه هذه الآية من بعض الجهات وهو قوله تعالى، في الآية ٩٤ من سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾. وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنّ النبيّ ﷺ بعث أسامة بن زيد على رأس سريّة إلى بني ضمرة، فلقوا رجلاً منهم يدعى مرداس بن نهيك معه غنيمة له وجمل أحمر، فلما رآهم أوى إلى كهف جبل وأتبعه أسامة، فلما بلغ مرداس الكهف وضع فيه غنمه ثم أقبل إليهم، فقال: السلام عليكم أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، فشدّ عليه أسامة فقلته من أجل جمله وغنيمته، وكان النبيّ ﷺ إذا بعث أسامة أحبّ أن يثني عليه خيراً ويسأل عنه أصحابه، فلما رجعوا لم يسألهم عنه فجعل القوم يحدثون النبيّ ﷺ، ويخبرونه بما جرى، فلما أكثروا رفع رأسه إلى أسامة فقال: كيف أنت ولا إله إلا الله؟ فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوّذاً تعوّذ بها، فقال له رسول الله ﷺ: هلا شققت عن قلبه...، فأنزل الله الآية[1].

الخبر في الإسلام:

□ في الإسلام توصيات عدّة تتعلّق بنقل الأخبار، ومن ذلك:

أ) يلوم القرآن الذين يأخذون بالأخبار دون التأمّل فيها، ويدعو إلى تحليلها وفهمها، أو عرضها على أهل الخبرة والمعرفة قبل البناء عليها، ﴿وَإِذَا

---

(١) انظر: جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، ج٢، ص ٢٠١.

جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

ب) وضعت الشريعة الإسلاميّة عقاباً محدّداً للذين ينشرون الأخبار الكاذبة التي تثير البلبلة في المجتمع: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

ج) ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ، أنه قال في حجّة الوداع: **«قد كثرت عليّ الكذابة وستكثر؛ فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنّتي، فما وافق كتاب الله وسنّتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنّتي فلا تأخذوا به»**[3].

د) عن الإمام الصادق عليه السلام: **«لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنّة، أو تجدون شاهداً من أحاديثنا المتقدّمة، فإنّ المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا تعالى وسنّة نبيّنا محمد ﷺ، فإنا إذا حدّثنا قلنا: قال الله** عزّ وجلّ، وقال رسول الله ﷺ»[4].

هـ) وعن الإمام الرضا عليه السلام: **«فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن فإنا إذا تحدّثنا حدّثنا بموافقة القرآن وموافقة السنّة»**[5].

و) في التراث الإسلامي علم مهمّ تترتّب عليه آثار مهمة في الاستنباط الفقهي وغيره، اسمه «علم الرجال»، وهو العلم الذي يبحث فيه عن كل من ينقل الحديث والرواية عن النبيّ ﷺ، أو عن الأئمة، لتمييز الثقة ومن يصح الاعتماد على روايته، ممن ليس بثقة ولا يجوز الاعتماد على قوله.

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦٠.
(٣) بحار الأنوار، ج٢، ص ٢٢٥.
(٤) بحار الأنوار، ج٢، ص ٢٥٠.
(٥) بحار الأنوار، ج٢، ص ٢٥٠.

التعاليم:

١ ـ على المؤمن أن يتحلّى بروحية التدقيق وعمق التفكير، ولا ينبغي أن يكون سطحياً يقبل ما يعرض عليه من دون تفكير أو تدبّر، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

٢ ـ لم يكن جميع أصحاب النبيّ ﷺ عدولاً، بل كان بينهم من يتصف بالفسق، ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾.

٣ ـ يجوز كشف أسرار بعض الناس وبيان حقائقهم، عندما تقتضي مصلحة المجتمع الإسلامي ذلك، ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾.

٤ ـ الفتنة تحتاج إلى أمرين، هما: سعي الفاسق، وتصديق المؤمن، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

٥ ـ الأصل في الإسلام هو حسن الظنّ بالناس وتصديقهم في إخباراتهم، وأما عندما يتّضح فسق أحدهم فالتعامل معه يجب أن يتمّ بصورة مختلفة، ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

٦ ـ لا يتورّع الفاسق عادة عن بثّ الشائعات في المجتمع الإسلامي، ﴿جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾.

٧ ـ لا ينسجم الإيمان مع سرعة التصديق وسطحية التفكير، ﴿ءَامَنُوٓاْ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

٨ ـ لا ينبغي الإهمال وتأخير التبيّن وترك الشائعة حتى تنتشر في المجتمع، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ (الفاء في اللغة العربيّة تدلّ على المسارعة).

٩ ـ قد يصدق الفاسق أحياناً؛ ولذلك لا ينبغي تكذيبه قبل التبيّن، ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

١٠ ـ المجتمع الإسلامي معرّض بصورة دائمة لإثارة الفتنة من خلال الشائعات الكاذبة؛ ولذلك لا بدّ من اليقظة الدائمة، ﴿إِن جَآءَكُمۡ... فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

١١ ـ الطريقة الصائبة لإدارة المجتمعات هي التثبّت والتبيّن قبل وقوع الأحداث لا انتظار وقوعها ثم المعالجة بعد ذلك، : ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

١٢ ـ بيان المصالح المترتبة على الأحكام من الأمور المساعدة على الالتزام بها،

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ﴾ (فالله سبحانه في هذه الآية يكشف لنا عن سبب وجوب التبيّن قبل البناء على خبر الفاسق).

١٣ ـ يسعى الفاسق، من خلال الأخبار الكاذبة التي ينشرها في المجتمع الإسلامي، في سبيل إثارة الفتنة وتخريب العلاقات الاجتماعيّة بين المسلمين، ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

١٤ ـ قد يؤدّي اتّباع الفاسق وتصديقه إلى إصابة جماعة من الناس بكاملها بالسوء، ولا يتقصر الأمر على فرد واحد، ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

١٥ ـ البناء على الأخبار الضعيفة نوع من التهوّر والجهالة، ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾.

١٦ ـ العمل بالأحكام والتوصيات الإلٰهيّة يحمي الإنسان من الإقدام على عمل ثم الندم على فعله بعد ذلك، : ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ... نَٰدِمِينَ﴾.

١٧ ـ الفعل الذي لا تدرس مبرّراته وآثاره قبل الإقدام عليه يفضي إلى الندامة، : ﴿نَٰدِمِينَ﴾.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾

إشارات:

- حدثتنا الآية السابقة عن خبر الوليد بن عقبة وامتناع بعض الناس عن دفع الزكاة، فاستعدّ المسلمون للقتال، فنزلت الآية تنهى عن تصديق الفاسق قبل التثبّت من صحّة خبره. وفي هذه الآية يحدد الله القاعدة في علاقة النبيّ ﷺ بالناس وعلاقتهم به، فالحالة الطبيعية أن يكون القائد الإلٰهيّ متبوعاً، لا أن يكون تابعاً لرغبات الناس وأهوائهم التي قد تبنى في بعض الأحيان على المصالح أو على بعض الشائعات الكاذبة.
- ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه سأل: أي عرى الإيمان أوثق؟ فتعدّدت

أجوبة المسلمين عن السؤال، فقال رسول الله ﷺ: **لكلّ ما قلتم فضل وليس به؛ ولكن أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله، والبغض في الله، وتولّي أولياء الله والتبرّي من أعدائهم**[١].

□ في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾، قال: **ذلك حمزة وجعفر وعبيدة وسليمان وآخرون هدوا إلى أمير المؤمنين** عليه السلام، **وقوله**: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ **يعني أمير المؤمنين**[٢].

□ الوصول إلى درجة الكمال والرشد، هديّة إلهيّة يمنّ الله بها على أنبيائه: ﴿ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾[٣]. وعلى الأنبياء الأخذ بأيدي الناس ليسيروا في مراقي الكمال بحسب وسعهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[٤]. وتجدر الإشارة إلى أن الأنبياء لم يصلوا إلى الكمال من دون جهد أو تعب، بل سعوا ودعوا الله وبحثوا عن الكمال بكل ما أوتوا من قوّة، كما فعل موسى عليه السلام عندما ساح في الأرض بحثاً عن الخضر ليتعلّم منه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[٥]. والإيمان هو الأرضية التي يتأسّس عليها الرشد: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٦]، والكتب السماوية هي الوسيلة والمنهاج، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾[٧]. وقد وصف الله سبحانه المؤمنين في هذه الآية بأنّهم الراشدون وذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾. والرشد في القرآن هو الرشد المعنوي، وليس النمو المادّي والجسدي، كما يرى بعض قصار النظر.

□ عندما يتولّى إدارة المجتمعات واتخاذ القرارات غير المعصوم أو غير العادل، لن تأمن هذه المجتمعات من الاستبداد الذي هو في الجهة المقابلة للرشد: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[٨]. وأما إذا تولّى المعصوم أو العادل فإنّ العصمة

---

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص ١٢٦.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٤٢٦.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥١.
(٤) سورة غافر: الآية ٣٨.
(٥) سورة الكهف: الآية ٦٦.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٨٦.
(٧) سورة الجن: الآية ٢.
(٨) سورة هود: الآية ٩٧.

والعدالة هما الضمان وصمام الأمان الذي يحول دون تحوّل السلطة إلى سلطة مستبدّة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ من أراد العمل بلا ندم، عليه أن يتّبع تعاليم الأنبياء وتوصياتهم (ففي الآية السابقة يحدثنا الله سبحانه عن الندم الذي يترتب على العمل بخبر الفاسق، ثم يعقب بقوله واعلموا أن فيكم...، وهذا فيه إشارة إلى الربط بين العمل بتعاليم الرسول والأمن من الندم)، ﴿نَٰدِمِينَ* وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾.

٢ ـ حضور الأنبياء في المجتمعات يعطيها امتيازاً خاصاً، ﴿فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾.

٣ ـ من المناسب أن يكون النبيّ قريباً من الناس، يصلون إليه عند الحاجة، ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾.

٤ ـ لا مانع من أن يتوقّع الناس عمل النبيّ ﷺ بما يشيرون عليه، ولكن لا ينبغي لهم توقّع الطاعة من النبيّ، ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ... لَعَنِتُّمۡ...﴾.

٥ ـ اتّباع الناس أهواءهم وتعدد رغباتهم وميولهم، من الأسباب المؤثرة في إثارة المشكلات الاجتماعية، ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ... لَعَنِتُّمۡ...﴾.

٦ ـ يجب أن يكون القائد الإسلامي مستقلاً وصاحب القرار الأخير، ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ... لَعَنِتُّمۡ...﴾ (وقد أخبرنا الله سبحانه في محل آخر من القرآن أن العنت هو الأمر الذي يريده العدوّ ويتمنّاه، ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾[1]).

٧ ـ توجد حالات عدّة ليس لله فيها حكم ولا لرسوله، بل هي متروكة للناس، ففي مثل هذه الموارد لا مانع من أن يعمل النبيّ برأي الناس، ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾.

٨ ـ الميل إلى الدين من الأمور الفطرية المستقرّة في نفوس الناس، ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ...﴾.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

٩ ـ الإيمان أمر له علاقة بالقلب ولا يمكن أن يتحقّق بالجبر والإكراه، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ...﴾.

١٠ ـ الإيمان زينة القلوب وبهجتها، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، كما أن الجبال والأشجار والمعادن والأزهار زينة الأرض، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[1].

١١ ـ على الإنسان أن يجمع في قلبه بين أمرين هما التولّي والتبرّي، وعلى المؤمن أن يمتحن إيمانه، بمحبّة الإيمان وأهله، وكره الكفر وأهله، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ... وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ...﴾.

١٢ ـ الإنكار القلبي والنوايا الفاسدة، مقدمة للطغيان؛ فقد قال ﷻ أولاً: ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ ثم أتبعه بذكر الفسوق والعصيان، ﴿وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

١٣ ـ الكفر والفسوق والعصيان، من آفات الإيمان ونواقضه، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ... وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

١٤ ـ تقتضي فطرة الإنسان وطبيعته الأولى كره القبيح، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ...﴾. وهذا النفور الفطري هو المؤشر الأوّل الذي يدعو الإنسان إلى السير نحو الكمال والرشد، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

١٥ ـ لا يمكن أن يصل إلى الكمال من لا يكره الكفر والفسوق والعصيان، ﴿وَكَرَّهَ... أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

١٦ ـ كره الكفر والفسق والعصيان، وحبّ الإيمان من النعم الإلٰهيّة العظيمة على الإنسان، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ... وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ... فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾.

١٧ ـ يستند الفضل الإلٰهيّ إلى العلم والحكمة اللذان هما من صفات الله، وليس جزافاً ومن دون مبرّر، ﴿فَضْلًا... وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(1) سورة الكهف الآية ٧.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- على الرغم من أنّ الإيمان يقتضي، عادة، عدم وقوع النزاع والصراع بين المؤمنين، فإنَّ المؤمنين ليسوا معصومين، ولذلك قد يدبّ النزاع بينهم، على إثر كلمة أو تصرّف يصدر عن أحدهم تجاه الآخر. وفي مثل هذه الحالات لا بدّ من الاستعداد الدائم لإخماد نار الفتنة عندما تنشب، ومواجهة المعتدي والانتصاف للمظلوم منه كي لا يتكرّر العدوان ثانية.
- في الحديث عن رسول الله ﷺ: **«للمسلم على أخيه ثلاثون حقاً... وينصره ظالماً أو مظلوماً، فأما نصرته ظالماً فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلوماً فيعينه على أخذ حقّه»**[1].
- هذه الآية من الآيات التي قطعت من أجلها يدا أحد المسلمين الذين كانوا يحاربون تحت راية أمير المؤمنين عليه السلام في حرب الجمل، وذلك أنّ الإمام علياً عليه السلام كان يعظ الناس وينهاهم عن القتال، فقال: **«اللهم إني أعذرت وأنذرت فكن لي عليهم من الشاهدين. ثم أخذ المصحف وطلب من يقرأ عليهم** ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾، فقال مسلم المجاشعي: ها أنا ذا، فخوّفه بقطع يمينه وشماله وقتله، فقال: لا عليك يا أمير المؤمنين فهذا قليل في ذات الله! فأخذه ودعاهم إلى الله فقطعت اليمنى فأخذه بيده اليسرى فقطعت فأخذه بأسنانه فقتل... فقال عليه السلام: **«الآن طاب الضراب»**[2].

نعم لا بدّ أولاً من الاستناد إلى القرآن؛ لإتمام الحجّة، وبعد الوعظ والنصح وإتمام الحجّة، يأتي دور الموقف الشجاع، إلى آخر نفس.

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٢١٢.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٢، ص١٧٤.

العدالة:

- يحدّثنا الله في هذه الآية عن الصلح والإصلاح بين الناس على أساس العدالة ثلاث مرّات، يقول سبحانه: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. وهذا التأكيد على العدالة منسجم مع نظام الخلق، فالخلق كلّه قائم على العدل والحقّ: «بالعدل قامت السموات والأرض»[1]. والهدف الذي من أجله بعث الله الأنبياء هو: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2].

- والمجتمعات المعاصرة أحوج ما تكون إلى العدل. والعدل ملازم للالتزام بالقانون. ومخالفة القانون تساوي الظلم والتهرّب من العدالة. ولكن أي قانون؟ هل هو القانون الذي صنعناه بأيدينا؟ هل هو القانون الذي نغيره كل صباح ومساء؟ هل هو القانون المبني على معلومات ناقصة، والذي تصاغ موادّه تحت ضغط الترغيب والترهيب، وبناء على مصالح المجموعات والأحزاب؟ هل هو القانون الذي أوّل من يخالفه هو واضعه؟ هل يمكن لمثل هذه القوانين أن تحقّق للإنسان كرامته وتحفظ له قداسته واحترامه؟ وهل يستطيع مثل هذا القانون تحقيق العدالة والأمن والسلام للمجتمعات التي يطبّق فيها؟

إن القانون الذي يحقق هذه الطموحات والرغبات كلّهاهو القانون الإلٰهيّ، المنزّه عن الخطأ والهوى، وهو القانون الذي حمله الأنبياء المعصومون إلى الإنسان. هو القانون ومجموعة التشريعات التي سنّها الله على أساس لطفه وعلمه وحكمته، والتي من يحملها هو أول من يطبّقها ويلتزم بها.

التعاليم:

١ ـ النزاع بين المؤمنين شرارة سرعان ما تنطفئ وليس ناراً دائمة التوقّد والاشتعال، يقول الله سبحانه: ﴿اقْتَتَلُوا﴾، ولو كان المراد الإشارة إلى دوام القتال واستمراره لاستعمل الفعل بصيغة المضارع.

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٣، ص٤٩٣. (٢) سورة الحديد: الآية ٢٥.

٢ ـ المؤمن يحمل مسؤولية تجاه المؤمن الآخر، ولا يمكنه أن لا يبالي بما يجري عليه، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾.

٣ ـ تجب المسارعة إلى حلّ النزاع ورفع الخصومة بين المسلمين، في حال نشوب الفتنة بينهم، ويستفاد هذا المعنى من استعمال حرف الفاء الذي يدل على عدم الفاصل الطويل.

٤ ـ على الأمة أن تقف وقفة واحدة في وجه الباغي وتقاتله، ﴿فَإِنْ بَغَتْ... فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾.

٥ ـ استقرار المجتمع الإسلامي هدف مهم، لا بد من تحقيقه حتى لو اقتضى ذلك إراقة دم الباغي وقتله، ﴿فَإِنْ بَغَتْ... فَقَاتِلُوا﴾.

٦ ـ تجوز مواجهة العنف بالعنف، ﴿فَإِنْ بَغَتْ... فَقَاتِلُوا﴾.

٧ ـ تجب المسارعة إلى قتال الباغي من دون تأخير، ﴿فَقَاتِلُوا﴾؛ الفاء تدل على هذا المعنى.

٨ ـ الحرب والقتال في الإسلام له أهداف وغايات نبيلة، بل مقدّسة، ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

٩ ـ مدة القتال ووقته مفتوحان حتى تحقيق الأهداف والغايات، ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وليس مقيداً بوقت محدد وزمان. والأمر تماماً يشبه زيارة الطبيب، فلا يزار الطبيب في وقت محدد من السنة، بل يزار عند الحاجة، ويستعمل الدواء الذي يصفه إلى أن يتحقق الشفاء.

١٠ ـ الغايات التي تبرّر القتال ليست قوميّة أو قبلية، أو حزبية، أو انتقاماً، أو غير ذلك من الغايات التي تخاض الحروب من أجلها في كثير من الحالات، بل الهدف هو عودة الباغي إلى أمر الله، وإلى جادّة الصواب، ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

١١ ـ في حال المواجهة ونشوب الفتنة وعدم معرفة المعتدي، لا بد من السعي في الإصلاح، وإخماد الفتنة، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. وأما عند تحقّق البغي من أحد الطرفين على الآخر، فلا بد من العدل بالانتصار من الظالم للمظلوم، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾.

١٢ ـ يختلف الواجب باختلاف الحالات التي تعرض للمسلمين في حياتهم الاجتماعيّة والفردية، فتارة يكون التكليف هو القتال، والأخرى هو الإصلاح (وقد وردت كلمة «أصلحوا» مرتين وكلمة «قاتلوا» مرتين أيضاً).

١٣ ـ في الحالات التي يخشى فيها من فورة الغضب والغرائز، لا بد من تكرار الوعظ والإرشاد، ﴿بِٱلْعَدْلِ... وَأَقْسِطُوٓا۟... يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

١٤ ـ قيمة الصلح تتوقف على وصل الحقّ إلى صاحبه، وأما الصلح الذي يبنى على ضياع الحقوق، فهو ذل وإذلال وليس صلحاً، ﴿فَأَصْلِحُوا۟... وَأَقْسِطُوٓا۟﴾.

١٥ ـ المحبّة هي الأساس الذي ينبغي أن يحكم تصرفاتنا؛ حتى في الحالات التي تحتاج إلى الشدّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

١٦ ـ إن الله لا يحبّ الصلح الذي تضيع فيه الحقوق، ولا يكون مبنياً على العدل والإنصاف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

❑ تؤكّد هذه الآية أنّ العلاقة بين المؤمنين علاقة أخوّة، ويتضمّن هذا التعبير معاني عدّة، منها:

أ ـ المودّة بين الأخوين متينة وعميقة ودائمة.

ب ـ المودّة بين الأخوين، عادة تكون من الطرفين وليست من طرف واحد.

ج ـ العلاقة بين الأخوين مبنيّة على الفطرة وهي من مقتضيات الطبيعة الإنسانية، وليست مبنيّة على المصالح والمنافع الدنيوية.

د ـ الأخ عضد الأخ وساعده الذي يواجه به الأعداء.

هـ ـ يشترك الأخوان في أصل واحد.

و ـ الالتفات إلى الأخوّة من أسباب العفو والصفح، وغضّ النظر عن الإساءة.

ز ـ يفرح الأخ لفرح أخيه ويحزن لحزنه.

تستخدم في هذه الأيام كلمات عدة للدلالة على المودة بين المشتركين في أمر، كالرفيق، وابن البلد، والزميل وما شابه ذلك، ولكنّ الإسلام يختار، للتعبير عن عمق العلاقة بين المؤمنين، كلمة «أخ». وقد ورد تشبيه المؤمنين باليدين «تغسل إحداهما الأخرى»[1].

- يتكرر الأمر بالإصلاح في هذه الآية، والآية السابقة، ثلاث مرّات، وهذا يكشف عن شدّة اهتمام الإسلام بنشر الصلح والمودّة بين أفراد المجتمع.
- يقول الله سبحانه، في الآية السابقة: ﴿فَأَصْلِحُوا... وَأَقْسِطُوٓاْ﴾؛ أي فليكن العدل والقسط هو الأساس الذي يبنى عليه الصلح. ويقول في هذه الآية: ﴿فَأَصْلِحُوا... وَاتَّقُواْ﴾؛ أي فلتكن التقوى هي رائد من يسعى إلى الصلح بين الناس، فلا ينبغي، لمن يسعى في الصلح بين المتخاصمين، أن يحيف على أحدهما لمصلحة الآخر.

الأخوّة:

- للإسلام خصائص عدة، وامتيازات متنوّعة، منها أنّه ينطلق من الأسس والجذور، مثلاً: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾[2]. وعندما تكون العزّة كلّها لله فلا ينبغي البحث عن العزّ عند غيره سبحانه. ويقول سبحانه: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[3]، فلماذا يبحث الإنسان ليستجدي القوّة من هذا وذاك؟ وفي هذه الآية يؤسس سبحانه القاعدة الأساس في العلاقة بين المؤمنين، وهي أنّهم إخوة، وتقتضي هذه القاعدة أن تكون المودّة هي الحاكمة على كل علاقاتهم، والنزاع هو خروج عن القاعدة، ينبغي أن يُحلّ فور حصوله.
- قاعدة الأخوّة من الأمور التي أسّس لها الإسلام وتنقل كتب الأخبار أن النبيّ ﷺ كان بالنخيلة وحوله سبعمئة وأربعون رجلاً، فنزل جبرائيل، وقال: إن الله تعالى آخى بين الملائكة، فآخى رسول الله بين أصحابه، كما يأتي: بين

(١) المحجّة البيضاء، ج٣، ص ٣١٩.
(٢) سورة يونس: الآية ٦٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

أبي بكر وعمر، وبين عثمان وعبد الرحمن، وبين سلمان وأبي ذر، وبين طلحة والزبير، وبين مصعب وأبي أيّوب الأنصاري، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين أبي الدرداء وبلال، وبين جعفر الطيّار ومعاذ بن جبل، وبين المقداد وعمّار، وبين عائشة وحفصة، وبين أم سلمة وصفيّة، وآخى بينه وبين علي عليه السلام[١]. وقد استشهد اثنان من أصحابه صلى الله عليه وآله أحدهما عبد الله بن عمر، والآخر عمر بن الجموح، وكانت بينهما مؤاخاة، فدفنا في قبر واحد.

- الأخوّة النسبيّة تنقطع يوم القيامة، ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[٢]، وأما الأخوة الدينيّة فهي تبقى يوم القيامة، ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[٣].
- يجب أن تكون الأخوّة في الله، فمن يظهر الودّ من أجل مكاسب دنيويّة لن ينال ما يسعى من أجله، وسوف تتحوّل هذه المودّة الزائفة إلى عداوة يوم القيامة، ولا تبقى إلا الأخوّة بين المتّقين، ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٤].
- على الرغم من أهميّة اكتساب الأخوّة وتحقيقها، فإنَّ الأهمّ منها هو الحفاظ عليها، ومن هنا نجد أن الروايات الواردة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، تأمر بالحفاظ على الأخوّة وعدم تضييعها: «صل من قطعك»[٥].
- عن الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده»[٦].

حقوق الأخوّة:

في الرواية عن النبيّ صلى الله عليه وآله، أنّ للمسلم على أخيه المسلم ثلاثين حقاً لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو:

١ ـ يغفر زلّته،

---

(١) بحار الأنوار، ج٣٨، ص ٣٣٥.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.
(٣) سورة الحجر: الآية ٤٧.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٦٧.
(٥) بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٧١.
(٦) الكافي، ج٢، ص١٣٣.

٢ ـ ويرحم عبرته،

٣ ـ ويستر عورته،

٤ ـ ويقيل عثرته،

٥ ـ ويقبل معذرته،

٦ ـ ويرد غيبته،

٧ ـ ويديم نصيحته،

٨ ـ ويحفظ خلته،

٩ ـ ويرعى ذمّته،

١٠ ـ ويعود مرضته،

١١ ـ ويشهد ميته،

١٢ ـ ويجيب دعوته،

١٣ ـ ويقبل هديّته،

١٤ ـ ويكافئ صلته،

١٥ ـ ويشكر نعمته،

١٦ ـ ويحسن نصرته،

١٧ ـ ويحفظ حليلته،

١٨ ـ ويقضي حاجته،

١٩ ـ ويشفع مسألته،

٢٠ ـ ويسمت عطسته،

٢١ ـ ويرشد ضالّته،

٢٢ ـ ويردّ سلامَه،

٢٣ ـ ويطيّب كلامه،

٢٤ ـ ويبرّ إنعامه،

٢٥ ـ ويصدّق أقسامه،

٢٦ ـ ويوالي وليّه،

٢٧ ـ ولا يعاديه،

٢٨ ـ وينصره ظالماً ومظلوماً،

٢٩ ـ ولا يسلمه،

٣٠ ـ ولا يخذله،

٣١ ـ ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه[١].

- عن الصادق عليه السلام، «قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنى... إلى أن قال: «**المسلمون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[٢].

الصلح والسلام في القرآن:

تتكرّر في القرآن الكريم كلمات: صلح، ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾[٣]؛ وإصلاح، ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾[٤]؛ وتأليف القلوب، ﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾[٥]؛ والسلم، ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[٦]. وتكرّر هذه الكلمات له دلالة واضحة على اهتمام الإسلام بانتشار السلم، والصلح، والاستقرار، والأمن في المجتمع الإنسانيّ.

- من النعم الإلٰهيّة التي يذكرها القرآن نعمة التأليف بين قلوب المسلمين، وذلك عندما يخاطب المسلمين، قائلاً: ﴿كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾[٧]، وما يمكن أن تكون الآية بصدد الإشارة إليه، هو الحروب التي كانت تنشب بين الأوس والخزرج، في المدينة، قبل الإسلام.

- ويشير الله سبحانه في آية أخرى إلى ترتّب المغفرة ونيل الرحمة على السعي في الإصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[٨]. وكذلك يؤكد القرآن أن الشفاعة الحسنة يصيب صاحبها نصيباً

---

(١) بحار الأنوار، ج٧١، ص٢٣٦.
(٢) وسائل الشيعة، ج٢٩، ص ٧٥.
(٣) سورة النساء: الآية ١٢٨.
(٤) سورة الأنفال: الآية ١.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٨) سورة النساء: الآية ١٢٩.

منها، كما في قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾[١].

□ وقد قرّر الإسلام مجموعة من الاستثناءات الخاصّة بالإصلاح بين الناس، ومن ذلك:

١ ـ الكذب في الإسلام ليس من المحرّمات فقط بل من الكبائر؛ ولكن في محاولة الإصلاح تسقط حرمته، ويجوز ارتكابه، «لا كذب على المصلح»[٢].

٢ ـ النجوى والوشوشة في الأذن والخفاء، من الأمور المنهي عنها في الإسلام[٣]، ولكن عندما تكون وسيلة للإصلاح ترتفع حرمتها، ويرتفع قبحها، ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٤].

٣ ـ العمل بالقسم والالتزام بمضونه من الواجبات المؤكّدة، ولكن إذا أقسم أحد من الناس على عدم السعي في الإصلاح بين الناس، لا يجب عليه الالتزام بقسمه، بل يأمره الله بنقض ما أقسم عليه، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن... وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[٥].

٤ ـ يجب العمل بالوصية، ولا تجوز مخالفة رغبات الموصي، ولكن إذا كانت المخالفة طريقاً للإصلاح، فيجوز ذلك، ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[٦].

التعاليم:

١ ـ علاقة الأخوّة مرهونة بالإيمان (ولا تحقق سائر الروابط الأخوّة، سواء في ذلك العلاقات الاقتصاديّة، أو العرقية، أو الجغرافية، أو التاريخية أو غير ذلك)، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

٢ ـ لا تتوقّف الأخوّة في الإيمان، على شروط، كالسنّ، والعلم، والمستوى الاقتصادي، ولا غير ذلك، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٥.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٩، ص ٢٤٢.

(٣) سورة المجادلة: الآية ١٠.

(٤) سورة النساء: الآية ١١٤.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢٤.

(٦) سورة البقرة: الآية ١٨٢.

٣ ـ لا ينبغي لأحد من المؤمنين أن يرى نفسه أكبر من غيره من المسلمين، ﴿إِخْوَةٌ﴾ (فبين الآباء والأبناء تفاوت لمصلحة الآباء، وأما الإخوة فهم متساوون متكافئون).

٤ ـ في الدعوة إلى الصلح والإصلاح، لا بدّ من استخدام كلمات تتضمّن معانيَ ودلالات عاطفية، ﴿إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا﴾.

٥ ـ الأمر بالإصلاح وتصفية العلاقات الاجتماعية، موجّه إلى جميع الناس وليس إلى فئة خاصة منهم، ﴿فَأَصْلِحُوا﴾.

٦ ـ على المصلح بين الناس أن يلتفت إلى أنّه يصلح بين أخويه هو أيضاً، ولا يصلح بين أخوين فحسب، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

٧ ـ على المصلح بين الناس، أن يتّقي الله في محاولة الإصلاح، ﴿فَأَصْلِحُوا... وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٨ ـ الصلح والإصلاح، مقدّمة وعامل مساعد على نزول الرحمة الإلٰهيّة، ﴿فَأَصْلِحُوا... تُرْحَمُونَ﴾.

٩ ـ المجتمع الخالي من الصلح، والمبتلى بالنزاعات التي لا يوجد لها من يحلّها، مجتمع محروم من الرحمة الإلٰهيّة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- اللمز كالغمز في الوجه، ورجل لمزة يعيبك في وجهك لا من خلفك، ورجل همزة يعيبك من خلفك[١]. والتنابز التداعي بالألقاب، وهو يكثر في ما كان ذمّاً[٢].

---

(١) كتاب العين، ج٧، ص٣٧٢، مادة: لمز.

(٢) لسان العرب، ج٥، ص٤١٣، مادة: نبز.

❏ تعرضت الآية السابقة للأخوّة بين المؤمنين، وتلقي هذه الآية الضوء على الأمور التي تخرّب رابطة الأخوّة بينهم. كما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن الصلح والإصلاح، وهذه الآية تتحدث عن الأسباب التي تؤدّي إلى إثارة الفتنة كالسخرية والتنابز بالألقاب. وعلى أي حال إنّ من أهمّ آثار العمل بتعاليم الإسلام، سيادة الهدوء والاستقرار على العلاقات الاجتماعية.

❏ ربّما يمكن القول إنّ السخرية والتنابز ذكرا من باب المثال، وإلا فإنّ كلّ ما من شأنه نقض علاقة الأخوّة بين المؤمنين ممنوع ومنهيّ عنه.

❏ لعلّ المرأة تندرج تحت كلمة «قوم»، ولذلك ربّما كان ذكر النساء بشكل مستقلّ مؤشّراً إلى خطورة هذه الأفعال بين النساء.

السخرية والاستهزاء:

السخرية في الظاهر ذنب ومعصية واحدة، ولكن يكشف تحليلها عن أنّها ذنب مركّب من ذنوب عدّة، هي: الاحتقار، والإذلال، وكشف العيوب المستورة، وإثارة الاختلاف، والغيبة، وإثارة الأحقاد، والطعن على الآخرين، والتحريض على الانتقام.

أسباب السخرية:

١ ـ الغنى والثروة من أسباب السخرية في بعض الحالات، يقول الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾[1].

٢ ـ والعلم قد يتحول في بعض الأحيان إلى وبال على حامله، يدعوه إلى السخرية من الآخرين الذين يرى أنّهم أقلّ منه علماً ومعرفة، ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[2].

٣ ـ ومن أسباب السخرية من الآخرين، القدرة البدنية؛ إذ ينقل القرآن قول الكفّار، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[3].

---

(١) سورة الهمزة: الآيتان ١ و٢.

(٢) سورة غافر: الآية ٨٣.

(٣) سورة فصلت: الآية ١٥.

٤ ـ الألقاب الاجتماعية، بدورها، من الأسباب التي تدعو إلى السخرية، فالكفّار كانوا يرون عبر التاريخ أنّ ما يتمتّعون به من موقع اجتماعي يعطيهم الحقّ في احتقار المؤمنين بالأنبياء، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[1].

٥ ـ وقد لا يكون للسخرية أي مبرّر سوى التسلية وملء أوقات الفراغ بتقريع الآخرين واحتقارهم.

٦ ـ وفي بعض الحالات يدعو الطمع في الحصول على الأموال إلى السخرية وتعيير أشرف الناس بما ليس عيباً، بل افتراء العيب عليه وتعييره به، فبعض المنافقين لم يدعهم إلى تعيير النبيّ ﷺ في طريقة توزيع الصدقات إلا الطمع بالحصول على شيء منها: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[2].

٧ ـ ومن أسباب السخرية والهزء الجهل؛ إذ إن النبيّ موسى عليه السلام استعاذ بالله أن يكون من الجاهلين عندما اتهمه بنو إسرائيل باتخاذهم هزواً: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[3].

٨ ـ ومن أسباب السخرية واللمز، الرغبة في إظهار الشرف وعلوّ الكعب رياءً، الأمر الذي يدعو هؤلاء إلى السخرية ممن هو أقلّ منهم مالاً أو أدنى موقعاً في سلّم المواقع الاجتماعية، ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾[4].

☐ من الأعمال المباركة التي أقدم عليها رسول الله ﷺ تغييره أسماء بعض أصحابه، ممن كانت أسماؤهم قبيحة[5]؛ وذلك أن الاسم القبيح قد يكون من أهمّ الدوافع إلى السخرية.

---

(١) سورة هود: الآية ٢٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥٨.

(٣) سورة البقرة: الآية ٦٧.

(٤) سورة التوبة: الآية ٧٩.

(٥) انظر: أسد الغابة، ج٣، ص ٧٦، وج٤، ص ٣٦٢.

□ دخل عقيل أخو الإمام عليّ عليه السلام على معاوية، فبادره ساخراً بقوله: مرحباً برجل عمّه أبو لهب، فقال عقيل: وأهلاً بمن عمّته حمّالة الحطب في جيدها حبل من مسد[1].

التعاليم:

١ ـ لا ينسجم الإيمان مع السخرية من عباد الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ...﴾.

٢ ـ لا ينبغي لمن ينهى عن السخرية أن ينهى بطريقة توحي بالإهانة، ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾. فالله سبحانه في هذه الآية لم يقل: «لا تسخروا» وبالتالي لم يوجّه الخطاب بشكل مباشر، وإنما وجّه النهي بطريقة خطاب الغائب.

٣ ـ السخرية مفتاح الفتنة وأحد منابع الأحقاد، ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ...﴾؛ (ويستفاد هذا المعنى من النهي عن السخرية، بعد الحديث عن الأخوّة بين المؤمنين والدعوة إلى الإصلاح بينهم).

٤ ـ التكرار من الأساليب المناسبة في الدعوة والتبليغ، وخصوصاً في الأمور المهمّة، وفي حالة تنوّع المخاطبين، ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ... نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾.

٥ ـ اعتقاد المرء أنّه أفضل من غيره من الناس، من الدوافع التي تحرّض الإنسان على السخرية، ولذلك يلفت القرآن إلى احتمال العكس للتحذير من السخرية والنهي عنها، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا﴾.

٦ ـ لا ينبغي أن نحكم على الناس من خلال مظاهرهم، ومن خلال حالتهم الراهنة، فربما كان الظاهر مختلفاً عن الباطن، وربما كان مستقبل الإنسان، وموقعه عند الله تعالى، مختلفاً عما يشي به حاله الراهن، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا...﴾.

٧ ـ تعيير الإنسان غيره من الناس وإشارته إلى عيوبهم، هو في الواقع تعيير لنفسه، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج٤٢، ص ١١٤؛ الغارات، ج٢، ص ٣٨٠.

٨ ـ كشف عيوب الآخرين، يساعد على كشف عيوب الإنسان نفسه، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٩ ـ نبز الآخرين بألقاب قبيحة سوف يرتدّ على الفاعل عاجلاً أم آجلاً، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾؛ (صيغة التفاعل تدلّ على المقابلة والتبادل).

١٠ ـ السخرية من الناس معصية تتوقف مغفرتها على التوبة، ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١١ ـ السخرية من الآخرين اعتداء عليهم وظلم لهم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- تابع هذه الآية ما بدأت الآية السابقة باستعراضه، من الأمور التي تؤدّي إلى نقض حالة الأخوّة بين المؤمنين، والأمور التي تعدّها الآية في هذا السياق، هي: سوء الظنّ، والتجسّس، والغيبة.
- يدعو القرآن المسلمين إلى اجتناب سوء الظنّ، وحمل المؤمنين على أحسن الأحوال، يقول الله تعالى في سورة النور، ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[١].
- لا يهتمّ القرآن بالأمن بمعناه العادي المتعارف، الذي تدعو الآية إلى تصدّي المؤمنين لمحاولات نقضه بإثارة الفتن، بين المؤمنين، بل يعمّم مفهوم الأمن ليشمل الأمن المعنوي، على الأعراض والكرامات؛ وهذا ما تدعو إليه الآية.
- يتحدّث علماء القانون في هذا العصر عن حقوق الإنسان؛ ولكنّهم يغفلون مجموعة من الحقوق التي سبقهم إليها الإسلام منذ قرون، بتحريمه مجموعة من الأفعال التي فيها اعتداء معنويّ على حقوق الإنسان.

---

(١) سورة النور: الآية ١٢.

❑ يبدو أنّ الغيبة من أقبح المعاصي، ولذلك شبّهها القرآن بأقبح صورة عندما شبّهها بأكل الإنسان لحم أخيه وهو ميت. فالحيوانات كما يقال تتجنّب أكل لحم أبناء جنسها وتعتدي على سائر الحيوانات.

أقسام سوء الظنّ:

❑ ينقسم الظنّ السيّئ إلى أقسام عدّة، بعضها مقبول وبعضها مرفوض:

١ ـ سوء الظنّ بالله، وقد ورد في الحديث أن من ترك الزواج خشية العيلة فقد أساء الظنّ بالله، وكأنّ مثل هذا الشخص يظنّ أنّ الله قادر على تأمين رزقه عندما يكون وحيداً، وأمّا عندما تكون له زوجة ويكون له ولد أو أولاد فإنّ الله يعجز عن تأمين رزقه ورزقهم. وهذا من الظنّ السيّئ المنهيّ عنه.

٢ ـ سوء الظنّ بالناس وهو المنهيّ عنه في هذه الآية.

٣ ـ سوء الظنّ بالنفس، وهو مرغوب فيه، ومدعوّ إليه؛ لأنّ الإنسان لا ينبغي أن يغترّ بما عنده من صفات حسنة، ويرى نفسه خالياً من العيب والنقص. ومن هنا، نجد أن أمير المؤمنين يعد من صفات المتّقين أنهم لأنفسهم متّهمون. نعم على الإنسان أن يسيء الظنّ بنفسه، وينظر إليها بعين الريبة كي يرى معايبها ويعمل على إصلاحها. والمبالغة بحسن الظنّ بالنفس تكشف عن ضعف نور الإيمان، وذلك أن النور الضعيف لا يكشف إلا الأشياء الكبيرة، وأما النور القويّ فإنّه يكشف كل الأشياء حتى صغارها.

والأمر عينه ينطبق على المعاصي والعيوب، فمن ضعف نور إيمانه لا يقدر إلا على رؤية العيوب والمعاصي الكبيرة، وأمّا من قوي نور إيمانه فإنه يكتشف كل عيب أو معصية عنده حتى صغائر المعاصي والعيوب. وحسن الظنّ بالنفس يمنع الإنسان عن الترقّي والتطوّر في مدارج الكمال. فرحلة التكامل المعنويّ أشبه بالسفر الطويل الذي على صاحبه أن ينظر إلى ما بقي أمامه ليصل إلى المقصد، لا أن ينظر إلى ما قطعه من مسافة ويغترّ به، ومثل هذا يقنع بما سار ولا يجد في نفسه حافزاً على متابعة السير.

❑ لا بدّ من الالتفات إلى أنّ حسن الظنّ لا يعني، بأيّ وجه من الوجوه، السذاجة وسرعة الوثوق بالناس من دون تبصّر؛ ولذلك على الأمّة أن لا تحسن الظنّ إلا بمن يستحقّ هذه الطريقة من التعامل معه.

الغيبة وآثارها:

ورد في تعريف الغيبة عدد من الروايات عن أهل البيت، يستفاد منها أنّ الغيبة هي: أن يذكر الإنسان أخاه المؤمن بعيب ستره الله عليه، مما يكره كشفه[١].

❑ ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ: **«اذكروا محاسن موتاكم، وكفّوا عن مساوئهم»**[٢].

❑ وعن الإمام الصادق عليه السلام: **«المغتاب هو آخر من يدخل الجنّة إن تاب. وإن لم يتب، فهو أوّل من يدخل النار»**[٣].

❑ وعن الإمام الرضا عليه السلام، عن الإمام السجاد عليه السلام: **«من كفّ عن أعراض المسلمين، أقال الله عثرته يوم القيامة»**[٤].

❑ وعن رسول الله ﷺ: **«من اغتاب مسلماً أو مسلمةً، لم يقبل الله له صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة، إلّا أن يغفر له صاحبه»**[٥].

❑ وعنه أيضاً: **«يؤتى بأحد يوم القيامة يوقف بين يدي الله تعالى ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي فإنّي لا أرى فيه طاعتي. فيقال له: إنّ ربّك لا يضلّ ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثمّ يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإنّي ما عملت هذه الطاعات، فيقال له: لأنّ فلاناً اغتابك فدفعت إليك حسناته»**[٦].

❑ **سؤال**: لماذا كان عقاب دقيقة أو أكثر أو أقل من الغيبة، مذهباً لثواب عبادة ساعات طوال؟ أليس هذا خلاف العدل لعدم التناسب بين المعصية وجزائها؟

---

(١) وسائل الشيعة، ج٨، ص٦٠٠ ـ ٦٠٤.
(٢) نهج الفصاحة، حديث ٢٦٤.
(٣) مستدرك الوسائل، ج٩، ص١١٨.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٢، ص ٢٥٦.
(٥) بحار الأنوار، ج٧٢، ص ٢٥٨.
(٦) بحار الأنوار، ج٧٢، ص ٢٥٩.

الجواب: ربّما لأنّ الغيبة التي تحدث في لحظات تهتك كرامة إنسان وتريق ماء وجهه، الذي حصّله في سنوات من العمل وحسن الظاهر. ومن هنا، فإنّ الغيبة وجزاءها بينهما كمال المناسبة.

- عن رسول الله ﷺ، أنّه قال في آخر سفر له إلى مكّة: **«أيّها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا. إنّ الله حرّم الغيبة كما حرّم المال والدم»**(١).
- وفي بعض الروايات تقرن الغيبة بشرب الخمر والإدمان عليه: **«تحرم الجنّة على المغتاب ومدمن الخمر»**(٢).
- وفي بعض الروايات عن النبيّ ﷺ: **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنّه من اتبع عوارتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»**(٣).
- وفي الرواية أنّ النبيّ ﷺ ذكر الربا وعظم شأنه، فقال: **«إنّ الدرهم يصيببه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ستّ وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإنّ أربى الربا عرض الرجل المسلم»**(٤).
- وفي الرواية عن النبيّ ﷺ: **«الجلوس في المسجد انتظار الصلاة عبادة ما لم يحدث. قيل: يارسول الله وما يحدث؟ قال: الاغتياب»**(٥).
- وقد شبّهت الغيبة بأكل لحم الميت وذلك أن لحم الحيّ إذا قطع منه ربما ينبت له ما يملأ ذلك الفراغ، وأما جسد الميت فلا يمكن أن يمتلئ محل النقص الذي طرأ عليه، ولعل وجه الشبه أنّ الغيبة تؤدّي إلى الهتك بما لا يمكن جبرانه، ﴿لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾.

---

(١) شرح نهج البلاغة، ج٩، ص ٦٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٢، ٢٦٠.
(٣) المحجة البيضاء، ج٥، ص ٢٥٢؛ سنن أبي داود، ج٢، ص ٥٦٨.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٢، ص ٢٢٢.
(٥) الكافي، ج٢، ص٣٥٧.

جبران الغيبة:

يمكن للإنسان أن يجبر ما ارتكبه من الغيبة في ماضي أيّامه. وفي هذا المجال يرى بعض مراجع التقليد[1] أنّه لا يحسن أن نخبر الشخص الذي اغتبناه بما فعلنا؛ إذا كان ذلك يزعجه ويدخل عليه الغمّ، والحلّ هو بالاستغفار له في السرّ وتحسين سمعته بين من ذكرناه بسوء أمامهم. وإذا كان من تعرّضنا له بالغيبة لا ينزعج من إخباره، فيجب إخباره للتحلّل منه. هذا إذا كان صاحب الحقّ حياً وأمّا إذا توفّاه الله قبل الوصول إليه للتحلل منه، فتجب على الإنسان التوبة وطلب العفو من الله.

❑ يفرّق الشيخ الطوسي بين حالة سماع من وقعت عليه الغيبة وحالة عدم سماعه، ففي الحالة الأولى يجب التحلل منه، وفي الحالة الثانية يجب الاستغفار له كلما ذكره المغتاب؛ ويبدو أن مبنى هذا التمييز هو الرواية التي ورد فيها: «إنّ كفّارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته كلّما ذكرته»[2].

موارد جواز الغيبة:

❑ تجوز الغيبة في موارد نشير إلى بعضها في ما يأتي:

١ ـ في مقام المشورة في القضايا المهمّة، كما لو استشارك أحد في اختيار زوجة أو زوج، فيجوز لك ذكر العيوب المستورة التي تعرفها.

٢ ـ في حالة إبطال الأفكار الباطلة كي لا يتأثّر الناس بهذه الأفكار المضلّة.

٣ ـ في حالة الشهادة أمام القاضي، على مجرم بجرم.

٤ ـ في حالة الشكوى والتظلّم.

٥ ـ في حالة ارتكاب المنكر من دون تستّر، فمثل هذا الشخص هو الذي هتك نفسه، فتسقط حرمة غيبته ما دام لا يستتر بالمعاصي التي يرتكبها.

---

(١) وقد سألت بنفسي المرحوم السيّد الكلبايكاني، فقال لا يجب إخباره؛ لأنّ ذلك يزعجه وإزعاج المؤمن معصية جديدة؛ يجب التوبة من الغيبة، والاستغفار للمؤمن، إلا إذا كان الأمر لا يزعجه.

(٢) وسائل الشيعة، ج٨، ص ٦٠٥.

٦ ـ لردّ الدعاوى غير الصحيحة، كما لو ادّعى أحدهم كذباً أنه مجتهد، أو طبيب، أو غير ذلك من الدعاوى غير الصحيحة، ففي مثل هذه الحالة يجوز تكذيبه في دعواه كي لا يتضرّر الناس بالأخذ بهذه الدعاوى.

سماع الغيبة:

- لا تقتصر حرمة الغيبة على المغتاب، بل لا تجوز مشاركة المغتاب، ولو بالسماع والإنصات إليه، وعلى السامع أن ينهى عن الغيبة ويدافع عن المغتاب، فقد ورد في الحديث: «**السامع شريك القائل**»[١].
- وفي الرواية عن رسول الله ﷺ: «**من ردّ عن أخيه غيبة سمعها في مجلس، ردّ الله عنه ألف باب من الشرّ في الدنيا والآخرة، فإن لم يردّ عنه وأعجبه كان عليه كوزر من اغتاب**»[٢].
- وورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الغيبة كفر، والمستمع لها والراضي بها مشرك**»[٣].
- ورد في الآية ٣٦ من سورة الإسراء، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾، وبالتالي على المؤمن أن يعلم أنّه لا يحقّ له أن يستخدم أذنه لسماع كل ما يشتهي، أو لا يشتهي.

التعاليم:

١ ـ الإيمان هو التزام عملي، أي إنّ الالتزام بمجموعة من قواعد السلوك هو من لوازم الإيمان التي لا ينبغي أن تنفكّ عنه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ﴾.

٢ ـ على المؤمن أن يجتنب ما يحتمل حرمته، حتّى لا يقترب من ارتكاب الحرام القطعيّ. (لأنّ الآية تنهى عن كثير من الظنّ، من أجل حرمة بعض أفراده)، ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا... إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ﴾.

---

(١) غرر الحكم، الحديث: ٥١٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج٨، ص ٦٠٦.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٢، ص ٢٢٦.

٣ ـ القاعدة الأساس في المجتمع المؤمن، هي كرامة الإنسان والحكم ببراءته، ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ﴾.

٤ ـ لمنع الغيبة يجب قطع الطرق المؤدّية إليها. (والطريق المفضية إلى الغيبة، هي: سوء الظنّ، والتتبع، والتجسّس إلى غير ذلك؛ ومن هنا فإنّ القرآن لم يكتف بالنهي عن الغيبة فحسب، بل نهى عن سوء الظنّ والتجسس)، ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ... وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب﴾.

٥ ـ قد تبدو بعض المعاصي جميلة في الظاهر، إلا أنّ لها باطناً قبيحاً ربّما يفوق التوقّع، ﴿أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ (فالغيبة، في الباطن، هي أكل لحم الأخ ميتاً، ولا توجد بين المعاصي معصية شبّهت بهذه الصورة).

٦ ـ من الطرق المناسبة والمؤثّرة في الدعوة والتبليغ، الاستفادة من التشبيه وضرب الأمثلة، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾.

٧ ـ من المناسب استخدام التعابير العاطفية في الدعوة إلى الله، والنهي عن المنكر، ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾.

٨ ـ الغيبة حرام مطلقاً، ولا فرق في حرمتها بين صغير وكبير، أو رجل وامرأة، ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ (كلمة أحدكم تشمل كل فرد من أفراد الإنسان).

٩ ـ المؤمنون إخوة في الدين متكافئون، ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾.

١٠ ـ الغائب يشبه الميت في أنهما لا يقدران على الدفاع عن نفسيهما، وهذا ما يزيد في قبح الغيبة، لعجز الغائب عن الدفاع عن نفسه، وتصويب الأخبار أو إسكات المغتاب، ﴿مَيْتًا﴾.

١١ ـ الغيبة تكشف عن درجة من التوحّش عند فاعلها، ﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾.

١٢ ـ الغيبة لا تنسجم مع التقوى، ﴿وَلَا يَغْتَب... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٣ ـ التقوى من الأمور التي تدفع الإنسان إلى التوبة، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٤ ـ لا يسدّ الإسلام الطريق على الإنسان، بل هو يفتح باب العودة والرجوع إلى الله سبحانه بالتوبة، ﴿وَلَا يَغْتَب... إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٥ ـ لا يقبل الله التوبة والعذر فحسب، بل يقبلهما مع الرحمة. وإنّ قبول الله العذر والتوبة يُعدّ من تجلّيات رحمته وعطفه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٦ ـ قبول الله العذر والتوبة، من تجلّيات رحمته وعطفه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- يرى بعض المفسّرين أنّ هذه الآية مرتبطة بالآيات السابقة، ويقولون: إنّ أحد أسباب الغيبة الاعتقاد بشرف الأصل وكرامة المحتد، وهذه الآية أتت لتقرّر أنّ حكمة الله اقتضت تعدد الشعوب والقبائل، من أجل أن يتعارفوا، لا ليفخر بعضهم على بعض.
- تشير هذه الآية إلى أصول ثلاثة، هي: المساواة في الخلق بين الرجل والمرأة، تفاضل الناس في ما بينهم، وتأسيس هذا التفاضل على قاعدة التقوى. وفي القرآن آيات أخرى تدلّ على بعض المعايير التي تؤدّي إلى التفاضل بين الناس، كالعلم، والسبق إلى الإيمان، والهجرة في سبيل الله.

التعاليم:

١ ـ الذكورة والأنوثة، والانتساب إلى هذه القبيلة أو تلك، لا تبرّر الافتخار على الآخرين؛ فذلك فعل الله وليس كسباً من الإنسان، ﴿خَلَقْنَـٰكُم... وَجَعَلْنَـٰكُمْ﴾.

٢ ـ الاختلاف بين الناس في الانتماء والشكل وما شابه من أشكال الاختلاف، من الأفعال الحكيمة لله تعالى، والتي تهدف إلى غاية هي التعارف، ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

٣ ـ الكرامة التي يكتسبها الإنسان بين الناس أو منهم، سرعان ما تزول؛ والمهمّ هو الكرامة التي يمنحها الله، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ لا يقرّ الإسلام والقرآن أي شكل من أشكال التمييز والتفاوت بين الناس، على أسس اقتصادية، أو عرقية، أو لغوية، أو قبلية، أو جنسية، فمعيار التفاضل الوحيد هو التقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

٥ ـ الرغبة في التمايز والتفاضل أمر فطري في الإنسان، ولم يلغ الإسلام هذا الأمر، بل فتح له باباً هو التفاضل في التقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

٦ ـ لا ينفع الإنسان التظاهر بتقوىً لا وجود لها بين صفاته، فالله سبحانه يطلع على الأفئدة ويعلم ما تكنّ الصدور، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

□ المراد من الأعراب سكان البوادي الذين آمن بعضهم، حيث ورد في سورة التوبة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[1]، ولكنّ بعضهم كانوا يرون أنّهم ذوو فضل على الناس، بينما هم ليسوا أكثر من مؤمنين حديثي الإيمان.

الاختلاف بين الإسلام والإيمان:

١ ـ **الاختلاف في العمق:** الإسلام هو لون ظاهري، بينما الإيمان هو تمسّك قلبيّ. ففي الرواية عن الإمام الباقر أو الصادق عليه السلام، في قول الله عزّ وجلّ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾[2]، قال: الصبغة هي الإسلام، وقال في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[3] هي الإيمان[4].

٢ ـ **الاختلاف في الدافع:** قد يكون دافع الإسلام، هو حماية بعض المصالح

(١) سورة التوبة: الآية ٩٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
(٤) الكافي، ج٢، ص ١٤.

المادّية أو اكتسابها؛ ولكن الدافع إلى الإيمان لا يكون إلا دافعاً معنوياً. فعن الإمام الصادق عليه السلام: **«الإسلام يُحْقَنُ به الدم، وتؤدّى به الأمانة، وتستحلّ به الفروج، والثواب على الإيمان»**[١].

٣ ـ **الاختلاف في العمل**: قد يمكن اعتناق الإسلام من دون عمل، وأما الإيمان فلا يتحقّق إلا مقترناً بالعمل؛ كما ورد في الحديث: **«الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل»**[٢] وبناء عليه إنّ الإيمان يتضمّن الإسلام، والعكس غير صحيح. وفي الحديث تشبيه الإسلام بالمسجد الحرام، والإيمان بالكعبة وسطه[٣].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: **«الإيمان ما استقرّ في القلب وأفضى به إلى الله عزّ وجلّ وصدّقه العمل بالطاعة لله والتسليم لأمره، والإسلام ما ظهر من قول أو فعل وهو الذي عليه جماعة الناس»**[٤].

٤ ـ **الاختلاف في الرتبة**: ورد في الرواية عن أبي الحسن عليه السلام: **«الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسم في الناس شيء أقلّ من اليقين»**[٥].

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن نصدّق كلّ شعار ودعوى، ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾.

٢ ـ لا يكفي عدم التصديق، بل يحسن إبطال هذه الدعوى، ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾.

٣ ـ قد يُقبل من الإنسان أن يحفظ نفسه بالإسلام، ولكن لا يسمح للإنسان أن يدّعي أكثر مما له في الواقع، ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾.

٤ ـ الإسلام أمر له صلة بظاهر الإنسان، وأما الإيمان فهو من الأمور ذات الصلة بالقلب، ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

---

(١) الكافي، ج٢، ص ٢٤.
(٢) الكافي، ج٢، ص ٢٤.
(٣) الكافي، ج٢، ص ٥٢.
(٤) الكافي، ج٢، ص ٢٦.
(٥) الكافي، ج٢، ص ٥١.

٥ ـ في مواجهة الدعاوى الباطلة يجب فتح الباب أمام أصحاب هذه الدعاوى، لتصحيح أوضاعهم، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (حيث يقول الله: «لما...» ولم يقل «لن»).

٦ ـ الطريق إلى الإيمان يمرّ عبر الطاعة والعمل، ولا يصل الإنسان إلى هذه المرتبة بالدعوى باللسان، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ... وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٧ ـ قرن الله الدعوة إلى طاعة الرسول بالدعوة إلى طاعته سبحانه، وهذا يكشف عن عصمة النبيّ ﷺ، وبالتالي تجب طاعته في كل ما يأمر به أو ينهى عنه، ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٨ ـ الله سبحانه عادل لا يضيع شيئاً من عمل الإنسان، ولا ينقص من ثوابه شيئاً. (وهذه القاعدة، أي قاعدة العدل، يجب أن تُراعى في إدارة الأمور كلّها)، ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾.

٩ ـ طاعة الله سبحانه، من الأمور الممهّدة لنزول الرحمة ونيل المغفرة الإلٰهيّة، ﴿تُطِيعُوا۟... أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

سمات المؤمن الحقيقي:

□ توجد في القرآن الكريم أربع آيات تبدأ بقوله تعالى: «إنّما المؤمنون»، وهذه الآيات تحدد معالم الشخصيّة المؤمنة الرئيسة، وهذه الآيات هي:

١ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[١].

٢ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾[٢].

(١) سورة الأنفال: الآية ٢. (٢) سورة النور: الآية ٦٢.

٣ ـ وفي هذه السورة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

٤ ـ هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها.

عندما تُجمع هذه الآيات معاً تكشف عن المعالم العامّة الرئيسة لشخصيّة المؤمن الحقيقي، الصادق في إيمانه؛ أي أولئك المؤمنين الذين يقول الله عنهم: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾[1]، ويقول عنهم في موضع آخر: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2]. ومن السمات التي يتّصف بها المؤمنون:

١ ـ وجل القلوب لذكر الله، ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٢ ـ هم في حال تكامل دائم، وفي حالة تعلّق كامل بالرسالة الإلٰهيّة على مستويي العمل والإيمان، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.

٣ ـ لا يعتمدون ولا يتوكّلون على غير الله، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٤ ـ يلتزمون بمتابعة النبيّ في كل أمر من أمورهم، ولا يتقدّمون عليه ولا يفارقونه حيث يجب أن يكونوا معه، ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

٥ ـ لا يرى أحدهم نفسه أفضل من أخيه المؤمن، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

٦ ـ راسخو الإيمان، بنوا إيمانهم على العقل والمعرفة، ولم يلابس إيمانهم شكّ؛ ولذلك لا يرتابون في الزلازل، ولا تؤثّر فيهم الدعاية المغرضة والشبهات التي تثار بين فينة وأخرى، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾.

٧ ـ مستعدون دائماً لبذل الأرواح والأموال، عندما يطلب منهم ذلك، ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

التعاليم:

١ ـ يجمع القرآن بين ذكر معيار التفاضل والتكامل، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وبين الإشارة إلى النموذج الأكمل في ميدان التفاضل الاجتماعي، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤. (٢) سورة الحجرات: الآية ١٥.

٢ ـ لا بدّ من أن يقترن الإيمان بالله بالإيمان بالنبيّ ﷺ، ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

٣ ـ من علامات صدق الإيمان وثباته، عدم الريب وانتفاء الشكّ، ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾.

٤ ـ الإيمان أمر باطنيّ، يكشف عنه العمل والسلوك الخارجي، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ... وَجَٰهَدُواْ﴾.

٥ ـ عندما لا يقترن الإيمان بالجهاد، يتحوّل إلى شعار وعنوان فارغ، ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ (فكمال الإيمان بالاستعداد لبذل المال والنفس في سبيل الله).

٦ ـ يجب أن يكون الجهاد بالمال والنفس، في الثقافة الإسلاميّة، في سبيل الله، ﴿وَجَٰهَدُواْ... فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- حاول بعض الناس التظاهر بالتديّن بالقسَم بين يدي الرسول ﷺ على صدق إيمانهم، فنزلت هذه الآية للفت أنظارهم إلى عدم الحاجة إلى القسم والتظاهر بالإيمان، فالله سبحانه يعلم السرّ وما يخفى.
- عرض الإيمان على أولياء الله، قد يكون بهدف التصحيح وتحصيل الاطمئنان، كما فعل السيّد عبد العظيم الحسني عندما عرض إيمانه على الإمام الهادي عليه السلام، ومثل هذا الفعل مقبول وحسن. وقد يكون بهدف الرياء والتظاهر ومثل هذا الفعل لهذا الهدف يستحقّ فاعله الذمّ.

التعاليم:

١ ـ التظاهر بالإيمان بين يدي الرسول هو بمنزلة التظاهر بين يدي الله تعالى، فهؤلاء يقسمون بين يدي النبيّ ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ...﴾.

٢ ـ لا داعي للتظاهر والادعاءات عندما تكون بين يدي الله تعالى، فالله عالم بالسرائر لا يخفى عليه شيء، ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ... وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾.

٣ ـ يعلم الله سبحانه وجود الأشياء والأشخاص وخصائصهم وصفاتهم التي يتّصفون بها، ﴿يَعْلَمُ... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- عندما آمن بنو أسد حسبوا أنّهم يقدّمون بإيمانهم خدمة للنبيّ وربّما لله تعالى؛ ولذلك كانوا يطالبون بتقديرهم على إيمانهم، فنزلت الآية في لفت نظرهم إلى أنّه إذا كان لا بدّ من المنّ فإنّ الله يجب أن يمنّ عليهم أن هداهم إلى الإيمان.
- يتحدّث الله سبحانه عن منّه على الناس بالهداية في هذه الآية، وبإرسال الأنبياء في الآية ١٦٤ من سورة آل عمران، وبوراثة المستضعفين الأرض، وهذا يكشف عن أنّ أعظم المنن نعمةُ الهداية وإرسال الهداة المعصومين لقيادة البشريّة.

التعاليم:

١ ـ تعد الهداية إلى الإيمان والإسلام من النعم الإلٰهيّة الكبرى على الإنسان، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ﴾.

٢ ـ لا حاجة لله تعالى في إيماننا وأعمالنا من عبادة وغيرها، ﴿لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ﴾.

٣ ـ من علامات صدق الإيمان الاعتقاد بأنّ الهداية إلى الإسلام منّة إلٰهيّة على الناس، لا العكس، ﴿لَّا تَمُنُّوا۟... بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ... إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

٤ ـ المنّ على النبيّ ﷺ هو بمنزلة المنّ على الله تعالى، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ... بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ...﴾ (وذلك أنّ الله سبحانه تولّى الجواب عن منّهم على النبيّ ﷺ).

٥ ـ الناس في بعض الحالات يحسبون أنّهم بإيمانهم يسدون خدمة لله أو للنبيّ،

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، ولكن دقّة النظر تكشف عن أنّ الله هو الذي منّ على الناس بتمهيد سبل الهداية إلى الإسلام، ﴿هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

٦ ـ الإيمان هو المقصد والغاية لمسيرة التكامل الإنسانيّ، ﴿هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، وليس التظاهر بالإيمان وادّعاؤه، ويعد هذا الأخير من فعل المنافقين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

التعاليم:

١ ـ توجد أسرار مخفيّة في آفاق السماء وأقطار الأرض لا يعلم الإنسان منها شيئاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ قد تكون الدوافع الخفّية الكامنة في نفس الإنسان أخفى من غيب السماوات والأرض. (فالله سبحانه استعمل كلمة يعلم في الحديث عن غيب السماوات والأرض، وكلمة بصير في الحديث عن الإنسان).

٣ ـ لا محلّ للدعاوى وإطلاق الشعارات في ساحة التوحيد والقيم الإسلاميّة ولا مجال للمنّ، بل كل القيّم والآثار والنتائج تترتّب على الإخلاص والإيمان الصافي، الأمر الذي لا يعلمه سوى الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤ ـ لو أنّ الإنسان يلتفت بشكل دائم إلى علم الله وبصيرته النافذة، لدقّق في كلّ حركة وسكون، وفي كل قول وفعل يصدر عنه، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

٥ ـ علم الله وبصيرته توأمان، وبالتالي علم الله علم مطلق منزّه عن الإجمال والغموض والشكّ والترديد، أو التغيّر بحسب المستجدّات والظروف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ... وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ﴾.

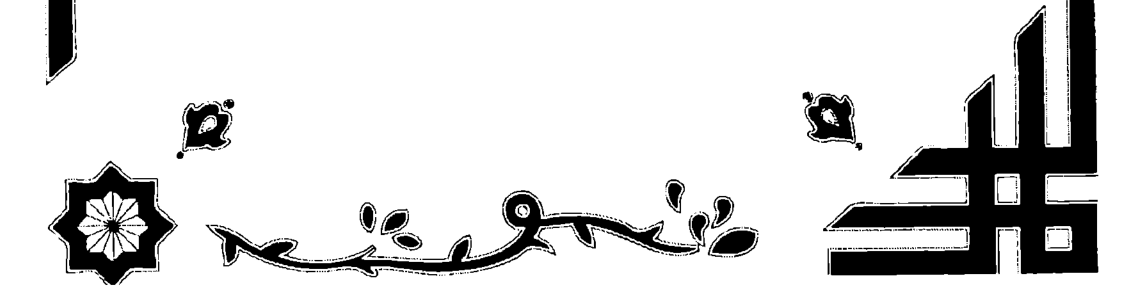
«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ قٓ

السورة: ٥٠ الجزء: ٢٦

عدد الآيات: ٤٥



ملامح سورة ق

سورة «ق» مكيّة، عدد آياتها خمس وأربعون آيةً.

سُمّيت بهذا الاسم بالنظر إلى الحرف المقطّع الوارد فيها.

المحور الأساس لهذه السورة، كما أكثر السور المكيّة، مسألة المعاد وبيان مصير الأمم السابقة، وشرح مصائر أهل الصلاح وأهل الفساد.

تبدأ السورة بالحديث عن استبعاد المشركين فكرة العودة إلى الحياة بعد الموت، وتثبت إمكان ذلك من خلال الإشارة إلى بعض النماذج الطبيعية، والإشارة إلى خلق الإنسان. وتقدم السورة موت الإنسان والحوادث المذهلة قبيل يوم القيامة على أنّها مقدّمات لذلك اليوم، كما وتتحدّث عن الجنّة والنار وصفاتهما.

وأخيراً تقدّم السورة وصفةً لنجاة الإنسان وأمنه من كل المخاطر التي سوف تحيط به، وهذه الوصفة هي ذكر الله وطاعته.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾

إشارات:

- هذه السورة من تسع وثلاثين سورة تبدأ بالحروف المقطّعة، وكما قلنا مراراً ونعيد هنا إنّ المعنى الذي ترمي إليه هذه الحروف هو الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، من جهة أنّه مؤلّف من حروف الهجاء المعروفة، ومع ذلك يعجز المشركون عن الإتيان بمثله؛ ولذلك نرى أن الله سبحانه بعد الحرف «ق»، يقسم بالقرآن: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.
- موارد التعجّب تجاه رسول الله ﷺ وما نزل عليه من وحي وما صدر عنه من أوامر ونواهٍ، اثنان أحدهما تعجّب إيجابيّ والآخر سلبيّ، أمّا التعجّب الإيجابيّ فهو تعجّب الجنّ لما سمعوه من القرآن الكريم، إذ قالوا: ﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾[1].

وأمّا التعجّب السلبيّ فهو تعجّب المشركين إذ تعجّبوا أن جاءهم منذر منهم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، كما وتعجّبوا لدعوته إلى التوحيد وجعل الآلهة إلهاً واحداً: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[2]. وتعجّبوا أيضاً لحديثه عن الحساب على الأعمال يوم القيامة: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾[3]. بل وتعجّبوا لحديثه عن فكرة البعث والحياة بعد الموت: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[4].

التعاليم:

١ ـ القسم بالقرآن عظيم، لعظمة القرآن ومجده، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

---

(١) سورة الجن: الآية ١.
(٢) سورة ص: الآية ٥.
(٣) سورة النجم: الآية ٥٩.
(٤) سورة الرعد: الآية ٥.

٢ ـ من أراد المجد والعظمة عليه أن يعود إلى القرآن ويقبل عليه، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

٣ ـ إذا كان القرآن مجيداً وكريماً، فعلينا نحن أن نمجّده ونكرمه، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[1].

٤ ـ غير العاقلين يرون المنكر معروفاً والكمال نقصاً. وكون الرسول من جنس المرسَل إليهم ومن بينهم أمر حسن يتناسب مع الحكمة الإلٰهيّة؛ ولكنّ الكفّار يرون فيه أمراً عجيباً، ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

٥ ـ من الأمور المهمّة التي تقع على عاتق الأنبياء وتدخل في مهامهم، إنذار الناس وتحذيرهم، ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

٦ ـ إنكار البعثة وإرسال الله الأنبياءَ كفر، ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم... فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٧ ـ المنطق الذي يستند إليه الكفّار عبر التاريخ هو إثارة التعجّب والاستغراب، ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ (لا يملك الكافرون برهاناً أو دليلاً لردّ دعوات الأنبياء أو إثبات بطلان مقولاتهم فيلجأون بدل الدليل إلى التظاهر بالتعجّب والاستغراب).

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- مراد الكفار من استبعاد الرجوع، هو البعد بحسب العقل والعادة؛ أي إنّ عقولهم تستبعد عودة الإنسان إلى الحياة بعد موته، وهذا يكشف عن عجزهم عن إثبات استحالة العودة إلى الحياة بالدليل؛ ولذلك لجأوا إلى الاستبعاد.
- كلمة «مريج» تتضمّن معنى الاختلاط والتشويش، كما في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٧.

﴿ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[1]. وقد استُعملت هذه الكلمة بصيغة الصفة المشبّهة فقط في القرآن، للدلالة على دوام هذه الحيرة التي يصاب بها الكافرون.

التعاليم:

١ ـ التذكير بالمعاد والحياة بعد الموت، من المحاور الأساس في دعوة الأنبياء، ﴿جَآءَهُم مُّنذِرٌ... ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

٢ ـ على المؤمنين والدعاة إلى الله عدم تجاهل الشبهات، بل لا بدّ من التوقّف عندها وتقديم الحلول والأجوبة الواضحة عنها؛ فالكفار ينكرون المعاد بعد مشاهدتهم تلاشي جسم الإنسان في التراب؛ ولذلك يردّ الله سبحانه بأنه يعلم ما تفعل الأرض بهم، ﴿أَءِذَا مِتْنَا... قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾.

٣ ـ كل التحوّلات التي تطرأ على المادة والماديّات يعلمها الله، بل هي خاضعة لنظام واضح وتقدير إلهي محدّد، ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾.

٤ ـ من الخواص التي تتّصف بها الأرض إتلاف الأجسام التي تُدفَن فيها، ﴿تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

٥ ـ علم الله سبحانه بذرّات الوجود الماديّ، لا يتنافى مع ضبط الأمور وإثباتها بالأدلة، ﴿عَلِمْنَا... وَعِندَنَا كِتَٰبٌ﴾ (كما عندما تقول لشخص أنا أعلم أمراً ما، ثم تأتي له بدليل يثبت ما تقول).

٦ ـ يتمّ الله الحجّةَ على الكفار قبل أن يحكم عليهم، ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾.

٧ ـ منشأ الاضطراب والحيرة إنكار الحقّ والتكذيب به، كما أنّ منشأ الاطمئنان والهدوء ذكر الله والإيمان به، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ... فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

٨ ـ من لا يشتمل قلبه على إيمان ثابت يصاب بالتشويش والحيرة في كل كلمة يقولها، ويواجهه الاضطراب في كل أمر يقدم عليه، (فتارةً كانوا يتّهمون النبيّ بالسحر وأخرى بالتعلّم من البشر، وثالثةً بالجنون، ولم يستقرّوا في

---

(١) سورة الرحمن: الآية ١٩.

مواجهتهم للنبيّ ﷺ على تهمة أو دليل يبطلون به دعواه النبوّة)، ﴿فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾.

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾

إشارات:

- «رواسي» جمع راسية، والراسي هو الأمر الثابت المحكم.
- الحديث عن قانون الزوجية من وجوه الإعجاز القرآني، ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾.
- يستند استغراب المعاد والتعجّب من عودة الإنسان إلى الحياة، إلى مجموعة من الأمور:

أ ـ استغراب واستبعاد إمكانية جمع أجزاء الجسد الذي تلاشى في التراب، فكيف يمكن التعرف إلى هذه الأجزاء المتلاشية لإعادة تركيبها؟

ب ـ وعلى فرض معرفة هذه الأجزاء فكيف يمكن تركيبها وإعادة جمعها؟

والآية الرابعة تجيب عن الشبهة الأولى، وتثبت علم الله بهذه الأجزاء ومعرفته إياها، ﴿عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾.

وفي ردّ الشبهة الثانية تتحدث هذه الآيات عن قدرة الله الواسعة، من خلال الإشارة إلى مظاهر قدرته في السماء والأرض.

- التعقّل والتفكير في الإسلام هما الأصل الذي ينبغي أن يبنى عليه الإيمان، ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾؛ وأما الدعاء والمناجاة وما سواهما فهي الخطوة الثانية التي تترتب على الأصل الأول: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ...﴾[1]. والقرآن الكريم يثني على بعض المؤمنين ويسند

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

عواطفهم الصادقة إلى معرفتهم السابقة: ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾(١).

التعاليم:

١ ـ الطبيعة هي مدرسة معرفة الله، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ...﴾.

٢ ـ على الداعي أن يدعو إلى الله من خلال الإشارة إلى النماذج والأمثلة، فالله سبحانه في هذه الآية يثبت إمكان المعاد من خلال الإشارة إلى مظاهر قدرته في السماء والأرض، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾.

٣ ـ يستحقّ الذين لا يتأمّلون في خلق الله، ثمّ يستنكرون المعاد، اللوم والتأنيب، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾.

٤ ـ العالم كلّه والسماء والأجرام التي فيها، محكومة لنظام لا محلّ فيه للخلل، ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا... وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

٥ ـ تشتمل الأرض على جبال راسخة ثابتة، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

٦ ـ المتانة والجمال صفتان من صفات خلق الله في السماء والأرض، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ... زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ... وَأَلْقَيْنَا... رَوَٰسِىَ... زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

٧ ـ خروج النبات من الأرض حياة لها بعد موتها، وهو نموذج تقريبي للمعاد ويوم القيامة، ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ... وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

٨ ـ النظر في النبات ومظاهر الجمال في الطبيعة من الأمور التي تثير البهجة في نفس الإنسان، ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ... وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

٩ ـ على الإنسان أن يستفيد من مظاهر القدرة الإلهيّة في الخلق كي لا تبقى ذرّة من الشكّ في نفسه، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟... وَبَنَيْنَا... زَيَّنَّا... مَدَدْنَٰهَا... وَأَلْقَيْنَا... وَأَنۢبَتْنَا﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٣.

١٠ ـ التبصّر في خلق الله من أعظم النعم، وأعمها، وأقربها، وأسلمها، وأدومها، وأكثرها إثارة للبهجة في النفس، ﴿بَهِيجٍ﴾.

١١ ـ النظر والتأمّل، في الرؤية النبويّة، مقدّمة للفهم والتبصّر، والاعتبار، ﴿يَنظُرُوٓاْ... تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾.

١٢ ـ طريق العودة إلى الله مفتوحة في وجه خلقه جميعاً، ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

١٣ ـ عندما يتوفّر الإنسان على قلب مستعدّ للمعرفة، تتحول الدنيا كلها إلى مختبر وميدان للبحث والدراسة، ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

١٤ ـ الجمال، وكل ما يبعث البهجة في النفوس، وسيلة للقرب من الله والفهم، وليس وسيلة للتسلية والترف، ﴿زَيَّنَّٰهَا... زَوۡجِۢ بَهِيجٖ... تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

١٥ ـ التواضع مقدمة للفهم، والغرور منشأ للحرمان من النعم، ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ﴾.

١٦ ـ الإنابة إلى الله والتضرّع إليه من لوازم العبوديّة، ﴿عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ۝١١﴾

إشارات:

- الحصيد، من الحصاد، وهو جني الزرع. وباسقات جمع باسقة؛ أي طويلة القامة. والطلع براعم النخل التي تتحوّل إلى تمر. ونضيد أي متراكم بعضه فوق بعض.
- جمع المحاصيل الزراعية من أكثر الأمور إثارة للبهجة والسرور في نفس المزارعين، ﴿...وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾.
- تمثل هذه الآيات لتقريب فكرة المعاد والبعث، بنموّ النباتات في الأرض واخضرارها بعد أن تكون ميتة لا حياة فيها.

□ عن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال: **«ليس من ماء في الأرض إلا وقد خالطه ماء السماء»**[1].

□ عن الإمام علي عليه السلام، أنّه كان إذا أصابه المطر مسح به صلعته، وقال: **«بركة من السماء لم يصبها يد ولا سقاء»**[2].

التعاليم:

١ ـ لا تنافيَ بين إسناد نزول المطر إلى إرادة الله تعالى، وبين وجود عوامل وأسباب طبيعية تساعد على نزوله، ﴿وَنَزَّلْنَا﴾.

٢ ـ المطر من الأسباب الضرورية للحياة على الأرض، وبه ترتفع الآفات والأمراض منها، وينمو الزرع، ويلطّف الهواء، وتجري الينابيع، ﴿مُّبَٰرَكًا﴾.

٣ ـ للنخل حسابه الخاص، وأهميّته التي تفوق ما لسواه من أصناف الشجر والثمر؛ (فقد خصّه الله سبحانه بالذكر دون سواه ممّا في الجنّات)، ﴿جَنَّٰتٍ... وَٱلنَّخْلَ﴾.

٤ ـ ظهور النبات في الأرض له أهداف وغايات مبنيّة على الحكمة الإلٰهيّة، ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

٥ ـ يجب أن يكون الرزق، الذي يمنّ الله به على العباد، سبباً لحسن العبوديّة، ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

٦ ـ من الأساليب الدعوية المناسبة، الاستفادة من المحسوسات لتقريب المعقولات إلى الأذهان، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

٧ ـ التأمّل في قدرة الله وجودة فهمها تساعد الإنسان على تعقّل إعادة الموتى إلى الحياة، ﴿بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا... مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا... وَأَنۢبَتْنَا... وَنَزَّلْنَا... فَأَنۢبَتْنَا... وَأَحْيَيْنَا... كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

٨ ـ تشتمل الأفعال الإلٰهيّة على الجامعية والشمول، فقد مزج سبحانه بين إتقان

---

(١) الكافي، ج٦، ص٣٨٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٥٩، ص ٢٧٠.

الصنع والحكمة والمعرفة والهداية معاً (طول النخل، وجمال طلعه، من علامات القدرة الإلٰهيّة على الخلق. والارتزاق من هذا الخلق من علامات الحكمة، ودلالة اخضرار الأرض بعد يباسها على إمكان الحياة بعد الموت، من علامات الهداية ومن السبل إلى المعرفة الإنسانيّة بالقدرة الإلٰهيّة)، ﴿بَاسِقَٰتٍ... نَضِيدٌ... رِزْقًا... كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- ورد ذكر أصحاب الرسّ في القرآن مرّتين، مرة في هذه السورة ومرة أخرى في سورة الفرقان الآية ٣٨. وأصحاب الرسّ قوم كانوا يسكنون في اليمامة، وكان لهم نبيّ اسمه حنظلة، فكذبوه وألقوه في البئر، فسمّوا بهذا الاسم، والرس هو البئر. ويرى بعض المفسّرين أنّهم قوم كانوا يعبدون شجرة الصنوبر[1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام ما يدلّ على أنّ سبب نزول العذاب عليهم هو الشذوذ الجنسيّ عند نسائهم[2].
- وثمود هم قوم النبيّ صالح عليه السلام، وعاد هم قوم النبيّ هود عليه السلام.
- «الأيكة» شجر ملتفّ. وأصحاب الأيكة هم قوم النبيّ شعييب عليه السلام، قيل نسبوا إلى غيضة كانوا يسكنونها، وقيل هي اسم بلد. وقد وردت الإشارة إليهم في القرآن في سورتي الحجر والشعراء.
- «تبّع»، لقب لملوك اليمن كما يقال لملك الفرس كسرى، ولملك الروم قيصر، وقوم تبّع هم أتباع هؤلاء الملوك. وقد ورد ذكرهم في سورة الدخان الآية ٣٧. وعن الصادق عليه السلام: **«إنّ تبّعاً قال للأوس والخزرج كونوا ها هنا حتى يخرج هذا النبيّ أما أنا فلو أدركته لخدمته وخرجت معه»**[3].

---

(١) تفسير نمونه.

(٢) الكافي، ج٥، ص ٥٥١.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان، ج٤، ص ٤٠٨.

□ سمّي قوم لوط بإخوانه؛ لأنّهم عشيرته وأقاربه[1]. إلا أنّ القرآن يعبّر في موارد أخرى عن الأنبياء بالإخوان، وربّما انطبق هذا على قوم لوط أيضاً، وبالتالي لا يكون لهذه التسمية دلالة خاصّة في حقّ لوط عليه السلام.

التعاليم:

١ ـ التعرّف إلى تاريخ الأنبياء السابقين ومعاناتهم فيه ما ينفع للتخفيف عن النبيّ ﷺ، ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾.

٢ ـ التضادّ بين الحقّ والباطل أمر مستمرّ طوال التاريخ الإنساني، ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾.

٣ ـ يرسل الله الأنبياء لإتمام الحجّة على الناس. وإذا عاند الناس وأصرّوا على الكفر والتمرّد ومواجهة دعوة الحقّ فعندها ينزل الله عقابه وعذابه، ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ... فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

٤ ـ يعاقب الله بعض الناس في الدنيا، ولا يؤجّل عقابهم إلى الآخرة، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

٥ ـ يوجد الكثير من العبر والدروس في تاريخ الأمم السابقة، ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ... فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

٦ ـ لا يبقى تكذيب الأنبياء دون أثر يرتّبه الله عليه كالعقاب في الدنيا أو الآخرة أو في كليهما، ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

□ «عيينا» من العيّ وهو العجز وعدم القدرة. واللبس بمعنى الخلط والاشتباه.

---

(١) المصدر نفسه، ج٩، ص ٢٣٩.

- الوسوسة في اللغة الصوت المنخفض الخفيّ، وفي الاصطلاح كناية عن الأفكار الباطلة التي يلقيها الشيطان أو غيره في روع الإنسان.
- كلمة «وريد» من مادّة «ورد»، والورود هو السير نحو الماء والوصول إليه. وربّما يكون إطلاق هذا الاسم على أحد الشرايين الأساس في جسد الإنسان، من جهة أنه السبيل الأساس لحركة الدم بين القلب وسائر البدن.
- على الداعي أن يستفيد من كل أساليب التعبير المشروعة لبيان الحقّ، فالله سبحانه في الآيات السابقة أشار إلى قدرته التي تتجلّى في السماء والأرض، ثم أشار إلى عاقبة الأقوام الذين عاندوا الحقّ. وفي هذه الآيات يخاطب عقول الناس ووجدانهم، ويسأل: هل عجزنا عن الخلق الأوّل حتّى نعجز عن الإعادة؟
- بين هذه الآية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[1] تشابه وشيء من الاشتراك.
- منشأ الوسوسة أمور ثلاثة، هي:

أ ـ النفس ورغباتها، ﴿تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.

ب ـ الشيطان، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[2].

ج ـ بعض الناس والجنّ، ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[3].

- علم الله بأمورنا وأحوالنا له سببان، هما:

أ ـ لأنّه خالقنا، والخالق يعلم أحوال المخلوق وأوضاعه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[4].

ب ـ إحاطته بنا وقربه منّا، ﴿نَعْلَمُ... وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

ولأجل هذين السببين كان علم الله دقيقاً وشاملاً، ومباشراً ومن دون واسطة.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠.
(٣) سورة الناس: الآيتان ٥ و٦.
(٤) سورة الملك: الآية ١٤.

□ منشأ الشكّ في المعاد، أمران هما:

أ ـ عدم الإيمان بقدرة الله على معرفة أفعال الإنسان والأماكن التي تفرّقت أجزاء جسده فيها، ليجمعها ويحاسبه على ما فعل.

ب ـ عدم الإيمان بقدرته على إعادة الإنسان الميت إلى الحياة.

وهذه الآية تقدّم الجواب عن الشبهتين معاً: فالله هو الذي أنشأ الإنسان في المرّة الأولى، ومن ينشئ هو قادر على الإعادة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾. والشبهة الثانية حول إحاطة علم الله، ترد عليها الآية بإثبات علم الله بما يدور في خلد الإنسان وسرّه، ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

التعاليم:

١ ـ خلق الكائنات كلّها دليلٌ على قدرة الله على إعادتها إلى الحياة بعد موتها. فعندما يكون الخلق الأول ممكناً يكون الثاني مثله في الإمكان، ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾.

٢ ـ في الجدال مع المختلفين والمعارضين، على الإنسان أن يستفيد من أوضح العبارات وأكثرها اختصاراً، ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ (فالقول بإمكان الخلق الأول واستحالة الثاني تناقض غير مقبول).

٣ ـ لا يملك الكافرون دليلاً يدلّ على استحالة المعاد، بل كل ما يستندون إليه هو الشكّ، ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

٤ ـ على من يسعى إلى إصلاح عقيدته أن يبعد الوسوسة عنه ويردّ الشبهات التي تحوم على قلبه وتحاول السيطرة على عقله (فإنكار القيامة يستند بحسب هذه الآية إلى الوسوسة والشكّ الذي يدور في نفس الإنسان)، ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ...﴾.

٥ ـ علم الله محيط بالإنسان ما دام حياً، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠﴾

إشارات:

- «قعيد»، صفة للملائكة الملازمين للإنسان يحصون عليه أفعاله وأقواله، وليس المراد به الملكين عن يساره ويمينه.
- «رقيب» أي مراقب، و«عتيد» أي مستعد للخدمة، و«السكرة» من السكر وهو حالة تصيب الإنسان فيفقد فيها جزءاً كبيراً من وعيه وعقله، و«تحيد» أي تعدل وتميل.
- يعبّر الله سبحانه في هذه الآية عن الحالة التي تصيب الإنسان عند الموت بالسكرة؛ وذلك لشدّة هول تلك اللحظة، كما يعبّر عن حالة الناس يوم القيامة بتعبير قريب من هذا المعنى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾[1].
- تشير الآية من بين أفعال الجوارح كلّها إلى: «ما يلفظ من قول»؛ وربّما كان ذلك لسهولة عمل اللسان وخفّته، ودوامه، وشدّة أذاه في بعض الحالات.
- الالتفات إلى الرقابة الإلهيّة الدائمة، وإحصاء الملائكة على الإنسان أنفاسه، والذكر الدائم للحظة الموت، من الأسباب المساعدة على ملازمة التقوى.
- تعدّد الشهود من الأسباب المساعدة على ملازمة التقوى، ومن الدوافع الأساس لفعل الخير وتجنّب المنكر والشرّ، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ... وَعَنِ ٱلشِّمَالِ... رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ على الرغم من الاطلاع الإلهيّ والإحاطة العلمية لله سبحانه، إلا أنّه أراد ﷻ أن يكون ضبط الأفعال وإحصاؤها على يد ملائكة أوكل إليهم هذه المهمّة، وربّما كان ذلك من باب جريان الأمور بأسبابها، ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

---

(١) سورة الحج: الآية ٢.

٢ ـ يخضع عمل الملائكة لنظام تقسيم المهام، ففي بعض الروايات ما يدلّ على أنّ ملائكة اليمين يسجّلون أعمال الخير، وملائكة الشمال يسجّلون أعمال الشرّ[1]، ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

٣ ـ لا يُسأل الإنسان عن أفعاله فحسب، بل يُسأل أيضاً عن أقواله وما يصدر عن لسانه، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾.

٤ ـ الرقابة التي يتعرّض لها الإنسان ذات قيمة ولها آثار تترتّب عليها؛ ولذلك تضبط حركات الإنسان كلها، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ... وَعَنِ ٱلشِّمَالِ... رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

٥ ـ يفقد الإنسان في لحظات الموت توازنه وحالته الطبيعية المعتادة قبل الدخول في اللحظات الأخيرة من حياته، ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾.

٦ ـ سكرة الموت أمر حتميّ يصيب البشر جميعاً، ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

٧ ـ الرغبة بالتخلّص من الموت والفرار من لوازم الطبيعة البشرية ومقتضياتها، ﴿كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

□ تشبه المراحل التي يمرّ بها الإنسان يوم القيامة عند محاكمته، مراحل صدور الحكم في الدنيا، فالإنسان يُضبط ويُقاد أولاً ثمّ يواجه بالشهود، ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، وبعد ذلك يقدّم للمحاكمة وتبيّن له جرائمه حتّى يعرف ما هو ذنبه، ﴿كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا﴾، ثم بعد ذلك يصدر الحكم وينفّذ عليه، ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ١٠٩.

❑ «عتيد» فيها إشارة إلى النظام والدقّة في عمل الملائكة، و«عنيد» من العناد وهو اللجاجة في طلب أمر ما، و«منّاع» كثير المنع بخيل، و«مريب» صفة لمن يثير الشك في نفوس الناس.

❑ «كفّار» مبالغة من الكفر؛ أي كثير الكفر، ومن يوصف بهذا الوصف يكون قد بلغ الغاية في الكفر والعناد، ولا يكتفي بالكفر بل يدعو الناس إليه ويعيقهم عن الهداية، ومثل هذا الإنسان عاقبته النار من دون شكّ.

❑ الناس تجاه فعل الخير على أقسام:

أ ـ منهم من يسارعون في الخير ويسبقون إليه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[1].

ب ـ ومنهم من هم مصدر الخير وأصله، ولذلك فهم يدعون الناس إليه: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[2].

ج ـ ومنهم من يعادون الخير ولا يقدمون على فعله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾.

❑ يوجد تناسب بين فعل الإنسان وبين العقاب الإلٰهيّ المترتّب عليه؛ ومن هنا فإنّ من يمنع الخير، ومن هو كفّار مثير للشبهات في أذهان الناس، مثل هذا لا بدّ من أن يكون عذابه شديداً، ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

❑ عن الإمام الباقر عليه السلام، أن القرين هو الملاك الشاهد على الإنسان[3].

❑ الملكان الموكلان بإلقاء المجرمين في جهنّم، هما: إما سائق وشهيد، وإما رقيب وعتيد.

التعاليم:

١ ـ يحضر جميع الناس يوم القيامة للحساب بين يدي الله تعالى، وكما في محاكم الدنيا يرافق كل واحد منهم ملاك يراقبه، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ﴾.

٢ ـ لا مجال للفرار من محكمة يوم القيامة، ولا لإنكار التهم المنسوبة إلى الإنسان، ﴿مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٣) تفسير نمونه.

٣ ـ كل واحد من الملائكة له وظيفة ودور محدّدان، ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

٤ ـ الغفلة التي تصيب بعض الناس في الدنيا عميقة ومستولية على كيانهم، ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ (التنوين للتعظيم، و«في» تدل على الاشتمال والظرفية).

٥ ـ الدنيا وما فيها من مظاهر هي أحد أسباب الغفلة التي تصيب الإنسان، ﴿غَفْلَةٍ... غِطَآءَكَ﴾.

٦ ـ الغطاء الذي يؤدّي إلى غفلة الإنسان هو غطاؤه هو، ولذلك نسب إليه، ﴿غِطَآءَكَ﴾.

٧ ـ الدنيا هي دار الغفلة، والآخرة هي دار اليقظة والوعي، ﴿كُنتَ فِى غَفْلَةٍ... فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

٨ ـ الأفعال التي تصدر عن الإنسان في الدنيا تصيبه بالغفلة وتمنعه عن معرفة الحقّ وتحجب عنه الرؤية، وفي الآخرة ترتفع آثار هذه الأعمال ويغدو الإنسان قادراً على معرفة الحقّ والتمييز بينه وبين الباطل، ﴿غِطَآءَكَ... فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

٩ ـ الإنسان غافل في الدنيا وسطحي النظر، وأما في الآخرة، عندما ترتفع الحجب، يصبح حادّ البصر والبصيرة، ﴿فِى غَفْلَةٍ... فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

١٠ ـ الأمر بإلقاء المجرمين في جهنّم من المؤشّرات إلى ذلّهم وهوانهم، ﴿أَلْقِيَا﴾.

١١ ـ المعيار في التعامل مع الناس يوم القيامة هو العمل لا العرق ولا النسب، ولا غيرهما من الاعتبارات الموجودة في الدنيا، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾.

١٢ ـ ما يؤدّي إلى الابتلاء بجهنّم هو الكفر والعناد، ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

١٣ ـ الكفر والشرك، منشآن لكل شرّ ومفسدة اجتماعية، ﴿كَفَّارٍ... مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ﴾.

١٤ ـ الأحكام الإلٰهيّة شديدة وصارمة لا تقبل الاستئناف والإبطال، ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ... فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

١٥ ـ لا تستوي منازل جنهّم بل تختلف منازلها ومراتبها، في الشدّة والضعف، ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ... فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

- عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ القرين في الآية هو الشيطان[١]. وفي تفسير الميزان أنّ المراد بهذا القرين في هذه الآية هو الشيطان الذي يلازم الإنسان[٢].
- رفيق السوء من العوامل المساعدة على دخول الإنسان إلى النار. وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى الشيطان بوصفه قرين سوء للإنسان، وفي آية أخرى يعرض سبحانه لصرخات الندم التي تصدر عن أهل جهنّم إذ يقول بعضهم: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾[٣].
- تدور يوم القيامة حوارات ونقاشات بين المجرمين، وبينهم وبين قادتهم، وبينهم وبين الشياطين، ويحاول كل طرف من هؤلاء إلقاء اللوم على الآخر وتحميله مسؤولية ما ارتكب من جرائم في الدنيا. وفي القرآن الكريم، مشاهد عدّة من هذه الحوارات:

ففي بعضها يلوم بعضهم بعضهم الآخر، فيقولون: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾[٤]، ويسمعون الجواب: ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[٥].

وفي مشهد آخر يلقي التابعون على المتبوعين مسؤولية الجرائم التي ارتكبوا، فيقولون: ﴿كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾[٦].

وفي مشهد ثالث، يلوم بعضهم الشيطان فيدافع عن نفسه قائلاً: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[٧].

---

(١) بحار الأنوار، ج٥، ص ٣٢٣.
(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص ٣٥٢.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٢٨.
(٤) سورة سبأ: الآية ٣١.
(٥) سورة الصافات: الآية ٢٩.
(٦) سورة إبراهيم: الآية ٢١.
(٧) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

وهذه الآية تصوّر أحد هذه المشاهد على لسان إبليس: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ على الإنسان أن يحذر رفيق السوء وأن يختار أحسن الرفاق لمعاشرتهم، فهو بين خيارين متناقضين، يصل أحدهما إلى الحضيض؛ حيث يكون الشيطان قرينه، ﴿قَرِينُهُۥ﴾.

٢ ـ من غرائب الأمور أن يعترف الشيطان بربوبيّة الله سبحانه، ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا﴾.

٣ ـ علينا نحن البشر أن نعي أنّ إبليس يوم القيامة يتبرّأ منّا ولا يتحمّل أيّ مسؤوليّة تجاهنا، ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

٤ ـ ينحصر دور إبليس في الدعوة إلى الضلال والانحراف، وليس أكثر من ذلك، ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

٥ ـ يهبط بعض الناس إلى مستوى يتمكّن إبليس عنده من اتهامهم بالضلال، ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ... فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٦ ـ يتخاصم الناس مع الشيطان يوم القيامة، ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾.

٧ ـ لا ينفع الجدال مع إبليس يوم القيامة؛ ولذلك علينا أن نخاصمه ونجادله في الدنيا بدل تأجيل ذلك إلى يوم القيامة، ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾.

٨ ـ لا يعذّب الله إلا بعد إتمام الحجّة، ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ... وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

٩ ـ لا ينفع التخاصم يوم القيامة، ولا يؤثّر الاعتراض والجدال في تغيير حكم الله تعالى، ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾.

١٠ ـ تغيير الأحكام الإلٰهيّة يوم القيامة ظلم؛ لا يمكن أن يصدر عن الله تعالى، ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

١١ ـ دخول المجرمين إلى النار إن كان ظلماً فهو ظلم منهم لأنفسهم، وليس ظلماً من الله تعالى لهم، ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ... وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

١٢ ـ تتوفّر جهنّم على نوع من الوعي والشعور، ولذلك يدور بينها وبين الله سؤال وجواب، ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾

إشارات:

- الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه؛ ولذلك خُصّ العلماء بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.
- حسن الضيافة يقتضي أن يؤتى بالطعام إلى الضيف، لا أن يأتي هو إلى الطعام، كما فعل إبراهيم عليه السلام عندما قرّب الطعام إلى ضيفه: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾[1]. وعلى القاعدة نفسها، نجد أنّ التي أعدّها الله للمتّقين ليست بعيدة عنهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.
- يُعلم الفرق بين المتّقين وغيرهم، من هذه الآيات، فالله سبحانه عندما يتحدّث عن المتّقين يقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾. وأمّا عندما يتحدّث عن الذين استحقّوا غضبه، فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾[2].
- أهل جهنّم سبق وعيدهم بالعذاب في الدنيا: ﴿قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾[3]. والمتقون كذلك سبق لهم الوعد: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾.
- عن النبيّ صلى الله عليه وآله، في وصيّة له لابن مسعود: «... **يا ابن مسعود اخش الله تعالى بالغيب كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[4]. يقول الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ...﴾[5].
- يحدّثنا القرآن عن ثلاثة أنواع من القلوب، هي:

أ ـ القلب السليم الخالي من النفاق والشرك والحقد وغيرها من العيوب: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[6].

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٢٧.
(٢) سورة ق: الآية ٢٤.
(٣) سورة ق: الآية ٢٨.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٤، ص ١١١.
(٥) سورة ق: الآية ٣٣.
(٦) سورة الشعراء: الآية ٨٩.

ب ـ القلب المنيب: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[١]، وهو الذي القلب الذي قد ينحرف ولكنّه سرعان ما يعود إلى الجادّة والصراط المستقيم.

ج ـ القلب المريض: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[٢]، وهو القلب المبتلى بأمراض النفاق والحقد وغيرهما من الأمراض التي تعشّش في بعض القلوب، وإذا تركت فإنّ هذه الأمراض تتفاقم وتزداد يوماً بعد يوم.

التعاليم:

١ ـ الجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، من القواعد الأساس في التربية، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ... وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾.

٢ ـ تقرّب التقوى والطهارة الجنّةَ من الإنسان، ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٣ ـ المعيار عند الله هو العمل، لا الجنس ولا العرق، ﴿كُلَّ كَفَّارٍ... لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾.

٤ ـ على الدعاة إلى الله أن يحرّضوا العاصين على التوبة والرجوع إلى الله، ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾.

٥ ـ نيل الجنّة مرهون بالعودة إلى الله والسعي نحوه، ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾.

٦ ـ ليس الإنسان معصوماً، فقد تصدر عنه المعصية، ولكنّ المهمّ هو أنّ باب التوبة مفتوح، ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾.

٧ ـ لا ينبغي أن تتحوّل الرحمة الإلٰهيّة إلى منشأ غرور، بل على الإنسان أن يقرن الأمل بالرحمة، بالخشية والرهبة من الله سبحانه، ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ (فالله رحمن كما يصف نفسه، ولكن لا بدّ من خشيته على الرغم من رحمته).

٨ ـ قد يلتزم بعض الناس بالقوانين خوفاً من العقاب، أو حفظاً للسمعة، أو ما شابه ذلك، ومثل هذا الالتزام مقبول اجتماعياً وإن كان في المستوى الأدنى أخلاقياً، ولذلك يجب أن تكون الخشية من الله بالغيب، وبعيداً عن كل الأسباب والدواعي الخارجيّة، ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٣. (٢) سورة البقرة: الآية ١٠.

٩ ـ ليس المتّقي هو من لا يقدم على الذنب، بل يصدق هذا المفهوم على من قد يرتكب المعصية ولكنّه يتوب توبةً صادقة، ويتوفّر على قلب منيب، ﴿لِلْمُتَّقِينَ... لِكُلِّ أَوَّابٍ... خَشِيَ... بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.

١٠ ـ المعرفة والخشية هما منشأ الإنابة والعودة إلى الله، ﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ... وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

إشارات:

- أشار الله سبحانه في الآيات السابقة إلى أربع صفات كمالية للمتّقين، هي: «أواب» (توّاب)، و«حفيظ» (من الحفاظ على حدود الله)، و«الخشية» (الخوف من الله)، و«ذو قلب منيب» أي خاضع وخاشع لله سبحانه. وفي هذه الآية يشير سبحانه إلى صفات الجنّة، وهي: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ (دار الأمن والأمان)، ودار ﴿ٱلْخُلُودِ﴾، ولأهلها ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾، ولدى الله المزيد من نعمها التي لا حدّ لها ولا حصر، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.
- نِعَم الدنيا مهما حسُنت وعظُمت، إلا أنّها لا تخلو من كدر ينغّصها، ومن ذلك:

١ ـ نِعَم الدنيا لا تأتي إلا مقرونة بالتعب والهمّ، وأما نِعَم الجنّة فينالها الإنسان، ﴿بِسَلَٰمٍ﴾.

٢ ـ نعم الدنيا موقّتة تزول مهما طال أمدها، وأما نعم الآخرة فهي خالدة، ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

٣ ـ نعم الدنيا محدودة الأنواع والأصناف، وأما نعم الآخرة فلأهلها، ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾.

٤ ـ نعم الدنيا محدودة الكمّ، وأما نعم الآخرة فلا تنفد، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ خشية الله في الدنيا من أسباب الأمن والسلام في الآخرة، ﴿خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ... ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

٢ ـ ينال أهل جهنّم الاحتقار قبل العذاب، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾(١)، وأما أهل الجنّة فإنّهم يكرّمون قبل الثواب وبعده، ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

٣ ـ القهر والشدّة من صفات الله، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾، كما أنّ الرحمة واللين من صفاته أيضاً، ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

٤ ـ من الصور اللافتة في المقارنة بين أهل جهنّم وأهل الجنّة أن أهل جهنّم يُنهون عن التخاصم بين يدي الله ويزجرون عنه، ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾، بينما يُدعى أهل الجنّة إلى الدخول إليها بسلام واحترام، ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾(٢).

٥ ـ من البشائر التي ينعم بها أهل الجنّة خلودهم فيها، وعدم فقدانهم ما يُعطون من النِعَم، ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

٦ ـ من يترك الشهوات والأهواء في الدنيا من أجل الله يحصل على كل ما يشتهي يوم القيامة، ويعوّضه الله سبحانه ما فاته ملذّات، ﴿لِلْمُتَّقِينَ... لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾.

٧ ـ يعامل الله أهل جهنّم يوم القيامة بعدله، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٣)، وأما أهل الجنّة فإنّه يعاملهم بلطفه وكرمه، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

٨ ـ الإنسان موجود كثير المطالب، ولا يرضيه إلا ما لا ينفد، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

٩ ـ لطف الله سبحانه وكرمه أوسع من حاجة الإنسان ومن رغباته، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

---

(١) سورة ق: الآية ٢٤.

(٢) سورة يس: الآية ٥٨.

(٣) سورة ق: الآية ٢٩.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- القرن: الاقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنى من المعاني. والقرن في هذه الآية القوم المقترنون في زمن واحد وجمعه قرون. ويطلق هذا اللفظ في عصرنا على المئة سنة.
- البطش تناول الشيء بصولة.
- «نقّبوا» من النقب وهو ثقب الأرض أو غيرها بإحداث فجوة فيها. وربّما كانت كلمة «منقبة» مشتقّة من هذا الأصل؛ لأنها صفة راسخة في النفس. والمراد من النقب في هذه الآية هو السير في الأرض.
- القلب في الآية ليس هو الجهاز العضلي الذي يتولّى ضخّ الدم إلى سائر أعضاء الجسم، بل المراد من القلب في الآية العقل. وقد ورد هذا المعنى عن الإمام الكاظم عليه السلام[1]. ونظير هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[2]. إذ اقترن الحديث عن السمع في هذه الآية بالحديث عن العقل، وفي الآية التي هي محل الكلام جمع بين العقل والسمع.
- «إلقاء السمع» كناية عن الاستماع بقصد الفهم والوعي. وبعبارة أخرى: المراد هو السمع بأذن القلب.
- الشهيد في الآية هو الشاهد الحاضر في المجلس بحيث يعي ما يدور حوله، وليس كما يقال جسده هنا وهو في محل آخر.

التعاليم:

١ ـ هلاك الأمم السابقة بكفرها وشركها من المنارات التي يجب أن يستفيد منها

---

(١) انظر: الكافي، ج١، ص ١٦.

(٢) سورة الملك: الآية ١٠.

من أتى بعدهم ويعتبر من مصيرهم، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾.

٢ ـ هلاك الجبّارين الكافرين من الأمور التي تبعث العزاء والأمل في نفوس أهل الإيمان، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾.

٣ ـ هلاك الظالمين سنّة إلهيّة تجري عبر العصور والدهور، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾.

٤ ـ يجب أن يتحوّل التاريخ إلى علم للبحث عن مصير الأمم الماضية من أجل أخذ العبر والدروس من مصائرها وما جرى عليها، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾.

٥ ـ القدرات المادّية لا تساوي شيئاً في مواجهة الغضب الإلٰهيّ، ﴿أَهْلَكْنَا... أَشَدُّ... بَطْشًا﴾.

٦ ـ كانت قريش تعتدّ بقوتها وبطشها؛ ولذلك يلفت الله نظرهم إلى إهلاكه من هو أشدّ منهم قوة وبطشاً، ﴿أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

٧ ـ القوّة عندما لا تقترن بالإيمان تتحوّل إلى مصدر للأذى والإضرار بالآخرين، ﴿أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾

٨ ـ عندما يحلّ الغضب الإلٰهيّ، تنسدّ سبل النجاة في وجوه جميع المستحقّين سواء كانوا أقوياء أم ضعفاء، ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

٩ ـ الإنسان الذي يأخذ العبر والدروس من التاريخ، هو من يملك الاستعداد الداخليّ للاعتبار، ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾، أو هو مستعدّ لسماع الحقّ وللسماح له بالنفوذ إلى باطنه، ﴿أَلْقَى السَّمْعَ﴾.

١٠ ـ لا ينبغي أن نمرّ على أحداث التاريخ بسذاجة، بل علينا أن نحلّلها ونستلهم منها العبر. وعدم الاعتبار من التاريخ دليل على موت القلب أو على عدم وجوده، ﴿ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

١١ ـ السماع والاستماع يؤثّران عندما يتوفّر السامع على قلب حيّ مستعدٌ للفهم والوعي، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

إشارات:

- اللغوب: التعب والنصب، يقال أتانا ساغباً لاغباً أي جائعاً تعباً. وهذا محتمل في ذوي القدرة المحدودة كالبشر وغيرهم، وأمّا عند الله تعالى، فلا معنى له ولا محلّ، وهل يمكن أن يعجز عن إعادة بعث الإنسان إلى الحياة، من خلق السماوات والأرض وما فيها؟ والإنسان ليس سوى مخلوق من ملايين المخلوقات المشابهة.
- «اليوم» هو مقدار من الزمان يقدّر بأربع وعشرين ساعة، وهو ينتج عن دورة كاملة للأرض حول نفسها، ولذلك لا معنى له في حالة الحديث عن خلق السماوات والأرض، فلذلك قد يكون المراد منه الأيام الستّة المراحل.
- يرى الفخر الرازي أنّ هذه الآية هي جواب وردّ للعقيدة اليهودية المبنيّة على أنّ الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع!
- للطريقة الإلٰهيّة في الخلق ولمخلوقاته سبحانه خصائص ومميّزات، منها:

١ ـ الابتداع والابتكار، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

٢ ـ اشتمالها على الهدف وبعدها عن العبث، ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[2].

٣ ـ اتّصافها بالتحوّل والتطوّر، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[3].

٤ ـ كونها وفق مقادير ومخطّطات مدروسة، ﴿كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[4].

٥ ـ كون كل منها على أحسن ما يمكن أن يكون، ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[5].

٦ ـ التدريج والمرحليّة، ﴿خَلَقْنَا... فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

- يقول الله سبحانه في الآية الخامسة عشر: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾، وفي هذه الآية يؤكّد أنّ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١١٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩١.
(٣) سورة الذاريات: الآية ٤٧.
(٤) سورة القمر: الآية ٤٩.
(٥) سورة السجدة: الآية ٧.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن ننظر إلى السماء نظرة سطحيّة، فهي محلّ لتجلّي القدرة الإلٰهيّة، وهي غاية في السعة وهي تتألّف من طبقات، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٢ ـ لا شكّ في أنّ الخلق التدريجيّ له أسرار وأسباب ربّما لا يعلم الإنسان منها الكثير بل الأكثر، وما ينبغي أن يعلمه الإنسان هو أنّ قدرة الله سبحانه لا حدّ لها وهو قادر على خلق كل شيء دفعةً واحدةً، ﴿خَلَقْنَا... فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

٣ ـ لا محلّ لمفهوم التعب والإرهاق في ساحة الصفات الإلٰهيّة، ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

❑ يدعو الإسلام إلى تسبيح الله في الفرح والحزن:

ففي الفرح يقول الله سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ... فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[1].

وفي الحزن يدعو: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾.

❑ لقد كانت كلمات المشركين وسخافاتهم تؤذي النبيّ ﷺ فيضيق صدره من أقوالهم، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[2]؛ ولذلك كان الله سبحانه يدعوه إلى الصبر وتحمّل هذا الأذى، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

❑ يخبرنا الله سبحانه ببعض عقائد المشركين الدينية، ولو كانت باطلة، فيخبرنا:

ـ أنّهم كانوا يعتقدون أنّ الأوثان واسطة في الفيض ولها مرتبة الشفاعة.

---

(١) سورة النصر: الآيات ١ ـ ٣.
(٢) سورة الحجر: الآية ٩٧.

ـ أنّهم كانوا يعتقدون أو على الأقل يتّهمون النبيّ ﷺ بالسحر تارة والجنون تارة أخرى، وبالكهانة والشعر أحياناً.

ويدعو الله نبيّه إزاء هذه الاتهامات الباطلة إلى الصبر والثبات، والتسلّح بذكر الله وتسبيحه.

- تقترن الإشارة إلى التسبيح في القرآن بذكر الحمد، وربّما كان سبب ذلك أنّ الإنسان ناقص والله سبحانه منزّه عن النقص، فعندما ينزّه الإنسان ربّه عن النقص، يكمل الله نقصه، فيتوفّر داعي الحمد على نعمة الكمال.

- يدعو الله النبيّ ﷺ في القرآن إلى الصبر ثماني عشرة مرّة، وفي أربع منها يدعوه إلى الصبر على أذى المشركين، وذلك في سورة طه الآية ١٣٠، وسورة ص الآية ١٧، وسورة المزّمل الآية ١٠، وسورة ق الآية ٣٩.

- عن ابن عبّاس أنّ المقصود من وقت ما قبل الطلوع صلاة الفجر، وقبل الغروب صلاة الظهر والعصر، والمراد من الليل صلاتا المغرب والعشاء، ومن «أدبار السجود» صلاة النوافل[(١)].

- وعن الإمام الباقر عليه السلام، أن المراد من «أدبار السجود» صلاة النافلة بعد فريضة المغرب[(٢)].

- سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، فقال: **تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير**[(٣)].

- علامات الأوقات الشرعيّة الإسلاميّة، علامات طبيعيّة بسيطة تسهل معرفتها على الناس جميعاً، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

---

(١) تفسير المراغي.

(٢) وسائل الشيعة، ج٤، ص ٧٣.

(٣) مجمع البيان، ج٩، ص ٢٥٠.

التعاليم:

١ ـ الالتفات إلى قدرة الله من العوامل المساعدة على الصبر والثبات، في مقابل الأمور المزعجة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ... فَٱصْبِرْ﴾.

٢ ـ الإرشاد والهداية، وتحمّل مسؤولية تعليم الناس وتربيتهم، تحتاج إلى الصبر وطول الأناة، ﴿فَٱصْبِرْ﴾.

٣ ـ يتابع الأنبياء مسيرتهم في هداية الناس تحت عين العناية والتوجيه الإلٰهيّ، ﴿فَٱصْبِرْ﴾.

٤ ـ الصبر على الاتهام والأذى بالقول من الأمور التي تحتاج إلى طاقة وجهد؛ ولذلك يوصي الله بها أنبياءه، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

٥ ـ ذكر الله من العوامل المساعدة على الصبر، ﴿فَٱصْبِرْ... وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٦ ـ ينبغي أن يقترن التسبيح بالحمد، ولا يفي التسبيح من دون الحمد بحقّ الله تعالى، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٧ ـ ربوبيّة الله تعالى من الدوافع إلى حمده سبحانه وتنزيهه، والتسبيح من أسباب الكمال، ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٨ ـ تسبيح الله مقدّم على حمده، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

٩ ـ بعض الأوقات أفضل من بعضها الآخر للعبادة، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ و...﴾.

١٠ ـ يتوقّف التكامل الإنسانيّ على تكرار العبادة ودوامها، ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

١١ ـ المؤمنون بالنبيّ ﷺ يقضون شطراً من الليل بالعبادة، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾.

١٢ ـ يدعو الله المؤمنين إلى بعض الأعمال العبادية التي تزيد على الواجبات والفرائض، ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

- يحدثنا القرآن، في الآية الحادية عشرة، عن خروج الموتى من قبورهم، وفي الآية الثانية والأربعين يخبرنا عن زمن هذا الخروج.
- يستفاد من قوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أنّ هذا النداء يملأ الأرجاء حتى يشعر كل امرئ أنّه يسمع النداء من مكان قريب، وكأنه يهتف به وحده دون غيره من الناس.
- المراد من الصيحة في هذه الآيات هو الصيحة الثانية التي تؤدّي إلى بعث الناس من قبورهم وعودتهم إلى الحياة، وليس الصيحة الأولى التي تميت الأحياء.

التعاليم:

١ ـ ذكر يوم القيامة، والعقاب الذي سوف يناله الكفار المؤذون للنبيّ ﷺ، من الأمور التي تبعث العزاء في النفوس، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ... وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ﴾.

٢ ـ صيحة إسرافيل يوم القيامة، من الأمور الحتميّة التي لا مفرّ منها، ﴿ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾.

٣ ـ المعاد جسمانيّ، والإنسان يقوم بجسده من التراب يوم القيامة، ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾، وسوف يأتي في الآيات اللّاحقة قوله تعالى، ﴿تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

- كلمة «جبّار» لها معنيان على الأقلّ؛ أحدهما من الجبر في مقابل الكسر وهو صفة من الصفات الجمالية لله تعالى، كما في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[١]، وتستعمل صفة سلبيّة بمعنى الجبر والإكراه على شيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾.

❑ ينهانا الله عن الشكّ في يوم القيامة، لأسباب منها:

- أنّ الموت والحياة بيد الله تعالى، ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾.
- ولأنّ الله قادر على شقّ الأرض ليخرج الإنسان المدفون فيها، ﴿تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾.
- ولأنّ الله سوف يجمع الناس في ذلك اليوم، ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾.
- وأخيراً لأنّ ذلك على الله، ﴿يَسِيرٌ﴾.

❑ يدعو الله نبيّه إلى الصبر على أذى المشركين واتهامهم في الآية التاسعة والثلاثين، بقوله ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، ثمّ يتابع سبحانه فيشير في الآيات اللّاحقة إلى العوامل المساعدة على الصبر، ومن ذلك:

- ذكر الله وتسبيحه، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.
- ذكر يوم القيامة، ﴿فَٱصْبِرْ... ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾.
- الالتفات إلى الحضور بين يدي الله في نهاية المطاف، ﴿فَٱصْبِرْ... وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾.
- الالتفات إلى علم الله تعالى بما يقول المشركون مما يؤذي ويزعج، ﴿فَٱصْبِرْ... نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

❑ تُفتح هذه السورة بالقسم بالقرآن، وتُختم بالإشارة إلى القرآن والدعوة إلى الاهتمام به.

التعاليم:

١ ـ لا شيء ولا أحد غير الله سبحانه يملك زمام الحياة والموت، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢٣.

٢ ـ الالتفات إلى أنّ المصير والعاقبة إلى الله من الأسباب المساعدة على الصبر والثبات، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ... وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾.

٣ ـ المهمّة الملقاة على عاتق الأنبياء هي تبليغ الدين وليس إجبار الناس عليه، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾.

٤ ـ ينبغي أن يكون القرآن هو محور العمل التبليغيّ والدعويّ، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾.

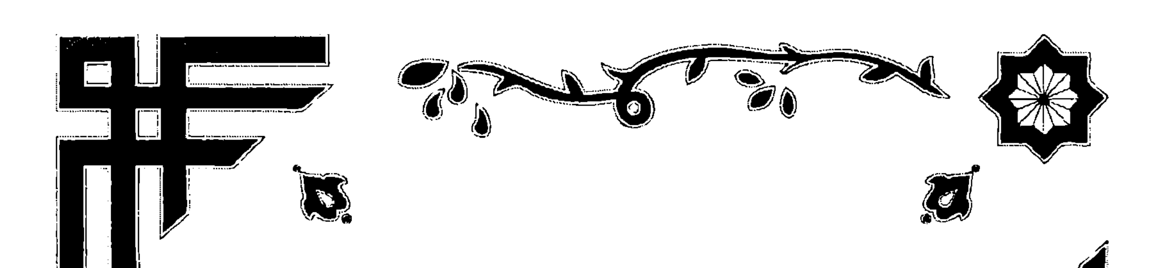
٥ ـ معارف القرآن تشتمل على التماسك المنطقي والقدرة على الإقناع بما يغني عن حمل الناس على الدين وإجبارهم عليه، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾.

٦ ـ لا يقبل الموعظة إلا من يؤمن بالقيامة ويخاف وعيد الله، ﴿فَذَكِّرْ... مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

٧ ـ حقائق الدين مغروزة في أعماق الإنسان وتمثّل جزءاً من فطرته وطبيعته، ولا يحتاج سوى إلى التذكير، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾.

٨ ـ من لا يؤمن بالقيامة، ولا يخشى وعيد الله، لا تنفع معه موعظة ولا نصيحة، ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

السورة: ٥١ الجزء: ٢٦ ـ ٢٧

عدد الآيات: ٦٠



ملامح سورة الذاريات

سورة الذاريات مكّية، وعدد آياتها ستون آية.

وقد سمّيت بهذا الاسم بالنظر إلى مطلعها أي إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾. والمراد من الذاريات الرياح القويّة التي تطير بالأشياء من مكان إلى آخر وتوزّعها في أماكن شتّى.

وتفتح السورة وتختم بالحديث عن المعاد، والتوحيد والأمارات الدالة على وجود الله تعالى، وتشير إلى الملائكة الذين حلّوا ضيوفاً على إبراهيم عليه السلام، ليبشّروه بالولد ويبلغوه بالعذاب النازل على قوم لوط، وفيها إشارات إلى قصص أنبياء آخرين كموسى ونوح، وإلى قوم عاد وثمود.

وربّما كان الهدف من الإشارة إلى تاريخ الأنبياء وقصصهم وتضحياتهم في سبيل هداية الناس، تثبيت قلب النبيّ ﷺ، وشدّ عزيمته ودعوته إلى الصبر والثبات.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا (١) فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا (٢) فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا (٣) فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ (٦)﴾

إشارات:

❑ الذاريات جمع ذارية وهي الرياح، وأذريت الشيء إذا ألقيته، مثل إلقائك الحبّ في التراب عند زراعته. والوقر الحمل الثقيل، والمراد منه هنا الغيوم المثقلة بالماء. والجاريات أي السفن التي تجري في الأنهار بيسر.

❑ وفي الرواية عن عليّ عليه السلام، أنّه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾، فقال: الريح، وعن الحاملات وقراً، فقال: هي السحاب، وعن الجاريات يسراً، فقال هي السفن، وعن المقسمات أمراً، فقال: الملائكة. وعن الصادق عليه السلام قال في المقسمات أمراً: **الملائكة تقسّم أرزاق بني آدم ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فمن ينام فيما بينهما نام عن رزقه**[1].

❑ اليسر ضد العسر، وهو السهولة. والمراد من «الجاريات يسراً» السفن التي تجري بيسر وسهولة.

❑ يقسم الله في هذه الآيات بالرياح التي تحرّك السفن، وبالغيوم التي تحمل المطر والبركة إلى الأرض. ومن المعلوم أنّ الرياح والماء لهما دور مهمّ وأساس في حياة الإنسان على الأرض، فالرياح تحمل بخار الماء وتنشره في السماء لتنال كل قطعة من الأرض نصيبها من المطر، وهي أيضاً تنقل حبوب الطلع لتلقح الأشجار فتثمر.

❑ ولا يخفى على الإنسان دور السفن ماضياً وحاضراً في حياة الإنسان. فهي سهلة الحركة، تقطع المسافات الطويلة وتختصر الأسفار، وتظهر قيمة الملاحة

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ١٣.

البحرّية بالتأمّل، وخاصة لو توقّفت حركة السفن لأيام معدودة.

❑ تُقسم الأرزاق على الأفراد والأقوام والمناطق بطريقة محسوبة وخاضعة لنظام دقيق، فبعض الأشياء يُعطى للناس وبعضها لا يعطى والحكمة من ذلك ظهور حالة التنافس والتبادل والتعاون بين الناس، ليجبر بعضهم ما ينقصه بمدّ يد الحاجة والتعاون إلى الآخرين، ولكي لا يطغى إذا استغنى عن غيره ولم يعد بحاجة إليه: «قرن بسعتها عقابيل فاقتها»[١].

❑ الالتفات إلى قدرة الله تعالى في خلق الرياح والغيوم والسفن، يعين الإنسان على فهم المعاد. ومن هنا أقسم الله سبحانه بهذه الأمور الأربعة على قضيّة المعاد وأنّه حق وواقع حتماً.

❑ الحروف: «إنّما» و«إنّ»، و«اللام»، والجملة الاسمية، كلها للدلالة على التوكيد.

❑ كثيرة هي الوعود الإلٰهيّة التي تحققت في الدنيا، ومنها:

لقد وعد الله أمّ النبيّ موسى بأن يعيد ولدها إليها إذا ألقته في الماء، وكان لها ما وعدها الله به في قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢].

وعد الله نبيّه محمّداً بأن يكفيه شرّ المستهزئين به بقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[٣]، كما وعده برفع ذكره في العالمين: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٤]، وكان له الأمران كما يخبرنا الله سبحانه في هاتين الآيتين.

وقد وعد الله المؤمنين وأهل الحقّ والتقوى بالنصر ولو بعد حين، وقد كان ذلك عبر التاريخ، فاسم الإمام الحسين عليه السلام خلّده التاريخ مشرقاً، وقاتِلوه لا يشار إليهم إلا لذمّهم.

❑ من لا يفي بوعده هو إمّا عاجز أو كاذب أو ناسٍ، والله سبحانه منزّه عن هذه الصفات كلّها؛ ولذلك لا يحتمل في حقّه سبحانه صدور الخلف عنه.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩١.
(٢) سورة القصص: الآية ٧.
(٣) سورة الحجر: الآية ٩٥.
(٤) سورة الشرح: الآية ٤.

التعاليم:

١ ـ يشير القسم الإلٰهيّ بالظواهر الطبيعية، كالغيوم والرياح والمطر وغيرها، إلى اهتمام الإسلام باكتشاف القوانين الحاكمة على هذه الظواهر، وخضوعها للتدبير الإلٰهيّ، وكونها من الدلائل على القدرة الإلٰهيّة، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ... فَٱلْحَٰمِلَٰتِ... فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾.

٢ ـ ينجز الله وعوده ويفعل ما يريد بالإنسان بواسطة الملائكة، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾.

٣ ـ يلفت القرآن عناية الإنسان واهتمامه إلى الأمور المحسوسة وغير المحسوسة، من أجل رفع مستوى الوعي والإدراك عنده، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ... فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾.

٤ ـ على المؤمن أن يكون قاطعاً وصريحاً في مواجهة تشكيك الآخرين وترددهم، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ («إنّ» واللام، حرفان يدلان على التأكيد).

٥ ـ الوعد بالمعاد ويوم القيامة مستمرّ ومتتابع، ﴿تُوعَدُونَ﴾.

٦ ـ الله سبحانه الذي له كلّ هذه المؤشّرات والأدلّة على قدرته وعظمته، لا يمكن أن يكون عاجزاً عن الوفاء بوعوده، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾.

٧ ـ ظواهر الكون الطبيعية وغير الطبيعية (الرياح والسفن والغيوم، والملائكة) ليست من أجل بضع سنوات من الأكل يلحقها الموت والعدم، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾.

٨ ـ لا فرق بين وعود الله في الدنيا ووعوده في الآخرة، فكما تتحقّق الوعود الإلٰهيّة في الدنيا تتحقّق في الآخرة أيضاً، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- حبك جمع حبيكة، وذات الحبك أي ذات الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرّة، أو إنّ هذه النجوم تزيّنها كما يزيّن الموشّي طرائق الوشي، أو هي

بمعنى الاعتدال، وقد ورد لكل معنى من هذه المعاني نموذج وصف الله تعالى السماء به:

فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[2]، وقال أخيراً: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[3].

- ❑ الإفك كل مصروف عن وجهه، وأفك يؤفك يصرف عقله ورجل مأفوك العقل، والإفك الكذب.
- ❑ الخرص حرز الثمرة... وحقيقة ذلك أنّ كلّ قول مقول عن ظنّ وتخمين يقال خرص سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث إنّ صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظنّ ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظنّ والتخمين كفعل الخارص في خرصه، وكل من قال قولاً على هذا النحو قد يسمّى كاذباً وإن كان قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه. وأصل الغمر إزالة أثر الشيء ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل إثر سيله: غمر وغامر. والمراد به هنا الغرق في الجهل واستيلاؤه على الإنسان.
- ❑ بعض الناس يتخصّصون في اختلاق الشائعات ونشرها بين الناس، بهدف التشكيك وإثارة الفتنة. وعادة تمرّ الشائعة من منتجها إلى مستهلكها عبر المراحل الآتية، فالعدوّ هو الذي يختلق الشائعة أو يوصي باختلاقها، والمنافقون هم الذين يتولون النشر أو الاختلاق، والسذج والبسطاء يصدّقون.
- ❑ عن الإمام الباقر عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ قال: **«من أفك عن الولاية أفك عن الجنّة»**[4].

التعاليم:

١ ـ من لا يملك منطقاً سليماً لا يستقرّ على رأي أو حال؛ ولذلك له في كل

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٧.

(٢) سورة الصافات: الآية ٦.

(٣) سورة الرحمن: الآية ٧.

(٤) الكليني، الأصول من الكافي، ج١، ص ٤٢٢.

لحظة قول ورأي. ومن هنا، كان طريق الحقّ واحداً وطرق الباطل متعدّدة. ومن هنا، أيضاً كان المعتقد الحقّ واحداً وعقائد الباطل متعدّدة، ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾.

٢ ـ تعدّدت اتّهامات المشركين الموجّهة إلى النبيّ ﷺ، فاتهموه تارةً بالشعر، وأخرى بالسحر، وثالثةً بالجنون ورابعةً بتلقّيه التعاليم من الآخرين، إلى غير ذلك مما أشار إليه القرآن، وربّما كان هناك ما لم يشر إليه، ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾.

٣ ـ كل انحراف ومعصية يؤسّس لانحرافات ومعاص أخرى، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

٤ ـ القول بلا دليل، والتخرّص على الله من دون دليل ولا برهان، من موجبات الابتلاء باللعن الإلٰهيّ، ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾.

٥ ـ شعار: «الموت لـ...»، شعار له أصل قرآنيّ، ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾.

٦ ـ على المجتمع الإسلاميّ أن يكون حازماً في موقفه من أهل الباطل، ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾.

٧ ـ قد يغفل الإنسان أو يخطئ، ولكنّ المشكلة الكبرى عندما تستولي هذه الأمور على كيان الإنسان، فلا يعود يعي ما يريد ولا ما يراد به، ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ... ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ (على الإنسان أن يعتمد على العلم والمعرفة، وليس على الظنّ والحدس).

٨ ـ من يغرق في الجهل والغفلة، ويعيش في عوالم الظنّ والأوهام، لا قيمة لحياته ولا وزن، ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

□ أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في الآية

للتعبير عن شدّة العذاب الذي يبتلى به الكفّار.

□ كان المكذّبون والكفّار يستخفّون بالعذاب الذي يتوعّد به الأنبياء أقوامهم، ويقولون لهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، وهذه الآية في جواب هذا الطلب؛ حيث يقول الله سبحانه لهم: هذا هو العذاب الذي كنتم تطالبون به وتستعجلونه.

□ من الملامح الأساس في شخصيّة أهل النار: التناقض في القول والرأي، ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾، والانحراف عن الحقّ، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾، والغرق في الجهل والغفلة، ﴿فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾، والاعتماد على الظنّ والحدس، ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، والاستعجال من دون وعي أو معرفة بما يستعجل، ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا مانع من السؤال بحثاً عن العلم والمعرفة؛ ولكنّ السؤال الذي بهدف الاستعجال أو الاستخفاف له حساب مختلف يستحقّ صاحبه التوبيخ واللوم، ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾.

٢ ـ عدم الاطلاع على بعض جزئيّات شيء ما، لا يبرّر إنكار أصله، وهذا ما تشرحه الآية؛ إذ إنّ بعض الناس ينكرون المعاد، بسبب عدم معرفتهم بوقته، ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

٣ ـ ينبغي الحزم في مواجهة الذين ينكرون الحقائق الصحيحة، ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

٤ ـ الإنسان هو الذي يصنع مصيره يوم القيامة بيديه، ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾.

٥ ـ يجمع الله على الكفّار عذابين يوم القيامة، فيعذب أجسامهم بالنار، ويعذب أرواحهم بالأمر بذوق العذاب، ﴿ٱلنَّارِ... ذُوقُوا۟﴾.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٠، وسورة هود: الآية ٣٢.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾

إشارات:

- «يهجعون»، الهجوع نوم الليل.
- تحتمل الآية ١٧ تفسيرين أحدهما، أنّ المتّقين يقضون القسم الأكبر من ليلهم في العبادة وينامون في الجزء الآخر، والتفسير الثاني هو أنّ المتقين يقضون العدد الأكبر من لياليهم دون نوم يتفرغون للعبادة فيها وينامون في بعض الليالي. وعن الإمام الصادق عليه السلام، في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، قال: **«كانوا أقلّ الليالي تفوتهم لا يقومون فيها»**[1].
- وعنه عليه السلام: **«يا فضل! إنّ أفضل ما دعوتم الله بالأسحار، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾»**[2].
- وعن أبي بصير قال: قلت له (أي الإمام الصادق عليه السلام): المستغفرين بالأسحار؟ قال: «استغفر رسول الله صلى الله عليه وآله في وتره سبعين مرّة»[3].
- وعن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنّهما قالا: **«المحروم الرجل الذي ليس بعقله بأس ولم يبسط له في الرزق وهو محارف»**[4].

التعاليم:

١ ـ في الدعوة إلى الله، لا بدّ من الجمع بين الترغيب والترهيب، والتحفيز والتهديد، ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ... إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

٢ ـ يكرم الله المتّقين بالكثير من الجنات ولا يكتفي الله بجنّة واحدةٍ لإكرامهم، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

---

(١) الكافي، ج٣، ص ٤٤٦.

(٢) مستدرك الوسائل، ج٥، ص ٢٠٠.

(٣) تهذيب الأحكام، ج٢، ص ١٣٠.

(٤) الكافي، ج٣، ص ٥٠٠.

٣ ـ الزهد في الشهوات العاجلة في الدنيا يتحوّل إلى نعيم وهناء في الآخرة، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ... ءَاخِذِينَ﴾.

٤ ـ ينعم الله على المتّقين بالجنّات والعيون، ويضيف إليها نعمه التي تستجدّ في كلّ آنٍ، ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٥ ـ ما يعطيه الله للمتّقين يوم القيامة، مرتبط بشأن ربوبيّته سبحانه، ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٦ ـ ما يعطى للمتّقين يوم القيامة، منسوب إلى الله سبحانه بما هو ربّ، ولعل في هذا التعبير نوعاً من الكرامة والاهتمام إذ ينسب الله ما يعطيه لهم إلى ذاته سبحانه، ﴿ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، وفي الآية ٢١ من سورة الإنسان، ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٧ ـ لا ينال نِعَمَ الآخرة إلا من تعب وعمل في هذه الدنيا، فكنوز الآخرة مقصورة على الذين يعملون لها في الدنيا، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾. بلى، إنّ الدنيا مزرعة الآخرة.

٨ ـ التقوى والإحسان متلازمان، ﴿ٱلْمُتَّقِينَ... مُحْسِنِينَ﴾.

٩ ـ بين ثواب الله وعمل الإنسان تناغم وتناسب، فالإحسان في الدنيا يتبعه إحسان من الله في الآخرة، ﴿ءَاخِذِينَ... مُحْسِنِينَ﴾.

١٠ ـ ينبغي أن يكون الإحسان سيرة دائمةً، ﴿كَانُوا۟... مُحْسِنِينَ﴾.

١١ ـ إحياء الليل بالعبادة من علامات أهل التقوى، ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

١٢ ـ إحياء الليل بالدعاء والاستغفار والتضرّع بين يدي الله تعالى، من الأعمال التي يداوم عليها المتّقون، ﴿يَهْجَعُونَ... يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الفعل المضارع يدل على الاستمرار).

١٣ ـ كل الناس معرّضون لصدور الخطأ عنهم، حتى لو كانوا من المتّقين، ولذلك هم في حاجة إلى الاستغفار، ﴿...هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (وقد ورد في الآية كلمة «هم» التي تدل على المتّقين؛ أي على الرغم من اتّصافهم بالتقوى فإنّهم يستغفرون).

١٤ ـ كل الأعمال العبادية في السحر لها قيمتها ومنزلتها عند الله، ولكنّ الاستغفار هو صاحب المقام الأسمى بينها، ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾.

١٥ ـ الاستغفار في السحر، هو أوج العبادة، ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾.

١٦ ـ من علامات جامعية الإسلام وشموله لكل جوانب الحياة، جمع القرآن بين الإشارة إلى الاستغفار وإحياء الليل، والإنفاق على الفقراء والمحتاجين، ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾.

١٧ ـ بعض الفقراء يحجزهم الحياء عن السؤال والطلب، ومثل هؤلاء ينبغي المبادرة إلى الاهتمام بهم، ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

١٨ ـ عندما نساعد السائلين والمحرومين، فإنّنا نعطيهم حقوقهم التي فرضها الله لهم في أموالنا، ﴿حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

١٩ ـ لا ينبغي أن ننتظر حتّى يضطرّ الفقير للسؤال، بل علينا المبادرة والمحافظة على ماء وجهه كي لا يبذل في السؤال، ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

٢٠ ـ لا تنافيَ بين التقوى والغنى، فقد يكون الإنسان تقياً وغنياً في وقت واحد. والقرآن يشير إلى أنّ بعض الناس المتّقين أغنياء في أموالهم حقوق مفروضة للطبقات الاجتماعيّة المحتاجة في المجتمع، ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ... وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

❑ يعترف القرآن الكريم بالطبيعة والآيات الإلٰهيّة التي فيها كطريق للوصول إلى اليقين؛ ولكنّه يعتبر أنّ ذلك مشروط بالتوفّر على قلب صافٍ مستعدٍّ، ﴿ءَايَٰتٞ

لِّلْمُوقِنِينَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[١]، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢]، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣]، ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٤]، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥]، ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[٦]، ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[٧]، ﴿لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[٨]، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٩].

❑ في خلق الأرض والإنسان أسرار خفيّة وأمور غامضة تستحقّ التأمّل والتفكّر:

ومن ذلك حجم الأرض ومساحتها وعمقها، والجبال التي فيها والأودية التي تتشكّل بين الجبال، وبعدها عن الشمس وغيرها من الأجرام السماوية، وحركتها، واشتمالها على المعادن الظاهرة وغير الظاهرة، وقدرتها على إنبات النبات، واحتضانها للماء في جوفها، وما تخرجه للإنسان من فاكهة وطعام يكفيه لتأمين حاجات جسده. ولم تعجز الأرض عن تأمين حاجة الكائنات الحيّة التي عليها على الرغم من ضخامة العدد وتنوع هذه الحاجات. كل هذه الأمور تستحقّ وبجدارة أن تكون محلاً للتأمّل والتفكّر في خلق الله سبحانه.

وأما في الإنسان فربّما كان الأمر أعظم، إذ يبدأ الإنسان مسيرته من النطفة والبويضة. وكل ما في الإنسان من صفات ذاتيّة هي دلائل على عظمة الله وقدرته التي تتجلّى في خلقه، ومن ذلك متانة جسم الإنسان وتماسكه، وفي الوقت عينه عدم احتكاك هذه العظام بعضها ببعضها الآخر خلال حياة الإنسان، ناهيك عن غير ذلك من المنظومات الدفاعية والهجومية التي يتمتّع بها الجسم، والمنظومات العصبية التي بها يستطيع الإنسان متابعة حياته على الأرض.

❑ عن الإمام علي عليه السلام: قال: **«خلقك [الله] سميعاً بصيراً، تغضب مرّة وترضى مرّة، وتجوع وتشبع، وذلك كلّه من آيات الله»**[١٠].

---

(١) سورة يونس: الآية ٦٧.
(٢) سورة الرعد: الآية ٣.
(٣) سورة الرعد: الآية ٤.
(٤) سورة إبراهيم: الآية ٥.
(٥) سورة النحل: الآية ٧٩.
(٦) سورة طه: الآية ١٢٨.
(٧) سورة الحجر: الآية ٧٥.
(٨) سورة الروم: الآية ٢٢.
(٩) سورة البقرة: الآية ٢.
(١٠) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ١٢٣.

- يقدم الإنسان على البخل والسرقة والاحتيال والظلم، لزيادة رزقه نتيجة ضعف إيمانه بأنّ الله قدَّر لكل إنسان رزقه.
- نزول الرزق، وسعته وضيقه، خاضع لحساب وموازين دقيقة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1].
- يمكن تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، بأكثر من معنى:

أ ـ أن يكون المراد الإشارة إلى نزول المطر وغيره من أنواع الرزق الذي ينزل من السماء إلى الأرض.

ب ـ أن يكون المراد أنّ أرزاق أهل الأرض مقدّرة في السماء.

ج ـ أن يكون المراد الإشارة إلى الرزق الذي قدّره الله للمتّقين في الجنّة.

د ـ أن يكون المراد أنّ ما قدّره الله لأهل الأرض من العذاب والرحمة، ينزل إليهم من السماء[2].

- قوله تعالى: ﴿...مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾؛ أي كما أنّ نطقكم وقدرتكم على الكلام أمر قطعيّ ومحسوس لكم، فإنّ وعود الله قطعية وسوف تتحقّق من دون أدنى شكّ أو تردّد.

التعاليم:

١ ـ في الأرض أسرار وأمارات تدلّ على قدرة الله وحكمته وعلمه، ويتوقّف اكتشاف هذه الآيات على تطوّر العلوم والمعارف عند الإنسان، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾.

٢ ـ آيات الله في الأرض كثيرة وهي تستحقّ التأمّل والتدبّر: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ (النكرة والتنوين يدلان على الكثرة والتعظيم).

٣ ـ معرفة الله ينبغي أن تُبنى على اليقين والبصيرة الواضحة، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢١.

(٢) انظر تفسير راهنما، عند تفسير هذه الآية.

٤ ـ ما لم تتوفّر عند الإنسان روحية الإيقان والتصديق، لا تنفع عشرات الآيات والدلائل الدالة على الله تعالى، ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

٥ ـ التأمّل في الطبيعة وآياتها من الطرق المفيدة لتقوية الإيمان وتعميق الاعتقاد بالتوحيد، ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾.

٦ ـ الأسرار التي يشتمل عليها الإنسان عظيمة إلى حدّ يسمح بالإشارة إليها إلى جانب أسرار الطبيعة، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ... وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

٧ ـ معرفة النفس، مقدمة لمعرفة الله تعالى، ﴿ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

٨ ـ مشكلة الكفّار والمشركين هي السطحية والنظر إلى ظاهر الأشياء من دون التأمّل في بواطنها ومحاولة النفوذ إلى أعماقها، وهذا ما يأخذه الله عليهم ويؤنّبهم بسببه، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

٩ ـ النظرة السطحية إلى الأمور من التصرّفات التي يستحقّ الإنسان التأنيب بسببها، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

١٠ ـ السماء هي مصدر الرزق (الماء، والهواء، والنور...) ومنبعه، ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾.

١١ ـ أشكال الخير والعذاب والثواب والعقاب كلّها تنزل من السماء، ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

١٢ ـ السماء والأرض خاضعة لربوبيّة الله سبحانه، ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٣ ـ تقدير رزق أهل الأرض في السماء، من مظاهر الربوبيّة الإلٰهيّة الكاملة المحيطة بالسماء والأرض، ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

١٤ ـ القدرة على النطق والكلام من المواهب الإلٰهيّة التي خصّ بها الله سبحانه الإنسانَ، وهي مهمّة إلى درجة أن يضرب الله بها مثلاً لصدق وعوده، ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- «راغ» أي حاد والرواغ الحياد. والرواغ في اللغة الذهاب إلى الشيء في خفية.
- تحدثنا هذه الآيات عن عدد من الملائكة أتوا إلى النبيّ إبراهيم عليه السلام، ليبشّروه بالولد. وفي أوّل الأمر لم يعرفهم، ومع ذلك استقبلهم وأمر بإعداد الطعام لاستضافتهم.
- يخبرنا القرآن الكريم عن إمكان تجسّد الملائكة بصورة الإنسان، ولذلك أمثلة عدة في القرآن، منها: ظهور جبرائيل لمريم عليها السلام[1]، وظهور هاروت وماروت بصورة البشر في عهد النبيّ سليمان عليه السلام[2]، ومنها ظهور الملائكة للنبيّ إبراهيم عليه السلام[3].

آداب الضيافة:

- تشير هذه الآيات، والآيات اللّاحقة لها، إلى بعض آداب الضيافة، وهي ما يأتي:

١ ـ احترام الضيف، ﴿ضَيْفِ... ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

٢ ـ تسليم الضيف عند دخوله، ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

٣ ـ وجوب ردّ السلام، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾.

٤ ـ ذهاب صاحب البيت لإعداد الضيافة من دون أن يشعر به الضيف، ﴿فَرَاغَ﴾.

٥ ـ إعداد الطعام في البيت ومساعدة أهله فيه، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾.

---

(١) سورة مريم: الآية ١٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٢.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٢٥.

٦ ـ سرعة الضيافة وعدم الإهمال والمماطلة حتى يذهب الضيف، ﴿فَجَآءَ﴾ (الفاء حرف عطف يدلّ على الفور بخلاف ثمّ الذي يدلّ على التراخي).

٧ ـ إعداد أفضل أنواع الطعام، ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾.

٨ ـ الإتيان بالطعام إلى حيث يجلس الضيف وعدم الطلب من الضيف السعي إلى الطعام، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾.

٩ ـ إعداد الطعام من دون سؤال الضيف واستئذانه في ذلك، ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ (فإبراهيم عليه السلام بدأ بإعداد الطعام من دون أن يسأل ضيوفه هل أكلوا أم لا).

١٠ ـ مباشرة صاحب البيت أمور الضيافة وعدم تكليف الخدم بها، ﴿فَجَآءَ﴾.

١١ ـ وضع الطعام في متناول يد الضيف، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾.

١٢ ـ الإصرار على الضيف للاطمئنان إلى أنّه سوف يأكل الطعام، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

١٣ ـ الاستضافة ثم الحوار والسؤال، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾، ثمّ بعد ذلك سألهم، ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

١٤ ـ عندما يكون في جعبة الضيف خبران، أحدهما سيئ والآخر حسن، من الأنسب أن يبدأ بالخبر الحسن، ﴿وَبَشَّرُوهُ... قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (فقد نقل الملائكة إلى النبيّ إبراهيم البشارة بالولد أولاً، ثم أخبروه عن عذاب المجرمين).

التعاليم:

١ ـ أهميّة قصّة إبراهيم وضيوفه، واستحقاقها للنقل والحديث عنها، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾.

٢ ـ من الأساليب المناسبة للدعوة والإرشاد استخدام الأمثلة والقصص الحاوية على العبر، ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، قصّ الله علينا قصّة إبراهيم وضيوفه.

٣ ـ الضيافة تكريم للضيف وهي سيرة إبراهيم، ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

٤ ـ عند دخول جماعة إلى بيت الأفضل أن يسلّموا جميعاً، ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾.

٥ ـ من المناسب المبادرة إلى السلام فور الدخول إلى البيت، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ (الفاء تدلّ على الفور وعدم الفاصلة الزمانية الطويلة).

٦ ـ البدء بالسلام أدب سماويّ تلتزم به الملائكة، ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾.

٧ ـ ردّ السلام من الآداب المهمّة سواء عرفنا الشخص الذي سلّم أم لم نعرفه، ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾.

٨ ـ ينبغي احترام الضيف كائناً من كان، ﴿ضَيْفِ... الْمُكْرَمِينَ... قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾.

٩ ـ علم النبيّ إبراهيم عليه السلام محدود، ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾.

١٠ ـ ينبغي تكريم الضيف والاهتمام به، حتى لو كان مجهولاً، ﴿قَوْمٌ مُنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾.

١١ ـ يحسن أن يكون المطبخ بعيداً عن مشاهدة الضيوف، ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾.

١٢ ـ تَحْسُن مشاركة الرجل والمرأة في إعداد الطعام للضيوف، ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ﴾.

١٣ ـ على المضيف أن يبدي الاهتمام بحال الضيف ويطمئنّ إلى أنّه أكل أم لم يأكل، ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

١٤ ـ الملائكة لا يأكلون حتى وإن ظهروا بصورة الإنسان، ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾

إشارات:

- «أوجس» الإيجاس هو إحساس الإنسان بشيء في داخله، خيفةً من الخوف. والتنوين هنا للتنويع أي أحسّ بنوع من الخوف. «صرة» في هذا المورد بمعنى الصوت المرتفع. «صكّ» ضرب بقوة. والعجوز العاجزة المسنّة، والعقيم هي المرأة التي لا تلد.

- سارة هي زوجة إبراهيم الأولى وقد كانت محرومة من الولد عقيماً؛ ولذلك

تزوّج هاجر ليرزق منها الولد. وعندما أتى الملائكة مبشّرين بالولد استغربت سارة أن ترزق الولد بعد أن كبرت في السنّ وهي كانت عقيم في عمر الشباب. فلذلك صرخت وصكّت وجهها مستغربةً لأنّ مثل هذا الأمر لا يحصل بالطرق الطبيعية.

- هذه الآيات تتحدث عن بشارة النبيّ إبراهيم عليه السلام بالولد من زوجته الأولى سارة، والمراد من الغلام العليم في الآية إسحاق. والآية ١٠١ من سورة الصافّات تشير إلى إسماعيل عليه السلام بـ «الغلام الحليم».
- الخوف أمر طبيعي موجود في جميع البشر، حتّى في الأنبياء، وليس أمراً مذموماً من هذه الجهة. وإنّما المذموم منه ما يعيق الإنسان عن واجباته في مواجهة الكفر.

التعاليم:

١ ـ على المضيف أن يلتفت إلى تصرّفات الضيف كلّها، ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾.

٢ ـ الأنبياء من البشر ويعتريهم ما يعتري البشر من خوف وقلق، ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ (عدم تناول الطعام قد يفسّر نوعاً من العداوة في بعض الثقافات، ولذلك هو من موجبات القلق).

٣ ـ ينبغي أن نرفع الشبهات ولا نترك الأمور غامضة؛ لأنّ الغموض وعدم الوضوح يخرّب العلاقات القائمة أو يمنع من إقامة العلاقات الجديدة، ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ﴾.

٤ ـ العلم من أهمّ الصفات في الولد، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

٥ ـ بعض الأمور تغيب عن الأنبياء ويعلمون بها بواسطة الملائكة، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

٦ ـ المرأة مخلوق عاطفي؛ ولذلك يصعب عليها كتم عواطفها وانفعالاتها، ﴿فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾.

٧ ـ لا ينبغي للزوج أن يمنع امرأته من التعبير عن انفعالاتها وعواطفها، ﴿فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ﴾ (ولا تحدّثنا الآية عن اعتراض إبراهيم عليه السلام).

٨ ـ لا حدود ولا قيود لقدرة الله، فهو قادر على أن يرزق شيخاً كبيراً وامرأة عقيماً ولداً عليماً، ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ... عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

٩ ـ إرادة الله حاكمة على العوامل والأسباب الطبيعيّة، ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾.

١٠ ـ عطاء الله ومنعه، وسائر أفعاله سبحانه، خاضعة للحكمة والعلم الإلٰهيّ، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (فهو سبحانه لم يرزق إبراهيم الولد من زوجته سارة وهي شابّة، وفعل ذلك بعد أن كبرت وكبر في السنّ).

الجزء (٢٧)

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- «الخطب» الأمر المهمّ الذي يسعى فيه أحد الأشخاص. و«مسوّمة» أي ذات علامة.

- بين النبيّ لوط والنبيّ إبراهيم عليه السلام صلة قرابة. وكان لوط يسكن منطقة سدوم في الأردن. وأهل سدوم كانوا من أهل الفحشاء واللواط ولم يؤثّر فيهم وعظ النبيّ ولا نهيه إيّاهم عن هذا المنكر وغيره من المنكرات التي يرتكبونها، فنزل غضب الله عليهم وزلزل الأرض بهم وجعل عاليها سافلها كما يخبرنا القرآن، حيث أشار إلى قصّتهم في سور عدّة، هي: الأعراف، وهود، والحجر، والعنكبوت، والذاريات.

- لا بدّ من احترام التراتبيّة وكرامات أهل الكرامة، ولذلك لمّا كان النبيّ

إبراهيم عليه السلام من أولي العزم وأفضل أنبياء عصره، مرّ الملائكة عليه لإبلاغه قبل نزول العذاب على قوم لوط.

- نزل العذاب الإلٰهيّ بواسطة الحجارة على قوم لوط، كما نزل على أصحاب الفيل الذين كانوا يريدون بالكعبة سوءاً، فرماهم الله: ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[1]. والأمر المشترك بين الجماعتين هو هتك الحرمة، فأصحاب الفيل أرادوا هتك حرمة بيت الله، وقوم لوط أرادوا هتك حرمة بيت النبوّة بالاعتداء على ضيوفه.
- أرسل الله الملائكة لمساعدة النبيّ لوط عليه السلام، كما أرسل ملائكته لنصرة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله في معركة بدر. والملائكة في الحالتين كانوا مسوّمين: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2].
- ليست أمّة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله فقط من يطلق عليها صفة الإسلام، بل كلّ من سلّم لله تعالى من أتباع الديانات السماويّة السابقة ينطبق عليه هذا الوصف، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ ليس السؤال عيباً فالأنبياء أيضاً يسألون عمّا لا يعرفون، ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾.

٢ ـ لا ينحصر العقاب للمجرمين على الآخِرة، فالدنيا أيضاً قد تشهد بعض العقوبات الموجّهة إلى المجرمين في، ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

٣ ـ قد يكون الملائكة واسطة في نزول العذاب على المجرمين في الدنيا، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾.

٤ ـ غضب الله كما رحمته وفق حسابات ونظام محدّد المعالم، ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

٥ ـ الإيمان مفتاح الفلاح والنجاة، ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٦ ـ ينبغي الالتفات إلى المسلمين الموجودين في منطقة ما حتى لو كانوا أسرة واحدة، ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) سورة الفيل: الآية ٤. (٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٥.

٧ ـ مهما عمّ الفساد وانتشر إلا أنّ سبل الصلاح لا تنسدّ، ويمكن لبيت واحد أن يحافظ على صلاحه في بيئة منحرفة، ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

٨ ـ في بعض الحالات قد ينتشر الفساد ويعمّ إلى حدّ لا يبقى مع النبيّ إلا أهل بيته: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وليس جميع أهل بيته بل بعضهم، إذ إنّ زوجته كانت مؤيّدة لخصومه وداعمةً لهم: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾[1].

٩ ـ آيات الله لا تنحصر في النعم وحدها، فالعذاب والغضب الإلٰهيّ آية من آياته سبحانه أيضاً، ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾.

١٠ ـ الحوادث المرّة لا تؤدّي بالضرورة إلى اعتبار جميع الناس، فالذين يخافون الله وعذابه هم وحدهم الذين يعتبرون، ﴿ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ﴾.

١١ ـ الخوف الدائم من العذاب والغضب الإلٰهيّ قيمة من القيم الممدوحة، ﴿يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

- السلطان المبين، في الآية، هو البرهان القاطع الذي يلزم الخصم، ويقطع حجّته بالدليل الواضح.
- «نبذ» أي رمى، ويستعمل لإلقاء الأشياء الحقيرة. و«مليم» من اللوم والملامة.
- الركن في الآية: القوة والجيش، وكل العناصر التي كان يستقوي بها على غيره من الناس؛ أي إنّ فرعون أعرض عن دعوة موسى عليه السلام وشرع في مواجهته معتمداً على كلّ عناصر القوّة التي كانت متوفّره له.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٣.

التعاليم:

١ ـ يحتوي تاريخ الأنبياء على الكثير من العبر، ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾.

٢ ـ إحدى طرق الإصلاح في المجتمع التوجّه إلى رأس الفساد لإصلاحه، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾.

٣ ـ السلاح الأمضى الذي يستخدمه الأنبياء للإصلاح هو الحجّة والبرهان القاطع، ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

٤ ـ عناصر القوّة متعدّدة وهي السلطة السياسيّة، والإعلاميّة، والعسكر، والمال، وهذه العناصر هي سبب من أسباب الاستكبار عندما تكون في يد الطاغوت، ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾.

٥ ـ يحاول المنحرفون الأقوياء الاستفادة من القوّة بكلّ عناصرها لمواجهة الحقّ، وبعد عجزهم عن مواجهة الحجّة بالحجّة، يلجأون إلى الكذب والافتراء واتّهام أهل الحقّ بالسحر والجنون، ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

٦ ـ الغضب الإلٰهيّ لا ينزل إلا بعد إتمام الحجّة، ﴿...بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ... وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَٰهُ﴾.

٧ ـ لا يبرّر الانتساب إلى جيش السلطة الظالمة سكوت الجيش نفسه، فالغضب الإلٰهيّ يصيب هذا الجيش عندما يسكت ويكون مطيعاً للظالم وأوامره، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾.

٨ ـ الطاغوت وقوى الظلم لا تساوي شيئاً عندما تقاس بقدرة الله تعالى، ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾.

٩ ـ يعاني المنحرفون، مضافاً إلى العذاب الظاهريّ، الندمَ والإحساسَ باللوم الباطني، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

١٠ ـ عندما يحلّ الغضب الإلٰهيّ يصيب الظالمين وأعوانهم، ولكنّ اللوم الأكبر يتوجّه إلى رؤوس الظالمين، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، ولم يقل ﷻ: «وهم مليمون».

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

- نبيّ عاد هو النبيّ هود عليه السلام، وقد سعى في إصلاحهم ودعوتهم إلى الله، فما سمعوا له ولا استجابوا، فكان عقابهم أن أنزل الله العذاب عليهم.
- بعض الرياح منتجة ونافعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[1]، وفي قوله: ﴿يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[2]. وفي بعض الحالات تكون مصدراً للدمار ووسيلة للعذاب، كما في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾؛ وهي الريح التي أرسلها الله على عاد وكانت حارّة إلى حدّ أنها أيبست زرعهم وأعقمت حيواناتهم، وأماتت إنسانهم.
- «رميم»: من الرمّ وهو الفتات من الخشب والتبن، والرمّ إصلاح الشيء البالي، ومنه الترميم.
- وتشير هذه الآية إلى تحويل قوم عاد إلى ما يشبه العظم الرميم، بعد نزول الغضب الإلٰهيّ عليهم، بعد ما كانوا عليه من القوّة والمنعة.

التعاليم:

١ ـ الظواهر الطبيعية كلّها، وما فيها من نفع أو ضرر للإنسان، بيد الله سبحانه، ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾.

٢ ـ قد تكون البلاءات والكوارث الطبيعيّة، كالقحط والجفاف، من نتائج الغضب الإلٰهيّ، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ... جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾.

٣ ـ الماء والهواء من جنود الله التي يحارب بها الظالمين، ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ... الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٢.
(٢) سورة الروم: الآية ٤٦.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

- نبيّ ثمود هو النبيّ صالح عليه السلام، والمعجزة التي طلبها قومه هي الناقة التي تخرج من الجبل، فاشترط عليهم أن لا يمسّوها بسوء؛ ولكنّهم لم يفوا بشرطه وقتلوا الناقة وكفروا به.
- المراد من قوله تعالى، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مهلة الأيام الثلاثة التي أعطيت لهم لعلّهم يتوبون ويندمون على ما اقترفت أيديهم. ولكنّهم أصرّوا على ما فعلوا ولم يبادروا إلى التوبة، فنزل عليهم العذاب بعد ثلاثة أيّام، كما يخبرنا الله سبحانه في الآية ٦٥ من سورة هود، ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ إمهال المجرمين من السنن الإلٰهيّة، ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

٢ ـ منشأ الأوامر الإلٰهيّة هو ربوبيّة الله تعالى، بهدف تربية الإنسان وتهذيبه، ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾.

٣ ـ تجاوز حدود الله من أسباب الهلاك، ﴿فَعَتَوْا... فَأَخَذَتْهُمُ﴾.

٤ ـ قد تتحوّل الرياح والصواعق إلى وسائل وأدوات للغضب الإلٰهيّ، ﴿أَلِيمٌ... الرِّيحُ... الصَّاعِقَةُ﴾.

٥ ـ تكشف إشارة القرآن الكريم إلى رؤية العذاب والعجز عن الفرار منه عن أقصى حالات الذل التي يُبتلى بها المجرمون، ﴿يَنظُرُونَ... فَمَا اسْتَطَاعُوا...﴾.

٦ ـ من لا يعتبر بمن مضى قبله، يتحوّل هو نفسه إلى عبرة لمن يأتي بعده، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ...﴾ (وتشير الآية إلى قوم عاد الذين لم يعتبروا من قوم نوح والعذاب الذي أصابهم).

٧ ـ في قصة نوح عليه السلام الذي قضى ما يقرب من ألف سنة بين قومه يحاول هدايتهم إلى الحقّ ولم يهتدوا، وقصّة قومه عبرة للنبيّ ﷺ وقومه، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ...﴾.

٨ ـ الاستمرار على الفسق أقبح من الفسق نفسه، ﴿كَانُوا... فَٰسِقِينَ﴾.

٩ ـ في بعض الحالات يتحوّل الفسق إلى ظاهرة اجتماعيّة عامّة، ومثل هذا الفسق هو الذي يؤدّي إلى نزول العذاب الإلٰهيّ، ﴿قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «أيدٍ» قد تكون جمع يدٍ وهي العضو المعروف في جسم الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾[1]. وقد تتضمّن هذه المادّة (الألف والياء والدال) معنى القوّة. وقد وردت في القرآن بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

□ تدلّ الكلمتان: «فرش» و«مهد»، على بسط الشيء لاستخدامه للاستراحة.

التعاليم:

١ ـ السماء في حالة توسّع دائم، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

٢ ـ قانون الزوجيّة من القوانين الحاكمة على كثير من مظاهر الطبيعة، ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ... زَوْجَيْنِ﴾.

٣ ـ تهدف الإشارة إلى مظاهر الطبيعة في القرآن الكريم إلى تذكير الإنسان واعتباره، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٢.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١﴾

إشارات:

- وردت عبارة ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ في هاتين الآيتين مرّتين، وفي غيرها من الآيات وردت عبارات مشابهة، من قبيل: ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾[1]، و﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[2]، و﴿عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[3]، وهذه العبارات كلّها تؤكّد حقيقة أنّ رسالة الأنبياء وكلام الله سبحانه يحملان الهداية من دون تعقيد وإبهام.
- نتيجة الفرار إلى الله هي الفرار من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن القلق إلى الاطمئنان، ومن الخرافات إلى الحقّ، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى التقوى. وعن الإمام الباقر عليه السلام أن سفر الحجّ من مصاديق الفرار إلى الله[4].

التعاليم:

١ ـ الإنسان محدود القدرة، وفي مقابل آلاف الأمور الماديّة والمعنويّة، وبين الصراع الذي يدور في داخله بين الميل إلى الحقّ والانحراف إلى الباطل، يحتاج إلى ملجأ وركن وثيق، ولا يوجد أفضل من الله ملجأ ومأوى، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ لا خيار أمام الإنسان سوى الحركة باتجاه الله والفرار إليه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ النظر في مظاهر الطبيعة وآلاء الله في الكون، لا بدّ من أن يثير في الإنسان الإحساس بالعبوديّة لله تعالى، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (وذلك بالنظر إلى الآيات السابقة، وإلحاقها بالدعوة إلى الفرار إلى الله).

---

(١) سورة الحجر: الآية ١.
(٢) سورة النحل: الآية ٨٢.
(٣) سورة الشعراء: الآية ١٩٥.
(٤) الكافي، ج٤، ص٢٥٦.

٤ ـ طريق الأنبياء واضح المعالم مشرق الجوانب، ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٥ ـ لا ملجأ حقيقي سوى الله، وغيره كائناً ما كان ومن كان، ليس ملجأ يعتمد عليه، ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ...﴾.

٦ ـ الأنبياء لهم مهمّة واضحة هي هداية الناس وإنذارهم، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

إشارات:

- الآية الثانية والخمسون هي نتيجة للآيات السابقة عليها، وفيها تطييب لخاطر النبيّ ﷺ وتهدئة لقلبه، من خلال بيان أنّه ليس استثناء بين الأنبياء، فإذا كان مشركو مكّة تعاملوا معه بتلك الطريقة، فإنّ كثيراً من الأنبياء السابقين عليه تعرّضوا للطريقة نفسها.

- لا مجال للوم النبيّ ﷺ أو الاعتراض عليه لإعراضه عن جدال المشركين وتركه الحجاج معهم؛ وذلك لأنّه بذل أكثر مما يجب في سبيل هدايتهم إلى سواء السبيل، وأتمّ الحجّة عليهم ولم يقصّر في شيء من ذلك.

- دعا الله سبحانه في الآية الأخيرة من هذه الآيات نبيّه إلى التذكير وعلّل ذلك بأنّ الذكرى تنفع المؤمنين، وربّما كان ذلك لكي لا يظنّ أحد أنّ الكافرين وحدهم بحاجة إلى التذكير.

- بين المعرفة والعلم وبين سماع الإنسان ما يعلم فرق شاسع؛ وذلك لأنّ الاستماع إلى متكلّم مثل النبيّ ﷺ يشتمل على أعلى درجات الصدق والإخلاص له أثره الكبير حتى على من يسمع ما يعلم. ومن هنا، يأمر الله نبيّه ﷺ بالتذكير الدائم حتّى للمؤمنين.

التعاليم:

١ ـ جميع الأنبياء واجهوا المعارضين واتّهاماتهم الباطلة؛ وعليه لا ينبغي أن نخشى المعارضة والاختلاف في الرأي، ﴿كَذَٰلِكَ... قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

٢ ـ يقدّم القرآن الأنبياء على أنّهم بشر كسائر البشر على الرغم من اصطفاء الله إيّاهم للنبوّة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1]. إلا أنّ الكفّار وسائر المعارضين للأنبياء يصرّون على اتّهامهم بالجنون والسحر والعلاقة بالجنّ، ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

٣ ـ يتّفق الكفّار عبر التاريخ في موقفهم من الأنبياء على الرغم من تعدد الأذواق والمشارب، وكأنّ السابقين منهم يوصون اللّاحقين بما ينبغي فعله تجاه الأنبياء، ﴿أَتَوَاصَوْا...﴾.

٤ ـ الطغيان هو الأصل الذي يتفرّع منه اتّهام الأنبياء، ﴿قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

٥ ـ لا يتحمّل الداعي إلى الله مسؤوليّة أهل العناد واللجاج، ﴿فَتَوَلَّ﴾.

٦ ـ يجوز الإعراض عن المعاندين للحقّ، بعد إتمام الحجّة عليهم، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.

٧ ـ لا تقبح المقاطعة والإعراض دائماً، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.

٨ ـ على الداعية إلى الله أن يعرف مخاطبيه بشكل جيّد، فيعرض عن بعضهم، ﴿فَتَوَلَّ﴾، ويواصل دعوة بعضهم وتذكيره بالحقّ، ﴿وَذَكِّرْ﴾.

٩ ـ علينا أن نشكّ في إيماننا أو في درجته، عندما نجد أنّنا لا نتأثّر بالنصيحة ولا نستفيد من العبر؛ وذلك لأنّ المؤمن يعتبر ويقبل النصيحة، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠ ـ المؤمن يقبل النصيحة كائناً ما كان مصدرها، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل سبحانه «إن ذكراك تنفع المؤمنين».

---

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

١١ ـ على الدعاة إلى الله أن لا ييأسوا ولا يملّوا من الموعظة والهداية، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ...﴾.

١٢ ـ لا تقتصر الحاجة إلى التذكير والوعظ على غير المؤمنين، فالمؤمنون أيضاً محتاجون إلى التذكير، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٣ ـ تعاليم الأديان تضرب بجذورها في أعماق الفطرة الإنسانيّة، ووظيفة الأنبياء هي إثارة الفطرة وتنبيهها، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

إشارات:

- في الرواية عن الإمام الحسين عليه السلام: **«إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه»**[(١)].
- خلق الله الجنّ قبل الإنسان، وهم مطالبون بالتكاليف الشرعيّة. وفي هذه الآية ذكرهم قبل ذكره الإنسان، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾.
- يقرّر القرآن أنّ الله قد خلق كل شيء بالحقّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[(٢)]. وأنّ كثيراً ممّا خلق يقع في مسير خدمة الإنسان: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾[(٣)]، ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾[(٤)]، ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾[(٥)].

والإنسان نفسه مخلوقٌ من أجل هدف عالٍ وهو عبادة الله سبحانه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. والعبادة في الإسلام لها معنىً عامّ ينطبق على كل ما يُفعل بقصد رضى الله سبحانه.

سؤال: أشار القرآن إلى أهداف عدّة من وراء خلق الإنسان، وفي هذه الآية

---

(١) بحار الأنوار، ج٥، ص ٣١٢.
(٢) سورة الحجر: الآية ٨٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٩.
(٤) سورة الجاثية: الآية ١٣.
(٥) سورة النازعات: الآية ٣٣.

(٦٥) جعل العبادة هي الهدف من وراء خلق الإنسان، فهل تنسجم تلك الأهداف مع هذا الهدف المشار إليه؟

الجواب: يقول الله سبحانه في الآية الثانية من سورة الملك: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. ويقول في الآية ١٢ من سورة الطلاق: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. وبالجمع بين هاتين الآيتين يظهر أنّ الهدف الأساس هو العبوديّة لله والعبوديّة لا تتحقّق من دون المعرفة، الأمر الذي أوضحه سبحانه وتعالى، بقوله ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟﴾. وفي العبادة التي هي معرفة طريق الحقّ والتسليم لله، يعرف الإنسان ويختبر كما في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾.

سؤال: إذا كان الهدف هو العبادة، فلماذا لا نجد أنّه يتحقّق بصورة كاملة، وعند جميع الجنّ وبني البشر؟

الجواب: لقد أكّد القرآن مراراً أنّ الله قادر على إرغام أنوف المخلوقات على العبادة لو أراد، ولكنّه شاء أن تكون عبادة العباد نابعة من حريّة إرادتهم.

سؤال: هل يحتاج الله إلى عبادة العباد؟

الجواب: يكرّر القرآن تأكيده أنّ الله مستغنٍ عن العباد بل عن جميع المخلوقات. فإذا دُعينا إلى فتح نوافذ بيوتنا على الشمس، فهذا لا يعني بأي وجه حاجة الشمس إلينا أو إلى بيوتنا، بل نحن المحتاجون إليها ليدخل ضوؤها إلى حجرنا لننتفع بها، ونستضيء بنورها. وفي هذه الآيات يشير الله إلى حقيقة استغنائه عن عباده بقوله ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾.

سؤال: إذا كان الرزق من الله، فلماذا لا يكون لجميع الناس بالسويّة؟

الجواب: صفة الرازق هي إحدى الصفات الإلٰهيّة، والحكمة صفة أخرى من صفاته تعالى. وليس من الحكمة التسوية في الرزق بين جميع المخلوقات، لأنّ ذلك يؤدّي إلى تخاذل الإنسان عن السعي في طلب الرزق، والله يدعونا إلى ذلك بقوله ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[1]، ويقول أيضاً: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2]. فكما

(١) سورة الملك: الآية ١٥.
(٢) سورة الجمعة: الآية ١٠.

لا يصحّ من المعلّم أن يساوي في نتائج الامتحانات بين المجدّ والكسول، ولو فعل كان خلاف الحكمة، فكذلك لا يفعل الله سبحانه ذلك، بل ميّز بين الناس في الرزق تبعاً لحكمته المطلقة.

سؤال: إذا كان الله هو الرازق فما الذي يبرّر القحط؟

الجواب: القحط، وغيره مما يزعج الإنسان، له أسباب شتّى، فتارة يكون هو التأديب والعقوبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾[1]، وطوراً يكون الهدف هو الاختبار والابتلاء، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾[2]، وثالثةً تكون الغاية هي التربية، والأخذ بيد الإنسان ليلتفت إلى الله، ويتضرع إليه، ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِٱلْبَأْسَاءِ... لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[3]، ورابعةً تكون الحكمة هي الغضب الإلٰهيّ الناتج عن تخريب الإنسان الأحوال الأصلية للبيئة، كتخريب الغابات والمراتع، وتلويث مياه الأنهار، وكسر التوازن القائم في الطبيعة، ما يؤدّي في نهاية المطاف إلى آثار مدمّرة ربّما يكون أهونها القحط، إذا قيس بغيره من الآثار المتوقّعة لما جنته يد الإنسان على نفسه.

- ❑ الإيمان الصادق بأنّ الرزق بيد الله يسدّ الأبواب في وجه كثير من التصرّفات المشينة، كالسرقة والظلم، والاحتيال والاختلاس، والتطفيف والبخس إلى غير ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ...﴾.

التعاليم:

١ ـ التكليف سمة مشتركة بين الجنّ والإنسان، ﴿ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ... لِيَعْبُدُونِ﴾.

٢ ـ المهمّ هو صدور العبادة عن الإنسان، ومسيره في الصراط الإلٰهيّ، لا عبادة الله، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، ولم يقل ﷻ: «لأُعبد»، باستخدام الفعل المبنيّ للمجهول، بل استخدم الفعل ونسبه إلى الفاعل، وهذا يكشف عن أهميّة الفاعل ودوره الأساس، ما يمنع من إغفاله وتجهيله.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٥.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٤٢.

٣ ـ المعرفة من اللوازم القريبة للعبادة؛ ولذلك يمكن القول إنّ معرفة الله والسير نحوه من الأهداف المرادة من الخلق لملازمتها وكونها مقدّمة للعبادة، ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾.

٤ ـ الإنسان في معرض الغفلة والنسيان، ومن هنا كان من المناسب تذكيره بالغايات المرادة من خلقه بشكل دائم، ﴿وَذَكِّرْ... وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ...﴾.

٥ ـ ليس الله في حاجة إلى الخلق وعبادتهم ويستوي في ذلك الجنّ والإنس، فالغاية من العبادة هي حاجة الإنسان إلى التكامل بها، لا حاجة الله إليها، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ...﴾.

٦ ـ الرزّاق ليس به حاجة إلى الرزق من أيّ مخلوق، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ... إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾.

٧ ـ توجد الكثير من الوسائل والمقدّمات التي يتوقّف عليها وصول الرزق إلى الإنسان؛ ولكنّ الرزاق هو الله سبحانه، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾.

٨ ـ لا يعجز الله عن إيصال أيّ رزق يريد إيصاله إلى عباده، ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ﴾.

٩ ـ لا يؤثّر مرور الزمان على قدرة الله على الرزق، ﴿الْمَتِينُ﴾ (المتين هو الثابت المحكم).

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

إشارات:

- كلمة «ذَنوب» في هذه الآية معناها النصيب والسهم[1].
- بدأت الآية بكلمة «توعدون» وخُتمت بها، وهذا يدلّ على أنّ هدف السورة وموضوعها الأساس هو المعاد.

(١) الكسرة على النون في كلمة: «يستعجلون» للإشارة إلى حذف ياء المتكلّم من الكلمة.

- تلفت هذه السورة إلى أنّ لبعض الناس من هذه الأمّة نصيبهم من العذاب، كما لسائر العصاة والجبابرة من الأمم السابقة، فلماذا استعجال ذلك ومطالبتهم بسرعة نزول العذاب عليهم؟
- الشرك والكفر، في منظومة القيم القرآنيّة، من أشكال الظلم. وهو ظلم لله تعالى بجعله في مصافّ خلقه، وظلم من الإنسان لنفسه بالسعي في رضا المخلوق بدل السعي في رضا الخالق، وظلم من الإنسان لأسرته بحرمانها من الهداية وتقديمه المثل السيّئ لها. ويرى العلّامة الطباطبائي، في «الميزان في تفسير القرآن» أن المراد من الظلم في هذه الآية هو الشرك والكفر، وليس ظلم الناس والاعتداء على حقوقهم.
- قيل إنّ المراد من اليوم الذي يوعدون في الآية هو يوم بدر، ولكن يحتمل بقوة أن يكون المراد منه يوم القيامة[1].

التعاليم:

١ ـ من لا يضع نفسه في طريق الهدف الذي خُلق من أجله، وهو العبادة، يكن ظالماً لنفسه أولاً ولحقوق الله سبحانه وتعالى ثانياً، بل لا يكون ظالماً فحسب بل يكون كافراً أيضاً، ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ... لِلَّذِينَ ظَلَمُوا... كَفَرُوا﴾.

٢ ـ سنّة الله واحدة عبر التاريخ تجري على الظالمين من الأمم جميعاً، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٣ ـ تاريخ الأمم الماضية شاهد على المصير الذي سوف يصير إليه الظالمون، ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾.

٤ ـ الأعمال المتشابهة لها جزاءات متشابهة، ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾.

٥ ـ بين المتشابهين في السلوك نوع من أنواع التقارب والصحبة، ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾.

---

(١) العلّامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص ٣٩٠.

٦ ـ الغضب والقهر الإلٰهيّ له أوقاته المحسوبة تبعاً لحكمة الله وإرادته المنزّهة عن العبث والعجلة، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾.

٧ ـ مصير الإنسان مرهون بأعماله خيراً كان أم شراً، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ (الظلم والكفر من أسباب الابتلاء بالعذاب الإلٰهيّ).

٨ ـ التفكير في المستقبل يصون الإنسان من سوء العاقبة، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

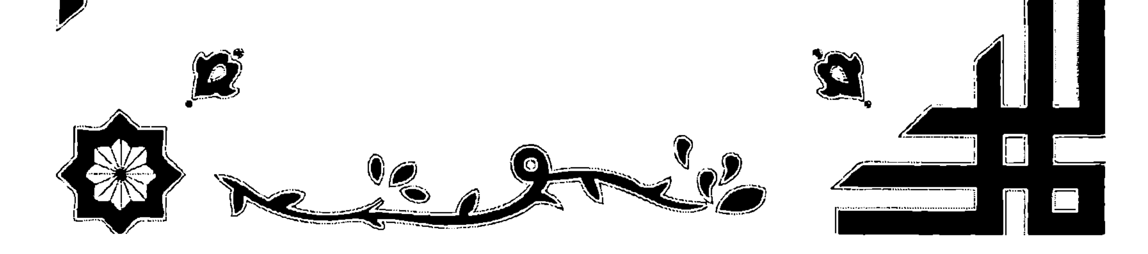
«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الطُّورِ

السورة: ٥٢ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٤٩



ملامح سورة الطور

سورة الطور مكيّة، وعدد آياتها تسع وأربعون آيةً. وقد سمّيت بهذا الاسم بالنظر إلى أوّلها. وقد وردت كلمة «الطور» في القرآن عشر مرّات، ويقصد بها الجبل حيث كان ميقات النبيّ موسى عليه السلام، ومحلّ نزول التوراة عليه.

وتشبه هذه السورة سائر السور المكّية من جهة اهتمامها بالموضوعات الاعتقادية، والحديث عن قرب وقوع يوم القيامة، وعن عقاب الكافرين، وثواب المتّقين. وتشير إلى التوحيد، وفيها حديث عن النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وصفاته كصبره وثباته.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝٨﴾

إشارات:

- الطور في اللغة الجبل، والمراد به هنا جبل محدد في سيناء كان محلاً لميقات الله لموسى عليه السلام، وهو المكان المقدّس الذي يتحدّث عنه القرآن، ويوصف فيه بما يأتي: ﴿الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾[1]، و﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾[2]، و﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾[3].
- قوله تعالى: «كتاب مسطور» يراد به الكتب السماويّة كالتوراة والقرآن، إذ كانت تكتب على صفحات منشورة وليس في لفائف، الأمر الذي يشار إليه بقوله تعالى ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾.
- «الرق» من الرقّة، وهو الجلد الذي يعدّ للكتابة عليه بعد معالجته بالدباغة أو بغيرها من العمليات التي تجعل الكتابة عليه أمراً سهلاً وممكناً. و«منشور» أي مبسوط مقابل الملفوف. و«المسجور» المشتعل المضطرم، وقد استعملت هذه الكلمة للدلالة على الامتلاء.
- والمراد من «البيت المعمور» بيت الله سبحانه المعمور بالزائرين والحجيج، وقد ورد التعبير بالبيت عن الكعبة في القرآن الكريم أكثر من مرّة، كما في قوله تعالى ﴿الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[4]. كما أنّه ورد في بعض الروايات الحديث عن محلّ موازٍ للكعبة في السماء هو محلّ طواف الملائكة[5].
- «البحر المسجور» الموقد يوم القيامة، والسجر تهييج النار. وقد ورد هذا المعنى في الآية السادسة من سورة التكوير: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾؛ وربّما يكون في

---

(١) سورة مريم: الآية ٥٢.
(٢) سورة طه: الآية ١٢.
(٣) سورة القصص: الآية ٣٠.
(٤) سورة الحج: الآية ٢٩.
(٥) تفسير نور الثقلين، ج١، ص ٥١.

الآية إشارة إلى المواد المشتعلة الذائبة في الأرض، والتي تفور في بعض الأوقات والأماكن على شكل براكين.

❑ مرّ قوله تعالى في آخر سورة الذاريات ﴿يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، وفي هذه الآية يشير الله سبحانه إلى صدق وعيده بالعذاب بعد خمسة أقسام، بقوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾.

❑ يقسم الله سبحانه بالطور الذي كان مكاناً لنزول الوحي على موسى عليه السلام، وبالتالي تبقى قداسة هذا المكان على الرغم من انقضاء العصور والدهور، ولا أدري كيف يجرؤ بعض قساة القلوب على القول إنّ النبيّ ﷺ قد فقد قداسته بذهابه من الدنيا، وقد كان قلبه محلاً لنزول الوحي.

❑ القسم بالكتاب والرق، في ذلك الزمان، من الأدلّة على اهتمام الإسلام بالعلم والمعرفة وأدواتها.

التعاليم:

١ ـ حفظ قداسة الأماكن المقدّسة المرتبطة بالأديان السماويّة، من الأمور المطلوبة شرعاً، ﴿وَٱلطُّورِ﴾.

٢ ـ علينا أن نجذب قلوب أهل الكتاب باحترام الأماكن المقدّسة عندهم، كما يقسم الله بالطور وهو محل نزول الوحي على موسى عليه السلام، ﴿وَٱلطُّورِ﴾.

٣ ـ يقسم الله سبحانه من أجل تثبيت الإيمان عند العباد بنظام التشريع والتكوين بالجبل والكتاب، والكعبة والسماء والبحر، ﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ... وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾.

٤ ـ ينبغي أن نستخدم أفضل أدوات الكتاب ووسائلها لكتابة الوحي الإلٰهيّ، ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾

٥ ـ الكتاب مقدّس ينبغي أن يبقى مفتوحاً دائماً للاستفادة منه في كلّ وقت، ﴿كِتَٰبٍ... مَّنشُورٍ﴾.

٦ ـ العلم مفيدٌ ومباركٌ؛ ينبغي أن ننشره ونفيد الناس منه، ﴿مَّنشُورٍ﴾.

٧ ـ يحترم القرآن سائر الكتب السماويّة ولذلك يقسم الله بها في كتابه، كما يشير إلى نظمها وطريقة كتابتها، ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾.

٨ ـ عمارة البيت لا تكون بالتزويق والتزيين، بل بالتردد إليه وقصده للعبادة، ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ (بيت الله من أبسط البيوت؛ ولكنّه من أكثرها قداسةً وبركةً).

٩ ـ دراسة الطبيعة، والتأمّل فيها، تمهّد للإنسان سبل اليقين بقدرة الله على بعث الناس يوم القيامة، ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾.

١٠ ـ ينقل القرآن الكريم الإنسانَ، من المحسوسات والمشاهدات، إلى ما لا يمكن إدراكه بالحواسّ، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾.

١١ ـ القهر والتأديب من صفات الله سبحانه، ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾.

١٢ ـ ينبغي أن يتعاظم إيمان المؤمنين بيوم القيامة كلّما ازداد شكّ الكافرين والمعاندين فيه، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾.

١٣ ـ يجب أن يكون نزول الكتب السماويّة، ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾، وتجلّي القدرة الإلٰهيّة في الوجود، ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ منشأً للإيمان، وإلا فإنّ العذاب هو الخيار الحتميّ، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾.

١٤ ـ لا مفرّ من العذاب الإلٰهيّ، عند من يحكم عليه الله سبحانه بذلك، ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾.

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- المور في اللغة الجريان السريع. وهو الدوران غير المنظّم، كالحركة الناجمة عن تأثير الرياح في الأشياء الخفيفة.

- «الخوض» في الأصل دخول الماء والعبور فيه، وفي الاصطلاح هو الدخول في الباطل.
- «الدعّ» هو الطرد بعنف. وقد ورد في القرآن التعبير بالدعّ عن طرد اليتيم ومنع الطعام عنه، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾.
- خُلق الوجود الإمكانيّ من أجل الإنسان، وبمجرّد انتهاء الوجود الإنسانيّ على الأرض، تضطرب أحوال الكون وتتبدّل، ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾. وفي آية أخرى يشير الله سبحانه إلى طيّ السماء كما الأوراق في الملفّات، ﴿نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾[1].
- الثابت الوحيد هو الله سبحانه، وأما السماوات فإنّها على الرغم من متانة بنائها وإحكامه، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[2]، فإنّها تدور وتزول من مكانها كما تدور الأشياء الخفيفة عندما تضربها الرياح، ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾. والجبال التي هي من أسباب استقرار الأرض، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾[3]، تهتزّ يوم القيامة وتفقد استقرارها، ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾.

التعاليم،

١ ـ تصوير أحداث يوم القيامة، من الأسباب التي تحول بين الإنسان وبين التكذيب والعناد، ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ... وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ...﴾.

٢ ـ لا تنهار الأرض وحدها قبيل يوم القيامة، بل تنهار معها السماوات وما فيها، ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ... وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ...﴾.

٣ ـ لا يتوفّر المكذّبون على منطق يستندون إليه، ومن أهمّ أسباب تكذيبهم خوضهم في الباطل ولهوهم ولعبهم، ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

٤ ـ ربّما يصدر عن الإنسان اللهو واللعب، وقد يغفر له ذلك؛ ولكنّ المشكلة الكبرى عندما يغرق في اللعب نتيجة الخوض فيه، ﴿فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٤.

(٢) سورة النبأ: الآية ١٢.

(٣) سورة المرسلات: الآية ٢٧.

٥ ـ سعي الكفّار لإبطال القرآن ليس إلا لعباً ولهواً لا يجنون منه شيئاً، ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾.

٦ ـ يجمع الله للكفار الذين يكذّبون الأنبياء بين التوبيخ والإهانة وبين العذاب، ﴿يُدَعُّونَ... هَٰذِهِ...﴾ (فهو جمع بين العذاب النفسي، والعذاب الجسدي).

٧ ـ لا تنتفي النار بإنكارها، بل سوف يواجهها المنكر يوم القيامة، ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾.

٨ ـ التكذيب الشديد لا يناسبه إلا العذاب الشديد يوم القيامة، ﴿تُكَذِّبِينَ﴾.

٩ ـ العقاب المناسب الوحيد للتكذيب في الدنيا هو النار في الآخرة، ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- السحر، والتأثير على العيون لكي ترى الواقع على غير ما هو عليه، هو التهمة التي كانت توجّه إلى الأنبياء ومعجزاتهم؛ ولذلك فإنّ الله، يوم القيامة، يخاطبهم بالطريقة التي تتناسب مع ما كانوا يقولون ويفعلون في الدنيا، ويُسألون: هل هذه النار سحر أيضاً، أم المشكلة في عيونكم التي أعماها العناد فعشيت عن معرفة الحقيقة؟

- يُوبّخ الكافرون المكذّبون يوم القيامة بالكلمات التي يؤذون بها الأنبياء، فيُقال لأصحاب تهمة السحر، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾، ويقال للذين كانوا يقولون لنبيّهم، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾[1]، يقال لهم، ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٣٦.

التعاليم:

١ ـ يعرض الله يوم القيامة الأشياء التي كان يكذّب بها الكافرون، ويقدّمها لهم أمام عيونهم، ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ... أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾.

٢ ـ انعدام البصيرة واعوجاجها من أسباب التكذيب وعلله، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ... أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

٣ ـ يترتّب على التكذيب المتواصل والمستمرّ، ﴿كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، العذاب المتواصل والمستمرّ، ﴿يُدَعُّونَ... أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ... لَا تُبْصِرُونَ... ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾.

٤ ـ عقاب الدخول في اللهو واللعب هو الدخول إلى النار والخوض فيها، ﴿فِي خَوْضٍ... ٱصْلَوْهَا﴾.

٥ ـ يخضع العقاب، يوم القيامة، لقانون العدل، ومن هنا يكون الجزاء من جنس العمل ومتناسباً معه، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

- «الهنيء» هو الأمر الذي لا تعب فيه ولا ألم، وهذا بخلاف لذّات الدنيا ونعمها، فإنّها مشوبة بكدر يقلّل من جمالها وحسنها.
- «الحور العين»، تركيب مؤلّف من كلمتين الأولى هي الحور جمع حوراء، والحوَر هو السواد في العين، و«عين» جمع عيناء وهي المرأة الواسعة العين. وقد عبّر عن نساء الجنّة بذكر صفتهنّ.
- الأنس برفقة المتّقين من النعم التي يمنّ الله بها على أهل الجنّة. وقد وردت الإشارة إلى هذا المعنى في أكثر من مورد في القرآن الكريم.

□ تذكر الآيات من ١٦ إلى ١٩ العقاب والثواب لأهل النار وأهل الجنّة، وبينهما تشابه وتقابل واضح؛ إذ يقول سبحانه عن أهل النار: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم يشرح حال أهل الجنّة بقوله: ﴿هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ مع فارق وهو أنّ عقاب أهل الجنّة يتناسب مع فعلهم لا يزيد ولا ينقص، وأما ثواب أهل الجنّة فهو أكثر وأعظم من الفعل، وذلك يستفاد من قوله تعالى: «ما كنتم» بالنسبة إلى أهل النار، و«بما كنتم» بالنسبة إلى أهل الجنّة.

التعاليم:

١ ـ التقوى هي مفتاح الجنّة، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ﴾.

٢ ـ المقارنة بين عاقبة المتّقين وعاقبة الكافرين من الوسائل المؤثّرة في معرفة الحقّ والدعوة إليه، ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ... فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾.

٣ ـ ينعم الله على أهل الجنّة بالكثير من الجنّات والنعم التي تشتمل عليها، ﴿جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾.

٤ ـ توجد في الدنيا نعمٌ كثيرة ولكنّ الإنسان قد لا يشعر بلذّتها ولا يأنس بها، وأما نعم الآخرة فهي مصدر فرح وسرور لمن يمتّعه الله بها، ﴿جَنَّـٰتٍ... فَـٰكِهِينَ﴾.

٥ ـ تصل لذّة النعمة إلى حدّها الأقصى، عندما ينالها الإنسان من الله، ﴿ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، ثمّ لا تكون مقرونةً بما ينغّص لذّتها، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٦ ـ من يحفظ في الدنيا نفسه بالتقوى، يَقِه الله النار يوم القيامة، ﴿ٱلْمُتَّقِينَ... وَوَقَىٰهُمْ﴾.

٧ ـ لا ينبغي للمؤمنين أن يحسبوا أنّ ما ينالونه من أجر وثواب، هو استحقاق على الله، وإنّما هو منّ منه سبحانه، حتّى لو كان مسبوقاً بالعمل، ﴿ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ... وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

٨ ـ الحرّية والتكريم، يرفعان من لذّة النعمة يوم القيامة، ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾؛

حيث لا يقدّم الطعام والشراب يوم القيامة لأهل التقوى، فحسب بل يُقرن تقديمه بالتكريم والتهنئة.

٩ ـ الأمن من الأمور التي ترفع منسوب الإحساس بقيمة النعمة والتمتّع بها، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ... كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

١٠ ـ مأكولات الدنيا، مهما كانت لذيذةً، إلا أنّها لا تخلو من منغّص يكدّرها، وأمّا لذّات الآخرة ونعمها فلا يشوبها كدرٌ، ﴿هَنِيٓـًٔا﴾.

١١ ـ السرور والرضا، إلى جانب التمتّع بالنعم، من شروط اكتمال الالتذاذ بها، ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ فَٰكِهِينَ... مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ...﴾.

١٢ ـ المتّقون الذين يغضّون أبصارهم عن غير محارمهم في الدنيا، ينعم الله عليهم بما تركوه في الدنيا لأجل الله سبحانه، ﴿ٱلْمُتَّقِينَ... وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٖ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحْمٖ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- «ألتنا»، من اللوت، ولاته يلوته لوتاً نقصه حقّه. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾، أنّ أجرهم لا ينقص بإلحاق ذرّيّتهم بهم.
- «رهين» من الرهن وهو ما يوضع وثيقة للدين... ولما كان الرهن يتصوّر منه حبسه استعير ذلك لحبس أي شيء كان.
- عن الإمام الصادق عليه السلام، في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ...﴾، أنّه قال: **«قصّرت الأبناء عن عمل الآباء، فألحقوا الأبناء بالآباء لتقرّ بذلك أعينهم»**[1].

---

(١) الكافي، ج٣، ص ٢٥٠.

□ يلحق الله الأبناء المؤمنين بآبائهم، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ثمّ يمنّ عليهم بالنعم المعدّة لهم، ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾.

□ خصائص فاكهة الجنّة هي على النحو الآتي:

١ ـ الكثرة، ﴿فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾[١].

٢ ـ الأمن وخلوّها من الضرر، ﴿فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾[٢].

٣ ـ الزوجيّة، ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾[٣].

٤ ـ الدوام، ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾[٤].

٥ ـ الإباحة والجواز، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[٥].

٦ ـ التكريم مع تقديمها، ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾[٦].

٧ ـ التنوّع، ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[٧].

٨ ـ مقرونة بغيرها من النعم، ﴿بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ﴾[٨].

٩ ـ القدرة على التخيّر بينها، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[٩].

١٠ ـ سهولة تناولها والوصول إليها، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[١٠]، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[١١].

التعاليم:

١ ـ المحور الأساس للتقييم في الإسلام هو الإيمان، لا القرابة العائليّة وصلة الدم، ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾.

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٧٣.
(٢) سورة الدخان: الآية ٥٥.
(٣) سورة الرحمن: الآية ٥٢.
(٤) سورة الطور: الآية ٢٢.
(٥) سورة الواقعة: الآية ٣٣.
(٦) سورة الصافات: الآية ٤٢.
(٧) سورة المرسلات: الآية ٤٢.
(٨) سورة الطور: الآية ٢٢.
(٩) سورة الواقعة: الآية ٢٠.
(١٠) سورة الحاقة: الآية ٢٣.
(١١) سورة الإنسان: الآية ١٤.

٢ ـ الإلحاق بالصالحين في الآخرة، من آثار الالتحاق بسبيلهم في الدنيا، ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ... أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾.

٣ ـ مرافقة الأبناء من نِعَم الآخرة التي ينالها الصالحون، ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

٤ ـ المحبّة للذرّية والولد تبقى إلى يوم القيامة، ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

٥ ـ لا يؤثّر إلحاق ذرّية الإنسان به يوم القيامة، بشكل سلبيّ عليه، فلا يضيق مسكنه عليه ولا ينقص رزقه بالإنفاق منه على عياله، ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم... مِّن شَيْءٍ﴾.

٦ ـ إلحاق ذرّية الإنسان به يوم القيامة، من آثار أعماله في الدنيا، ﴿أَلْحَقْنَا... بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

٧ ـ تناول الفاكهة مقدّم على تناول اللحم، ﴿بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ﴾.

٨ ـ لا تزول الشهوة والرغبة يوم القيامة، ويختلف الناس فيما يشتهون ويرغبون فيه، فكلّ منهم يتناول ما يرغب ويشتهي، ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

- «الكأس» هو الممتلئ، و«القدح» هو الفارغ. كلمة «مشفق» عندما تقترن بـ «مِن» تدلّ على الخوف والقلق، وعندما تقترن بـ «في» تدلّ على الشفقة والعطف.
- «يتنازعون» أي يخطف بعضهم كأس بعضهم الآخر، في حالة فرح وسرور كما يحصل في بعض الحفلات، ومجالس الفرح.
- الشراب في الدنيا يذهب بعقل الإنسان ويدعو إلى صدور قبيح القول عنه، مضافاً إلى تحريكه الشهوة الجنسيّة والميل نحو الرذيلة، وأما شراب الآخرة فإنّه لا يؤدّي إلى أيّ شيء من ذلك، ولذلك يصفه الله بقوله: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾[1].

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٢١.

❑ وردت في القرآن عبارة: ﴿لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مرّتين، مرّة لوصف حوريّات الجنّة[١]، ومرّة لوصف غلمانها[٢].

❑ «سموم» وهي الريح الحارّة التي تدخل في مسامّ البدن، أو تترك أثرها فيه كما يترك السمّ أثره في جسد الإنسان. وفي الحديث عن النبيّ ﷺ: «لو فتح الله من عذاب السموم على أهل الأرض مثل الأنملة أحرقت الأرض ومن عليها»[٣].

❑ وعن أمير المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ قال: «**الولدان أولاد أهل الدنيا، لم يكن لهم حسنات فيثابون عليها، ولا سيّئات فيعاقبون عليها فأنزلوا هذه المنزلة**»[٤].

التعاليم:

١ ـ التنزّه والترفيه عن النفس أمر مقبول، شرط أن لا يصل إلى اللغو ولا يدخل الإنسانَ في المعصية، ﴿يَتَنَٰزَعُونَ... لَّا لَغۡوٞ... وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾.

٢ ـ على الرغم من أنّ في الجنّة أنهاراً من عسل وماء جارٍ، فإنَّ الماء والطعام والشراب تُقدّم إلى أهل الجنّة في أوانٍ وأكواب؛ لأنّ ذلك أوجب للأنس وأجلب للذّة، ﴿كَأۡسٗا﴾.

٣ ـ لا وجود للهو واللغو والإثم في الجنّة، ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾.

٤ ـ كل حركة لا لغو فيها ولا معصية، لا مانع من فعلها وارتكابها، ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾.

٥ ـ خدم الجنّة في حالة طواف دائم حول أهلها كما تطوف الفراشة حول النور، ﴿يَطُوفُ...﴾.

٦ ـ ينعم الله في الجنّة على أهلها بمجموعة من الخدم الخاصّين الملازمين لكل واحدٍ منهم، ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾.

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٢٣.
(٢) سورة الطور: الآية ٢٤.
(٣) السيوطي، الدر المنثور، عند تفسير الآية.
(٤) بحار الأنوار، ج٥، ص ٢٩١.

٧ ـ جمال الخدم الموكلين بالضيافة في الجنّة، نعمة إضافية ينعم الله بها على أهلها، ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

٨ ـ من المناسب والمطلوب، تغطية الأشياء القيّمة والثمينة، ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

٩ ـ من متع الجنّة ولذّاتها تبادل الحديث بين أهلها، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

١٠ ـ ينبغي البحث عن مفتاح الجنّة في الدنيا، ﴿كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا﴾.

١١ ـ الإشفاق على الأهل والأقارب، من مفاتيح الجنّة، ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.

١٢ ـ على الإنسان أن يهتمّ بأهله وعائلته، ويظهر لهم المودّة والعطف، ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.

١٣ ـ يعتقد أهل الجنّة أنّ نيلهم إيّاها منّ من الله وليس استحقاقاً على العمل، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

١٤ ـ من يستحقّ أن يقصد بابه هو البرّ الرحيم، بل مصدر البرّ والرحمة، ﴿نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

١٥ ـ لا أحد سوى الله مصدر للبرّ والرحمة، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

١٦ ـ إحسان الله إلى الناس وغيرهم، من لوازم رحمته (وليس نابعاً من حاجته إليهم)، ﴿الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

١٧ ـ نجاة المتّقين من العذاب، ونيلهم الجنّة من تجلّيات الرحمة الإلٰهيّة والإحسان الإلٰهيّ، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ... إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾

إشارات:

□ الكاهن هو الشخص الذي يخبر بالغيب، ويدّعي العلاقة بالجنّ، والتعرّف إلى

الأسرار والخفايا بواسطتهم. ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ تعبير يراد به الحوادث والمصائب التي تصيب الإنسان في حياته.

❑ صفة الجنون التي كان ينسبها المشركون إلى الأنبياء، لا يراد بها الجنون بمعنى زوال العقل، بل المراد بها العلاقة بالجنّ، وذلك بقرينة وقوعها في سياق الاتّهام بالكهانة، وكانوا يطلقون هذه الصفة على الأنبياء لاعتقادهم بأنّ من تنشأ بينه وبين الجن علاقة يصبح قادراً على اكتشاف الأسرار ومعرفة بعض الحقائق التي قد تخفى على غيره من الناس. ومن القرائن المؤيّدة لهذا المعنى قول الله على لسانهم ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي الخوف من الاتّهامات التي يطلقها الكافرون المعاندون للحقّ، وعلى الداعي إلى الله والعامل في سبيله العمل بما يقتضيه التكليف، حتى لو كانت التهم كبيرة وشنيعة كالاتّهام بالسحر، والجنون، والكهانة، وغيرها، ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ... بِكَاهِنٍ...﴾.

٢ ـ يضمن الله سلامة أوليائه، ويتعهّد بالدفاع عنهم، ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

٣ ـ الداعي إلى الله غرض دائم لسهام الكافرين، ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ... يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾.

٤ ـ نأي العيوب عن الإنسان، هو في ظل رعايته الله ونعمة منه، ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

٥ ـ الكهّان والمخبرون بالغيب، بعيدون عن نعمة الله، ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾.

٦ ـ لا يكتفي العدوّ بإطلاق تهمةٍ واحدة، بل يطلق كل أشكال التهم التي تتوفّر بين يديه وعلى لسانه، ﴿بِكَاهِنٍ... مَجْنُونٌ... شَاعِرٌ﴾.

---

(١) سورة الصافات: الآية ٣٦.

٧ ـ يتربّص العدوّ بالأمّة الإسلاميّة وينتظر موت قائدها ليفتك بها، ولذلك على الأمّة أن تتّخذ التدابير التي تؤدّي إلى يأس الأعداء وتحقّق فشلهم، ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾.

٨ ـ على القائد الدينيّ أن لا يترك الساحة فراراً من التهم التي تطلق ضدّه، بل عليه الثبات والمواجهة، ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾.

٩ ـ على المؤمنين أن يبقوا على أمل دائم بالفوز والنصر، ويتربّصوا بأعدائهم كما يتربّصون بهم، ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ... فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٣٤)﴾

إشارات:

❑ يطرح الله سبحانه على الكافرين، في هذه الآيات والآيات اللّاحقة، أربعة عشر سؤالاً، تهدف إلى سدّ أبواب العذر وإبطال الحجج الواهية التي يمكن أن يتسلّحوا بها، من أجل تبرير عدم إسلامهم. وربّما لا يوجد في القرآن كلّه حالة أخرى فيها هذه الدرجة في الانتقاد والتبكيت للكفّار.

❑ «أحلام» جمع «حِلم» أي العقل. وحيث كان يدّعي سادة قريش المشركون رجاحة العقل والفهم، فإنّ القرآن يسألهم هل عقلهم هو الذي كشف لهم استناد القرآن إلى الكهانة، أم الطغيان هو الذي قادهم إلى مثل هذا الاستنتاج؟

❑ «تقوّل» اخترع القول من نفسه، من دون استناد إلى مصدر ينقل عنه.

❑ «حديث» أي جديد. وقد عُبّر عن القرآن بالحديث لجدّة مضامينه.

❑ يكرّر القرآن في أكثر من موضع تحدّيه للكافرين ويدعوهم إلى المواجهة، فيطالبهم مرّة بالإتيان بقرآن من عند الله، في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1]. ثمّ يخفّف عنهم، ويكتفي بتحدّيهم بالإتيان بعشر سور: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[2]، بل يخفّف حتّى يكتفي بالإتيان بسورة واحدة مشابهة

---

(١) سورة القصص: الآية ٤٩. (٢) سورة هود: الآية ١٣.

لسور القرآن: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[1]. وفي الآية ٣٤ من هذه السورة، يطالبهم بالإتيان بحديث مثله ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾، من دون أن يشير إلى حجمه من سورة أو أكثر.

التعاليم:

١ ـ لا يستند اتّهام النبيّ بالسحر والكهانة والجنون، إلى التأمّل والتفكّر في آيات القرآن، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم﴾.

٢ ـ أصل الكفر والشرك، الطغيان والعناد في مواجهة الحقّ، ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

٣ ـ كل من يصرّ على كلامه من دون أن يكون كلامه مستنداً إلى حجّة منطقية دامغة، هو إنسان طاغٍ، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

٤ ـ يبرّر المشركون شركهم، بإطلاق التهم والافتراء، ﴿يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٥ ـ على الإنسان أن يرتكز في مواقفه الفكريّة والعمليّة على العقل، أو على الوحي، والمشركون محرومون من كلا السبيلين، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم... بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٦ ـ في مواجهة إعصار التهم والافتراء، لا ينبغي التخلّي عن المنطق والمواجهة الفكريّة، فالتحدّي العاقل يبقى هو السلاح الأقوى في مواجهة المعارضين، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ...﴾.

٧ ـ القرآن يتوفّر على الحجّة البالغة، فهو بكلّ بساطة يقول لهم، إذا كان النبيّ ﷺ تقوّل هذا القرآن واخترعه ونسبه إلى الله، فافعلوا مثل ما فعل وأتوا بمثل ما أتى، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾.

٨ ـ المواجهة وطلب المبارزة في ميدان الحرب الثقافية، من الأمور المطلوبة، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾

إشارات:

- لا ينبغي أن تكون التهم مانعاً للداعي إلى الله عن حمل مشعل الهداية وإنارة الطريق للضالّين، فالله سبحانه يحاول في هذه الآيات إيقاظ ضمائر المشركين بطرح الأسئلة عليهم، علّ ذلك يوقظهم من غفلتهم.
- يقدّم القرآن أعقد المسائل الفلسفية، بلغة سلسة سهلة الفهم. فالآية الأولى تطرح فرضيّتين الأولى منهما أنّهم خُلقوا من غير شيء، والثانية أنّهم هم الذين خَلقوا أنفسهم، وكلتا الفرضيّتين باطلة مستحيلة، فلا يمكن للعدم أن يفيض الوجود، ولا يمكن للإنسان أن يخلق نفسه، وهذا ما يعبّر عنه الفلاسفة بالدور المستحيل؛ وهو توقّف الشيء على نفسه.
- يؤمن المشركون على الرغم من شركهم بأنّ الله هو خالق السماوات والأرض؛ ولذلك يؤكّد القرآن في غير موضع، على هذه الحقيقة، وهي أنّك لو سألت المشركين من خلق السماوات والأرض، فسوف يقولون «الله». وبالتالي تسائل هذه الآيات المشركين، وتقول لهم لماذا لا تؤمنون بمن بعثه الله الذي تؤمنون بأنّه الخالق، لهدايتكم وإرشادكم؟

التعاليم:

١ ـ طرح الأسئلة بهدف إيقاظ الفطرة وإحيائها، من الأساليب القرآنية في مجال الحديث عن التوحيد، ﴿أَمْ خُلِقُوا... أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

٢ ـ إذا لم يكن الإنسان موجوداً من قبل، فكيف خُلِق؟ وإذا كان موجوداً فكيف أعاد خلق نفسه من جديد؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾.

٣ ـ علينا طرح الأسئلة بطريقة تدعو إلى بعث الجواب من ضمير الإنسان ووجدانه، ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

٤ ـ لا قدرة للإنسان على خلق نفسه، ولا خلق غيره، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ... أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

٥ ـ العناد، يدعو الإنسان إلى عدم الإيمان ويعيقه عن الوصول إلى اليقين حتّى لو سدّت كل السبل في وجهه، وأبطِلت حججه كلّها، ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

إشارات:

- يؤمن المشركون بخالقيّة الله، ولكنّهم ينكرون عليه ربوبيّته التشريعيّة ولا يقبلون نبيّه المرسل لهداية الناس. وهذه الآيات توبّخ المشركين بصيغة طرح الأسئلة، وتقول لهم لماذا لا تؤمنون بالنبيّ؟ أفهل عندكم خزائن قدرة الله؟ أم عندكم سبيل إلى السماء تنالون عبره الوحي فتستغنون عن الهادي والمرشد؟
- كان يعتقد أهل الجاهليّة أنّ الملائكة إناثٌ وأنّهنّ بنات الله؛ ولذلك يؤنّبهم الله في هذه الآيات، على هذه القسمة بينهم وبين الله، واختيارهم الذكور لهم وجعل البنات حصّة الله سبحانه، وهذه قسمة غير عادلة. كما يقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ في مواجهة العدوّ المختلف فكرياً علينا أن نلاحقه حتّى الاستسلام بين يدي الحجج والبراهين، ومن هنا فإنّ القرآن يواجه بالأدلّة، ليوضح للمشركين أنّ سبب شركهم هو الطغيان والعناد، ﴿أَمْ عِندَهُمْ... أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ... أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾.

٢ ـ على الإنسان أن يسلّم بالدليل، ولا يتجاهل البرهان والحجّة حتّى لو كانت

---

(١) سورة النجم: الآية ٢٢.

حجّة للخصم، فلا بدّ من الاستماع والتأمّل في كلامه قبل الحكم عليه، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

٣ ـ أيّها النبيّ لا تخش اتّهاماتهم، فهم يتّهمون الله ذاته، ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

إشارات:

- «مغرم» الخسارة الماليّة من غير سبب أو مبرّر، و«المثقل» من يحمل الثقل.
- لا محلّ للشريك في دائرة القدرة الإلٰهيّة؛ وذلك:
  - ـ لأنّ له خزائن الأرض كلّها، ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(١)].
  - ـ لأنّه الخالق وحده دون غيره من الموجودات، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٢)].
  - ـ لأنّه عالم الغيب، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٣)].
  - ـ لأنّ الملك والسلطة له لا ينازعه في شيء منهما أحد، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٤)].
- لا ينبغي أن ننتظر الجواب عن بعض الأسئلة، وذلك لأن السؤال في بعض الأحيان يحمل رسالة. وفي هذه الآيات يطرح الله سبحانه مجموعةً من الأسئلة لا يشفعها بالجواب؛ وذلك لأنّ الغاية من السؤال هي أمرٌ آخر غير تحصيل الجواب، بل الغاية هي إيقاظ المعارضين لرسالة الله سبحانه.
- يجب أن يُعلَم أنّ الواجبات الماليّة كالخمس والزكاة وغيرهما، ليست أجراً للنبيّ ﷺ على أداء رسالته، بل هي من أجل إدارة المجتمع، وتحقيق العدالة الاجتماعيّة، وتلبية حاجات المحتاجين من الناس.

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٧.
(٢) سورة الرعد: الآية ١٦.
(٣) سورة هود: الآية ١٢٣.
(٤) سورة المائدة: الآية ١٧.

التعاليم:

١ ـ لا يطلب الأنبياء الأجر الماليّ من الناس، ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا﴾.

٢ ـ يظهر الناس حساسيّة تجاه الأموال التي تدفع لمن يعمل في الدعوة إلى الله، ولا بدّ من مراعاة هذه الحساسية، من قبل الدعاة والمبلّغين، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.

٣ ـ في الإرشاد والدعوة إلى الحقّ، يجب على الداعي أن يجتنب الحديث عن القضايا الماليّة لما فيها من إثارة للشبهات وتشويش الأذهان، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.

٤ ـ لا مانع من الاستفادة في العمل الدينيّ من الأموال التي يبذلها المؤمنون عن طيب نفس، والمحذور هو تصدّي الداعي للطلب والسؤال، ﴿تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا... مُّثْقَلُونَ﴾.

٥ ـ لا يستند معارضو الأنبياء وأعداؤهم، إلى حجّة منطقيّة، ولا إلى بيّنة من عالم الغيب، ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾.

٦ ـ السؤال والجواب، من الأساليب التي يستخدمها القرآن في الإقناع والدعوة إلى الحقّ، ﴿أَمْ... أَمْ... أَمْ... أَمْ...﴾.

٧ ـ كيد الأعداء ليس أمراً مرحليّا، بل هو ردّة فعل دائمة منهم تجاه أي دعوة إصلاحيّة، ﴿يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾.

٨ ـ عاقبة الحيلة والخداع ترتدّ على المخادع نفسه، ﴿يُرِيدُونَ كَيْدًا... هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾.

٩ ـ على من يستخدم طريقة الاستجواب في الدعوة، أن يقرّر الحقيقة واضحةً في نهاية المطاف، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

□ «الكسف» هو القطعة، والمقصود من هذه الكلمة في هذه الآية هو القطعة من

الحجر أو غيره تنزل كعذاب سماويّ. «مركوم» متراكم بعضه فوق بعض. و«يصعقون» الصعق هو الإغماء وشبهه الذي يصيب الإنسان إثر الصاعقة. وقد استعملت صيغة المجهول للدلالة على الاضطرار والعجز.

- لا يعدم المعاند المبرّر لعناده؛ فإنّ بعض الكافرين كانوا يطلبون أسوأ الأشياء من أنبيائهم وهو نزول العذاب، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]، وعندما يرون العذاب فوق رؤوسهم يقولون هذا سحاب متراكم، ﴿وَإِن يَرَوْا... يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الواجبات التي لها حدود وضوابط، فتارة يطلب الأمر والوعظ وأخرى الإعراض والتجاهل. ففي الآية ٢٩ يقول سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ﴾، ولكنّه سبحانه يقول في هذه الآية: ﴿فَذَرْهُمْ﴾؛ أي دعهم وأعرض عنهم.

التعاليم:

١ ـ العناد يدعو الإنسان إلى الخطأ في تقدير الموقف والتحليل، ﴿...كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ... يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾.

٢ ـ من ينكر البديهيّات ترك الحديث معه أولى، ومثله ينعدم الأمل في هدايته وعودته إلى الصراط المستقيم، ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ فَذَرْهُمْ﴾.

٣ ـ ليس جميع الناس مرشّحين صالحين للهداية والإرشاد، ﴿فَذَرْهُمْ﴾.

٤ ـ لا ينبغي للداعي إلى الله، أن يسارع إلى اليأس من استجابة الناس، فالقرآن لم يدع النبيّ إلى الإعراض عن القوم إلا بعد طرح أربعة عشر سؤالاً، ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ... أَمْ... أَمْ... فَذَرْهُمْ﴾.

٥ ـ لطف الله عميم إلى حدود لا مجال لحصرها، فهو سبحانه حتّى بعد اتضاح عناد القوم وظهور عدم إمكان استجابتهم للحقّ، ودعوته إلى الإعراض عنهم،

(١) سورة الشعراء: الآية ١٨٧.

ينهي الحديث عنهم بتحذيرهم من سوء العاقبة يوم القيامة، ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾.

٦ ـ الكفر والعناد من أسباب سوء العاقبة، ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾.

٧ ـ ليست العجلة من السنن الإلٰهيّة في التعامل مع المعاندين والكافرين، ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾.

٨ ـ عندما تحين ساعة الحقيقة الإلٰهيّة، لا مناص للكافرين سوى الاستسلام الكامل، ﴿يُصْعَقُونَ﴾.

٩ ـ عندما يحلّ الغضب الإلٰهيّ لا ينفع كيد أو خطط سريّة، ولا صداقات ومساعدة من الخارج، ﴿لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

إشارات:

□ يستفاد من هذه الآية ومما قبلها، أنّ رفض دعوة الأنبياء ظلم. وربّما يكون المراد، تقسيم الكافرين إلى فئتين إحداهما تتّصف بالكفر وحده، والثانية تتّصف بالكفر والظلم في آن معاً، وهذه الأخيرة يشدّد عليها العذاب.

□ ورد في تفسير القميّ بعض الروايات في تفسير قوله تعالى: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، بالعذاب قبل يوم القيامة وهو العذاب في الرجعة، وهو العذاب الذي يناله من ظلم آل محمّد.

التعاليم:

١ ـ يجمع الله على الظالمين عذاب الدنيا مضافاً إلى عذاب الآخرة، ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

٢ ـ لا يعلم الظالمون ماذا أعِدّ لهم من العذاب يوم القيامة، ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

❑ افتتحت هذه السورة بالقسم بمحلّ المناجاة وهو الطور، وختِمت بالدعوة إلى المناجاة والتسبيح في الليل، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾.

❑ على الرغم من أنّ أعمال العباد جميعاً في عين الله وتحت رقابته الدائمة، إلا أنّه سبحانه يولي عناية واهتماماً خاصّا بأوليائه وعباده الصالحين، إذ يقول سبحانه للنبيّ نوح عليه السلام: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ويقول للنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

❑ التسبيح أهمّ من الحمد؛ ولذلك تكرّرت الدعوة إلى التسبيح مرّتين، بخلاف الأمر بالحمد فقد ذكِر مرّةً واحدةً.

❑ «إدبار النجوم» هو وقت الفجر عندما تغيب النجوم قبيل طلوع الشمس. ويرى المفسّرون أن المراد من التسبيح في الآية هو صلاة الليل ووقتها في السحر. وورد في الحديث في تفسير عبارة «إدبار النجوم» أنّهما «ركعتان قبل الصبح»[1].

التعاليم:

١ ـ على الداعي إلى الله أن يتحلّى بالصبر والثبات في مواجهة المعاندين، فالدعوة إلى الله والحقّ ليست سياحة أو متعةً؛ بل هي عمل مضنٍ يحتاج إلى صبر وطول أناة، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

٢ ـ الإصرار على الموقف يجب أن يكون صبراً لحكم الله، وإلا يكون عناداً، ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

---

(١) الكافي، ج٣، ص ٤٤٤.

٣ ـ الأحكام الإلٰهيّة تصبّ في النهاية في خدمة تربية الإنسان ورعاية الله له، ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

٤ ـ لا يستغني النبيّ عن الحماية والرعاية الإلٰهيّة، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

٥ ـ الالتفات إلى العناية الإلٰهيّة يحرّض الإنسان على الصبر والثبات، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

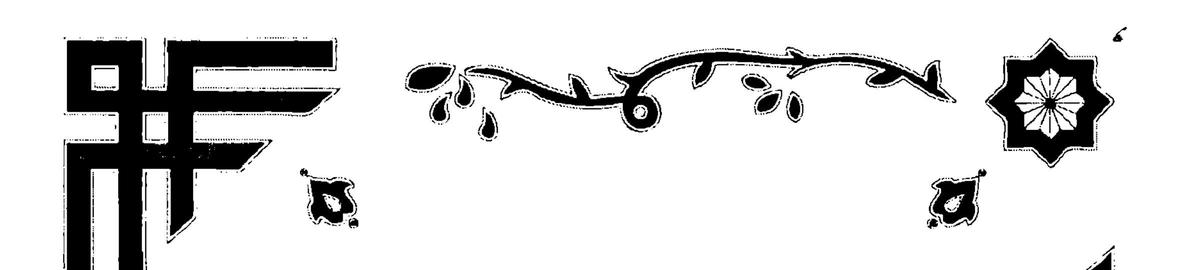
٦ ـ ذكر الله وتسبيحه من الأمور المعينة على الصبر والثبات، ﴿وَٱصْبِرْ... وَسَبِّحْ﴾.

٧ ـ تسبيح الله مقدّم على حمده، فعلينا أن ننزّه الله أولاً ثمّ نحمده ونثني عليه ثانياً.

٨ ـ تعين مناجاة الله في الليل الإنسانَ على أعمال النهار وأعبائه، ﴿وَٱصْبِرْ... وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾.

٩ ـ للدعاء والمناجاة أوقات خاصّة، يترتّب على المناجاة فيها آثار ربّما لا تترتّب في غيرها، ﴿حِينَ تَقُومُ وَمِنَ ٱلَّيْلِ... وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾.

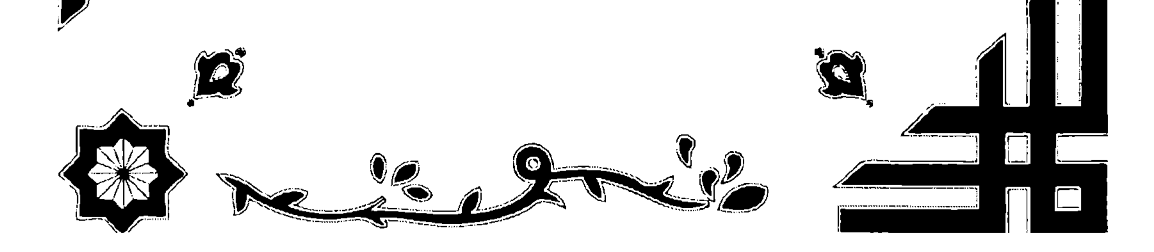
«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ النَّجْمِ

السورة: ٥٣ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٦٢



ملامح سورة النجم

سورة النجم مكيّة، عدد آياتها اثنان وستون آيةً. وهي من السور التي تسمّى بسور السجدة لوجوب السجود عند قراءة إحدى آياتها. وقد أخذت السورة اسمها من مطلعها الذي يقسم الله فيه بالنجم.

وتتحدث هذه السورة عن الوحي وكيفيّة نزوله على النبيّ ﷺ، وتشترك مع سورة الإسراء في الإشارة إلى معراج النبيّ ﷺ. كما وتتحدث السورة عن معتقدات المشركين والخرافات التي يؤمنون بها.

والجوّ المسيطر على السورة هو الحديث عن المعاد، وعاقبة الصالحين والطالحين، وما يجري لهم أو عليهم من ثواب، أو عقاب.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④﴾

إشارات:

- هوى من «الهوي» وهو الميل إلى السقوط. وتدلّ كلمة هوى في اللغة العربية، على الميل نحو رغبات النفس، وربّما كان ذلك لانتهائه بالمائل إلى هواه إلى السقوط. «ضلّ» أي انحرف عن الصراط المستقيم. و«غوى» من الغواية وهي الانحراف عن عقيدة الحقّ إلى الباطل.
- «الصاحب» كلمة لها معنيان، أحدهما الصديق والمعين، وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى مرّات عدّة في وصف النبيّ ﷺ[1]. وذلك لصدق هذه الصفات على النبيّ ﷺ في طريقة تعامله مع قومه، من حرصه عليهم وعونه إيّاهم في الهداية.
- آخر كلمة في سورة الطور هي «النجوم»، وأول كلمة في سورة النجم هي «النجم». وهذا من وجوه التناسب بين السور.
- يحتمل في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ القسم بالنجم وقت طلوع الشمس حيث يختفي ضوء النجوم مع بداية إشراقة الشمس، أو يراد به يوم القيامة عندما تتساقط النجوم وتهوي.
- يتبادل الله وأنبياؤه «التأييد والنصرة» في ميدان التوحيد، فالله سبحانه يوثّق أنبياءه ويدافع عنهم، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾؛ والأنبياء بدورهم ينزّهون الله سبحانه عن كلّ عيب ونقص.
- يصف الله القرآن بقوله ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[2]، ويصف نبيّه ﷺ بقوله

---

(١) سورة سبأ: الآية ٤٦؛ وسورة الأعراف: الآية ١٨٤؛ وسورة التكوير: الآية ٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، وذلك لكي لا يبقى للناس حجّة، وتزول أسباب الشكّ والتردّد كلّها.

□ يُرجع القرآن أمر التعرّف إلى حال النبيّ ﷺ وبعده عن الضلال والغواية إليهم، ولذلك يقول: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وكأنّه يقول هو صاحبكم الذي عاشركم وعاشرتموه وعرفتم أحواله وأوضاعه.

□ للقادة الإلٰهيّين سمات تميّزهم عن غيرهم من الناس، منها:

١ ـ لا عهد لهم بالضلال، ﴿مَا ضَلَّ﴾.

٢ ـ لم يمرّوا بتجربة فسق أو غواية، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾.

٣ ـ قريبون من أهلهم وأقوامهم، ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

□ ينقل الشيخ الصدوق في أماليه أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام شكا إليه قائلاً: «إنّ الناس ينسبوننا إلى عظائم الأمور، وقد ضاقت بذلك صدورنا» فقال عليه السلام: «يا علقمة، إنّ رضا الناس لا يملك، وألسنتهم لا تضبط، فكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله، ألم ينسبوه [أي النبيّ ﷺ] إلى أنّه ينطق عن الهوى في ابن عمّه عليّ عليه السلام؟ حتّى كذّبهم الله عزّ وجلّ، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[1]».

□ ورد في تفسير الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن حبّة العرني وأبي الحمراء، قالا: أمر رسول الله ﷺ أن تسدّ الأبواب التي في المسجد فشقّ عليهم، قال حبّة: إني لأنظر إلى حمزة بن عبد المطلب وهو يقول: أخرجت عمّك وأبا بكر وعمر والعبّاس، وأسكنت ابن عمّك؟ فقال رجل يومئذ: ما يألو يرفع ابن عمّه! قال: فعلم رسول الله ﷺ أنّه قد شقّ عليهم، فدعا الصلاة جامعةً، فلمّا اجتمعوا صعد المنبر، فلم يُسمع لرسول الله خطبة قطّ كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً، فلما فرغ قال: «يا أيّها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا

---

(١) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص ١٦٥.

أخرجتكم وأسكنته ثم قرأ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ... إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[١]. ويبدو أنّ اعتراض تقديمه ابن عمّه تكرّر في موارد أخر منها يوم الغدير، فأجاب ﷺ بقراءة قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

- يتّهم المشركون القرآن بأنّه أساطير، ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٢]، ويجيب القرآن بكلمة حاسمةٍ عن هذه الفرية بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.
- ليس القرآن شعراً ولا يريد الله له أن يكون، فإنّه وعلى الرغم من ذلك يتوفّر على إيقاع موسيقي رائع يلفت سمع كلّ من أصغى إليه ولا سيّما أولئك الذين اهتمّوا بهذا البعد من أبعاد القرآن الكريم. ويتجلّى هذا البعد في آيات عدة منها ما في هذه السورة، ﴿هَوَىٰ، غَوَىٰ، الْهَوَىٰ، يُوحَىٰ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا مانع من حيث المبدأ من القسم بمظاهر الطبيعة؛ وذلك لأنّها من الآيات الدالّة على وجود الله سبحانه، ﴿وَالنَّجْمِ... وَالشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ﴾.

٢ ـ تسير النجوم والكواكب نحو الاندثار، وهي سوف تتلاشى ويخبو ضوؤها في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

٣ ـ التّهم التي تواجه الداعي إلى الله كثيرة، ولكنّ الله هو الذي يتولّى الدفاع وردّ التهم عن الداعين إليه، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

٤ ـ يقضي الأنبياء عمراً طويلاً بين المنحرفين؛ ولكن لا يصيبهم من ضلال قومهم وانحرافهم شيء، وهذا من أمارات عظمة الأنبياء وعلوّ مقامهم، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.

٥ ـ الأجرام السماويّة تؤول إلى التلاشي، وأمّا رسالة الأنبياء فهي محفوظة مصونة من الانحراف والضلال، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.

---

(١) السيوطي، الدر المنثور، ج٦، ص ١٢٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٥.

٦ ـ ما ينطق به النبيّ ﷺ حجّة ويجب اتّباعه وتنفيذه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾.

٧ ـ النبيّ بعيدٌ عن الضلال في ماضيه، ﴿مَا ضَلَّ﴾، مصون من الانحراف والتقوّل على الله في مستقبله، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾.

٨ ـ كلّما ارتفع مقام الإنسان، كلّما كانت الحاجة إلى عناصر الأمان من الضلال والانحراف أشدّ، ﴿مَا ضَلَّ... وَمَا غَوَىٰ... وَمَا يَنطِقُ﴾.

٩ ـ في الإدارة يجب الدفاع عن العاملين الذين يستحقّون الدفاع لردّ التهم الموجّهة إليهم، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ...﴾.

١٠ ـ النبيّ ﷺ على حقّ وقوله مطابقٌ للوحي الإلٰهيّ، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ... إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

١١ ـ لا يستند القرآن وما ينقله النبي ﷺ عن الله إلى الأهواء والميول والرغبات، بل إلى الوحي وحده، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

١٢ ـ كل ما يرتبط بالوحي من حيث المكان والزمان والمقدار، وما سوى ذلك، مرتبط بإرادة الله واختياره، ﴿يُوحَىٰ﴾.

١٣ ـ بين الرغبات والأهواء والوحي، تنافر وتباعدٌ، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

إشارات:

❑ «مرّة»، أمررت الحبل إذا فتلته، والمرير المفتول، ومنه فلان ذو مرّة كأنّه محكم الفتل. و«ذو مرّة» أي ذو قوّة وشدّة. وعن رسول الله ﷺ: «**ولا تحلّ الصدقة لغنيّ، ولا ذي مرّة سويّ**»[1].

(١) أورده الألوسي، في تفسير روح المعاني، عند تفسير هذه الآية.

- «دنا» أي اقترب، وقاب قوسين، أي ضعفي طول القوس، وهو كناية عن القرب.
- «شديد القوى» في المراد منه احتمالان هما جبرائيل أو الله سبحانه وتعالى، وقد اختلف المفسّرون بين هذين الاحتمالين؛ ولكن النظر في سائر الموارد التي استخدم فيها هذا الوصف، يكشف عن استخدام هذا التعبير لوصف الله سبحانه. فمثلاً في دعاء الندبة نقرأ: «**وأره سيّده يا شديد القوى**»[١]. وفي الدعاء عن الإمام الحسين عليه السلام: «يا شديد القوى، يا شديد المحال».

أضف إلى ذلك وجود آيات تشير إلى الله سبحانه بوصفه معلّماً للقرآن، كما في قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[٢]، وقوله ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[٣]. نعم ورد في وصف جبرائيل قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾[٤]، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى الفرق الكبير بين تعبيرَيْ: «ذي قوّة» و«شديد القوى».

- في هذه السورة إشارة إلى المعراج، وقد أشرنا إلى قضيّة المعاد في الجزء السابع من تفسيرنا هذا فلا نعيد.
- وورد في تفسير روح المعاني أن كانت العرب في الجاهلية تفعله إذا تحالفوا فإنهم كانوا يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما بالأخرى فيكون القاب ملاصقا للآخر، حتّى كأنّهما ذا قاب واحد، ثمّ ينزعونهما معاً ويرمون بهما سهماً واحداً فيكون ذلك إشارة إلى أنّ رضا أحدهم رضا الآخر وسخطه سخطه.
- الملك لا يصل إلى الأفق الأعلى الذي وصل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، بل هو الأفق المبين، وكان يرى النبيّ صلى الله عليه وآله وينظر إليه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[٥].
- ليس الله جسماً حتى يكون في مكانٍ محدّد، بل المراد من هذه العبارة الدلالة على علوّ المقام ورفعة المنزلة.
- ينزل الوحي إلى الأرض بواسطة الملاك وملاك الوحي هو جبرائيل الذي يعبّر

---

(١) ابن المشهدي، المزار الكبير، ص٥٨٣.
(٢) سورة الرحمن: الآية ١.
(٣) سورة النساء: الآية ١١٣.
(٤) سورة التكوير: الآية ٢٠.
(٥) سورة التكوير: الآية ٢٣.

عنه القرآن بالروح الأمين، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[١]، وأما في قصّة المعراج فلا واسطة بين الله ورسوله، بل تلقٍّ للوحي من الله مباشرةً: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

- سئل الإمام السجّاد عليه السلام عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكانٍ، فقال: «تعالى عن ذلك». فقيل له: فَلِمَ أسرى بنبيّه محمد صلى الله عليه وآله إلى السماء؟ قال: «**ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه، وبدائع خلقه**»[٢].
- تلقّى النبيّ صلى الله عليه وآله دروسه في أرقى الصفوف والقاعات الدراسيّة، ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وكان أستاذه الله سبحانه وتعالى، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، والمحتوى التعليميّ الذي تلقّاه هو وحي من الله مباشرة، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.
- سئل الإمام أبو الحسن عليه السلام، هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه عزّ وجلّ؟ فقال: «نعم بقلبه رآه، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ أي لم يره بالبصرة، لكن رآه بالفؤاد»[٣].
- وعن الإمام الرضا عليه السلام: «**لقد رأى من آيات ربّه الكبرى**». فآيات الله غير الله.

التعاليم:

١ ـ الدين أمرٌ مهمّ بحيث يجب أن يكون المعلّم هو الله سبحانه الذي يصف نفسه بأنه ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، والتلميذ هو نبيّ منزّه عن الضلال والانحراف، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.

٢ ـ تلقّي العلوم والمعارف الإلٰهيّة يحتاج إلى قدرات خاصّة، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ... عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

٣ ـ يمكن أن نتعرّف إلى التلميذ من خلال التعرّف إلى أستاذه، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ... عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٩٣.

(٢) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص ١٣١.

(٣) الشيخ الصدوق، التوحيد، ص ١١٦.

٤ ـ الوحي هو التعاليم الإلٰهيّة التي ينقلها الأنبياء إلى أممهم، ﴿يُوحَىٰ... عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

٥ ـ لا ينبغي السكوت في مقابل التحليلات الخاطئة والتهم الكاذبة. فالله سبحانه في مقابل دعوى الكافرين تعلّم النبيّ ﷺ من البشر: ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[(١)]، يقول: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

٦ ـ علم النبيّ ﷺ مستمدٌّ من الله، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

٧ ـ العلم الإلٰهيّ ليس منفصلاً عن القدرة والقوّة الإلٰهيّة، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

٨ ـ الله وحده هو ذو القدرة المطلقة التي لا حدّ لها، وأما سائر الأقوياء والقادرين فقدرتهم ممزوجة بالضعف، ﴿...شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

٩ ـ على المعلّم أن يكون قوياً، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

١٠ ـ بالتعليم الإلٰهيّ يمكن أن يتحولّ شخص أمّي إلى معلّم للبشريّة كلّها، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

١١ ـ كل البشر هم تلاميذ بين يدي الله سبحانه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[(٢)]، إلا أنّ لرسول الله مكانةً خاصّةً يفوق بها سائر الناس، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

١٢ ـ البرامج الإلٰهيّة الموجّهة إلى الناس، هي غاية في القوّة والإحكام، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ... ذُو مِرَّةٍ﴾.

١٣ ـ التقرّب إلى الله يتمّ بالتدريج وعلى مراحل، ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾.

١٤ ـ يجب أن تكون العلاقة بين المعلّم والتلميذ علاقة حميمة وقويّة، ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾.

١٥ ـ على الداعي إلى الله أن يخاطب الناس بلغتهم ويستخدم مصطلحاتهم في التعبير عن الأفكار التي يريد إيصالها إليهم، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾. فالقوس ومثل هذه الأمور كانت من وحدات قياس المسافة وتقديرها عند العرب.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) سورة العلق: الآية ٥.

١٦ ـ قرب الناس من الله لا حدّ له، ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾، وقد يصل الإنسان إلى حيث لا تصل الملائكة.

١٧ ـ رجال الله أينما كانوا فهم عباد الله، في الأرض كانوا أم في السماء، ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[١]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

١٨ ـ العبوديّة من الأمور الممهّدة لتلقّي الوحي والفيض الإلٰهيّ، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

١٩ ـ النبيّ ﷺ معصوم في تلقّيه للوحي، كما في نقله وتبليغه إلى الناس، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ... مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

٢٠ ـ الشهود الباطنيّ لا يكون حجّة إلا بعد أن يحظى بالتأييد الإلٰهيّ، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

- «تمارونه» من المرية وهي التردّد في الأمر وهو أخص من الشك، والامتراء والمماراة المحاجّة في ما فيه مريةٌ. و«نزلة» المرة من النزول. و«سدرة المنتهى» اسم مكان في الجنّة، بحسب الروايات الإسلاميّة، لم يصل إليه أحد من خلق الله غير رسوله محمّد ﷺ.

- وفي الحديث أنّ سدرة المنتهى هي شجرة عن يمين العرش، فوق السماء السابعة، انتهى إليها علم كلّ ملك. كما ورد في الحديث عن النبيّ ﷺ: **«رأيت على كلّ ورقة من أوراقها ملكاً قائماً، يسبح الله تعالى»**[٢].

- المعراج من الأمور التي تثير الجدل؛ ولذلك يشير الله سبحانه إلى تنزّهه عن

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج٩، ص ٢٩٢.

اللغو والعبث ويلمّح إلى الأهداف العالية التي تراد من المعراج والإسراء، فيقول في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾، وفي هذه السورة يقول سبحانه: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ...﴾.

- الخلق كلّهم في نظر الله وتحت عين رعايته، ولكنّه سبحانه يتولّى بعض الناس بعناية خاصّة من أجل أهداف خاصّة، كما يستفاد من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾. والأمر عينه يقال عن معيّة الله وتأييده للناس جميعاً كما في قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾[١]، ولكنّه في الوقت عينه يخصّ المتّقين بمعيّة خاصّة فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[٢]. وقد ورد هذا المعنى في تفسير «أطيب البيان». وفي غيره من التفاسير نقرأ تفسيراً مختلفاً للآية مثل تفسيرها بأنّه ﷺ رأى جبرائيل بصورته الأصليّة عند سدرة المنتهى، أو أنّه شاهد الله بقلبه في تلك المحطّة من رحلة المعراج.

وما يدعونا إلى ترجيح تفسير «أطيب البيان» أنّ قضيّة المعراج وسياق الآيات هو سياق تمجيد النبيّ وتجليله، وليس في مشاهدة النبيّ ﷺ لجبرائيل أي امتياز في تلك الرحلة، إذ إنّنا نعتقد أنّه ﷺ أرفع مقاماً ومنزلةً من جبرائيل عليه السلام. وأمّا مشاهدة الله بعين قلبه فهي أمر دائم للنبيّ لا يقتصر على تلك المرحلة من محطّات حياته. وهذه الملاحظات لا تتوجّه إلى التفسير الذي اخترناه، فإنّ الرعاية الإلهيّة كلّما تكرّرت وزادت خصوصيّة كلّما كشفت عن رفعة مقام النبيّ وعلوّ شأنه.

- ورد في بعض الروايات، عن رحلة رسول الله وعروجه إلى السماء، أنّه لمّا بلغ ﷺ سدرة المنتهى فانتهى إلى الحجب، فقال جبرائيل: «**تقدّم يا رسول الله ليس لي أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقت**»[٣].

---

(١) سورة الحديد: الآية ٤.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٨.

(٣) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص ١٥٥.

التعاليم:

١ ـ بعض المشاهدات والمكاشفات تحتاج إلى بلوغ درجة الإيمان، فلا يقوى غير أهل الإيمان على مشاهدة ما يشاهده أولياء الله تعالى، بل إنّ قصور نظر هؤلاء، وتورّطهم في أودية الشكّ، يثير فيهم الجدال والنزاع تجاه ما يسمعون من الأنبياء، ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾.

٢ ـ الجدال والنقاش ربّما يكون مقبولاً في الأمور النظريّة والفكريّة، وأما المحسوسات والمشاهدات فلا مجال للنقاش فيها، ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

٣ ـ لا يشترط في التبليغ أو في وجوبه إحراز تصديق جميع الناس، بل يجب التبليغ والدعوة إلى الله على الرغم من أنّ بعض الناس لا يقبلون ما يدعون إليه، ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾.

٤ ـ السؤال وطلب الدليل من الأمور المندوب إليها، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾[1]؛ ولكنّ السؤال شيء والجدال والمماراة شيء آخر، ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾.

٥ ـ ليست الجنّة أرقى وأعلى ما خلق الله، بل يوجد ما هو فوقها، وهو سدرة المنتهى، التي عندها جنّة خاصّة أرقى وأعلى من الجنّة المعروفة، ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- يقول الله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، وذلك في تعليل قضيّة الإسراء، وفي هذه السورة يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.
- النبيّ ﷺ معصومٌ من جهاتٍ عدّة:

أ ـ العصمة في الفكر من الضلال، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٣.

ب ـ العصمة من زلل السان، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾.

ج ـ الاعتصام بالعلم والمعرفة، ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

د ـ عصمة القلب، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

هـ ـ عصمة العين، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

التعاليم:

١ ـ حقّ العين أن لا تنحرف ولا تطغى، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.

٢ ـ العين المؤهّلة لمشاهدة آيات الله الكبرى، هي العين القادرة على رؤية الحقّ ومعرفته، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

٣ ـ آيات الله سبحانه، لا يتاح لأحد معرفتها ومشاهدتها بكلّ أبعادها حتّى رسول الله ﷺ، ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- أين الله القادر على رفع أحد مخلوقاته البشريّة إلى أعلى المراتب التي تسمح لهم بمشاهدة آياته الكبرى، من الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع؟
- ذكر الله في القرآن أسماء تسعة من أصنام العرب في الجاهليّة، وهذه الأصنام هي: «اللات»، و«عزّى»، و«مناة»، في هذه السورة، و«بعل» في سورة الصافات، و«ودّ» و«سواع»، و«يعوق»، و«يغوث»، و«نسر» في سورة نوح.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ أن يكون النظر والتأمّل هادفاً، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ...﴾.

٢ ـ على المبلّغ أن يكون عالماً بأسباب الانحراف وأدواته، ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ...﴾.

٣ ـ تدعو الحاجة في بعض الأحيان للكشف عن عناصر الانحراف وأدواته، بهدف الاعتبار وإرشاد المدعوّين إلى الحقّ، ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ...﴾.

٤ ـ أفضل طرق الإصلاح استئصال الفساد من جذوره ومنابعه (كما في قوله تعالى ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾[1]، وعلى ضوء ذلك فإنّ الوسيلة الأقرب إلى محاربة عبادة الأصنام، مواجهة الأصنام نفسها، ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ...﴾.

٥ ـ لا ترض لغيرك ما لا ترضاه لنفسك، ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ (كان أهل الجاهليّة يرجّحون الذكر على الأنثى، ومع ذلك كانوا يعتقدون أنّ الملائكة هم من الإناث وأنّهم بنات الله).

٦ ـ يمكن للداعية والمرشد أن يطرح الأسئلة للفت نظر المخاطبين، وإيصال الرسالة التي يريد إيصالها، ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾.

٧ ـ التمييز بين الذكر والأنثى على أساس الجنس من مصاديق الظلم والبعد عن العدالة، ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾.

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾

إشارات:

- تستخدم كلمة «سلطان» في القرآن للدلالة على البرهان والدليل.
- كان أهل الجاهليّة وعبّاد الأصنام ينسبون مظاهر الطبيعة إلى الأصنام، فأحد الأصنام هو إله السلطة، وآخر إله العلم، وثالث إله المحبّة، ورابع إله الغضب، إلى غير ذلك. ويعلن القرآن موقفه من هذه الآلهة كلّها فيقول للمشركين: ما هذه الآلهة وما ينسب إليها إلا أسماء ليس لكم على أي منها دليل أو برهان.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي للإنسان أن يسير خلف الشعارات والأسماء، مهما كانت برّاقة وخادعة، ﴿أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

٢ ـ يؤدي الآباء دوراً بالغاً ومؤثراً في تشكيل ثقافة الأبناء، ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

٣ ـ التقليد الأعمى والاتّباع المطلق، غير مقبول ولا مسموح به، حتّى لو كان تقليداً للآباء واتّباعاً لهم، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾.

٤ ـ ينشأ الشرك من الأوهام والخيالات الباطلة، ولا يستند إلى دليل ولا برهان، ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ... مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

٥ ـ يجب أن تُبنى المعتقدات والأفكار على البرهان وليس على الحدس والظنّ أو التقليد الأعمى، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

٦ ـ الهداية من الله، ﴿جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، والضلال يستند إلى اتّباع أهواء النفس، ﴿تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

٧ ـ اتّباع الهوى مدان ومذموم، ﴿يَتَّبِعُونَ... وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

٨ ـ لقد أتمّ الله حجّته على الناس، ولا عذر لأحد بعد إرسال الأنبياء وتبليغ الوحي عن الله تعالى، ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

٩ ـ الإرشاد والهداية من شؤون الربوبيّة ومقتضياتها، ﴿مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

١٠ ـ على من ينكر على الناس اتّباعهم الباطل وخطأهم في الطريق، عليه أن يقدّم لهم الطريق الصحيح، ﴿جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

١١ ـ طريق العلم والوحي، هو طريق الحقّ، ﴿سُلْطَٰنٍ... مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾. وأمّا الأذواق الشخصيّة، ﴿أَنتُمْ﴾ والاعتماد على السلف لأنهم آباء وسلف، ﴿وَءَابَآؤُكُمْ﴾، واتّباع الظنّ، ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، والسير خلف الأهواء، ﴿تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، فهذه الطرق كلّها باطلة لا توصل إلى الحقّ.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥) ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦)﴾

إشارات:

- «تمنّى» من التمنّي وهو تقدير شيء في النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظنّ، ويكون عن رؤية وبناء على أصل؛ لكن لمّا كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك، فأكثر التمنّي تصوّر ما لا حقيقة له[١]. ويميّز بعض أهل اللغة بين التمنّي والرجاء بأنّ التمنّي هو طلب المحال، وأمّا الرجاء فهو طلب الممكن، و«الطمع» هو طلب الممكن القريب الوقوع، في مقابل الأمل الذي هو طلب الممكن البعيد المنال[٢].
- يصلح الإسلام السلوك، من خلال إصلاح الفكر؛ لأنّه هو الأصل والأساس. ولذلك من يأمل بالحصول على العزّة عليه الذهاب إلى مصدر العزّة كلّها، ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]. ومن يرغب في الحصول على القوّة عليه أن يعوّل على مصدر القوّة كلّها، ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٤]. وفي هذه الآية يؤكّد سبحانه أنّ الدنيا والآخرة له ﷻ، فلماذا يذهب من يرغب في شيء منهما إلى غيره.
- الكون كلّه يسير وفق إرادة الله ومشيئته، وليس وفق رغباتنا وميولنا. وعن عليّ عليه السلام: «**عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم**»[٥] أي أنّ الأمور لا تسير بالضرورة وفق ما نهوى وما نعزم عليه.
- عن الإمام الصادق عليه السلام: «**واعلموا أنّه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً؛ لا ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه**»[٦].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: «مني».
(٢) فروق اللغات.
(٣) سورة النساء: الآية ١٣٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٦٥.
(٥) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة رقم: ٢٥٠.
(٦) بحار الأنوار، ج٨، ص ٥٣.

سؤال: هل الشفاعة نوع من الواسطة وخرق للقانون؟

الجواب: أبداً؛ وذلك لما يأتي:

أ ـ لا ينال الشفاعة إلا من مهّد لها بالعمل الذي يستحقّ عليه الشفاعة. والفرق بين الشفاعة عند الله والشفاعة في الدنيا هو أنّ نيل الشفاعة في الدنيا ليس مبنياً على الاستحقاق، بخلاف الشفاعة في الآخرة.

ب ـ الشفاعة في الآخرة لا تضيّع حقّ أحدٍ من الناس، بخلاف الشفاعة في الدنيا.

ج ـ الشفيع في الآخرة لا يتوقّع من المشفوع له شيئاً، بخلاف الشفاعة في الدنيا.

د ـ هدف الشفاعة في الآخرة صلاح حال المشفوع له وفلاحه، وأما شفاعة الدنيا فلها أهداف أخرى.

هـ ـ الشفاعة في الآخرة من وسائل التربية والرشد؛ وذلك لأنّ الاعتقاد بشفاعة بعض الشفعاء يؤدّي إلى علاقة معنويّة تربط بين الشفعاء والمشفوع لهم.

❑ يمكن تفسير قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ بوجهين:

أ ـ أنّ الله يعطي مقام الشفاعة لمن يشاء سبحانه من الشفعاء.

ب ـ أنّ الله سبحانه يسمح بالشفاعة لمن يريد من المشفوع لهم.

❑ **سؤال:** ألا تؤدّي الشفاعة إلى التشجيع على المعصية؟

الجواب: أبداً؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يعلم أنّه سوف يكون ممن ينال الشفاعة، وثانياً نسأل في المقابل هل اكتشاف دواء لعلاج السمّ مثلاً يؤدّي إلى تشجيع الناس على تناول السمّ؟

نظرة إلى التمنّي والأمل في الآيات والروايات:

قيمة الأمل:

الأمل من الأسباب التي تثير في الإنسان الرغبة في السير إلى الإمام، فقد

ورد عن رسول الله ﷺ: **«لولا الأمل ما أرضعت والدة ولدَها، ولا غرس غارس شجراً»**(١).

بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة ويثير الأرض، فقال عيسى عليه السلام: **اللهم انزع منه الأمل**، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعةً، فقال عيسى عليه السلام: **اللهم اردد إليه الأمل**، فقام فجعل يعمل، فسأله عيسى عن ذلك، فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير؟ فألقيت المسحاة واضطجعت، ثم قالت لي نفسي: والله لا بدّ من عيش ما بقيت، فقمت إلى مسحاتي(٢).

تقصير الأمل:

ينبغي أن تكون الآمال مطابقة للإمكانيّات، والقدرات، والظروف، وإلا تحوّل الأمل إلى خيال ووهم. فعن علي عليه السلام: **«إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى، وطول الأمل»**(٣).

الأمنيات السلبيّة:

بعض الأماني مذمومة في القرآن الكريم، مثل تمنّي ثروة مساوية لثروة قارون: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾(٤).

أو تمنّي الإنسان ورغبته في أن يحمد بما لم يفعل: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾(٥).

أو تمنّي العلوّ في الأرض والتعالي على الآخرين: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾(٦).

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ١٣٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٣٢٩.

(٣) نهج البلاغة، باب الخطب، الخطبة رقم: ٢٨.

(٤) سورة القصص: الآية ٧٩.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

(٦) سورة القصص: الآية ٨٣.

ومن هنا فإنّ الله سبحانه ينهى عن الطمع في بعض الأمور التي لا ينبغي أن يطمع فيها الإنسان، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾[1]، وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[2].

الأماني التي لا تتحقّق:

يتمنّى بعض الناس يوم القيامة لو أنّهم كانوا تراباً، ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[3] (فالتراب ينتج الورد والزرع، ويمتص الرواسب المضرّة من الماء ويصفيه، بينما بعض الناس لا يصدر عنهم إلا الفساد). وبعض الناس يتمنّى لو أنّه اتبع سبيل الرسول، ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[4]، وآخرون يتمنّون لو أنّهم لا يؤتون كتب أعمالهم، ﴿لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾[5]، وبعض الناس يتمنّى لو أنّه قدّم بعض الأعمال الصالحة لحياته في الآخرة، ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[6] وبعض الناس يتمنّون لو أنّهم يعودون إلى الدنيا فلا يكذّبون الأنبياء، ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾[7]. هذا، ولكنّ كلّ هذه الأماني انقضى وقتها وأمدها ولم يعد لها من محلّ.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن نترك العمل ونراهن على شفاعة الشافعين، فمثل هذه الأماني لا تتحقّق، ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾.

٢ ـ ترك سبيل الهداية الإلٰهيّة، ﴿مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، والاعتماد على التمنّيات والآمال العراض من الأمور المذمومة في القرآن الكريم، ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥٥ و٨٥.
(٢) سورة الحجر: الآية ٨٨ وسورة طه: الآية ١٣١.
(٣) سورة النبأ: الآية ٤٠.
(٤) سورة الفرقان: الآية ٢٧.
(٥) سورة الحاقة: الآية ٢٥.
(٦) سورة الفجر: الآية ٢٤.
(٧) سورة الأنعام: الآية ٢٧.

٣ ـ الولاية المطلقة والحاكميّة الكاملة في الدنيا والآخرة من شؤون الله وحده، فلا ينبغي أن نقصد غيره، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

٤ ـ كلّ ما سوى الله تعالى، لا ثبات له ولا استقرار، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

٥ ـ الأساس في كل ما يحدث في الكون هو الإرادة الإلٰهيّة، سواء وافق رغباتنا وتمنّياتنا أم خالفها، ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾.

٦ ـ يتجلّى الملك الإلٰهيّ يوم القيامة بدرجة أعلى، ﴿ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ (يستفاد هذا المعنى من تقديم الآخرة على الأولى).

٧ ـ لا يملك أحدٌ الشفاعة إلا بإذن إلهيّ، حتّى الملائكة، فكيف بالأصنام والأوثان، ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ... وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾.

٨ ـ لـمّا كانت الدنيا والآخرة مملوكة له سبحانه، فمن البديهيّ أن تكون الشفاعة فيهما منوطةً بإذنه ﷻ، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ... إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾.

٩ ـ ليست الشفاعة ثابتة لمن يرغب، ولا تحقق كل الرغبات، بل هي تابعةٌ للمشيئة الإلٰهيّة وتجري وفق نظام خاضع لحكمته سبحانه ومشيئته، ﴿...لِمَن يَشَآءُ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ كلّ ما ينطبق عليه مفهوم العلم هو حقٌّ، وكل ما هو حقّ مطابق للعلم الواقعيّ، ولذلك يجوز استعمال أحد المفهومين محلّ الآخر. ومن هنا فإنّ القرآن الكريم بدل أن يقول: إنّ الإنسان لا يستغني عن العلم؛ يقول: إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

□ تبتني تسمية الملائكة بأسماء الإناث على أساس باطل، هو الاعتقاد بأنّهم بنات الله. ومن هنا فإنّ الرسامين الذين يصوّرون الملائكة بصورة الإناث، يعتمدون على هذه الفكرة الجاهليّة.

التعاليم:

١ ـ من يشعر بالمسؤوليّة تجاه محكمة الآخرة، لا ينطق بكل ما يخطر بباله، ولا يتبنّى أي عقيدة إذا لم تكن مبنيّة على البرهان والدليل، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

٢ ـ لا ينبغي أن نستخفّ بالتسمية وإطلاق الأسماء على أصحابها، فالتسمية غير الصحيحة ترتّب على الإنسان مسؤوليّات ومطالبات، ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾.

٣ ـ على المرء أن يتكلّم في ما يعلم، ويسكت عمّا لا يعلم، ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ... مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾.

٤ ـ الظنّ والحدس مسرحهما المجالات التي لا يتوفّر فيها العلم، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾.

٥ ـ لا يكفي الظنّ في القضايا ذات الطابع الاعتقادي، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

- ورد الأمر بالإعراض في القرآن عن مجموعات من الناس، هم: الكفّار[١]، المشركون[٢]، المنافقون[٣]، الجاهلون[٤]، الفارّون من الزحف والجهاد[٥]، والذين يسخرون من آيات الله[٦].

(١) سورة السجدة: الآية ٣٠.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٦.
(٣) سورة المنافقون: الآية ٤.
(٤) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.
(٥) سورة التوبة: الآية ٩٥.
(٦) سورة الأنعام: الآية ٦٨.

صورة الدنيا في القرآن:

يحدثنا الله سبحانه في القرآن كثيراً عن الدنيا، ويرسم صورتها في عدد من الآيات، على النحو الآتي:

١ ـ الدنيا وما فيها قليلة لا قيمة لها، ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[١].

٢ ـ كل ما فيها معرّض للنفاد ولذلك لا ينبغي أن تكون مستقرًّا، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾[٢].

٣ ـ الدنيا لهوٌ ولعبٌ، والتعلّق بها كذلك، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[٣].

٤ ـ الدنيا وسيلة من وسائل الخداع، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٤].

٥ ـ يصعب الجمع بين التعلّق بالدنيا والآخرة معاً، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾[٥].

٦ ـ الدنيا جذّابة تشدّ الإنسان إليها وتدعوه إلى طلبها، ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾[٦].

٧ ـ يذكر الله تعالى مجموعة من خصائص الدنيا في الآية ٢٠ من سورة الحديد، تتطابق كل خصوصيّة منها مع مرحلةٍ من مراحل عُمْر الإنسان، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ...﴾.

أ ـ لعبٌ (مرحلة الطفولة).

ب ـ ولهوٌ وتسلية (مرحلة المراهقة).

ج ـ زينة وتجمّل (مرحلة الشباب).

د ـ تفاخر (مرحلة الرجولة).

هـ ـ تكاثر وكنز للثروات (مرحلة الكهولة والكبر).

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٧.
(٢) سورة النحل: الآية ٩٦.
(٣) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.
(٤) سورة الحديد: الآية ٢٠.
(٥) سورة التوبة: الآية ٣٨.
(٦) سورة القصص: الآية ٧٩.

نعم، الدنيا ينبغي أن تكون وسيلة لا هدفاً وغايةً؛ ولذلك ينبغي أن نطلب من الله أن تبقى الدنيا في أنفسنا كما ينبغي أن تكون، ففي دعاء شهر شعبان، نقرأ «**ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا...**»[١].

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن نتساهل مع أو نغضّ الطرف عن الذين يعرضون عن الله، ويجعلون الدنيا هي المحور والأساس، ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾.

٢ ـ ينبغي الإعراض وعدم التعامل مع الذين يولّون ظهورهم للدين ويقبِلون على الدنيا بكل كيانهم، ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾.

٣ ـ البراءة من أعداء الدين، من الأصول الثابتة، ﴿فَأَعْرِضْ﴾.

٤ ـ لا ينبغي على الداعية إلى الله أن يضيع أوقاته وجهوده في الموارد الميؤوس منها، ﴿فَأَعْرِضْ...﴾.

٥ ـ المقابلة بالمثل مطلوبةٌ في بعض الحالات، فيجوز في الإسلام مقاطعة المعرضين عن الدين وذكر الله، ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾.

٦ ـ التعلّق بالدنيا والإعراض عن ذكر الله متلازمان، ﴿تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٧ ـ المذموم هو حصر الرغبة في الدنيا وجعل الإنسان إيّاها أكبر همّه، وأمّا العمل للدنيا وتحصيل نصيبٍ منها فلا مشكلة فيه، ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾.

٨ ـ التعلّق بالدنيا من العلامات الدالّة على سطحيّة التفكير والسذاجة، ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا... ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

٩ ـ الذين لا يفكّرون إلا بالدنيا، هم ضالّون منحرفون، ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا... ضَلَّ...﴾.

١٠ ـ الإيمان بسعة العلم الإلٰهيّ وشموله لأعمال الإنسان، من الأمور التي تعزّي المؤمنين، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

١١ ـ الإعراض عن الله، والاهتمام الزائد بالدنيا، من أبرز علامات الانحراف

---

(١) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج٣، ص٩٢.

والضلال، ﴿تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا... أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾.

١٢ ـ يعلم الله أفعال الناس فرداً فرداً، كما يعلم نواياهم، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ... وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١)﴾

إشارات:

□ حدّثتنا الآية السابقة عن بعض الناس الذين يتولّون عن ذكر الله ويقبلون على الدنيا بكل كيانهم. وهذه الآية تشير إلى أنّ العاقل الذي يريد الدنيا لا ينبغي له أن يعرض عن الله، فالدنيا وكل ما فيها هي له سبحانه.

□ السماوات أعظم من الأرض؛ ولذلك يقدَّم ذكر السماوات على الأرض في القرآن دائماً.

التعاليم:

١ ـ الجزاء العادل، يتوقّف على العلم والقدرة، ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ... لِيَجْزِىَ﴾.

٢ ـ من وراء الكون كلّه بل الوجود بأسره أهداف وغايات، ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ... لِيَجْزِىَ...﴾.

٣ ـ ثواب الله أكبر من حسنات الإنسان، وأمّا العقاب فإنّه لا يزيد عن الجرم، ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟... ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾.

٤ ـ يرتبط مصير الإنسان بقراره، ﴿بِمَا عَمِلُوا۟... ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾

إشارات:

□ «فواحش» جمع فاحشة، تطلق على كلّ معصية، كالزنا.

□ ذُكِرت لكلمة «لَمم» معانٍ عدّة، في كتب اللغة والتفسير، وفي الروايات[١]، منها:

١ ـ المعصية التي تصدر عفواً من دون قصد وإصرار.

٢ ـ المعصية التي يعزم عليها الإنسان ولكنّه لا يفعلها.

٣ ـ المعصية التي تلحقها التوبة، ويعقبها الندم.

٤ ـ المعصية التي لم يتوعّد الله عليها بالعذاب.

٥ ـ المعصية التي لا يترتّب عليها الحدّ.

□ يشير القرآن في أكثر من مورد إلى كبر المعاصي وصغرها[٢]، كما ويشير إلى أنّ أعمال الإنسان محصيّة عليه، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾[٣]، وسوف يفتح للإنسان كتابه يوم القيامة ويعرض عليه، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾[٤]، وفي ذلك اليوم يصرخ الإنسان ويصدَم لما يراه في كتابه، ﴿يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[٥].

□ عن الإمام الرضا عليه السلام في تعداد الكبائر: **«واجتناب الكبائر وهي قتل النفس التي حرّم الله عز وجل، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهلّ لغير الله به من غير ضرورة، وأكل الربا بعد البيّنة والسحت، والميسر وهو القمار، والبخس في المكيال والميزان، وقذف المحصنات، واللواط، وشهادة الزور، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله تعالى، والقنوط من رحمة الله تعالى، ومعونة الظالمين والركون إليهم، واليمين الغموس، وحبس الحقوق**

---

(١) الكليني، الكافي، ج٢، ص ٤٢٢.

(٢) سورة النساء: الآية ٣١؛ وسورة الكهف: الآية ٤٩؛ وسورة الشورى: الآية ٣٧؛ وسورة القمر: الآية ٥٣.

(٣) سورة القمر: الآية ٥٣.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١٣.

(٥) سورة الكهف: الآية ٤٩.

من غير عسر، والكذب، والكبر، والإسراف والتبذير، والخيانة، والاستخفاف بالحجّ، ومحاربة أولياء الله، والاشتغال بالملاهي، والإصرار على الذنوب»[١].

- عن الإمام الباقر عليه السلام، في تعليق له على قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: **«لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونسكه؛ لأن الله عز وجل أعلم بمن اتّقى منكم، فإنّ ذلك من اللمم»**[٢].

- وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سئل عن جواز مدح الرجل نفسه، فأجاب لا بأس إن اضطرّ إلى ذلك، واستشهد بتزكية النبيّ يوسف عليه السلام نفسه عندما قال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

- في بعض الروايات عن الإمام عليّ عليه السلام، أنّه سمع من يفتخر بإحيائه الليل وصومه النهار، فقال: لقد كنت نائماً البارحة، وكنت مفطراً أمس.

- في بعض الروايات أنّ يهودياً أتى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله واستعرض أمامه معجزات النبيّ موسى عليه السلام فلفته إلى أنّه لا ينبغي للمرء أن يمدح نفسه، ولكن إذا كان من أجل الحقّ فلا بأس، وشرع بالحديث عن نفسه صلى الله عليه وآله، فأخبره أنّ آدم عليه السلام توسّل إلى الله بحقّ محمد وآله ليتوب عليه، ولو أنّ موسى كان في عصره لآمن به.

بعض النقاط في المعصية والتمرّد:

- معصية الله والتمرّد على أوامره ونواهيه قبيحة ومذمومة، ولكن المعاصي تتفاوت عندما يقاس بعضها إلى بعضها الآخر، فبعض المعاصي كالكذب والغيبة، أقبح من غيرها، والعذاب المترتّب عليها أشدّ. ويزداد قبح المعصية بدخول بعض الخصوصيّات عليها، بالنظر إلى الفاعل، أو الزمان، أو المكان، أو العلم والجهل.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٦٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٥، ص ٢٣٣.

(٣) سورة يوسف: الآية ٥٥.

▫ قيمة الإنسان مرهونةٌ بما يقدم عليه من معاصٍ، فمن يعصِ الله في مثقال ذهب يساوِ مثقالاً ومن يعصه في أقل يساوِ أقلَّ، وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: **«والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جلب شعيرةٍ ما فعلت»**[١]. وعنه عليه السلام: **«إنّ أشدّ الذنوب ما استخفّ به صاحبه»**[٢]. وعنه: **«إن وليّ محمّدٍ من أطاع الله وإن بعدت لحمته، وإنّ عدوّ محمّدٍ من عصى الله وإن قرُبت قرابته»**[٣].

تبديل الصغائر إلى كبائر:

تتحوّل بعض المعاصي من صغائر إلى كبائر نتيجة بعض العوامل، منها:

الإصرار على المعصية الصغيرة، والفرح بالمعصية عند ارتكابها، الطغيان والتمرّد عند المعصية، الاغترار بالإمهال الإلٰهيّ، والتجاهر بالمعصية، وكون الفاعل ممن لا يتوقع منه ذلك.

آثار المعصية:

للمعاصي آثار تترتّب عليها، منها: قسوة القلب، وسلب النعمة، وردّ الدعاء، وتغيير الرزق، والحرمان من بعض العبادات، والبلاء المفاجئ، وحبس المطر، وخراب البيوت، والفضيحة، وقصر العمر، والزلازل، والفقر، والمرض، وتسلّط الأشرار. وهذه الآثار كلّها مذكورة في الآيات والروايات الواردة عن أهل بيت العصمة.

طرق الإصلاح ووسائله:

١ ـ الصلاة، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾[٤].

---

(١) نهج البلاغة، باب الخطب، الخطبة: ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة: ٤٧٧.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٥، ص ٢٣٨.

(٤) سورة هود: الآية ١١٤.

٢ ـ الاستغفار واستغفار الآخرين للعاصي، ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾[1].

٣ ـ الإنفاق والصدقة، «**صدقة السرّ تكفّر الخطيئة**»[2].

٤ ـ قضاء حوائج الناس، «**من كفّارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف**»[3].

٥ ـ الإيمان والعمل الصالح، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾[4].

٦ ـ اجتناب الكبائر، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ... نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾[5].

٧ ـ التوبة وجبران ما سلف، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[6].

٨ ـ القتال في سبيل الله تعالى، ﴿وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾[7].

٩ ـ إفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلاة الليل، «**ثلاث كفّارات، إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام**»[8].

١٠ ـ ذكر الصلاة على محمّد وآل محمّد، «**من لم يقدر على ما يكفّر به ذنوبه، فليكثر من الصلوات على محمّد وآل محمّد، فإنّها تهدم الذنوب**»[9].

□ على الإنسان أن يميّز بين تزكية النفس، وبين الحديث عن نعم الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، ويقول في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[10].

التعاليم:

١ ـ ينبغي أن نعرّف المحسنين بذكر علاماتهم، ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى... ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٢) الآمدي، غرر الحكم.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٦، ص ٣٧٣.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٧.

(٥) سورة النساء: الآية ٣١.

(٦) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٧) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

(٨) وسائل الشيعة، ج١٢، ص ٥٩.

(٩) بحار الأنوار، ج٩١، ص ٤٧.

(١٠) سورة الضحى: الآية ١١.

٢ ـ الأعمال الحسنة تكون حسنةً، عندما تقترن بالتقوى واجتناب الكبائر، وإلا فإنّها تفقد قيمتها في حالة صدورها عن مرتكبٍ للكبائر بعيدٍ عن التقوى، ﴿أَحْسَنُواْ... يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ﴾.

٣ ـ يجب أن يكون اجتناب الكبائر سيرة دائمةً، ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾. (يستفاد المعنى المذكور من استخدام الفعل المضارع الذي يدلّ على الاستمرار والتكرار).

٤ ـ أبرز خصائص المحسنين، هي اجتنابهم الكبائر والمعاصي الواضحة القبح، ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ... يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾.

٥ ـ القرب من المعصية يجرّ الإنسان إلى الوقوع فيها، (ولأجل ذلك يستخدم القرآن كلمة «يجتنبون» التي تدلّ على الابتعاد وليس الترك فقط)، ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ﴾.

٦ ـ الأرض ليست موطناً للملائكة، والإنسان حتّى لو كان من المتّقين قد يقع في بعض المعاصي ولا يفقد صفة الإحسان بالوقوع فيها، ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ... ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ... إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

٧ ـ على المربّي أن يغضّ النظر عن بعض الأخطاء ويتجاوز عنها، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾

٨ ـ التجاوز عن الأخطاء الصغيرة التي قد يقع فيها بعض الناس، أمرٌ مطلوبٌ وحسنٌ، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

٩ ـ الدوافع نحو الأعمال لها أثرها في تقييمها، فالأخطاء التي تصدر عفواً ومن دون إصرار لا ينبغي أن تُساوى بما يصدر عن سبق إصرار، ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

١٠ ـ لا يجوز استغلال الغفران الإلٰهيّ لمزيد من التورّط في المعصية، فاجتناب المعصية واجبٌ حتّى مع العلم بالمغفرة الإلٰهيّة، ﴿يَجْتَنِبُونَ... وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

١١ ـ لا ينبغي اليأس من المغفرة، حتّى مع ارتكاب الكبائر، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

١٢ ـ يجمع الله بين صفتَي العلم والقدرة، ولكنّه مع ذلك غفورٌ، بل واسع المغفرة، ﴿وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

١٣ ـ لا يعلم الله حالنا الراهن فحسب، بل يعلم بأحوالنا ونحن أجنّة في بطون أمّهاتنا، وإذا كان الحال كذلك، فلماذا التفاخر، ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

١٤ ـ على الذين يجتنبون المعاصي، الحذر من الفخر وتزكية النفس، ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ... فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

١٥ ـ الالتفات إلى ضعف الإنسان وقلّة حيلته يوم كان جنيناً في بطن أمّه، يحول بينه وبين تزكية النفس والاغترار بصفاتها، ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

١٦ ـ الإصلاح ينبغي أن يبدأ في مستوى الاعتقاد، فالاعتقاد بعلم الله تعالى يحول دون تزكية النفس، ﴿هُوَ أَعْلَمُ... فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

١٧ ـ صفاتنا الحسنة وكمالاتنا، هي من الله تعالى، فلا ينبغي أن نزكّي أنفسنا ونفخر بما عندنا من صلاح، ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ... فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

١٨ ـ لا يتّصف الإنسان بالتقوى إذا تظاهر بذلك، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾

إشارات:

- «أكدى»، من الكُدية أي البخل وترك الإنفاق، وأصل الكلمة يدل على الأرض الصلبة والوعرة. «وفّى» أي إبراهيم الذي أنجز وعوده وتعهداته كاملة.
- روي في سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات، أنّها نزلت في رجل ترك الإنفاق في سبيل الله بعد أن خوّف بالفقر[(١)].
- يثني الله سبحانه على النبيّ إبراهيم عليه السلام، ويصفه بأوصاف عدّة، على غرار: أوّاه، وحليم، ومخلص، وقانت، وشاكر، وصدّيق، ومؤمن، ومحسن، ووفيّ، وخليل، وإمام، وأسوة، وأمّة، وعابد، وحنيف، ومسلم.

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص٢٧١.

❑ ورد تعبير ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ في القرآن مرّتين، مرّةً في هذه السورة، ومرّة أخرى في سورة الأعلى الآية ١٩.

❑ ربّما يكون سبب الجمع بين اسمي النبيّين إبراهيم وموسى ﷺ، هو إيمان أهل الكتاب بالنبيّ موسى، وإيمان مشركي مكّة بالنبيّ إبراهيم واحترامهم إياه.

❑ في سياق الحديث عن البخل ذكر الله أبرز الحالات المعاكسة وهي حالة النبيّ إبراهيم ﷺ الذي لم يبخل بشيء في سبيل الله؛ «فقد بذل نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للإخوان».

التعاليم:

١ ـ عندما تريد تقديم القدوة والنموذج أشر إلى ما هو قريب من الفهم وسهل التناول، ﴿أَفَرَءَيْتَ...﴾.

٢ ـ لا يحسن العمل إلا إذا اجتمعت فيه الرغبة، مع الاستمرار والكثرة. («تولّى» فيها إشارة إلى الإعراض وعدم الرغبة، و«أعطى قليلاً» فيها انتقاد للقلّة، و«أكدى» فيها انتقاد للانقطاع عن العمل).

٣ ـ في مقام التربية ليس من المهمّ الإشارة إلى أسماء الأشخاص، فالمهمّ هو العبرة والمضمون، ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ... وَأَعْطَىٰ... وَأَكْدَىٰٓ﴾.

٤ ـ الإنسان في حالتَي عروجه ورقيّه، وسقوطه وهويّه، يمرّ بمراحل أوّلها المعتقد، ﴿تَوَلَّىٰ... وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾.

٥ ـ من لا يملك إلا القليل يُقبل منه، بل يُمدح على القليل الذي ينفقه، ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[1]، وأمّا الغنيّ الموسر فلا يُكتفى منه بالقليل، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾.

٦ ـ إعطاء القليل ليس مذموماً في الحالات جميعاً، فمن يعطي الطعام القليل للطفل لا يذمّ لأنّه يعطي بمقدار الحاجة، وإنّما يكون إعطاء القليل مذموماً إذا كان كاشفاً عن البخل، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٩.

٧ ـ من وسائل علاج البخل، الإشارة إلى نماذج من أهل السخاء والكرم، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ... وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

٨ ـ على من يبخل أن يسأل نفسه: كيف تعلم بأنّك سوف تفتقر بالإنفاق، إذا لم تكن تعلم الغيب، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾.

٩ ـ على الرغم من التحريف الذي طرأ على بعض الكتب السماويّة، فإنّها لا تزال صالحةً للاستناد والاستشهاد بها، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾.

١٠ ـ الأديان السماويّة تشترك في كثير من الأصول، ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾.

١١ ـ الإشارة إلى إحسان العظماء من وسائل تكريمهم وتخليد أسمائهم، ﴿مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾.

١٢ ـ على الداعي إلى الله أن يستشهد بنماذج مقبولة عند المدعوّين، ﴿مُوسَىٰ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾.

١٣ ـ في مقام التربية والدعوة إلى الله، ينبغي الإشارة إلى نماذج صالحة وأخرى فاسدة، ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا... وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾.

١٤ ـ الوفاء في سبيل الحقّ من أبرز الكمالات، ﴿وَفَّىٰٓ﴾.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

إشارات:

❑ تشتمل الآيات من ٣٨ إلى ٥٤ من هذه السورة على التعاليم المشتركة بين الإسلام وبين الكتابين السماويّين الموحى بهما إلى إبراهيم وموسى عليهما السلام.

❑ «الوزر» الحمل الثقيل، ويطلق على المعصية والذنب لأنّهما حملان ثقيلان على عاتق العاصي. وربّما كان تعبير «وزير» من هذا الأصل لأنّه يحمل أثقال الملك، وأعباء المسؤوليات الملقاة على عاتقه.

- يغفر الله السيّئات بالحسنات، أو بالتوبة والاستغفار، أو يبدّل السيّئات بالحسنات، ولكنّه لا يحمّل أحداً أعباء أخطاء قام بها شخص آخر.
- يذكر في قضاء أمير المؤمنين عليه السلام أنّه استشهد بقوله تعالى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، عندما حكم الخليفة الثاني على امرأةٍ حاملٍ بحدّ الزنا، فتدخّل أمير المؤمنين عليه السلام، وطلب تأجيل الحدّ حتّى تلد[1].
- ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله استشهاده بقوله تعالى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ لنفي تحميل ولد الزنا أعباء أبويه[2].
- **سؤال**: ورد في هذه الآية ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، بينما يحدثنا القرآن في آيات أخرى عن الشفاعة ودورها في المغفرة ودخول الجنّة.

الجواب: أولاً؛ إنّ هذه الآية بصدد الردّ على مشركي مكّة وأهل الجاهليّة الذين كانوا يعتقدون بما يشبه شراء الذنوب؛ إذ كان يقول أحدهم أعطني مبلغاً من المال، وأنا أحمل وزر أخطائك. وفي مقابل هذا المعتقد الجاهليّ يقول القرآن لا يمكن لأحدٍ أن يحمل وزر أحدٍ، بل الإنسان مسؤول عن أعماله فحسب.

وثانياً: هذه الآية ناظرة إلى العدل الإلٰهيّ، وليس إلى الفضل؛ وبعبارة أخرى، بحسب قانون العدل الإلٰهيّ، يحاسب الإنسان على أعماله فحسب ويثاب ويعاقب عليها، ولكنّ الله من باب التفضّل والرحمة، فتح أبواباً لزيادة الثواب وللتخفيف من العقاب، غيرَ باب العمل، هو باب الشفاعة، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾[3].

ثالثاً: عندما يرد في الحديث الشريف أنّ من سنّ سنّة حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، وكذلك عكسه أي المشاركة في عقاب من عمل بالسنّة السيّئة التي سنّها هذا الشخص، فهل نرى أيّ تنافٍ بين هذا الحديث وبين قوله تعالى ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾؟ ووجه عدم التنافي هو أنّ التأسيس

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٦، ص٤٩.

(٢) تفسير راهنما، والدر المنثور، عند تفسير هذه الآية.

(٣) سورة النساء: الآية ١٧٣.

للخطّ الصحيح هو صدقة جارية تبقى إلى يوم القيامة، وبالتالي يدخل في عمل الإنسان وجهوده، والأمر عينه يقال عن الشفاعة، فإنّ دخول بعض الناس في المرشّحين ليُشفع لهم هو نتيجة جهد قاموا به في خلال حياتهم.

- ورد في الحديث والقرآن الكريم مجموعة من الحالات ينال فيها الإنسان ثواباً من دون عمل قام به بشكل مباشر، ومن ذلك: ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته، فهي تجري إلى يوم القيامة، أو سنّةُ هدىً سنّها فكان يعمل بها، وعمل بها من بعده غيره، أو ولد صالح يستغفر له»[١]. ومن ذلك أيضاً، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٢]. وأخيراً، ما ورد في الحديث حول إشراك بعض الناس في الحج، فقد سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام: أشركُ أبويّ في حجّتي؟ قال: نعم! قلت: أشرك إخوتي في حجّتي؟ قال: نعم، إنّ الله عزّ وجلّ جاعل لك حجًّا ولهم حجًّا ولك أجرٌ لصلتك إيّاهم[٣].

التعاليم:

١ ـ الثواب والعقاب الإلٰهيّان يجريان، وفق موازين العدل، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٢ ـ لا ينبغي للإنسان أن يعتمد على غيره، لظنّه أنّهم يحملون عنه أوزاره يوم القيامة، فذلك اليوم لن يكون يوم تبادل الأوزار، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٣ ـ في العزل من الوظائف والمهامّ الاجتماعيّة، لا تؤاخذوا الناس بانحرافات أقاربهم، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٤ ـ الكون هو ساحة للجهاد وبذل الجهد، والحصول على النتائج، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

---

(١) الشيخ الصدوق، الخصال، ص ١٥١.
(٢) سورة الطور: الآية ٢١.
(٣) الكليني، الكافي، ج٤، ص ٣١٥.

٥ ـ نحن مكلّفون بالسعي وأداء الواجب، ولسنا مسؤولين عن النتائج، ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

٦ ـ الإيمان بترتّب الآثار على العمل، ونيل الإنسان ثوابه، ومؤاخذته بما عمل، من الدوافع نحو العمل من جهة، ومن العوامل التي تدعوه إلى الاحتياط من جهةٍ أخرى، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾.

٧ ـ الأعمال التي يؤدّيها الإنسان لا يضيع شيء منها، خيراً كان أم شرًّا، ﴿سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾.

٨ ـ على المحسنين أن لا يستعجلوا نتائج أعمالهم، ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾.

٩ ـ لا تستوعب الدنيا جزاء الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حياته، ولا بدّ من يوم هو يوم القيامة، لتحقّق الجزاء الكامل على الأعمال، ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

١٠ ـ ينال الإنسان ثواباً متناسباً مع أعماله، بل أوفى منها، ﴿وَفَّىٰ... ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

١١ ـ على الرغم من وجود بعض الجزاء في الدنيا، فإنَّ جزاء الآخرة هو الجزاء الأوفى، ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

١٢ ـ يمرّ الإنسان يوم القيامة بمراحل ومواقف عدّة. (ويستفاد هذا المعنى من تعبير «سوف» وتعبير «ثمّ»، اللذين يدلّان على أنّ الإنسان يرى عمله أولاً ثمّ يحظى بجزائه ثانياً).

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾

إشارات:

- لا شكّ في وجود وسائط يفعل الله من خلالها ما يريد، إلا أنّه سبحانه هو الفاعل الحقيقيّ والأوّل والأخير. وما يدلّ على ذلك، تكرار ضمير «هو».
- التضادّ بين الموت والحياة، والضحك والبكاء، وهو تضادّ في عين الإنسان ومن وجهة نظره هو. وأمّا في عين الله، فكلّ هذه الحالات هي خير مطلق ولا تضادّ بينها من هذه الجهة.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي للمؤمنين أن يتعبوا، ولا للكافرين أن يغترّوا بما هم عليه، فمنتهى الفريقين إلى الله، وبين يديه ينال كل منهما حسابه، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

٢ ـ الوجود الإمكاني كلّه يسير نحو الله تعالى، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

٣ ـ العقاب والثواب بيده سبحانه، ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾؛ كما أنّ الحالات العاطفية والروحيّة التي يمرّ بها الإنسان خاضعة لإرادته ﷻ، ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

٤ ـ الضحك والبكاء أمران طبيعيّان، وتعبيران عن حالات طبيعية يمرّ بها الإنسان، ولا ينبغي إعاقة أحد هذين التعبيرين ومنعه من الظهور، ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

٥ ـ قدرة الله على الضدّين على حدّ سواء، ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ... أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

٦ ـ يوم القيامة، هو يوم ضحك قومٍ، ويوم بكاء قومٍ آخرين، ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ... وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾.

٧ ـ الموت والحياة، من تجلّيات ربوبيّة الله، ﴿رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ... هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

٨ ـ من أساليب القرآن في التربية، الإشارة إلى التوحيد حتّى في الحالات المتضادّة، ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ... هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

إشارات:

◻ «أغنى» من الغنى بمعنى انتفاء الحاجة، و«أقنى» من القُنية، بمعنى المال المدّخر[1]. والمعنى بناء على هذا التفسير: أعطى ما فيه القنية على حدّ تعبير

---

(١) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مادّة: قني.

الراغب الأصفهاني. ويرى آخرون أنّ في الآية مقابلة بين الغنى والفقر، وبالتالي يرون أنّ معنى أقنى أفقر[١].

❑ عن الإمام عليّ عليه السلام، في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أنّه قال: **«أغنى كلّ إنسان بمعيشته، وأرضاه بكسب يده»**[٢].

❑ الشعرى نجم كان يعبده جماعة من المشركين، ويعتقدون أنّه ربّ الغنى والفقر؛ ولهذا يردّ الله سبحانه بهذه الآية ويقرّر أنّ الغنى والفقر بيد الله؛ لأنّه هو ربّ الشعرى أيضاً. ويرى بعض المفسّرين أنّ الشعرى اسم صنم من أصنام الجاهليّة.

❑ الزوجيّة سرّ بقاء الكون، ولو انتفت الزوجيّة من الكون الفعليّ لتحوّل إلى شيء آخر، بل ربما خبا وانطفأت شعلة وجوده.

التعاليم:

١ ـ قانون الزوجيّة من القوانين التي أقرّها الله في الوجود، وليس من القوانين الاعتباريّة التي توافق عليها الناس، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾.

٢ ـ تنظيم الوجود على أساس التضادّ والحالات المتنافرة، من دلائل وجوده سبحانه وتعالى، ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ... أَمَاتَ وَأَحْيَا... ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾.

٣ ـ خلق الذكر والأنثى من الظواهر العجيبة، ومن ضروريّات الحياة، ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾.

٤ ـ يشترك الرجل والمرأة في الأصل الأوّل للوجود، ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾.

٥ ـ إنّ من يخلق الإنسان من قطرة من الماء، قادر على أن يعيد خلق الإنسان من الأجزاء التي يتحلّل إليها بعد الموت، ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

---

(١) قاموس القرآن.

(٢) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج٢، ص ٣٣٩.

٦ ـ إعادة الناس إلى الحياة بعد الموت، من الأمور التي ألزم الله نفسه بها، ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾.

٧ ـ أصل الخلق يستند إلى الله، ﴿خَلَقَ﴾، كما أنّ تنوّع الخلقة والزوجيّة التي فيها منه سبحانه، ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾، ومنه الأصل الذي يخلق منه الناس، ﴿نُّطْفَةٍ﴾، وبيده إعادة الناس إلى الحياة بعد الموت، ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وبيده تدبير أمور المخلوقات وأحوالهم، ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾.

٨ ـ علينا أن نسأله وحده سبحانه إذا كنّا نريد الغنى، ﴿هُوَ أَغْنَىٰ﴾.

٩ ـ ما الحاجة وما الداعي إلى البخل والغرور، إذا كان الغنى والفقر منه سبحانه وبيده، ﴿هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾.

١٠ ـ يخضع كلّ ما في الكون للتدبير الإلٰهيّ، من النطفة في الرحم، إلى النجم في السماء، ﴿نُّطْفَةٍ...﴾.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾

إشارات:

- «المؤتفكات» جمع مؤتفكة، يقال ائتكفت بهم الأرض إذا انقلبت، وفي الآية إشارة إلى مدائن عاد الذين جعل الله عالي بلادهم سافلها.

- «أهوى»، من الهويّ أي السقوط. و«تتمارى» من المماراة أي المجادلة مع الشكّ والتردّد.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ ربّما يكون المراد به وصف قوم نوح، بأنّهم أشدّ ظلماً من عاد وثمود، وربّما يكون المراد وصف هؤلاء جميعاً بأنّهم أظلم وأطغى من غيرهم من الأمم التي حكم الله عليها بالعذاب.

التعاليم:

١ ـ لا يقتصر الجزاء والعقاب على يوم القيامة، فبعض الأمم تعاقب في الدنيا أيضاً، ﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾.

٢ ـ علينا أن نأخذ العبر والدروس من الأمم التي سبقتنا، ﴿أَهْلَكَ عَادًا... وَثَمُودَا... وَقَوْمَ نُوحٍ﴾.

٣ ـ يعدّ الظلم والطغيان، ولا سيّما استمرارهما، من مقدّمات الهلاك والزوال، ﴿أَهْلَكَ... كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾.

٤ ـ علينا، عندما ندرس التاريخ، أن نلتفت إلى علل الأحداث وأسبابها: ﴿كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾.

٥ ـ هلاك الظالمين والطاغين، من النعم والألطاف الإلٰهيّة، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾.

٦ ـ أهمّ مهامّ الأنبياء وأوّل واجباتهم، الإنذار والتحذير، ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾.

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ۩ ۝٦٢﴾

إشارات:

- «الآزفة» أي القريبة الوقوع، و«سامدون» أي ساهون غافلون.
- تنقل بعض كتب التفسير أنّ النبيّ ﷺ لم يُرَ باسماً بعد نزول هذه الآيات عليه.
- ربّما يكون المراد بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، القرآن، إذ ورد التعبير عن القرآن بهذه الطريقة في سورة الزمر، الآية ٢٣، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن نحسب أنّ يوم القيامة بعيد عنّا، ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾.

٢ ـ كلّ ما يمكن أن يتوفّر بين يدي الإنسان، لا يكفي لتخفيف أهوال يوم القيامة، والوسيلة الوحيدة للتخفيف هي الإذن الإلٰهيّ، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

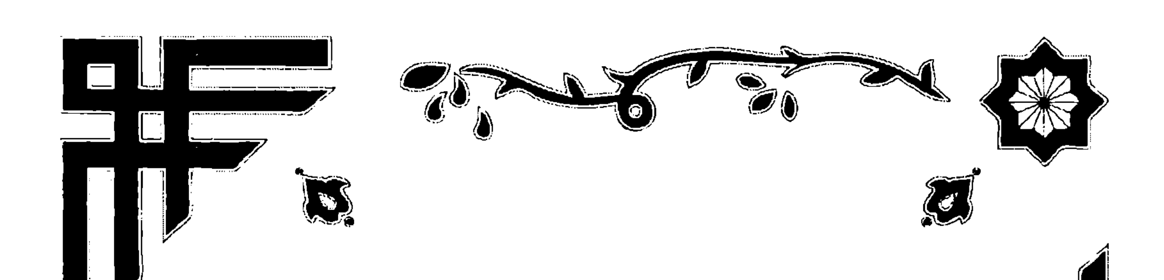
٣ ـ ينبغي أن نتعجّب من تعجّب بعض الناس من الحديث عن يوم القيامة، ﴿تَعْجَبُونَ﴾.

٤ ـ على من يعتقد بيوم القيامة، أن يخفّف من حالة الفرح والسرور التي تعتريه، ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾.

٥ ـ الضحك في بعض الحالات يكون من علامات الغرور والغفلة، ﴿تَضْحَكُونَ... وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾.

٦ ـ السجود بين يدي الله، من وسائل علاج الغرور والغفلة، ﴿فَٱسْجُدُوا... وَٱعْبُدُوا﴾.

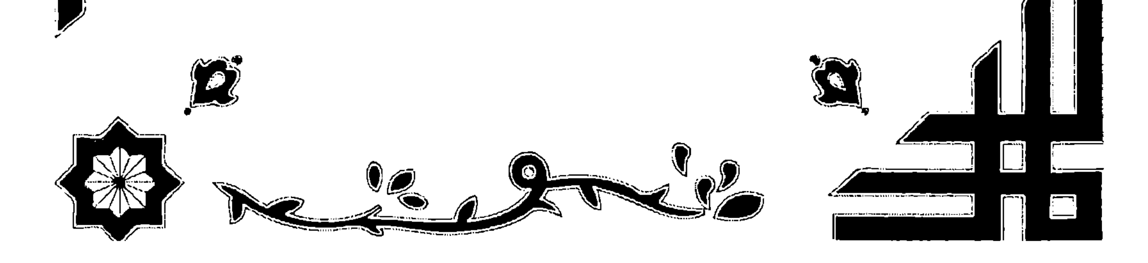
«والحمد لله ربّ العالمين»



سورة القمر

السورة: ٥٤ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٥٥



ملامح سورة القمر

سورة القمر مكيّة، عدد آياتها خمس وخمسون آيةً.

سمّيت بهذا الاسم للحديث عن شقّ القمر في مطلعها.

تنتهي آيات هذه السورة بحرف الراء.

انتهت السورة السابقة بالحديث عن المعاد، وافتتحت سورة القمر بالحديث عن الموضوع نفسه. والقسم الأكبر من محتوى السورة مرتبط بالمعاد ويوم القيامة، وبالحديث عن النبوّة وعاقبة معارضي الأنبياء.

ويخبرنا الله سبحانه وتعالى، في هذه السورة، عن مصير خمس جماعات، هي: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون وقومه.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾

إشارات:

- تذكر كتب السيرة والحديث حادثة شقّ القمر التي حصلت في أوّل البعثة، بوصفها معجزةً من معجزات النبيّ ﷺ. وقد كانت هذه المعجزة استجابةً لاقتراح مشركي مكّة؛ وذلك أنّهم كانوا يتّهمون النبيّ ﷺ بالسحر، فقالوا إذا كان قادراً على السحر في الأرض، فهو لا يقدر على السحر في السماء، فلا يمكن الشكّ في صدقه إذا كان قادراً على شقّ القمر.

والملفت، بحسب الروايات الواردة في كتب المسلمين جميعاً سنّةً وشيعةً، أن هذه الحادثة وقعت من دون أن تسبق بدعاية، بل حدثت في منتصف الليل، وقد شهد بها عدد من المسافرين بين مكّة وبلاد الشام، بل ورد ذكرها في بعض كتب الهنود المعاصرين لتلك المرحلة[١].

- ومن المناسب الإشارة إلى أنّ علم الفلك الحديث يثبت أنّ عدداً من الأجرام السماويّة انفصلت عن الشمس في المراحل الأولى لتشكّلها، وبالتالي يكون شقّ القمر أمراً ممكناً، مع فارق هو أنّ هذه الحادثة تشتمل على معجزتين، هما الانفصال وإعادة الوصل والرتق.

التعاليم:

١ ـ يوم القيامة قريب، وحتميّ الوقوع، ولم يبق من الدنيا إلا أقلّ مما انقضى؛ ولذلك على الإنسان أن يتزوّد لآخرته ولا يغفل عن اليوم الذين هو ملاقيه، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

---

(١) تفسير راهنما، في تفسير سورة القمر.

٢ ـ يوم القيامة زمان حسّاس وعلى درجةٍ عاليةٍ من الأهميّة، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، (ويستفاد المعنى المذكور من بدء السورة بالحديث عن اقتراب الساعة من دون تمهيد ومقدّمات، وهذا معروف في حالات التحذير من الأمور الخطيرة، كمن يصرخ: نار نار، أو زلزال زلزال).

٣ ـ من المناسب التحذير من يوم القيامة، في الحوار مع قساة القلوب، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، (كما نقرأ في مطلع سورة الأنبياء، قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾).

٤ ـ شقّ القمر من معجزات النبيّ ﷺ الخاصّة به، ومن المؤشّرات الدالّة على اتّصال الأمّة الإسلاميّة بيوم القيامة، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

٥ ـ للنبيّ ﷺ معجزات عدّة وكان يعدّها المشركون سحراً، ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

٦ ـ الأسلوب الذي يعتمده المعاندون للحقّ، في مواجهة الآيات والمعجزات، يتألّف من الإعراض، والتكذيب، والاتّهام، ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ﴾.

٧ ـ اتّباع الأهواء هو منشأ الإعراض عن الحق والتكذيب بالدين، ﴿...يُعْرِضُواْ... وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

٨ ـ آخر الليل المظلم صباح مشرق، هذه هي سنّة الله في خلقه، ففي نهاية المطاف سوف يثبت من دون لبسٍ أنّ المعاد والقيامة حقّ، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾

إشارات:

□ «مزدجر» من الزجر وهو الطرد والمنع، والمعنى أنّ الحديث عن يوم القيامة، قد يكون مانعاً عن ارتكاب المعاصي. «نكر» الأمر المجهول غير السعيد.

التعاليم:

١ ـ على المصلحين والدعاة إلى الله، أن يستفيدوا من التاريخ وأحداثه المهمّة وأن يكونوا على معرفةٍ بما في التاريخ من عبر ووقائع نافعةٍ، ﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾

٢ ـ المعرفة بالتاريخ، قد تنفع في الزجر عن المعصية والوقوع في الآثام، نتيجة الاعتبار بمصائر الماضين، ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.

٣ ـ أخبار المعاد ويوم القيامة، من الوسائل المجدية في مواجهة الكفر والمعاصي، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ... مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾.

٤ ـ التاريخ وما فيه من أحداث ووقائع حقيقيّة، من المنابع الأساس للحكمة والمعرفة، ﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ... حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾.

٥ ـ يتمّ الله الحجّة على الناس قبل إدانتهم، ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾؛ ولكنّ المشكلة هي عند الناس الذين يتجاهلون ولا يعتبرون مما يلقى عليهم، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

٦ ـ عندما يكون الهوى هو صاحب القرار، لا ينفع لا تبليغ ولا دعوة مباشرة، ولا غير مباشرة، ﴿...وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ... جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ... فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

٧ ـ على المربّي الحكيم، أن يحذّر الناس بواسطة الوقائع الصحيحة، والقصص الحقيقيّة، ﴿أَنۢبَآءِ... حِكْمَةٌۢ... ٱلنُّذُرُ﴾.

٨ ـ الرسائل التي يحملها القرآن للناس، معقولةٌ يمكن فهمها، وليست بعيدة عن متناول فهمهم، ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾.

٩ ـ الرفق والإحسان لهما حدود، وإلا انقلبا إلى شيء آخر؛ ولذلك لا بدّ في بعض الأحيان من الإعراض. (فعندما يؤدّي المربّي ما عليه، ويستنفد وسائله، ولا تؤثّر في المدعوّين، لا بد من الحفاظ على الجهد والوقت، والإعراض عن المعاندين)، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وإلا تكون الدعوة كالزراعة في الأرض السبخة.

١٠ ـ يوجد في يوم القيامة منادون دورهم دعوة الناس إلى النار، ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾.

١١ ـ ساحة يوم القيامة من الساحات المزعجة للمنحرفين والمعرضين عن الأنبياء، ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾

إشارات:

- «أجداث» جمع «جَدَث»، وهو القبر.
- خشوع الأبصار إما من الخوف، وإما من الخجل، الموجب للذلّ.
- المقصود من تشبيه المجرمين بالجراد، هو الإشارة إلى الحيرة والضياع الذي سوف يكونون عليه يوم القيامة.

التعاليم:

١ ـ تظهر الحالات الروحيّة التي يعيشها الإنسان على جسده الخارجي، ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾.

٢ ـ المعاد جسماني، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾

٣ ـ من الوسائل الناجحة في التربية، استخدام الأمثلة والتشبيه، ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، وأفضل الأمثلة هي الأمثلة المحسوسة والملموسة.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

إشارات:

- «مهطعين» من الإهطاع وهطع الرجل ببصره إذا صوّبه؛ أو رفع رأسه للنظر بحيرة وقلق، أو بمعنى سرعة الجري.
- تواجه الكافرين، يوم القيامة، شدائد عدّة:

شدّة العجز، وشدّة العطش والجوع، وشدّة الفضيحة، وشدّة الحساب، وشدّة فقدان الشفيع، وشدّة انعدام الزاد، وشدّة طول الانتظار، وشدّة جوار السوء، وشدّة التحسّر على ما فات، وشدّة الاحتقار، وشدّة فراق أهل الخير، وشدّة الشكاوى التي تلاحقهم.

هذا بينما يصوّر الله حال المؤمنين، في ذلك اليوم، بأحسن صورةٍ، فلا خوف عليهم ولا همّ يؤرّقهم، ولا حسرة على الماضي، ولا خوف من المستقبل.

التعاليم:

١ ـ مسارعة الناس إلى الخروج من قبورهم؛ بعد دعوتهم إلى الخروج، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾.

٢ ـ وجود دعاة ومنادين يوم القيامة، يوجّهون دعواتهم إلى الناس، ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾.

٣ ـ يوم القيامة من الأيّام الشديدة على الكفّار وحدهم، ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- وردت في الآية العاشرة كلمة «انتصر» بدل «انصر»، وإنّما قال ذلك ولم يقل انصر تنبيهاً إلى أن ما يلحقني يلحقك، من حيث إنّي جئتهم بأمرك؛ فإذا نصرتني فقد انتصرت لنفسك، والتناصر التعاون[١].
- «منهمر» أي جارٍ وهمر ما في الضرع حلبه كلّه[٢].
- عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «**لبث فيهم نوح ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً يدعوهم سرّاً وعلانيةً، فلمّا أبوا وعتوا قال: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾**[٣]».

---

(١) مفردات الراغب، مادّة: «نصر».

(٢) المصدر نفسه، مادّة: «همر».

(٣) نور الثقلين، ج٤، ص ١٥٤.

□ وردت كلمة «مغلوب» في القرآن كلّه، مرّةً واحدةً، في سياق الحديث عن نوح عليه السلام، كما وردت كلمة «سلام» مرّةً واحدةً مقرونة بـ «في العالمين» في سياق الحديث عنه عليه السلام في قوله تعالى ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ في هذه الآيات، يطيّب الله خاطر النبيّ صلى الله عليه وآله، ويقول له إنّ ما يصيبك من أذىً أصاب من سبقك من الأنبياء، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

٢ ـ التأمّل في تاريخ الأمم الماضية، يدعو إلى الصبر على الشدائد والمصاعب، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾.

٣ ـ افتتاح الله سبحانه الحديث عن الأقوام السابقة، بكلمة «كذب»، يدلّ على خطورة الكذب وعظيم أثره السلبيّ على الأمم وتاريخها، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، و﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾، و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾، و﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾.

٤ ـ العبوديّة لله، من أهمّ صفات الأنبياء والأولياء الصالحين، ﴿عَبْدَنَا﴾.

٥ ـ يبرّر العاصون والمنحرفون أعمالهم السيّئة بالاتّهامات الباطلة التي يوجّهونها إلى خيار عباد الله ولو كانوا الأنبياء، ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾.

٦ ـ يعلّق الأنبياء آمالهم في حالات الشدّة على الله، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥ﴾.

٧ ـ ليس الضعف من لوازم الباطل، ولا الغلبة من لوازم الحقّ، فقد يغلب الحقّ وقد يُغلَب، ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾.

٨ ـ دعاء الأنبياء مستجابٌ، ﴿فَدَعَا... فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

٩ ـ الدعاء وقطع الأمل عما في أيدي الناس، واليأس منهم، من العوامل المساعدة على استجابة الدعاء، ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ... فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

١٠ ـ العوامل الطبيعيّة من الجنود التي يستخدمها الله في ما يريد تحقيقه، ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾.

---

(١) سورة الصافّات: الآية ٧٩.

١١ ـ بعض مظاهر الرحمة قد تتحوّل في بعض الحالات إلى مظاهر ووسائل للعذاب، ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- «دسر» جمع «دسار» وهو المسمار، و«نُذُر» جمع «نذير»، ولكن المراد من هذه الكلمة في مثل هذا المورد مضمون الإنذار وليس الشخص المنذر.
- تتوفّر سفينة نوح عليه السلام على خصائص عدّة منها:

أ ـ صنعت بأمرٍ من الله، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾.

ب ـ صانعها نبيٌّ.

ج ـ تصنع السفن عادة على السواحل وفي الموانئ، وأما هذه السفينة فقد صنعت على اليابسة وفي صحراء جافّة. وفي بعض الروايات أنّها صنعت في مسجد الكوفة، وقد كان هذا الأمر من أسباب سخرية الكافرين.

د ـ حملت أنواع الحيوانات من ذكر وأنثى.

هـ ـ كانت تتحرّك تحت عين الله ورعايته، ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾.

و ـ كانت تسير على أمواج عالية كالجبال، ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾.

ز ـ حملت المؤمنين في الأرض جميعاً.

ح ـ كانت الوسيلة الوحيدة للأمن من الغرق.

- وهذه السفينة على الرغم من خصوصيّاتها المشار إليها، يعبّر الله عنها بأنّها ذات ألواح ودسر، وكأنّه سبحانه يريد من ذلك الإشارة إلى أنّ نجاة من عليها لم يكن يستند إلى السفينة بقدر ما كان يستند إلى الرعاية الإلهيّة.
- يصف الله سبحانه السفينة المصنوعة من الخشب والمسامير، بأنّها آية من آياته، ووسيلة لنجاة النبيّ والمؤمنين به من الموت غرقاً. وهنا نسأل ما المانع من كون قبور الأنبياء الذين هم سفينة النجاة الأهمّ، آية من آيات الله سبحانه؟

التعاليم:

١ ـ نبع الماء من الأرض وجريانه فيها، خاضع لإرادته سبحانه وتعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾.

٢ ـ تبدأ السماوات والأرض بالاستجابة والخضوع، بمجرد أن تتعلّق الإرادة الإلٰهيّة بتحقّق شيء، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾.

٣ ـ الغضب الإلٰهيّ، وانسجام الأسباب الطبيعية في السماء والأرض، خاضع لنظامٍ محكمٍ دقيق، ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

٤ ـ عندما تتوفّر صفة العبودية الحقيقيّة لله تعالى فينا، يسعفنا الله بكلّ ما نحتاج ونريد، ﴿عَبْدَنَا، رِيحًا، وَنُذُرِ، وَفَجَّرْنَا، حَمَلْنَا﴾.

٥ ـ تجري إرادة الله وتتحقّق بواسطة الأسباب الطبعيّة، ومن خلال الجهد الإنسانيّ، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾. فالألواح والمسامير متوفّرة بكثرة، والإرادة الإلٰهيّة قد تتعلّق بالنجاة من دون توفّر هذه الوسائل، ولكنّ الإرادة الإلٰهيّة الحكيمة اقتضت نجاة النبيّ نوح عليه السلام ومن معه بهذه الوسيلة.

٦ ـ لم يكن صنع السفينة تحت عين الله، بل حركتها ومسيرها أيضاً؛ إذ يقول الله سبحانه في سورة هود الآية ٣٧، ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾، وهنا يقول: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾.

٧ ـ الأنبياء نعمة من النعم الإلٰهيّة، لا يجوز كفرانها، وإذا كفرها الإنسان نال جزاءه العادل، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

٨ ـ لا تؤجّل العقوبات كلّها إلى يوم القيامة، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

٩ ـ بقيت سفينة نوح مدّة طويلة من الزمن وربّما لا تزال موجودة حتّى عصرنا هذا، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾. (وقد أخبرنا الله سبحانه عن بقاء فرعون آية لمن بعده من الناس؛ إذ يقول: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾)[1].

---

(١) سورة يونس: الآية ٩٢.

١٠ ـ الآثار التاريخيّة تتضمّن الكثير من العبر حول سقوط الأمم ونهوضها؛ ولذلك علينا أن نحافظ عليها ونصونها لتبقى لمن بعدنا كما وصلت إلينا، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾.

١١ ـ العمل الذي يتمّ بإرادة الله وبيد أوليائه مبارك. (فسفينة نوح كانت وسيلة من وسائل الحفاظ على الحياة على وجه الأرض، على الأقلّ في المنطقة التي أصابها الطوفان)، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾.

١٢ ـ ينبغي أن ننعم النظر وندقّق في آيات الله، ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

١٣ ـ لهداية الإنسان، لا تكفي الأسباب والعوامل المساعدة الخارجيّة، بل ينبغي أن تتوفّر القدرة الاستيعابيّة عند الإنسان نفسه، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

١٤ ـ يجب أن تكون الأحداث التي مرّت على الأمم السابقة، مصدر عبرةٍ لنا، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

١٥ ـ لا ينزل العذاب الإلٰهيّ فجأةً، بل ينزل بعد الإنذار وإتمام الحجّة، ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- في القرآن أبعاد متنوّعة أضفت عليه الجمال في الشكل والمضمون، فهو سهل القراءة، عميق المضمون، يشتمل على القصص والأمثلة، ومطابق للفطرة الإنسانيّة، وذلك كلّه يسّر قبوله على الإنسان.
- لقد تكرّرت هذه الآية أربع مرّات، وذلك في الآيات: ١٧، و٢٢، و٣٢، و٤٠.
- على الرغم من تيسير القرآن وتسهيله، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾، إلا أنّه لا مثيل له ولا شبيه، بل لا يمكن الإتيان بمثله وهذا هو معنى إعجازه، ﴿...قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾[1].

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

التعاليم:

١ ـ على الدعاة إلى الله أن يخاطبوا الناس بلغة سهلة يسيرة الفهم، ﴿يَسَّرْنَا﴾.

٢ ـ القرآن ميسّر؛ ولكنّه ليس مبتذلاً. فقد مرّ في آيات سابقة وصف القرآن بأنّه حكمةٌ بالغةٌ، ﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾، وهذا الوصف يدلّ على عمق المضمون ومتانته، على الرغم من التيسير الذي فيه، ﴿يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

٣ ـ رسالة القرآن، هي إيقاظ الناس وتذكيرهم، ﴿ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

٤ ـ كلّما كانت لغة الخطاب أيسر وأقرب إلى الأذهان، كلما زاد عدد المستمعين، ﴿يَسَّرْنَا... فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

٥ ـ يشتمل القرآن على آيات تكوينيّة وأخرى تشريعيّة، وكل من الصنفين ينبغي أن يُصغى إليه، ويُهتَمّ به، وعن النوع الأول يقول سبحانه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وعن الثاني يقول: ﴿يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

٦ ـ ليس كلّ من قرأ القرآن استفاد منه، وإنّما من يستفيد منه هو الشخص الذي يتوفّر على قابليّات خاصّة، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

٧ ـ لا يتوقّف القبول والإذعان للحقّ على توفّر الظروف الخارجيّة المساعدة، فقد تتوفّر مثل هذه الظروف، ولكن يحول العناد واتّباع الهوى دون تأثيرها في المتلقّي، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ يراد به أيام عدّة، وكلمة «مستمرّ» هي التي تدلّ على تعدّد الأيام، وقد كشفت آيات أخرى عن تعدّد هذه الأيام، كما في قوله تعالى، في الآية ١٦، من سورة فصّلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ

نَّحِسَاتٍ﴾، وكما في قوله تعالى، في الآية السابعة من سورة الحاقّة: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾.

- منقعر، من القعر، وهو الاجتثاث من الجذور. و﴿أَعْجَازُ﴾، جمع «عجز» وهو القسم الأسفل من الشيء كجذع الشجرة وما شابه.
- قبح الأيام وحسنها، تابعٌ لقبح الأحداث التي تقع فيها وحسنها؛ أو لوجود سرّ خاص في الزمان يجعله شرًّا أو خيراً ولا نعلم سبب اتّصافه بذلك.

التعاليم:

١ ـ لم يعتبر قوم عاد بهلاك قوم نوحٍ قبلهم، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ... كَذَّبَتْ عَادٌ﴾.

٢ ـ السمة البارزة في قوم عادٍ التكذيب والإنكار، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾.

٣ ـ بين العذاب والإنذار علاقة تلازم؛ حيث يسبق الإنذار أولاً، فإذا لم يؤثّر لحقه العذاب، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

٤ ـ على الإنسان أن يتفكّر في التاريخ ويعتبر مما فيه من أحداث، ﴿فَكَيْفَ كَانَ...﴾.

٥ ـ التكذيب يلحقه الغضب الإلٰهيّ والعذاب، ﴿كَذَّبَتْ... عَذَابِي﴾.

٦ ـ تتحوّل الظواهر الطبيعيّة إلى وسائل للعذاب والعقاب، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ... رِيحًا صَرْصَرًا﴾.

٧ ـ لا تتساوى الأزمان ولا تتّحد في خصوصيّاتها، فبعض الأزمنة مباركة كليلة القدر، ﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وبعضها بعيد عن البركة كأيّام العذاب، ﴿يَوْمِ نَحْسٍ﴾.

٨ ـ إرادة الله هي تغيّر طبائع الأشياء والظواهر، فالرياح وسيلة للنموّ والتكاثر، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[1]، وهي نفسها عندما يريد الله تتحوّل إلى مصدر للموت والهلاك، ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٢.

٩ ـ الإنسان، مهما تعالى وتعاظم، ليس سوى قشّة في مهبّ الريح في مواجهة الإرادة الإلٰهيّة، ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ...﴾.

١٠ ـ كان قوم عاد أمّة عظمية الشأن راسخة الجذور، ولكن عندما غضب الله عليهم، اقتلعهم من جذورهم، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾.

١١ ـ التكرار من الأساليب المؤثّرة في التربية والتعليم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فقد تكرّرت هذه الجملة أكثر مرّة.

١٢ ـ الهدف من نقل التاريخ هو التربية والاعتبار؛ ولذلك لا ينبغي إهمال محلّ العبرة والإلفات إليها، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- «سعر» جمع «سعير» وهي النار الحامية، وكذلك جمع «سَعْر» وهو الجنون. و«أشر» الشخص المغرور بنفسه.
- يقول الكافرون للأنبياء بحسب الآية ٢٤: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي إنّنا في ضلال وجنون لو اتّبعنا بشراً مثلنا. ويردّ الله سبحانه في الآية ٤٧، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.
- في قصّة النبيّ صالح عليه السلام، أنّ قومه طلبوا منه أن يخرج لهم من الجبل ناقةً، ولكنّهم عندما تحقّقت المعجزة عقروا الناقة وقتلوها.
- يتعلّل الكافرون لردّ دعوة الأنبياء، بحججٍ واهية، من قبيل:

أ ـ أنّ النبيّ بشر مثلهم.

ب ـ أنّه واحد منهم.

ج ـ أنّه واحد وهم كثيرون، ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾.

ولكن هذه الحجج بعيدة من المنطق، ومجانبة للصواب، وذلك:

أولاً: لأن بشريّة الأنبياء نقطة قوّة لهم، وليست مصدر ضعف، وذلك ليكونوا قدوةً صالحةً.

وثانياً: إنّ مسيرة الإصلاح النبويّة عبر التاريخ كانت تبدأ بمصلحٍ واحدٍ، تتبعه أمّته في دروب الإصلاح والصلاح.

وثالثاً: الحقّ لا يقاس بالعدد والكثرة والقلّة، والحقّ يجب أن يتّبع، سواء قلّ قادته وأتباعه أم كثروا.

التعاليم:

١ ـ التكذيب هو الفعل الذي تكرّر صدوره عن قوم ثمود، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾.

٢ ـ لا يملك الكفّار في مقابل دعوة الأنبياء أي منطق أو حجّة داحضة، بل يقولون: لماذا هو النبيّ ولسنا نحن، ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا...﴾.

٣ ـ لا يسعى الأنبياء لتمييز أنفسهم بحياةٍ مختلفةٍ عن حياة الناس، ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا﴾.

٤ ـ يسقط الإنسان في بعض الحالات إلى مستويات غريبة، فلا يقبل النبيّ المعصوم، ويرد دعوته قائلاً: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا﴾؛ ولكنّه في الوقت عينه يعبد الحجر والصنم.

٥ ـ ويسقط الإنسان في بعض الحالات إلى درجةٍ يرى فيها اتّباع النبيّ المعصوم الذي يؤيّد دعوته بالحجج والمعجزات، يرى اتّباعه ضلالاً وجنوناً، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.

٦ ـ إثارة الشكّ بين الناس، من العوامل الممهّدة للتكذيب بالحقّ وإنكاره، ﴿كَذَّبَتْ... أَبَشَرًا مِّنَّا... أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾.

٧ ـ القرآن ذكرٌ، ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾[1]، كما أنّ ما نزل على الأنبياء السابقين ذكرٌ أيضاً، ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

٨ ـ يتّهم الكافرون المعاندون الأنبياءَ بالكذب والغرور والاعتداد بالنفس، ﴿كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.

٩ ـ الكذب والغرور والأنانيّة من الصفات القبيحة حتّى بحسب تقويم الكافرين المعاندين؛ ولأجل هذا التقويم، يتّهمون الأنبياء والعياذ بالله بهذه الصفات، ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.

١٠ ـ على الدعاة إلى الله أن يوطّنوا النفس على تلقّي أقبح الاتّهامات، ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾.

١١ ـ لا بدّ من الردّ على الكلام البذيء، ﴿فَقَالُوٓا... سَيَعْلَمُونَ﴾.

١٢ ـ يوم القيامة، هو يوم ظهور الحقائق، ويوم فضيحة الكافرين، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾.

١٣ ـ المعجزات هي من وسائل امتحان الناس واختبارهم، ﴿مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾.

١٤ ـ الأنبياء يخضِعون أممهم للرقابة الدائمة، ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾.

١٥ ـ على القادة الدينيين أن يتحلّوا بالصبر والأناة، ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

❑ تقسيم الماء بين الناس والناقة، امتحانٌ إلهيٌّ. وكان على قوم النبيّ صالح عليه السلام أن يراعوا تكليفهم في هذا المجال ولا يقربوا الماء في اليوم المخصّص للناقة. وفي الآية ١٥٥ من سورة الشعراء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

❑ «شرب» أي سهم ونصيب من الماء، وتستخدم كلمة شرب بهذا المعنى للماء.

❑ «تعاطى» التعاطي هو أخذ الشيء الذي لا ينبغي أخذه. وتدلّ هذه الصيغة، التي هي من باب تفاعل، على نوع من التبادل والتفاهم بين القاتل وبين سائر الناس.

❑ «هشيم» العشب اليابس المقطّع. و«محتظر» هو الشخص الذي يعدّ العشب اليابس ويجمعه للأنعام والحيوانات.

❑ على الرغم من أنّ قاتل الناقة كان شخصاً واحداً، فإنَّ القرآن ينسب هذا الفعل إلى الجماعة، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾[1]، وقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾[2]. وذلك لرضا الباقين بفعله، وسكوتهم عنه.

التعاليم:

١ ـ قد يكون تقنين الماء وتوزيعه بين الناس وغيرهم، وسيلة من وسائل الامتحان والاختبار الإلهيّين، ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ﴾.

٢ ـ بعض العاجزين يخشون القيام بالأفعال المنكرة، ولكنّهم يدعون غيرهم من أهل الجرأة إلى فعل ما يعجزون عن فعله، ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾.

٣ ـ إهانة المقدّسات تتوقّف على الجرأة، ﴿صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى﴾.

٤ ـ أهل الشرّ مستعدّون للقيام بقبائح الأفعال، ولا يفوّتون فرصةً مناسبةً لارتكاب شرورهم، ﴿فَنَادَوا... فَعَقَرَ﴾.

٥ ـ ينبغي شكر النعمة وتقديرها، وإن لم يتحقّق التقدير، فالعذاب هو الجواب المناسب، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً﴾.

٦ ـ في نقل الأحداث التاريخيّة بحسب المنهج القرآنيّ، لا أهميّة للزمان والأشخاص، وإنّما المهمّ هو العبرة والدوافع والنتائج. (فلم يذكر الله سبحانه في هذه الآية لا اسم عاقر الناقة، ولا زمان الحادثة، ولا مكانها المحدّد).

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٥٧، سورة الشمس الآية ١٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٧٧.

٧ ـ على الرغم من أنّ القاتل واحدٌ، فإنَّ فعله أدّى إلى هلاك قومه جميعاً، ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ... أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً﴾.

٨ ـ عندما يريد الله، من الممكن أن تزول أمّةٌ كاملةٌ، بصيحةٍ واحدةٍ، ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

٩ ـ من الممكن أن يؤدّي التمرّد والعناد إلى هلاك الأمم، ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

١٠ ـ عندما يحلّ الغضب الإلهيّ، لا يقف شيء في وجهه، ولا يصمد قويٌّ في مواجهته، ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

١١ ـ يقدّم القرآن أدقّ المعلومات التاريخيّة وأصحّها، وأكثرها امتلاءً بالعبر، بلغةٍ سهلةٍ يسيرة الفهم، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠)﴾

إشارات:

- «نذر» جمع نذير بمعنى المنذِر وبمعنى الإنذار أيضاً. و«حاصب» الرياح القويّة التي تحمل معها الرمل والحصى.
- البطش تناول الشيء بصولة. والطمس المحو والإزالة. والمماراة المجادلة.
- يبدو أنّ الأشخاص الذين أرادوا بضيف لوط عليه السلام سوءاً، أصيبوا بالعمى أوّلاً ثمّ أبادهم الله بقلب مدينتهم رأساً على عقب. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّ قوم النبيّ لوط تكاثروا عليه ودخلوا بيته عنوةً، فصاح جبرئيل يا لوط دعهم يدخلوا، فلمّا دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم، وهو قوله: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[١].

---

(١) الكافي، ج ٨، ص ٣٢٩.

□ وردت كلمة «نذر» أربع مرّات في قصّة قوم لوط، كما وردت كلمة «عذاب» ثلاث مرّات، وهذا يشير إلى أهميّة الإنذار قبل نزول العذاب.

التعاليم:

١ ـ وكأنّ الله سبحانه يريد أن يقول لنبيّه محمّد ﷺ، لا تحزن ولا تهتمّ بتكذيبهم إيّاك، فإنّ الأنبياء الذين سبقوك جميعاً تعرّضوا لمثل ما تتعرّض له، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾.

٢ ـ تختلف ثمود وعاد، وقوم لوط وقوم نوح، في خصائص كلّ منهم، إلا أنّ الخصلة المشتركة بينهم هي التكذيب، ﴿كَذَّبَتْ... كَذَّبَتْ﴾.

٣ ـ تكذيب نبيّ واحد بمثابة تكذيب الأنبياء جميعاً، ﴿كَذَّبَتْ... بِالنُّذُرِ﴾.

٤ ـ لا شيء يقيّد يد الله في ما يريد أن يختاره من أصناف العذاب، ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ... رِيحًا صَرْصَرًا... صَيْحَةً وَٰحِدَةً... حَاصِبًا﴾

٥ ـ يتولّى الله نجاة المؤمنين في موارد عدّة، ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾.

٦ ـ عندما ينزل العذاب لا يحرق الأخضر واليابس، والغثّ والسمين دائماً، ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾.

٧ ـ لا تنحصر النعمة في الأمور المادّيّة، بل إنّ النجاة من العذاب من أهمّ النعم التي يمنّ الله بها على من يستحقّها، ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

٨ ـ الإيمان بالأنبياء شكر لله، وسبب من أسباب النجاة، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

٩ ـ يتمّ الله الحجّة أولاً، ثمّ ينزل العذاب، ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾.

١٠ ـ على الرغم من أنّ الإنذار والبشارة كلاهما من مهامّ الأنبياء، فإنّ الإنذار هو الأكثر بين ما يقومون به؛ وذلك لغفلة الناس وحاجتهم إلى من ينبّههم من غفلتهم، ﴿أَنذَرَهُم﴾.

١١ ـ التشكيك في الحقّ وزلزلة اعتقاد الناس به، بمثابة التكذيب، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ... فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾

١٢ ـ التلوّث والفساد لا حدود لهما. (فقوم لوط فعلوا الفاحشة علناً، ولم يكتفوا بذلك، بل تجرّأوا على مراودة النبيّ عليه السلام عن ضيوفه)، ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾.

١٣ ـ عندما يكبر الجرم، لا يجوز تأخير العقوبة، ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ﴾.

١٤ ـ يجب على العين التي تتطلّع إلى ضيوف المعصوم في بيته، وتنظر إليهم بسوء، أن تعمى، ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾.

١٥ ـ عندما يحلّ العذاب الإلٰهيّ لا مجال لإبطال فعله وآثاره، ﴿عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾.

١٦ ـ من الوسائل التي يعتمدها القرآن في التربية والإرشاد، نقل القصص المشتملة على العبر، ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

١٧ ـ لا تغني قراءة القرآن عن تدبّره وإنعام النظر في آياته، ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

إشارات:

- «سيهزم»، أصل الهزم غمز الشيء اليابس حتّى ينحطم كهزم الشنّ، وهزم القثاء والبطيخ ومنه الهزيمة؛ لأنّه كما يعبّر عن ذلك بالحطم والكسر. والداهية المصيبة الكبيرة.
- ينحصر التكذيب الذي صدر عن قوم نوح ولوط، وعن عاد وثمود، بتكذيب الإنذار، وأمّا فرعون وجماعته فقد كذّبوا الإنذار وأنكروا المعجزات.
- تشير هذه الآيات إلى الجماعة الخامسة والأخيرة من الكفّار الذين تتحدث عنهم هذه السورة.
- أسباب الغرور متعدّدة منها:

أ ـ إحساس الإنسان بأنّ عنده من الكمال أو القيمة ما ليس عند غيره من الناس، ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ﴾.

ب ـ ظنّ الإنسان الخاطئ بأنّه في أمن من الغضب الإلٰهيّ والعذاب، ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ﴾.

ج ـ اعتماده على أنصاره وأعوانه، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ من يطع شخصاً يحسب من آله وجماعته، ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾.

٢ ـ كان النظام الاجتماعي السائد في عصر فرعون نظاماً محوره الفرد، ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، وأمّا سائر الأمم فإنّ نظامهم كان نظاماً جماعياً يعتمد على القوميّة والجماعة، ﴿قَوْمِ نُوحٍ... قَوْمِ لُوطٍ﴾.

٣ ـ يتمّ الله الحجّة على الناس، قبل إدانتهم، ﴿جَآءَ... ٱلنُّذُرُ﴾.

٤ ـ شمل التكذيب، الصادر عن فرعون وآله، كلاً من الإنذارات الإلٰهيّة الموجّهة عبر الأنبياء، والمعجزات التي أتوا بها، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾.

٥ ـ الناس هم الذين يصنعون مصائرهم بأيديهم، ﴿كَذَّبُوا۟... فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾.

٦ ـ عندما يسدّ الإنسان سبل الحقّ في وجهه، فلا بدّ من أن ينزل عليه الغضب الإلٰهيّ، ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾.

٧ ـ تقتضي الحكمة التعامل مع المتكبّرين بالطريقة التي تتناسب مع طبائعهم، ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

٨ ـ القدرات والسلطات كلّها إلى زوال، إلا سلطة الله سبحانه واقتداره، ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

٩ ـ الغضب الإلٰهيّ مقرون بالقدرة والصلابة، ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

١٠ ـ ينزل الغضب الإلٰهيّ على الكفّار بسبب كفرهم، ولا تمييز بين كافر وكافر من جهة استحقاقه العذاب ونزول الغضب عليه، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ...﴾.

١١ ـ عندما يكون الداعية في مقام الاستدلال والتبليغ، عليه أن يستدلّ بطريقة تسقط حجج الخصم وادّعاءاته كلّها، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ... أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ... أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾.

١٢ ـ من الأساليب التي يعتمدها القرآن في الدعوة والإرشاد، المزج بين التاريخ، والتهديد، والاستدلال، وبيان المعتقد، فمن التاريخ قوله تعالى: ﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، ومن التهديد: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ... سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ...﴾، والاستدلال في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ... أَمْ... أَمْ﴾، وبيان المعتقد في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

١٣ ـ في مقام الجدال مع الكفّار المعاندين لا بدّ من كسر هيبة الخصم، فالكفّار كانوا يعتقدون أنّ المعيار الأساس في كلّ شيء هو المادّة والماديّات، وكانوا غافلين عن الغيب والأمور الغيبية، ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ... سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾.

١٤ ـ يجب التعامل مع العدوّ المغرور بجدّية وحسم، ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

١٥ ـ الكفر والتكذيب من أسباب التشتّت والتفرقة، في أي أمّة وُجدا، ﴿سَيُهْزَمُ... وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

١٦ ـ على الكفّار الذين يغترّون بجمعهم وعددهم، أن يلتفتوا إلى أنّه لن يدوم هذا الجمع، ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾، وإذا كانوا يحسبون أنّ بعضهم سوف يحمي بعضهم الآخر، فهم واهمون لأنهم ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾.

١٧ ـ يجتمع على الكافرين عذاب الاقتلاع من الأرض، مع عذاب الآخرة الذي ينتظرهم: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾.

١٨ ـ إنّ أشدّ مصائب الدنيا وأعظمها، لا يعدل شيئاً من مصائب الآخرة وشدائدها، ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

١٩ ـ هزيمة الكفّار في الدنيا مقدّمة لعذاب أشدّ في الآخرة، ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ... وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

إشارات:

❑ «يُسحَبون» أي يُجرّون على وجوههم، وسمّي السحاب سحاباً؛ لأن الرياح

تجرّه من مكان إلى آخر. و«سقر» اسم من أسماء جهنّم، وهو في الأصل حرق الجلد من شدّة الحرارة، واللمح ضوء البرق وانطفاؤه.

❑ عن عليّ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، قال: «**إنّا كلّ شيء خلقناه لأهل النار بقدر أعمالهم**»[1].

التعاليم:

١ ـ يبتلى المجرمون يوم القيامة بالضلال والتيه والحيرة، ونار جهنّم، ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، بناء على أنّ المراد من كلمة «سعر» النار.

٢ ـ ليس عاقلاً من يختار بنفسه لنفسه نارَ جهنّم، ﴿فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾، بناء على أنّ المراد من كلمة «سعر» الجنون.

٣ ـ إنكار دين الله والتكذيب به، من أبشع أنواع الجرائم، ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ...﴾.

٤ ـ المغرورون في الدنيا، من الأذلاء في الآخرة، ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ... يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾.

٥ ـ الوجود خاضع للنظام والتقدير الدقيق، ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

٦ ـ كل مظاهر الوجود من ظهور الأمم، وبعث الأنبياء، والعقاب والثواب، يجري وفق نظام دقيق وقواعد محدّدة، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

٧ ـ أعمال الله تتمّ وفق حكمته سبحانه، وبسرعة فائقة، ﴿بِقَدَرٍ... كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)﴾

إشارات:

❑ الأشياع هم الأتباع والموافقون في الفكر والسلوك. «زُبُر» جمع «زبور» وهو الكتاب، و«مستطر» أي مكتوب ومصفوف.

❑ بدأت هذه السورة بالإنذار والتحذير، وختمت به.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٨٦.

التعاليم:

١ ـ سنّة الله في عذاب الكفّار تجري على الجميع على حدٍّ سواء، ﴿أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾.

٢ ـ علينا أن نأخذ التهديد الإلٰهيّ على محمل الجدّ.

٣ ـ على العاقل أن يأخذ العبر من أحداث التاريخ، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

٤ ـ لا يمكن أن يضيع أي عمل من أعمال الإنسان أو يسقط من الحساب، ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾.

٥ ـ ضبط الأعمال وإحصاؤها مبعث أمل للمتّقين، ومصدر قلق وخوف للمجرمين، ومعيق عن الكفر والمعصية، ﴿فِي ٱلزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾.

٦ ـ الأعمال التي تحصى تدوّن بطريقة منظّمة، ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾.

٧ ـ تتمّ محاكمة الناس، يوم القيامة، على أساس الوثائق والشواهد الموثّقة ضدّهم، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾.

٨ ـ ينعم الله على المتّقين، يوم القيامة، بالنعم الماديّة، ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾، وبالنعم المعنوية، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

٩ ـ الله سبحانه مقتدر، في كل من حالتَي غضبه، ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ولطفه: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

١٠ ـ تعجّ الجنّة وتمتلئ بالصدق والوفاء، ولا محلّ فيها للغلّ والكراهية، ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الرَّحۡمَٰنِ

السورة: ٥٥ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٧٨



ملامح سورة الرحمن

سورة الرحمن، عدد آياتها ثمان وسبعون آيةً. وهي من السور المدنيّة.

وقد سمِّيت بهذا الاسم بالنظر إلى الكلمة الأولى منها بعد البسملة. وكلمة «الرحمن» اسم من أسماء الله سبحانه، ومن الصفات الخاصّة به تعالى.

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: **«لكلّ شيءٍ عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»**[1].

تتكرّر آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، في هذه السورة ثلاثاً وثلاثين مرّةً، وهي الآية الأكثر تكراراً في القرآن كلّه. والملفت في هذه السورة أنّها تتوجّه بالخطاب إلى الإنسان والجنّ على حدٍّ سواء. وتسائلهم أيّ النعم الإلٰهيّة يمكنهم إنكارها وتكذيبها؟

والأمر المشترك بين هذه السورة وسابقتها، هو تكرار الإشارة إلى العذاب والإنذار في السورة السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وفي هذه السورة يتكرّر السؤال عن النعم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا...﴾.

والسورة السابقة تبدأ بالحديث عن يوم القيامة، وتُختم بالإشارة إلى القدرة الإلٰهيّة التامّة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ... مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾، وأما هذه السورة فتبدأ بالحديث عن رحمة الله وتختم بالإشارة إلى جلال الله وإكرامه: ، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ... ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٤، ص ٣٥١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾

إشارات:

❑ الله سبحانه رحمان، ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾.

رسول الله مصدر الرحمة ومنشأها، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

القرآن أيضاً رحمة للناس ولا سيّما المؤمنين منهم: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

❑ «الرحمن» من الأسماء الخاصة بالله سبحانه، وقد ورد في القرآن الكريم ١٦٩ مرّةً، كما تكرّرت عبارة «بسم الله» ١١٤.

❑ في بعض الموارد من القرآن الكريم، استعمِلت كلمة «الرحمن» محلّ اسم «الله»:

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[3] وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾[4].

وكما في قوله تعالى: ﴿أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾[5] وقوله: ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾[6].

وأخيراً في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾[7].

❑ من المعروف أنّ عنوان الكلام دالّ على مضمونه، وفي هذه السورة لـمّا كان المراد الحديث عن النعم الإلٰهيّة، فقد بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾.

❑ القرآن يجب أن يكون المحور والمعيار، ففي سورة القمر حدّثنا الله عن تيسير

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٢.
(٣) سورة البقرة: الآية ١١٦.
(٤) سورة مريم: الآية ٨٨.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٤٧.
(٦) سورة مريم الآية ٤٥.
(٧) سورة الاسراء: الآية ١١٠.

القرآن فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾، وفي هذه السورة يحدثنا عنه بأشكال مختلفة، إذ يبدأ بنسبة تعليم القرآن إليه، فيقول: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

□ العلم الذي تتجلّى فيه الرحمة هو العلم الذي يعلّمه الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ﴾.

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي يكون تبياناً لكلّ شيء، ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1].

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي لا يُطلَبُ عليه الأجر، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ﴾.

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي ينفع في كلّ وقت وزمان.

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي يولّد التقوى وينير البصيرة.

العلم الذي تتجلى فيه الرحمة هو العلم الذي يضمن سعادة الفرد والمجتمع.

□ تعليم الله القرآنَ، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، يعني في ما يعنيه:

تعليم الحقّ، ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[2].

تعليم الحكم، ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

تعليم ما لا يمكن تعلّمه من الطرق العادية المتعارفة، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[4].

تعليم البرهان، ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾[5].

تعليم العمل الصالح، ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ... إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[6].

تعليم الموعظة والهدى والرحمة، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[7].

تعليم الغيب، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾[8].

---

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣.
(٣) سورة النساء: الآية ١٠٥.
(٤) سورة النساء: الآية ١١٣.
(٥) سورة النساء: الآية ١٧٤.
(٦) سورة الأعراف: الآية ١٧٠.
(٧) سورة يونس: الآية ٥٧.
(٨) سورة يوسف: الآية ١٠٢.

تعليم أحسن القصص، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[١].

تعليم الحقائق والتعريف بها، ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٢].

تعليم الأفضل والأحسن، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٣].

تعليم الميزان الذي يظهر الفرق بين الحقّ والباطل، ﴿أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[٤].

تعليم الأمور المصونة من التحريف، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[٥].

تعليم الموعظة، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾[٦].

تعليم الرشد، ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾[٧].

تعليم الكتاب الذي يتعهّد الله بحفظه وحمايته، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٨].

□ **مصدر القرآن ومنشأه:**

القدرة والعظمة، ﴿تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾[٩].

العزّة والحكمة، ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١٠].

اللطف والرحمة، ﴿تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[١١].

الربوبيّة والرشد، ﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٢].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣.
(٢) سورة النحل: الآية ٨٩.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٣٣.
(٤) سورة الشورى: الآية ١٧.
(٥) سورة فصلت: الآية ٤٢.
(٦) سورة ق: الآية ٤٥.
(٧) سورة الجن: الآية ٢.
(٨) سورة الحجر: الآية ٩.
(٩) سورة طه: الآية ٤.
(١٠) سورة الزمر: الآية ١.
(١١) سورة فصلت: الآية ٢.
(١٢) سورة الواقعة: الآية ٨٠.

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه هو معلّم القرآن الأوّل، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٢ ـ الشريعة مبنيّة على الرحمة، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٣ ـ على الداعي أن يردّ الشبهات التي توجّه إلى الدين والفكر الدينيّ، فمن يتّهم النبيّ بأنّه تعلّم القرآن من البشر، ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾[1]، ينبغي أن يقال له: إنّ الله هو معلّم النبيّ ﷺ، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٤ ـ تعليم الإنسان القرآنَ، هو من تجلّيات الرحمة الإلٰهيّة ومظاهرها، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٥ ـ التعليم من الشؤون والصفات الإلٰهيّة، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٦ ـ ينبغي أن تكون ممارسة مهمّة التعليم، مقرونة بالرحمة، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

٧ ـ القرآن كتابٌ يمكن فهمه وتعلّمه، ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾

إشارات:

◻ خَلْقُ الإنسان جدير بالتأمّل والانتباه من جهاتٍ عدّة:

من جهة التكامل، وكيف يبدأ من التراب ويتحوّل إلى مخلوق حيٍّ عاقلٍ وحسّاس.

من جهة تأمين حاجاته المادّيّة، من الطبيعة التي سخّرها الله سبحانه له.

من جهة الميول الإيجابيّة والسلبيّة الموجودة في تركيبته النفسيّة والعاطفيّة:

ـ سرعان ما يقنط ويُصاب باليأس، ﴿هَلُوعًا﴾[2].

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) سورة المعارج: الآية ١٩.

- بخيل، ﴿قَتُورًا﴾[(١)].

- قليل التحمّل، ﴿جَزُوعًا﴾[(٢)].

- في خسر، ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾[(٣)].

- يرغب في تجاوز الحدود المرسومة له، ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾[(٤)].

- ميّال إلى الظلم، ﴿ظَلُومًا﴾[(٥)].

- يتصرّف بجهالة، ﴿جَهُولًا﴾[(٦)].

- متسرّع، ﴿عَجُولًا﴾[(٧)].

- لا يشكر النعمة، ﴿كَفُورًا﴾[(٨)].

- لا يقدّر الأمور حقّ قدرها، ﴿لَكَنُودٌ﴾[(٩)].

وفي القرآن آيات أخرى تصف الإنسان بطريقة مختلفة، وتشير إلى خصائصه الإيجابيّة، من قبيل:

- تحمّله المسؤوليّة، وحريّته، قدرته على الاختيار؛

- قدرته على تغيير أوضاعه السيّئة إلى الأحسن بالتوبة؛

- توفّره على الاستعدادات والقدرات الكبيرة على المستوى الباطني؛

- ميله إلى المطلق؛

- استخلاف الله إيّاه في الأرض؛

- استحقاقه سجود الملائكة له؛

- قدرته على التقليد والاقتداء بالقدوات الحسنة؛

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٠٠.

(٢) سورة المعارج: الآية ٢٠.

(٣) سورة العصر: الآية ٢.

(٤) سورة العلق: الآية ٦.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(٦) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

(٧) سورة الإسراء: الآية ١١.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٦٧.

(٩) سورة العاديات: الآية ٦.

- اشتماله على تركيب من الأضداد، كالعقل والفطرة، في مقابل الغريزة والشهوة؛
- توفّره على ملكة التفكّر والخلاقيّة والإبداع.

❑ لمّا كان السياق هو سياق الحديث عن تعليم القرآن، فإنّ الله سبحانه ذكر القرآن قبل الإنسان وخلقه، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ ولكن عندما يكون السياق سياق الحديث عن الإنسان والعلوم الأخرى غير القرآن، فإنّ الله يذكر خلق الإنسان قبل التعليم، فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ... ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾[1].

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه هو خالق الإنسان وليس الطبيعة غير العاقلة، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ... خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

٢ ـ يعدّ خلق الإنسان من تجلّيات الرحمة الإلٰهيّة، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ... خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

٣ ـ صاحب كتاب التشريع، هو ذاته صاحب كتاب التكوين، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ... خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

٤ ـ القرآن أكرم من الإنسان وأشرف (الفكر والمعرفة، أهمّ من الجسد المادّيّ)، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

٥ ـ القرآن أفضل الكتب السماويّة، والإنسان أفضل المخلوقات، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ... خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

٦ ـ يتكامل خَلْقُ الإنسان بتعلّمه القرآن، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ... خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

---

(١) سورة العلق: الآيات ٢ ـ ٤.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾

إشارات:

- عن عليّ عليه السلام: **«لا تجعلنّ ذرب لسانك على من أنطقك، وبلاغة قولك على من سدّدك»**[1].
- القدرة على البيان، من المواهب الإلهيّة للإنسان، وقد أقرّ الله مجموعة من الضوابط والقواعد لاستغلال هذه النعمة، ومن ذلك:
  - أن يكون القول سديداً، ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾[2].
  - أن يكون معروفاً، ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[3].
  - أن يكون ليّناً، ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[4].
  - أن يكون بليغاً، ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾[5].
  - أن يكون كريماً، ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾[6].
  - أن يكون حسناً، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[7].
  - أن يكون الأحسن، ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[8].

بل دعا الله إلى اعتماد الطريقة الأحسن، حتّى في حالات الجدل والخصام، ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[9].

التعاليم:

١ ـ العلم هو أحسن الكمالات التي منّ الله بها على الإنسان، ﴿عَلَّمَ... عَلَّمَهُ﴾ (إذ ذكر الله العلم والتعليم قبل ذكر الخلق وبعده).

---

(١) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة ٤١١.
(٢) سورة النساء: الآية ٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣٥.
(٤) سورة طه: الآية ٤٤.
(٥) سورة النساء: الآية ٦٣.
(٦) سورة الإسراء: الآية ٢٣.
(٧) سورة البقرة: الآية ٨٣.
(٨) سورة الإسراء: الآية ٥٣.
(٩) سورة النحل: الآية ١٢٥.

٢ ـ ليس المهمّ هو اللغة التي يتكلّم بها الإنسان، بل المهمّ هو القدرة على الكلام والبيان، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

٣ ـ اللسان وسيلة للبيان ليس أكثر، وأمّا البيان نفسه، فهو هبة من الله، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

٤ ـ دور الأب والأمّ لا يتجاوز التدريب ونقل خاصّيّة البيان، الممنوحة من الله، من حالة الاستعداد والقوّة إلى حالة الفعل، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

٥ ـ يقع خلق الإنسان بين تعليمين إلهيّين، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

٦ ـ القدرة على البيان من تجلّيات الرحمة الإلٰهيّة، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ... عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

٧ ـ على من يجيد التكلّم بلغة واحدة أو أكثر أن يلتفت إلى قدر هذه النعمة الإلٰهيّة، ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

٨ ـ العلم الذي يستحقّ أن يمدح هو العلم الذي يمكن بيانه، ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ... عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾

إشارات:

- «حسبان» على وزن غفران، مصدر من الحساب. والمراد هو خضوع حركة الشمس والقمر لحسابات دقيقة، ومن ذلك وزنهما، وحجمهما، وحركتهما، ومدار هذه الحركة، والمسافة التي تفصل بينهما، وبينهما وبين سائر الأجرام السماويّة، ومقدار حركتهما سرعة وزمناً، والتأثير المتبادل بينهما، والكسوف والخسوف، ومدتهما.

- «النجم» هو كل نبات يخرج من الأرض وليس له جذع، وما له جذع يسمّى «شجراً» وتدلّ كلمة نجم كما هو معروف على الجرم السماوي المضيء، ولكنّ المراد منها هنا المعنى الأوّل، والقرينة على ذلك ذكر النجم مع الشجر.

□ يستفاد من آيات القرآن الكريم، أنّ الكواكب والأجرام السماويّة كلّها ومنها الشمس والقمر، تتحرّك في مدار محدّد لا تحيد عنه: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]. ولها عمر محدود لا تؤجّل بعده: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[2].

□ ينتج الليل والنهار، والشهور والفصول، عن حركة الشمس والقمر، وهي حركة تبدو في ظاهرها بسيطة يمكن إدراكها وحسابها، إلا أنّها في الوقت عينه غاية في الدقّة. وقد ربط الله الأعمال العباديّة بهذه الحركة، فربط بين حركة الشمس والصلاة والصوم؛ يقول سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾[3]؛ ويقول أيضاً: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[4]، وعن الصوم يقول عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[5]. وورد في الحديث عن النبيّ ﷺ: «**صم للرؤية وأفطر للرؤية**»[6].

□ ربّما يكون المراد من سجود النباتات، الخضوع التكوينيّ لهذه المخلوقات بين يدي الله تعالى؛ إذ إنّه سبحانه وضع لها مسيراً ومساراً محدّداً، لا تحيد عنه ولا تميل.

التعاليم:

١ ـ السماوات والأرض، وما فيهنّ من مخلوقات، خاضعةٌ لإرادة الله، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ... وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ﴾.

٢ ـ النباتات، وغيرها من الكائنات الحيّة، مرهونة في وجودها واستمرارها للشمس والقمر، ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ... وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٣، وسورة يس: الآية ٤٠.

(٢) سورة الرعد: الآية ٢؛ وسورة فاطر: الآية ١٣؛ وسورة الزمر: الآية ٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٤) سورة طه: الآية ١٣٠.

(٥) سورة البقرة: الآية ١٨٧.

(٦) وسائل الشيعة، ج ١٠، ص٢٥٧.

٣ ـ الموجودات كلّها خاضعة للنظام الأكمل الذي أقرّه الله في الوجود، ﴿بِحُسْبَانٍ... يَسْجُدَانِ﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

إشارات:

- تحدّثت الآيات السابقة عن الرحمة الإلٰهيّة وتعليم البيان والحسابات التي يخضع لها القمر والشمس، وفي ذلك شكل من أشكال بيان العلاقة بين الله ومخلوقاته؛ وهذه الآيات تتحدّث عن العلاقة بين الإنسان والمجتمع.
- القسط في الميزان هو الحدّ العادل بين الزيادة والنقيصة.
- يوجد بين الكتاب والميزان تلازم تشير إليه هذه الآيات، بقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ... أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾، ويقول سبحانه في سورة الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾.
- يدلّ التكرار على الأهميّة والاهتمام. وقد تكرّرت الإشارة إلى الميزان في هذه الآيات ثلاث مرّات، وهذا يكشف عن ضرورة الالتفات إلى المعايير والموازين في التصرّفات كلّها، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ... وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾.
- عدم الالتفات إلى الميزان، بما هو معيار لأداء الحقوق والقيام بالواجبات، يؤدّي إلى الفسق والفجور، وهذان يؤدّيان إلى التكذيب. يقول سبحانه وتعالى، في سورة المطفّفين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، ثمّ يقول بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، ويختم بالقول: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وكأنّ اللقمة الحرام مقدّمة للفجور، والفجور باب يدلف منه الإنسان إلى الكفر والتكذيب ومنه إلى جهنّم.
- لقد اهتمّ الإسلام بتحقيق العدالة إلى أقصى الحدود التي يمكن تصوّرها،

وخصوصاً في مجال القضاء، بدءاً من شروط القاضي والشهود، إلى آداب القاضي الذي نُهِي عن القضاء مثلاً إذا كان يلبس حذاءً ضيّقاً؛ خشية أن يدعوه ذلك إلى العجلة في الحكم من دون تأمّل.

آداب التجارة:

ورد في الحديث الشريف: «**التاجر فاجر والفاجر في النار، إلا من أخذ الحقّ وأعطى الحقّ**»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام، في الدينار المغشوش، يقول: «**ألقه في البالوعة حتّى لا يباع بشيء فيه غشّ**»[2].

وكان عليه السلام، يتردّد إلى أسواق الكوفة وينادي بالتجّار: «قدّموا الاستخارة، وتبرّكوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزيّنوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم»[3].

التعاليم:

١ ـ موقع السماوات والأرض لم يكن عشوائياً، فرفْع السماء وحجمها والمسافات التي تفصل بين النجوم والكواكب، وغير ذلك من التفاصيل المتعلّقة بالنظام الحاكم على الكون، ما هو إلا تجلّ من تجلّيات الرحمة والحكمة الإلهيّة، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ... وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

٢ ـ العدالة كالصلاة، لا بدّ من إقامتها في المجتمع، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ﴾.

٣ ـ يجب أن يكون الميزان عادلاً مهما كان الموزون، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٤ ـ نظام الكون قائم على أساس موازين العدل، يجب أن تكون حياتنا قائمة على أساس هذا الميزان، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ... أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾.

(١) الكافي، ج ٥، آداب التجارة.
(٢) الكافي، ج٥، ص ١٦٠.
(٣) الكافي، ج٥، ص ١٥١.

٥ ـ العدل والتوازن في الكون هما أحد أسباب ثباته وبقائه، والعدل في المجتمع من أسباب استقرار المجتمعات وثباتها، ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ... أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾.

٦ ـ تحتاج المجتمعات لتصل إلى الفلاح إلى جناحين، أحدهما العلم والآخر العدل. (وفي المجتمعات المعاصرة، مع الأسف، يوجد أحد الجناحين من دون الآخر، فالعلم متوفّر بكثرة، وأمّا العدالة فهي مفقودة)، ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ... أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾.

٧ ـ السبيل للوصول إلى العدالة هو العمل بالقرآن، ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ... أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾.

٨ ـ المطلوب في الأعمال كلّها أن تكون بعيدة عن الإفراط، ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾، والتفريط، ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ﴾.

٩ ـ مفهوم الإخسار ينطبق على العمل ولا يختصّ بالبيع وحده، فعمل موظّفي الدولة، أو غيرها من المؤسّسات، لا يجوز أن يكون أقلّ من الحدّ الواجب، والأمر عينه ينطبق على العلماء في مجال الدعوة والتبليغ، ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- «الأنام» المخلوقات وتشمل الإنس والجنّ وسائر الموجودات الأرضيّة. و«الريحان» هو كلّ نباتٍ حسن الرائحة.
- «الأكمام» جمع «كمّ» وهو الغلاف الذي يحيط بالورد أو الغصن الجديد قبل ظهوره، وتستخدم هذه الكلمة في كمّ القميص الذي يحيط باليد. وربّما كان المراد بالأكمام في الآية خصوص الألياف التي تحيط ببعض النباتات كالألياف

التي تحيط بالتمر قبل ظهوره.

- «الحبّ» معروف كالقمح والعدس وغيرهما من الحبوب، و«العصف» هو أوراق الشجر وغصونه التي تفصل عنه.
- «آلاء» جمع «إلى» وهي النعمة.
- تكرار السؤال يشير إلى أنّ الإنسان والجنّ لا يعترفان بهذه النعم الإلٰهيّة كما ينبغي.
- ورد في الحديث الدعوة إلى قول: «**لا بشيء من آلائك ربّ أكذّب**»، بعد قراءة قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[(١)].

بحث التكرار:

تجدر الإشارة إلى قضيّة التكرار بمناسبة ورود هذه الآية التي سوف تتكرّر مرّات عدّة في هذه السورة. والتكرار له أسبابه وموجباته، كما له فوائده وآثاره.

التكرار الإيجابيّ:

التكرار من الوسائل المهمّة لتأكيد الثقافة الجديدة.

فالنبيّ ﷺ كرّر مرّاتٍ عدّة الحديث عن أهل بيته، ليؤكّد على المسلمين الاهتمام بهم، واتّباعهم، فقال: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي».

وبعد نزول قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾[(٢)]، ظلّ النبيّ ﷺ أشهراً ينادي كلّما مرّ عند الصباح ببيت عليّ وفاطمة عليهما السلام، «**الصلاة الصلاة**»[(٣)]، وذلك ليؤكّد أهميّة الصلاة، ويلفت نظر الناس إلى أنّ أهل هذا البيت هم أهلي.

وفي علل الشرائع: «فإن قال قائل: فلم جُعِل التكبير في أوّل الأذان أربعاً؟ قيل: لأنّ أوّل الأذان إنما يبدأ غفلة وليس قبله كلام، ينبّه المستمع له فجُعِل الأوّلين تنبيهاً للمستمعين لما بعده في الأذان»[(٤)].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٣٠٦.

(٢) سورة طه: الآية ١٣٢.

(٣) بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٢٠٧.

(٤) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج ١، ص ٢٥٩.

وقد كرّر الإمام عليّ عليه السلام لفظ الجلالة أكثر من مرّة في وصيّته لأولاده قبيل وفاته، فقال: «**الله الله في الأيتام، الله الله في جيرانكم، الله الله في الصلاة، الله الله في القرآن**»[١].

تكرار الصلاة في الليل والنهار، يراد به اقتراب الإنسان من الله، وذلك أشبه ما يكون بحركة الإنسان الذي يصعد السلّم، فقد تبدو حركته تكراريّة ولكنّها في الواقع تكامل وتطوّر، يؤدّي بالإنسان إلى القرب، كما في وصف حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٢].

تكرار الدعوة إلى التقوى في خطبتي الجمعة، من هذا الباب أيضاً، وهو يدلّ على أهمّية التكرار في التربية والإرشاد.

بل إنّ بقاء الحياة الإنسانية، مرهونٌ بتكرار التنفّس مرّة بعد أخرى، والأمر عينه يقال عن التكرار في القضايا الأخلاقيّة، فالإنفاق لمرّة واحدةٍ لا يجعل الإنسان كريماً، بل تكرّر الإنفاق هو الذي يضفي صفة الكرم على المنفق.

دواعي التكرار في القرآن:

للتكرار في القرآن دواعٍ عدّة، منها التكرار من أجل التذكير بالنعمة، كما في قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وفي بعض الحالات يكون الغرض من التكرار التهديد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[٣].

وفي بعض الحالات ربّما يكون الغرض من التكرار تأسيس ثقافة جديدة، كما في تكرار البسملة مطلع كلّ سورة.

وأحياناً ربّما يكون الغرض من التكرار إتمام الحجّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٤].

---

(١) نهج البلاغة، باب الكتب، ٤٠.
(٢) سورة النجم: الآيتان ٨ ـ ٩.
(٣) سورة المرسلات: الآية ١٥.
(٤) سورة القمر: الآية ١٥.

ومن الأغراض الداعية إلى التكرار الأنس وتأكيد الفكرة، كما في قوله تعالى ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[1].

ومن دواعي التكرار اختلاف المطالب المراد بيانها، كما في تكرار الخطاب بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إلى غير ذلك من الأسباب التي تختلف باختلاف الآيات والمضامين التي تحملها.

التعاليم:

١ ـ الوجود له مدبّر واحد، وليس كما يعتقد المشركون بإله لكلّ مظهر من مظاهر الطبيعة، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا... وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾.

٢ ـ خُلِقت الأرض من أجل خدمة المخلوقات التي عليها ومن هذه المخلوقات الإنسان، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

٣ ـ يذكر الله سبحانه النعم المعنويّة قبل النعم الماديّة، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ... عَلَّمَهُ الْبَيَانَ... فِيهَا فَاكِهَةٌ...﴾.

٤ ـ للفاكهة دور مهمّ في غذاء الإنسان، إذ ذُكِرت بعد الأرض مباشرةً، وكأنّها تتلوها في الأهمّيّة، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ... فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾.

٥ ـ ربّما يدلّ فصل التمر عن سائر الفاكهة، وتخصيصه بالذكر، على كونه أهمّ من سائر أنواع الفاكهة، ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ﴾.

٦ ـ ليست الفاكهة وحدها، أو الحبّ وحده هما النعمة، بل أكمام الفاكهة وأوراق الشجر كلّها نعمٌ إلهيّة يجب على الإنسان شكرها، ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ... وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾.

٧ ـ النباتات العطريّة من النعم الإلٰهيّة أيضاً، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾.

٨ ـ يترتّب على التكذيب بآيات الله لوم وعتاب، فضلاً عن العقاب، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤١.

٩ ـ الجنّ، كما الإنسان، مسؤول عن النعم الإلٰهيّة الموجودة في السماوات والأرض، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

١٠ ـ النعم التي منّ الله بها على الإنسان والجنّ، يراد بها تربية هذين الصنفين من المخلوقات ورشدهما، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- «الصلصال» الطين المجفّف، والفخار هو الجرار الخزفيّة؛ وأصل المرج الاختلاط، و«مارج» من نار أي لهيب مختلط.
- يعبّر القرآن الكريم عن خلق الإنسان بطرق شتّى، نشير إلى بعضها في ما يأتي:

١ ـ التراب، ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[١].

٢ ـ التراب الممزوج بالماء (الطين)، ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[٢].

٣ ـ الطين السيّئ الرائحة، ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٣].

٤ ـ الطين الجافّ، ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[٤].

- الجنّ مخلوق من مخلوقات الله غير المرئيّة، ويذكر القرآن بعض المعلومات عنه، ومن ذلك خلقه من نار، في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾. بينما يحدّثنا الله سبحانه عن خلق الإنسان من طين، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾.

ويخبرنا عن خلق الجنّ قبل خلق الإنسان، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ

---

(١) سورة الحج: الآية ٥.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٢.
(٣) سورة الحجر: الآية ٢٨.
(٤) سورة الرحمن: الآية ١٤.

مِن قَبۡلُ﴾[1] وعن انقسامه، كما الإنسان، إلى: مؤمن وكافر، وذكر وأنثى، وعن توالده وتناسله، وعن علمه وشعوره، وقدرته على التمييز بين الحقّ والباطل، وعن قدرته على القيام بما يعجز الإنسان عن فعله، وأخيراً عن موته وبعثه للحساب بعد الموت.

التعاليم:

١ ـ النظر إلى الماضي من العوامل المساعدة على تثبيت الإيمان والتواضع، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ...﴾.

٢ ـ يخلق الله الكائنات الحيّة من مادّة باردة لا روح فيها ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾، ومن مادّة حارّة لا روح فيها أيضاً ﴿مَّارِجٖ﴾، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ... وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾.

٣ ـ منشأ الإنسان مادّة لا قيمة لها ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾ (وربّما يكون التنكير مشيراً إلى قلّة القيمة).

٤ ـ الجنّ مخلوقٌ وموجودٌ واقعيّ، على الرغم من أنّنا لا نراه ولا نشعر بوجوده، ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾.

٥ ـ الإنسان والجنّ من المخلوقات الأرضيّة، ومن أصول مادّية، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ... وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾.

٦ ـ التكذيب بالنعمة وإنكارها من الأسباب المؤدّية إلى اللوم والتأنيب، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾

إشارات:

□ للشمس مشارق ومغارب متعدّدة تختلف باختلاف أيام السنة، ولكنّ الله سبحانه في الآية ١٧ يتحدّث عن مشرقين ومغربين فقط، وقد يكون المراد الإشارة إلى

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٧.

أقصى نقطتين للشروق ومثله للغروب مع السكوت عمّا بينهما. وهذه الحركة ينتج عنها الليل والنهار والفصول. ويرى بعض المفسّرين أن المراد من الآية هو مشرقا الشمس والقمر ومغربهما[١].

□ وعن الإمام عليّ عليه السلام: **«وأمّا قوله ربّ المشرقين وربّ المغربين، فإنّ مشرق الشتاء على حدّه ومشرق الصيف على حدّه، أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها؟»**[٢].

التعاليم:

١ ـ تستوي إحاطة الله ومعرفته بشرق العالم وغربه، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾.

٢ ـ في القرآن إشارة ودعوات للإنسان إلى التعرّف على الكون واكتشاف أسراره، ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ... ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾.

٣ ـ يدعو القرآن الإنسانَ إلى التعرّف إلى آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ... رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ... وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾.

٤ ـ مظاهر الطبيعة نعمةٌ للإنسان والجنّ، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٥ ـ حركة الأرض تسبّب الشروق والغروب، وهذا الأمر من النعم الإلٰهيّة على الإنسان، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

□ «مرج» أي أطلق وترك، و«البرزخ» الحاجز بين الشيئين، و«اللؤلؤ» نوع من

(١) تفسير نمونه.
(٢) نور الثقلين، ج٥، ص ١٩٠.

الجواهر يتشكّل داخل الصدف في البحار، و«المرجان» حيوان بحريّ يستخدم للزينة، وتطلق الكلمة على اللؤلؤ الصغير الحجم أيضاً.

- «البحر» مجمع الماء الكثير، وتطلق على كلّ ماء كثير حتى لو لم يكن مالحاً. والمراد من البحرين في الآية الماء العذب والماء المالح، وفي آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[1].

- وردت عبارة: «مرج البحرين» في القرآن مرّتين، مرةً في الآية ٥٣ من سورة الفرقان، ومرةً في هذه السورة. في سورة الفرقان يحدّثنا الله سبحانه عن الجهاد الأكبر، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، ثم يقول: ﴿﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ... وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ وأما في هذه السورة فيحدّثنا أوّلاً عن الميزان والحساب والعدل، ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ... وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ... وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾، ثمّ يقول سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، وبين الآيات تناسب واضح، فإنّ عدم اختلاط الماءين من لوازم العدل ومقتضياته، وعندما يسود العدل والعدالة تخرج الأرض والبحار والسماوات خيراتها، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

- دين الإسلام هو دين الفطرة، والله سبحانه كتب على نفسه، في مجال الخلق والتكوين، تلبية جميع الحاجات الفطريّة للإنسان، ومنها إشباع الحاجة إلى الزينة والتجمّل؛ ولذلك خلق له الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة في البرّ والبحر.

- لم تستخدم كلمة «له» مع سائر النعم التي ذُكِرت سابقاً، واستخدمت عند الحديث عن السفن، ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾، وربّما كان في ذلك لفت لنظر الإنسان إلى ملك الله سبحانه لكلّ شيء حتّى ما يصنعه الإنسان بيديه، وذلك أنّ الإنسان وقدرته وفكره وخبرته، والموادّ الأوّليّة التي يستخدمها لصناعة السفن، مملوكةٌ له سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٢.

□ استشهد الإمام عليّ عليه السلام بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، ليدعو أحد أصحابه إلى الاستفادة من نعم الدنيا، فاعترض عليه بقوله: «يا أمير المؤمنين فعلى ما اقتصرت في مطعمك على الخشونة، وفي ملبسك على الخشونة؟ فقال: **ويحك إنّ الله عزّ وجلّ فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره**»[1].

□ عن الإمام الصادق عليه السلام، في تفسير قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، قال: **علي وفاطمة بحران عميقان لا يبغي أحدهما على صاحبه،** ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ **الحسن والحسين عليهما السلام**.

التعاليم:

١ ـ الكون، بما فيه من سماء وأرض وبحار، مدرسةٌ للتوحيد، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا... وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا... مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ...﴾.

٢ ـ البحر نعمةٌ من الله على الإنسان والجنّ، سواء أكان يسكن على سواحل البحر أم كان بعيداً عنها، ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ... فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾.

٣ ـ في كلّ شيء آيةٌ لله تدلّ على وجوده، وتكشف عن قدرته، فماء البحر وماء النهر يتلاقيان ولا يختلط أحدهما بالآخر، ويبقى ماء البحر مالحاً وماء الأنهار والينابيع عذباً، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾.

٤ ـ الاستفادة من النعمة تتوقّف على الجهد والسعي، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ...﴾.

٥ ـ الماء والتراب مصدر لكلّ ما تتوقّف عليه الحياة الإنسانيّة، بل مصدر للكماليات أيضاً، ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ... وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ... يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

٦ ـ البحر طريق مجاني للمواصلات استفاد منه الإنسان منذ القدم، وفي هذه الآية يلفت الله سبحانه نظر الإنسان إلى هذه النعمة العظيمة، ويذكّره بها، ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ٦٠١.

٧ ـ نعمة البحر، وكونه وسيلة للسفر والانتقال بين أطراف الأرض، من النعم العظيمة، التي يستحقّ منكرها التأنيب والتوبيخ، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ومن هنا تكرّر هذا التأنيب ثلاث مرّاتٍ في هذه الآيات.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

- يقول سبحانه في الآية ١٨٥ من سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، ويقول في الآية الأخيرة من سورة القصص: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وفي هذه السورة يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.
- عدّدت الآيات السابقة النعمَ الإلٰهيّة على المخلوقات، وفي هذه الآيات يذكّرنا الله بأنّ العمر ينفد والفرصة قصيرة على الإنسان أن يستغلّها، فكلّ الأشياء إلى فناء.
- على الرغم من أنّ الموجودات المادّيّة كلّها تسير إلى الفناء، فإنّ الأعمال التي يقصد بها وجه الله تبقى وتدوم.

التعاليم:

١ ـ الموت قانون عامّ شامل ينطبق على جميع الكائنات الحيّة، بل وغير الحيّة أيضاً، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

٢ ـ على الإنسان أن يعتمد على الله وحده، فما سواه لا دوام له ولا استقرار، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

٣ ـ قيمة الإنسان بقربه من الله، وعمله لوجهه، وليست بما يملك من ثروةٍ أو جاه، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

٤ ـ الموت خطوة في مسيرة تربية الإنسان، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾.

٥ ـ النبيّ تحت عناية الله ورعايته الخاصّة، ﴿رَبِّكَ﴾.

٦ ـ موت الكائنات ليس دليلاً على نقصٍ عند الله أو قصور في قدرته، فهو

سبحانه الأجلّ الأكرم، المنزّه عن كل أشكال النقص، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ... ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

٧ ـ الجلال والمهابة الإلٰهيّة مقترنان بالكرم والرحمة، ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

٨ ـ الموت ليس شرًّا، بل هو نعمةٌ من النعم الإلٰهيّة، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ... فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ (إذ لم يرد في هذه الآيات حديث عن أيّ نعمةٍ ماديّةٍ ومع ذلك يقول الله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ...﴾).

٩ ـ الموت ليس حكراً على الإنسان وحده، فالجنّ أيضاً تموت؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّكُمَا﴾، والضمير يعود على الإنس والجنّ، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ... فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

إشارات:

- الطلب والسؤال، تارة يكونان بلسان الحال وأخرى بلسان المقال، والإنسان سواء طلب بلسانه وأظهر حاجته إلى الله، أم لم يفعل، هو محتاج إليه سبحانه وحاله حال السائل دائماً.

- المراد من اليوم في الآية هو مطلق الزمان؛ لأنّ الله سبحانه خارج إطار الزمان والمكان.

- ورد في الحديث في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: **«من إحداث بديع لم يكن»**[1].

- عن الإمام عليّ عليه السلام، بمناسبة تلاوته قوله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ **«من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»**[2].

---

(١) الفيض الكاشاني، التفسير الصافي، ج٧، ص ٧٠.

(٢) تفسير البرهان.

التعاليم:

١ ـ لا تقتصر حاجة المخلوقات إلى الله على الإنسان والمخلوقات الأرضيّة، بل الملائكة الذين هم مخلوقات سماويّة، بحاجة إليه سبحانه، وفي حالة سؤال دائمةٍ، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ أفعال الله وأعماله ليست تقليداً لنموذج سابقٍ، بل إبداع وخلق من العدم، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.

٣ ـ تقتضي الحاجة الدائمة من المخلوقات، لطفاً دائماً ومستمرّاً من الله تعالى؛ ولذلك هو في حالة فيضٍ دائمة على مخلوقاته كلّها، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ... كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.

٤ ـ لا يمكن أن يكون الله قد خلق العالم، ووكله إلى نفسه وتركه لحاله، بل هو يتولّى إدارته وتدبيره، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

إشارات:

- قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، لا يراد به الفراغ بعد الانشغال، فالله لا يشغله شأن عن شأن، بل المراد الاهتمام الكامل.
- عندما تُستعمل كلمة «سنفرغ» في مجال الحديث عن الحساب الإلٰهيّ، فهي تَدُلّ على أنّ العدل في القضاء البشريّ يتوقّف على الفراغ الكامل والاهتمام الكافي من القاضي.
- يرى صاحب مجمع البيان أنّ التعبير عن الإنس والجنّ بـ «الثقلان»، يدلّ على أنّ هذين النوعين من المخلوقات أرقى من غيرهما؛ لما يتّصفان به من عقل وإرادة واختيار.

الحساب يوم القيامة

- المحاسب هو الله، ﴿...وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[١].

- الحساب سريع لا تأخير فيه، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[٢]، وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ فقال: **كما يرزقهم على كثرتهم.**

- لا يعفى أحد يوم القيامة من السؤال، حتّى الأنبياء والمرسلون، ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣].

- يكون حساب بعض الناس يسيراً، ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾[٤].

- ويكون حساب بعضهم عسيراً، ﴿...وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[٥] ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾[٦].

- ورد في الحديث عن أنّ الحساب يكون على قدر العطايا: «إنما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة، على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا»[٧].

- ورد في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام، قوله لرجل شكاه بعضُ إخوانه: **ما لأخيك يشكوك؟** فقال: أيشكوني أن استقصيت حقّي؟ قال: **فجلس مغضباً ثم قال: كأنّك إذا استقصيت حقّك لم تسئ؟ أرأيت ما حكى الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، أخافوا أن يجور الله عليهم؟ لا والله ما خافوا إلا الاستقصاء، فسمّاه الله سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء**[٨].

- وورد عن الإمام الكاظم عليه السلام: **«ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه»**[٩].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٦٢.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٦.
(٤) سورة الإنشقاق: الآية ٨.
(٥) سورة الرعد: الآية ٢١.
(٦) سورة الطلاق: الآية ٨.
(٧) أصول الكافي، ج١، ص ١١.
(٨) بحار الأنوار، ج٧، ص٢٦٦.
(٩) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٧٧ (الطبعة القديمة).

التعاليم:

١ ـ المحاسبة من لوازم التربية والإدارة، ومقتضياتهما، ﴿وَجْهُ رَبِّكَ... سَنَفْرُغُ لَكُمْ...﴾.

٢ ـ يحاسب الإنسان على جميع النعم التي يمنّ الله بها عليه، سواء كانت نعماً ماديّةً أم منعويّةً، ففي هذه السورة يحدّثنا الله عن النعم ويستعرض كثيراً منها، ثمّ يعقّب بقوله جلّ وعلا، ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾.

٣ ـ على جميع المخلوقات أن تستعدّ للحساب والمساءلة، وخصوصاً الإنس والجنّ، ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾.

٤ ـ الله سبحانه كل يوم هو في شأنٍ، فاليوم يوم العطاء دون حساب، وغداً يوم الحساب، ﴿...كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ... سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾.

٥ ـ يسخّر الله جميع الأشياء ويستخدمها لمحاسبة الناس. (ربّما يستفاد هذا المعنى من تعبير «نفرغ» بدل «أفرغ»).

٦ ـ على الرغم من أنّ الله لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ كما ورد في القرآن في محلّ آخر، فإنَّ تعبير ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، يدلّ على الاهتمام والعناية الخاصّة بالحساب.

٧ ـ الإنس والجنّ كلاهما من المخلوقات العاقلة المسؤولة التي تتعرّض للحساب والمساءلة، ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾.

٨ ـ ينبغي أن يترك الإيمان بالحساب أثره على كيفيّة الاستفادة من النعم الإلٰهيّة، ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾.

﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾

إشارات:

☐ وردت كلمة «معشر» في القرآن ثلاث مرّاتٍ، وهي تشترك مع «العشيرة» والعدد «عشرة»، في أصل واحد، وهي تعني الجماعة والفئة.

❑ «السلطان» كلمة تطلق على القدرة القهريّة والمادّيّة التي تؤدّي إلى التسلّط على الآخرين، وتطلق على البرهان والدليل الذي يؤدّي إلى إلزام الخصم وإسقاط حجّته، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[1] ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾[2].

❑ ربّما تدلّ الآية ٣٣ على الخروج من أقطار الأرض وارتياد الفضاء، وقد تكون خاصّةً بيوم القيامة، ودالةً على عدم إمكان الفرار من الحساب والعقاب.

❑ الأرض في أعماقها والسماء في ارتفاعاتها الشاهقة، يمكن للإنسان والجنّ أن يسخّرها ويسيطر عليها. ويدلّ على ذلك استخدام تعبير ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾، بدل «لو استطعتم»؛ حيث إنّ «لو» تدلّ على الامتناع، بخلاف «إن» التي تستخدم في الممكنات. ومن الإشارات الدالّة على ذلك تعبير ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾، فكلمة سلطان تستخدم في القرآن في معنى السلطة العلميّة والفكريّة.

التعاليم:

١ ـ يخاطب الله الإنسَ والجنّ يوم القيامة بخطابٍ واحدٍ، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ...﴾.

٢ ـ الالتفات إلى العجز الإنسانيّ، وإلى القدرة الإلٰهيّة، يحجز الإنسان عن الانحراف والتورّط في المعاصي، ﴿لَا تَنفُذُونَ...﴾.

٣ ـ حتّى الكائنات اللطيفة الشفافة كالجنّ، لا تقدر على الفرار من محكمة العدل الإلٰهيّة، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ... لَا تَنفُذُونَ﴾.

٤ ـ التخلّص من العقاب الإلٰهيّ، لا يُتاح لا للجنّ ولا للإنسان، إلا بحجّة ودليل يثبتان البراءة، ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ... لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

---

(١) سورة غافر: الآية ٢٣. (٢) سورة غافر: الآية ٣٥.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

إشارات:

❑ «الشواظ» الشعلة العظيمة الملتهبة من النار، و«النحاس» هو المعدن المعروف، والمقصود منه هنا النحاس الذائب من شدّة الحرارة.

❑ يصوّر الله يوم القيامة في هذه الآيات على النحو الآتي:

- يحاسب الله المخلوقات بعنايةٍ بالغةٍ، ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾.
- لا يقدر أحدٌ من المخلوقات المعرّضة للحساب، على الفرار من المساءلة، ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا... فَانفُذُوا﴾.
- يسلّط الله كل أنواع العقاب على المخلوقات التي تستحقّ العذاب والعقاب، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ... وَنُحَاسٌ﴾.
- وأخيراً لا مجال للتدخّل وطلب العون أو النصرة من أحد، ولو طُلِب ذلك فلن يجدي الطالب نفعاً، ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

❑ من لم يستفد من بركة الرسل في الدنيا، ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[1]، ومن لم يستخدم نِعَم الله عليه بالشكل المطلوب، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[2]، ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾[3]، لا بدّ من أن ينتظر رسالةً من نوعٍ آخر، هي رسالة العذاب والجزاء العادل، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ سهام العذاب الإلٰهيّ تلاحق المستحقّين، فلا يقدر أحدٌ منهم على الفرار، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

٢ ـ كون أصل الجنّ من النار لا يحميه من العذاب الإلٰهيّ بالنار، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٥١.

(٢) سورة هود: الآية ٥٢.

(٣) سورة النمل: الآية ٦٣.

٣ ـ المعرفة المسبقة بالعقاب على الجرائم، من النعم التي تستحقّ الشكر؛ لأنّها تقي الإنسان من التصرّفات غير المسؤولة، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

❑ في معنى قوله تعالى ﴿لَّا يُسْـَٔلُ﴾، احتمالات عدّة:

١ ـ لا يسأل أحدٌ من الناس عن ذنب غيره، فكلّ مجرمٍ يحاسب وحده على ما اقترف من جرائم.

٢ ـ ورد في بعض الروايات أنّ في القيامة خمسين موقفاً[1]، في أحد هذه المواقف يصدر الأمر بالتوقّف والحساب، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[2]، وفي موقف آخر يختم على أفواههم، فلا ينطق أحدهم إذا سئل، ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[3]، وفي موقف ثالث يطلب كل مجرم من المجرمين العون من الآخر، وفي رابع لا يصدر عنهم غير البكاء وعندما نجد في بعض الآيات حديثاً عن عدم السؤال، فربّما يكون المراد الإشارة إلى بعض هذه المواقف.

٣ ـ وأحد الاحتمالات في معنى الآية هو أنّ السؤال لا يكون عن الجرم والذنب فقط، وذلك أن الله سبحانه يقول: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾[4]، وبالتالي كأنّ السؤال عن الذنب ليس مهمًّا فالأعمال حاضرة، بل والأسرار مكشوفةٌ واضحةٌ، ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[5]، فما يُسأل عنه الإنسان يومئذٍ هو العمر والنعم في ما صرفها وأبلاها.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧، ص ١٢٦.
(٢) سورة الصافات: الآية ٢٤.
(٣) سورة يس: الآية ٦٥.
(٤) سورة الكهف: الآية ٤٩.
(٥) سورة الطارق: الآية ٩.

□ سوف تتعرض السماء على الرغم ممّا تبدو عليه من متانةٍ وقوّة، ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾[(١)]، إلى الانهدام والذوبان، ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

التعاليم:

١ ـ يبدأ يوم القيامة بتغيّر نظام الطبيعة وقوانينها الحاكمة عليها، ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ...﴾.

٢ ـ ينتهي هذا العالم بالانهيار، ولكن يبدأ بعد ذلك يوم جديد وعالم مختلف، ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ... فَيَوْمَئِذٍ...﴾.

٣ ـ الجنّ كائن مختار كالإنسان؛ ولذلك يتعرّض للحساب والمساءلة، ﴿لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾

إشارات:

□ «السيماء» من السوم وهو العلامة الظاهرة. و«النواصي» جمع ناصية وهي مقدّم شعر الرأس.

□ تبدو الآية وكأنّها جواب عن سؤال مقدّر، وهو: إذا كان المجرمون لا يُسألون عن ذنوبهم، فكيف يحاسبون؟ فتقول هذه الآية: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾. والمعرفة بالعلامات الظاهرة صفة مشتركة بين المجرمين والمؤمنين، فقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾[(٢)].

□ العلامات الظاهرة يوم القيامة متعدّدة، هي:

ـ بياض الوجوه، ﴿تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾[(٣)].

ـ اسوداد الوجوه، ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[(٤)].

---

(١) سورة النبأ: الآية ١٢.

(٢) سورة المطفّفين: الآية ٢٤.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٦.

(٤) سورة الزمر: الآية ٦٠.

ـ النضرة البادية على الوجوه، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾[١] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾[٢].

ـ الوجوه البائسة، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾[٣].

ـ الوجوه الضاحكة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾[٤].

ـ الوجوه المغبرّة، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾.

ـ الوجوه الخاشعة الذليلة، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾[٥].

التعاليم:

١ ـ تظهر أفكار الإنسان وأعماله في وجهه، ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾.

٢ ـ مآل المجرم إلى منتهى الذلّ، والخضوع التامّ للقهر الإلٰهيّ، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

٣ ـ بعض الناس لا يتركون معصيةً إلا ويفعلونها، ويغرقون من أخامص أقدامهم إلى منابت شعورهم في الإجرام والانحراف، هؤلاء سوف يصيبهم العذاب الإلٰهيّ ويؤخذون بنواصيهم وأقدامهم، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

٤ ـ التمييز بين أهل الخير، وأهل الشرّ، من النعم الإلٰهيّة، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

إشارات:

❑ «حميم» الماء الحارّ، وكلمة «حمّام» مأخوذة من هذا الجذر. و«آنٍ» السائل الشديد الحرارة.

---

(١) سورة القيامة: الآية ٢٢.
(٢) سورة الغاشية: الآية ٨.
(٣) سورة القيامة: الآية ٢٤.
(٤) سورة عبس: الآيتان ٣٨ و٣٩.
(٥) سورة الغاشية: الآية ٢.

□ التكذيب بالجنّة والنّار ويوم القيامة، من الأسباب التي تودي بالإنسان إلى جهنّم. وقد ورد هذا المعنى في سورة المدّثر أيضاً، ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ... وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾.

□ أهل الجنّة هم محور طواف الخدم والغلمان فيها، فهم يطوفون على أهلها بآنيةٍ تليق بالجنّة:

- ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾[1].
- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾[2].
- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[3].
- ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾[4].

وأمّا أهل النّار فهم فيها أذلّاء يطوفون بين النار وبين الماء الحارّ، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾.

التعاليم:

١ ـ سوف يُجازى المجرمون بالشيء الذي كانوا به يكذّبون: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾.

٢ ـ الجرم والمعصية من الأسباب الداعية إلى التكذيب وإنكار الحقائق: ﴿يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

٣ ـ يستبدّ الخوف بأهل النار إلى درجة تدعوهم إلى الانتقال من عذاب إلى عذاب طلباً للفرار والنجاة من العذاب، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾.

٤ ـ العدل الإلٰهيّ الذي يقتضي نزول العذاب بمستحقّيه من النعم الإلٰهيّة التي تستحقّ الشكر، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) سورة الواقعة: الآية ١٧.
(٢) سورة الزخرف: الآية ٧١.
(٣) سورة الصافات: الآية ٤٥.
(٤) سورة الإنسان: الآية ١٥.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾

إشارات:

❑ «أفنان» جمع فنن، وهو الغصن الغضّ الطريّ، أو جمع «فانّ» وهو النوع والأنواع.

❑ ورد في دعاء الجوشن الكبير، في الفقرة الأربعين، «**يا خير المحبوبين**»، وعليه فإنّ خوفنا هو من مقامه سبحانه وتعالى، وليس من ذاته، أي من حضوره وعلمه وإحاطته بالأشياء والأفعال.

❑ الخوف من مقام الله سبحانه من الروادع عن المعصية والتورّط في الجرم، وذلك كما ورد في الآية ٤٠ من سورة النازعات، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

❑ الخوف الإيجابي والمطلوب، هو الخوف الناشئ عن المعرفة بمقام الله وشأنه، ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، كما أنّ الدمعة التي يقدّرها الله هي الدمعة الناجمة عن المعرفة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

❑ ورد في سورة الإنسان في حقّ أهل البيت عليهم السلام الذين قدّموا طعامهم لثلاثة أيّام لمن يحتاجه من المسلمين وغير المسلمين، ورد الحديث عن تبرير فعلهم ذاك بخوفهم من الله، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[2]، وفي هذه الآية يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وبالجمع بين الآيتين يظهر أنّ أهل البيت عليهم السلام من أهل الجنّة من دون لبسٍ أو شكّ.

❑ ورد في عدد من الروايات أنّ الخوف من الله في الدنيا يعقبه الأمن في الآخرة، وأنّ الأمن في الدنيا يعقبه الخوف في الآخرة.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٣. (٢) سورة الإنسان: الآية ١٠.

□ وعن الإمام الصادق عليه السلام: **«من علم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى»**[١].

□ وقد ورد في الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الخوف من الله، في السرّ والعلن، من أسباب النجاة والأمن[٢].

□ معاشرة العلماء الربانيّين تثير في النفس خصلة الخشية من الله تعالى، فقد ورد في الحديث: **«من مشى في طلب العلم خطوتين، وجلس عند العالم ساعتين، وسمع من العلم كلمتين، أوجب الله له جنّتين، كما قال:** ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾**»**[٣].

□ الخوف من الله في الدنيا من أسباب الأمن يوم القيامة. وقد ورد هذا المعنى في أكثر من موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

□ فاكهة الجنّة متاحةٌ لأهلها بأيسر سبيل وأقلّ مؤونة، فهي لا تحتاج إلى قطاف، ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾، و﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[٥]، ولا تنفد أو تنتهي لقلّة العدد، ﴿فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾[٦]، وليس لها موسم خاص لا تتوفّر في غيره، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[٧].

□ ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، عمّا كان في وصيّة لقمان لابنه: **«كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله عزّ وجلّ خيفةً لو جئته ببرّ الثقلين لعذّبك، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك»**[٨].

□ وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: **«يقول الله تعالى: لا**

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ١٩٧.
(٢) تفسير كنز الدقائق.
(٣) إرشاد القلوب، ج١، ص ١٩٥.
(٤) سورة يونس: الآية ٦٢.
(٥) سورة الحاقة: الآية ٢٣.
(٦) سورة الواقعة: الآية ٣٢.
(٧) سورة الواقعة: الآية ٣٣.
(٨) الكافي، ج٢، ص ٦٧.

يتّكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، ولكن برحمتي فليثقوا، وبفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظنّ بي فليطمئنّوا»[1].

التعاليم:

١ ـ ليس المعيار في محكمة العدل الإلٰهيّ هو الجنس، ولا السنّ، ولا العرق، ولا غير ذلك من الأمور، فكلّ هذه الاعتبارات تسقط وتفقد قيمتها، ﴿وَلِمَنْ خَافَ... جَنَّتَانِ﴾.

٢ ـ الخوف من الله من أهمّ مناشئ قبول الحقّ والخضوع له، والعمل الصالح؛ ولذلك كان شرطاً كافياً لدخول الجنّة لم يُضمّ إليه شرط آخر، ﴿وَلِمَنْ خَافَ... جَنَّتَانِ﴾.

٣ ـ الله سبحانه هو منشأ للرحمة، والتفات الإنسان إلى مقامه سبحانه، في نظام الوجود، يولّد الدقّة والخشية من الإقدام على ما لا يرضاه سبحانه وتعالى، ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾.

٤ ـ التربية تقوم على عمودين هما التهديد والترغيب، ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ... جَنَّتَانِ﴾.

٥ ـ نِعَمُ الجنّة تجتمع فيها صفات التنوّع، ﴿زَوْجَانِ﴾، والوفرة، ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، وسهولة التناول، ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾

إشارات:

❑ «بطائن» جمع بطانة، وهي القماش الناعم الذي يُجعل من الجهة الداخليّة للثوب وشبهه، و«استبرق» الحرير السميك.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧١.

❑ «جنى» قطاف الشجر، و«دانٍ» قريب في متناول اليد.

❑ «قاصرات الطرف» إما بمعنى اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهنّ، أو بمعنى اللواتي يأسرن أزواجهنّ فلا يفكّر الزوج في النظر إلى غيرهنّ.

❑ في هذه الآيات يحدّثنا الله سبحانه عن النعم ذات الطبيعة المادّيّة في الجنّة:

١ ـ السكن في البساتين العامرة بالشجر والعيون، ﴿جَنَّتَانِ﴾ ﴿أَفْنَانٍ﴾ ﴿عَيْنَانِ﴾.

٢ ـ التمتّع بأنواع الفواكه والثمار، ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

٣ ـ الراحة الكاملة والرفاهية التامّة، ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾.

٤ ـ الأزواج المطهّرات والجميلات، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾.

❑ نساء الجنّة فيهن خصال عدّة، فهنّ عفيفات، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وأبكار لم يصل إليهنّ مخلوقٌ قبل أزواجهنّ، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ...﴾، ومضافاً إلى ذلك كلّه يشتملن على جمال ليس فوقه جمال، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

التعاليم:

١ ـ خوف اليوم في الدنيا، أمن الغد في الآخرة، ﴿وَلِمَنْ خَافَ... مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ...﴾.

٢ ـ يبقى الميل والرغبة الجنسيّة عند أهل الجنّة، ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾.

٣ ـ لا يخلو الجنّ من الغريزة الجنسيّة، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

٤ ـ الميل الموجود عند الإنسان، إلى الطهارة والبكارة، وجمال الزوج، من الخصائص الأصيلة والفطريّة عنده، وليس من الأمور التي يتلقّاها من البيئة والمحيط الاجتماعيّ والثقافيّ، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ...﴾.

٥ ـ ينعم الله في الجنّة على أهلها غير أزواجهنّ في الدنيا؛ وذلك لوصفهنّ بعدم مقاربتهنّ من قبل الإنس والجنّ، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ...﴾.

٦ ـ في صفات النساء، العفّة هي الصفة الأولى ومن بعدها يأتي الجمال: فالله ذكر العفّة أولاً، ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾، ثمّ ثنّى بذلك الجمال، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

إشارات:

- لكلمة إحسان معنيان: أحدهما العمل الحسن بحدّ ذاته، والآخر العمل الحسن تجاه الآخرين؛ أي الإحسان إليهم. والمراد من هذه الكلمة في المرّة الأولى المعنى الأوّل، والمراد منها في المرّة الثانية المعنى الثاني[١]. ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.
- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **آية في كتاب الله مسجّلة. قلت: ما هي؟ قال: قول الله عز وجل: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ...﴾، جرت في الكافر والمؤمن، والبرّ والفاجر، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، وليس المكافأة أن تصنع كما صنع، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء»**[٢].
- تكرّر في القرآن ذكر قاعدة المقابلة بالمثل، مرّات:
  - ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٣].
  - ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[٤].
  - ﴿فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٥].
  - ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾[٦].
  - ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم﴾[٧].
  - ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[٨].
  - ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ﴾[٩].
- عن الإمام عليّ عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قوله: «هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد، إلا الجنّة»[١٠].

---

(١) تفسير راهنما، عند تفسير الآية.
(٢) مجمع البيان، ج٩، ص٣٤٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٥٢.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٨.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٤.
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.
(٧) سورة النحل: الآية ١٢٦.
(٨) سورة محمد: الآية ٧.
(٩) سورة الصف: الآية ٥.
(١٠) أمالي الشيخ الطوسي، ج٢، ص١٨٢.

التعاليم:

١ ـ علينا أن نقابل المحسنين إلينا بالإحسان إليهم، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ (وإذا طبّقنا القاعدة نفسها على إحسان الله إلينا، فبأيّ شيء نقابل إحسانه إلينا ونعمه علينا).

٢ ـ يجب أن تكون القاعدة والأساس هي القيم، وليس العرق، ولا الجنس، ولا القبيلة، أو القومية، أو أيّ معيار آخر، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

٣ ـ جزاء الإحسان، يجب أن يكون الإحسان وحده، في كلّ زمان ومكان، ومع أيّ شخص كان، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

٤ ـ أهمّ الأسباب التي تستند إليها فكرة المعاد والجزاء يوم القيامة، هي العدل ومكافأة المحسنين، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

٥ ـ ثواب الله وإحسانه إلينا في مقابل إحساننا، نعمة من النعم التي تستحقّ الشكر، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

□ كلمة «دون»، تستعمل أحياناً بمعنى غير، وأحياناً بمعنى تحت. ومن هنا فقد تردّد معناها في هذه الآية بين المعنيين:

أ ـ المعنى الأوّل، هو وجود جنّتين غير الجنّتين المشار إليهما.

ب ـ المعنى الثاني، أنّ لأولياء الله جنّتين خصّهم الله بهما، ولسائر عباده سبحانه جنّتين أدنى مقاماً منهما[١].

---

(١) تفسير البرهان.

□ «مدهامّتان» من الدهم، والادهمام هو الاسوداد، والأدهم الأسود، والمراد من الآية هنا وصف الجنّة بكثرة الشجرة واشتداد الخضرة حتى تكاد تميل إلى السواد. و«نضّاح» من النضح وهو الفوران.

□ ورد في الرواية عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام: **«ثلاثة يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الماء الجاري، والنظر إلى الوجه الحسن»**[1]. ويقول الشاعر العربي:

ثلاثة يذهبن عن القلب الحزن الماء والخضراء والوجه الحسن

وقد أشار الله سبحانه في هذه الآية إلى هذه النعم الثلاث: الماء، ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، والخضرة، ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾، والجمال، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

التعاليم:

١ ـ شجر الجنّة دائم الخضرة وشديدها، ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

٢ ـ يهتمّ القرآن باللون الأخضر، ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

٣ ـ أكبر اللذّات وأقربها إلى النفس، هي التمتّع بالمناظر الطبيعيّة الخلابة، ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

٤ ـ الماء بحدّ ذاته نعمةٌ، وفورانه نعمةٌ أخرى تضاف إلى أصله، ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

٥ ـ فوران الماء من العيون، ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾، وجريان الأنهار، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ووجود شلّالات تسكب الماء، «ماء مسكوب»، وتنوّع الأنهار في الجنّة من العسل والخمر واللبن والماء، كل ذلك نِعَمٌ تستحقّ من الإنسان الشكر، وعدم التكذيب، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج٥٩، ص١٤٤.

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

إشارات:

- «رفرف» ضرب من الثياب مشبه بالرياض الخضراء. «عبقريّ» من عبقر قيل هو موضع للجنّ ينسب إليه كلّ نادر من إنسان وحيوان وثوب، وعبقري حسان هو ضرب من الفرش في ما قيل جعله الله تعالى مثلاً لفرش الجنّة.
- الرمّان والتمر من الفواكه التي يبدو أنّ قيمةً خاصّةً؛ ولذلك نجد أنّها تُذكَر في القرآن إلى جانب كلمة فاكهة العامّة.
- عن النبيّ ﷺ، في وصف نساء الجنّة، «**خيرات الأخلاق حسان الوجوه**»[1].
- يبدو أنّ ﴿حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ﴾ غير ﴿خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾، فالجملة الأولى ليست وصفاً لحوريّات الجنّة، وربّما كان المراد من ﴿خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ نساء الدنيا، ومن ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ﴾ حوريات الجنّة، وقد ورد في بعض الروايات، في وصف النساء المؤمنات في الدنيا أنّهنّ في الجنّة أجمل من حور العين[2].
- بين الحدائق والبساتين المشار إليها في هذه الآيات فوارق نشير إليها في ما يأتي:

أ ـ الأقمشة في الطائفة الأولى من هذه الحدائق من حرير ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٍ﴾ سواء في ذلك الظاهر منها والباطن، وأما في الثانية فالظاهر وحده من أقمشة جيّدة وغيرها مسكوت عنه، ﴿رَفۡرَفٍ﴾.

ب ـ جنان المتّقين ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوۡجَانِ﴾، وأمّا جنان المؤمنين العاديّين فـ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾، وقد سكت الله عن زوجيّة الفاكهة فيها.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٠١.
(٢) الكافي، ج٨، ص١٥٦.

ج - في الحديث عن النساء أشار الله سبحانه إلى نساء المرتبة الأولى من الجنان بقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وأمّا نساء المرتبة الثاني فقد وصفهنّ سبحانه بقوله: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

د - والأمر المشترك بين صنفي الجنان هو بكارة النساء، إذ ورد في وصفهنّ قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

- وردت عبارة ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، مرّتين في القرآن الكريم إحداهما في هذه السورة.
- افتُتِحت هذه السورة بأحد أسماء الله تعالى، وهو اسم «الرحمن»، واختُتِمت بكلمة «الإكرام»، وفي هذا إشارة إلى أنّ هذه النعم كلّها منشأها رحمة الله وكرمه وإكرامه للإنسان.

التعاليم:

١ - قد يحتاج الحثّ على بعض الأفعال إلى استخدام بعض الأمور التي يعرفها ويحبّها، ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ .

٢ - ينبغي خصّ الأشياء المميّزة بالذكر، إلى جانب ذكرها بوصف عامّ مشترك بينها وبين غيرها، ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾

٣ - نساء الجنّة يجمعن بين حسن السيرة والمضمون، ﴿خَيْرَٰتٌ﴾، وبين حسن الوجوه، ﴿حِسَانٌ﴾.

٤ - الستائر لها قيمتها وأهميتها حتّى في الجنّة، ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

٥ - الله سبحانه مصدر الخير والبركة كلّها، والتبرّك باسمه سبحانه مطلوبٌ ومندوبٌ إليه، ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾.

٦ - النعم كلّها من جمال وثواب، بل ومن عقاب، من تجلّيات ربوبيّة الله سبحانه، ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾.

٧ - جلال الله سبحانه مقترنٌ بالكرم والإكرام، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الوَاقِعَةِ

السورة: ٥٦ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٩٦



ملامح سورة الواقعة

عدد آيات هذه السورة، ست وتسعون آية، وهي من السور المكّية.

لهذه السورة أسماء أخرى، منها «القيامة»، وقد اشتُقَّ اسمها الأكثر تداولاً «الواقعة»، من الكلمة الواردة في مطلعها، وهي كلمةٌ تدلّ على حتميّة الوقوع.

أكثر آيات هذه السورة تتحدّث عن يوم القيامة، وأشراط الساعة، وتقسيم الناس إلى جهنّميين وأهل الجنّة؛ ولأجل ذلك ورد في فضل هذه السورة أنّها تمنع من الغفلة.

وقد ورد في بعض كتب التفسير، **أنّ عثمان بن عفّان، دخل على عبد الله بن مسعود، يعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال له: «ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: أفلا تدعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر بعطائك؟ قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا مستغنٍ عنه؟ قال: يكون لبناتك. قال: لا حاجة لهنّ فيه، فقد أمرتهنّ أن يقرأن سورة الواقعة، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلةٍ، لم تصبه فاقةٌ أبداً»**[1].



(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٣٥٥.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

إشارات:

- الخفض والرفع معنيان متعاكسان، أولهما يدلّ على التوجيه أو الدفع إلى أسفل، والثاني عكسه. و«الرج» الهزّ الشديد الذي يكاد يقلع الشيء من مكانه.
- الـ«بسّ» هو الفتّ أي طحن الشيء وجعله ناعماً، و«الهباء» هو التراب الناعم كالذي يرى في الهواء عند سطوع الشمس من نافذة أو كوّة، و«المنبثّ» المنتشر.
- الأمور المحسومة والمقطوعة التحقّق والوقوع، يمكن التعبير عنها بصيغة الفعل الماضي، ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، وذلك كما رأى أحدنا السيل قادماً نحو قرية أو مدينة، فإنّه يمكنه القول، ولو قبل وصول السيل إليها: «جرف السيل المدينة».
- قوله تعالى ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾؛ أي عندما تبدأ أحداث يوم القيامة بالوقوع لا يبقى مجالٌ للإنكار والتكذيب، بل يؤمن كلّ من يشاهدها بشكل قاطعٍ بوقوعها، وفي القرآن الكريم آيات أخرى تشبه هذه الآية في هذا المعنى، منها:

  - ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾[١].
  - ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٢].
  - ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾[٣].

- عن الإمام السجّاد عليه السلام، قال: من لم يتعزّ بعزاء الله تقطّعت نفسه على الدنيا

(١) سورة غافر: الآية ٨٤.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٠١.
(٣) سورة الحج: الآية ٥٥.

حسرات، والله ما الدنيا والآخرة إلا ككفّتي ميزان فأيّهما رجح ذهب بالآخر، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ... خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، يعني القيامة ليس لوقعتها كاذبة خافضة والله بأعداء الله في النار، رافعةٌ والله أولياء الله إلى الجنّة»[١]. بلى، في ذلك اليوم تعرف قيمة الغنى والفقر، والجاه والعزّ والذل: فـ «الغنى والفقر بعد العرض على الله»[٢].

حال الأرض والجبال على أعتاب يوم القيامة:

الأرض الآن في الدنيا مستقرّة كالمهد على حد وصف الله سبحانه إياها[٣]، وهي معدّةٌ لمعيشة الإنسان وحياته، ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[٤]، وأمّا بين يدي يوم القيامة فإنّها تهتزّ كما لم تهتزّ من قبل، كما يصفها الله بقوله ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[٥] والجبال التي هي الآن ساكنة نسبياً ولو بالقياس إلى الأرض نفسها، تتحرّك يوم القيامة من مكانها وتسير بإرادة الله، ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾[٦]، بل تُدكّ، ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾[٧]، إلى أن تتلاشى وتتفتّت وتتباعد أجزاؤها كما تتباعد أجزاء القطن المضروب، ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[٨]. بل أكثر من ذلك تتحوّل إلى غبار، يعود بها إلى حالة الخلق الأولى، ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾[٩].

التعاليم:

١ ـ لا شكّ في وقوع يوم القيامة، والزلازل العظيمة التي تحدث قبيله، ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، يستعمل الفعل الماضي مع إذا، للإشارة إلى أمور لم تقع ولكنّها محقّقة الوقوع.

٢ ـ القيامة هي الحادثة الوحيدة التي لا نظير لها ولا مثيل، ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾.

---

(١) نور الثقلين، ج٥، ص٢٠٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٣) انظر: سورة النبأ: الآية ٦.
(٤) سورة الملك: الآية ١٥.
(٥) سورة الحج: الآية ١.
(٦) سورة النبأ: الآية ٢٠.
(٧) سورة الحاقة: الآية ١٤.
(٨) سورة القارعة: الآية ٥.
(٩) سورة فصلت: الآية ١١.

٣ ـ في الدعوة إلى الله والتبليغ، من المناسب الإشارة أحياناً إلى بعض الأمور من دون تمهيد أو مقدّمات، ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، ولذلك أمثلة أخرى في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾[1]، وقوله ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[2].

٤ ـ إنكار يوم القيامة ممكنٌ ومتاحٌ في الدنيا، نتيجة الغرق في الرفاه والرخاء، وأمّا قبيل وقوعه أو عند وقوعه، فلا مجال للتكذيب والإنكار، ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

٥ ـ على الإنسان أن يغتنم الفرصة ويؤمن بيوم القيامة، في الدنيا، وأما مع اقتراب ذلك اليوم، فلا يبقى مجال إلا للخجل والندم، ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾.

٦ ـ يوم القيامة هو يوم تجلّي الحقائق على حقيقتها (بظهور القيم والاعتبارات على حقيقتها فيرتفع الوضيع ويوضع الوجيه الرفيع)، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾.

٧ ـ زلازل يوم القيامة، في غاية الشدّة والعنف، ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾.

٨ ـ على أعتاب يوم القيامة، كل ما يحصل مقطوع الحصول لا يشوبه شكّ، ﴿إِذَا وَقَعَتِ... إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ... وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

- «الميمنة» من اليمن بمعنى البركة والسعادة، و«المشأمة» من الشؤم وهو الشقاء، ويرى بعض المفسّرين أنّ المراد من هاتين الكلمتين: هو الجهتان اليمين واليسار؛ وقد صنِّف البشر يوم القيامة، على أساس الجهة التي يؤتى أحدهم كتابه بها، فأهل الجنّة يؤتون كتابهم بيمينهم بخلاف أهل النار. وقيل إن الشام واليمن سمِّيتا بهذين الاسمين بالنظر إلى موقعهما من الكعبة.

---

(١) سورة الحاقّة: الآية ١.
(٢) سورة التكوير: الآية ١.

❑ «ثلّة» أي الجماعة من الناس وربّما كان المراد الجماعة الكثيرة منهم؛ وذلك لورود قوله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ بعدها. «سرر» جمع سرير وهو المكان المرتفع للنوم أو الجلوس، وربّما كانت التسمية من باب أنّه يجلب السرور. «موضونة» مصفوفة. وعن الإمام الباقر عليه السلام: **«يعني أوساط السرر من قضبان الدر والياقوت مضروب عليها الحجال»**[١].

❑ الملائكة فريق واحد هم جميعاً مؤمنون، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٢]، وأمّا الجنّ فإنّهم صنفان مؤمن وكافر، ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾[٣]، وأمّا الناس والبشر فإنّهم ثلاثة أصناف، ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾، وفي سورة فاطر يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[٤].

❑ يذكر الله سبحانه في القرآن أمثلة ونماذج للمسارعين والمسابقين، منها:

- السبق إلى الإيمان، ﴿سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٥].
- السبق إلى الإنفاق والجهاد، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[٧].
- السبق في عمل الخير، ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[٨].
- السبق إلى النعم الإلٰهيّة الموعودة، وربّما كان هو المراد من قوله تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

❑ عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ أبرز مصاديق السابقين هم الأنبياء[٩]. وورد عن الإمام عليّ عليه السلام، أنّ السبق المذكور في الآية هو السبق إلى الصلاة[١٠].

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢١٨.
(٢) سورة التحريم: الآية ٦.
(٣) سورة الجنّ: الآية ١٤.
(٤) سورة فاطر: الآية ٣٢.
(٥) سورة الحشر: الآية ١٠.
(٦) سورة الحديد: الآية ١٠.
(٧) سورة المطففين: الآية ٢٦.
(٨) سورة البقرة: الآية ١٤٨.
(٩) بصائر الدرجات، ص٤٦٨.
(١٠) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٠٩.

□ القرب في قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، هو قرب المنزلة والدرجة وليس قرب المكان. والقرب من الله لا يكون بالادعاء والتمنّي، بل يكون بالعمل واتّباع المنهج، فاليهود كانوا يدّعون أنّهم ﴿أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1]، وأمّا القرآن فهو صريح في أنّ أهل القرب هم أهل العمل والمسارعة إلى الخير، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

□ في تقسيم الناس إلى ثلاث فئات، ذكر الله سبحانه السابقين أخيراً؛ وربّما كان ذلك لقلّة عددهم، وأما عندما كان السياق سياق ثناء وتبجيل، فقد ذكرهم أوّلاً، ثمّ ذكر أصحاب اليمين وألحقهم بغيرهم، وربّما كان ذلك من باب الاحترام والتقدير.

التعاليم:

١ ـ الحشر والحضور بين يدي الله يوم القيامة، أمر محتوم إلى درجةٍ تسمح بالتعبير عنه بصيغة الماضي، ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾.

٢ ـ من الأساليب المناسبة للدعوة والتبليغ، ذكر إجمال الفكرة ثمّ الشروع في تفصيلها، ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً... فَأَصْحَٰبُ... وَأَصْحَٰبُ... وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

٣ ـ السعادة والشقاء يوم القيامة دائمان، ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ... وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أو على الأقل طويلا الأمد؛ إذ إنّ الصاحب هو الرفيق الملازم.

٤ ـ السبق إلى الإيمان وعمل الخيرات من الأعمال القيّمة، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

٥ ـ الذين يسارعون إلى فعل الخير في الدنيا، يُقدّمون على غيرهم في الثواب يوم القيامة، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

٦ ـ السابقون إلى الخير في الدنيا، ينبغي أن يكونوا في المقرّبين في المجتمع، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

٧ ـ الجنّة هي محلّ لرفاه المؤمنين وراحتهم، ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٨.

٨ ـ المقام المعنويّ مقدّم وأكثر أهمّية من النعم والرفاه، فقد تحدّثت الآيات عن القرب أوّلاً، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، ثمّ بدأت بالحديث عن الجنّة ونعيمها، ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

٩ ـ ينبغي أن نحفظ ذكر المتقدّمين والسابقين المؤسّسين للسنن الصالحة، ولا ننساهم، ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

١٠ ـ يذكر الله سبحانه بعض خصوصيّات الجنّة وصفاتها لتشويق الناس إليها، ﴿سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾، وكالإشارة إلى كيفية الجلوس، ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾.

١١ ـ يجلس أهل الجنّة وجهاً إلى وجه فيرى أحدهم الآخر، ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾.

١٢ ـ من آداب الضيافة كون مكان الضيف ومحلّ استضافته مريحاً، ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ... مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا﴾.

﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

- «أكواب» جمع كوب وهو القدح الذي لا عروة له، وهو يشبه ما يستخدم في هذا العصر لشرب الماء. و«أباريق» جمع إبريق وهو الإناء الذي له عروة. و«الكأس» هو الكوب الممتلئ، و«المعين» هو السائل الصالح للشرب. «يصدعون» من الصداع وهو وجع الرأس. «ينزفون» من نزف وهو سيلان الماء حتى يجفّ مصدره، ومنه نزف الدم، والمراد منها هنا هو فقدان العقل.

- من أجمل أشكال التعبير عن النساء في الجنّة التعبير عنهنّ بقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾، وهو يتضمّن الإشارة إلى الجمال والصون من أعين الدخلاء.

التعاليم:

١ ـ الخدم الموكلون بالضيافة في الجنّة لهم خصائص، منها:

أ ـ دوام الطواف على نزلاء الجنّة، ﴿يَطُوفُ﴾.

ب ـ الشباب وكونهم في مقتبل العمر، ﴿وِلْدَٰنٌ﴾.

ج ـ دوامهم وخلودهم، ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾.

د ـ حملهم لكلّ ما تتوقف عليه الضيافة والاهتمام بالضيف، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ﴾.

هـ ـ يبدأون بالمائعات والسوائل، ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

و ـ ما يقدّمونه لضيوفهم ليس فيه ما يزعج، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

ز ـ ما يقدّمونه متنوّع ومختلف الألوان، يسمح للضيف بأن يختار منه ما يشتهي، ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾.

ح ـ السائل يقدّم أولاً، ثمّ يتبعه الفاكهة، وبعدهما يأتي دور اللحم وغيره من أنواع الطعام، ﴿مَّعِينٍ، وَفَٰكِهَةٍ، وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾.

٢ ـ اللحم الأبيض (لحم الطير) مقدّم على اللحم الأحمر (لحم البقر والغنم إلى غير ذلك)، ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾.

٣ ـ في أيّ نوعٍ من أنواع الطعام، الرغبة إلى الطعام والميل إليه هو الأساس، ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

٤ ـ نساء الجنّة يجمعن بين الجمال والصون والبعد عن أعين الدخلاء، ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾.

٥ ـ كل أسباب الرفاه والتنعّم متوفّرة في الجنّة، ﴿فَٰكِهَةٌ... وَلَحْمِ طَيْرٍ... وَحُورٌ عِينٌ﴾.

٦ ـ لذّات الجنّة دائمة خالدة، ﴿يَتَخَيَّرُونَ... يَشْتَهُونَ﴾. (ويستفاد هذا المعنى من استعمال الفعل المضارع).

٧ ـ في الدعوة إلى عمل الخير، من المناسب الإشارة إلى آثار الأعمال ونتائجها، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

❑ «اللغو» هو الكلام الذي لا فائدة منه ولا طائل من ورائه. و«التأثيم» بمعنى النسبة إلى الإثم.

❑ وصِف العقل في الروايات، بأنّه: **«ما عبِد به الرحمن واكتُسِب به الجنان»**. وذلك أنّ الإنسان لو فكّر قليلاً وتأمّل في أنّ طاعة أيام معدودة في الدنيا، تفضي بالإنسان إلى نعيم خالد ودائم، لا بدّ من أن يدعوه عقله إلى اغتنام الفرصة والاستفادة منها، وبالتالي من يترك الآخرة ونعيمها لأجل لذّة عاجلةٍ لا شكّ في ضعف عقله. ولا شكّ في أنّ ذلك هو الخسران المبين، على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[1].

❑ يتلقّى أهل الجنّة السلام من جهات عدّة:

أ ـ من أصحاب اليمين (وهم رفقاء الجنّة)، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[2].

ب ـ من أهل الأعراف، ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[3].

ج ـ من الملائكة، ﴿...وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾[4].

د ـ من الله سبحانه وتعالى، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[5].

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٥.
(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٩٠ و٩١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٤٦.
(٤) سورة الرعد: الآيتان ٢٣ و٢٤.
(٥) سورة يس: الآية ٥٨.

❑ قوله تعالى ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾، إمّا يراد به الكلام الخالي من اللغو والعبث، وإمّا الكلام المحفوف بالسلام والأمن والبعد عن الحرب والقتال.

التعاليم:

١ ـ ليس في الجنّة ما يزعج أو يكدّر الخاطر، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾.

٢ ـ لذّات الدنيا مقرونةٌ في كثير من الأحيان باللغو أو المعصية، وأما في القيامة فهي غير ذلك، ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾.

٣ ـ الجنّة هي دار السلام والسلامة، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ (ويمكن القول إنّ كلّ مجتمع يسود فيه السلام والبعد عن اللغو والإثم، هو جنّة أرضيّة).

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

إشارات:

❑ «السدر» نوع من الشجر وارف الظلّ. «مخضود» أي مكسور الشوك. و«منضود» متراكم ومصفوف. و«مسكوب» مصبوب جارٍ كما يجري الماء من الشلال. و«أتراب» جمع تِرْب وهو المساوي في السنّ، ومنه «ترائب» وهي عظام الصدر المتقاربة في المكان والحجم.

❑ «الطلح» جمع طلحة وقيل هو شجر الموز، كما في الرواية عن ابن عبّاس[1]. ويفسّرها بعضهم بشجرة أمّ غيلان وتسمّى السمرة، وهي من الأشجار المعروفة عند العرب.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ١٠٩.

❑ كلمة «فرش» جمع فراش، ويستخدم وصفاً للأرض والمركب والفراش الذي ينام عليه الإنسان، و«مرفوعة» بمعنى غالية الثمن نفيسة، وقد ورد في الرواية عن النبيّ ﷺ في وصف فراش الجنّة أنّها من الحرير الملوّن مصفوفة بعضها فوق بعض[١]. على الرغم من هذا كلّه فإنّ المراد من الفرش في هذه الآية هو نساء أهل الجنّة، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾.

❑ «أصحاب الميمنة» هم «أصحاب اليمين» الذين أشار إليهم الله تعالى في الآية الثامنة، وقيل سُمّوا بهذا الاسم لأنّهم يعطَون كتاب أعمالهم بأيمانهم، أو لأنّهم من أهل اليُمن والسعادة.

❑ ورد في الرواية عن أم سلمة أنّ النساء المسنّات في الدنيا إذا كنّ من المؤمنات يعيدهنّ الله فتيّات، غاية في الجمال[٢].

❑ في ختام الآيات التي تتحدث عن ثواب المقرّبين قال الله سبحانه وتعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وأمّا في هذه الآيات فلم يُذكر مثل هذا التعقيب، وكأنّ في ذلك إيحاء بأنّ جزاء هؤلاء تفضّلٌ من الله سبحانه عليهم.

❑ نعم الدنيا مقرونةٌ بالآفات والشوائب، وأمّا نعم الجنّة فلا نقص فيها ولا كدر يشوبها، مثلاً:

- شجرها لا شوك فيه، ﴿مَّخۡضُودٖ﴾.
- ظلّ أشجارها دائم وراف، ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾.
- ثمار الدنيا وفاكهتها لها مواسم تقطع في بعضها وتوجد في بعضها الآخر، وأمّا فاكهة الجنّة فهي دائمة غبّ الطلب، ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾.
- تتفاوت النساء في الدنيا في السنّ والأوصاف، وأما نساء الجنّة فإنهنّ أتراب متساويات في السنّ. والمرأة في الدنيا قد تملّ من زوجها ولا تعود تحبّه، وأما نساء الجنّة فإنهنّ غاية في الحبّ لأزواجهنّ، ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾،

---

(١) الكافي، ج٢، ص ٩٧.
(٢) تفسير نور الثقلين.

والمرأة في الدنيا قد تكون بكراً وقد تكون ثيّباً أما نساء الجنّة فإنهنّ أبكار.

- ◻ عدد الأنبياء كثير وبالتالي عدد أوصيائهم لا بدّ من أن يكون كثيراً، وأما أوصياء النبيّ ﷺ فهم قلّة بالقياس إلى أوصياء الأنبياء السابقين؛ ولذلك يحدّثنا الله عن ثلّة من الأولين وعن قليل من الآخرين عندما يحدّثنا عن المقرّبين.

التعاليم:

١ ـ لأصحاب اليمين يوم القيامة مكانةٌ عاليةٌ تثير الإعجاب والتساؤل، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾.

٢ ـ لقد اكتشف العلماء فوائد وآثار لشجر السدر، ولكن ذكره بين شجر الجنّة يدعو إلى مزيد من الدراسات حوله لاكتشاف آثاره على البيئة والصحة، ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾.

٣ ـ الماء الجاري أفضل من الماء الراكد، ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾.

٤ ـ الجنّة ونعمها تكون مخلوقةٌ ومعدّة من قبل، ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾.

٥ ـ النساء في الجنّة بواكر دائماً وإلا لما كان من فرق بينهنّ وبين نساء الدنيا، ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

٦ ـ لا يخلو الزمان والأرض من جماعة من الصالحين، ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٧ ـ سبل التقرّب إلى الله متفوحةٌ في وجوه الناس في كل العصور والأزمان، ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

إشارات:

- «سموم» الريح الحارّة التي تؤثّر تأثير السمّ. و«المسام» هي الثقوب الصغيرة في الجلد التي يصعب رؤيتها أو قد لا تُرى بالعين المجرّدة. والـ«حميم» هو الماء الحارّ، و«اليحموم» الدخان الغليظ الأسود. والـ«مترف» من الترف، وهو التوسّع في النعمة، ما يؤدّي في كثير من الأحيان إلى الغفلة والطغيان. «الحنث» هو المعصية الكبيرة، ويستخدم كثيراً في مجال نقض اليمين والعهد. «يصرّون» الإصرار أي العزم على تكرار الفعل، وقد وردت هذه الكلمة أربع مرّات في القرآن.
- ينال «أصحاب الشمال» يوم القيامة أشكالاً من العذاب وألواناً عدّة: الرياح الحارّة، والماء الحارّ، والدخان الأسود الغليظ الحارق إلى غير ذلك، ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾.
- من فنون التعبير التي يتميّز بها القرآن وصفه للوقائع الآتية بصيغة الماضي، ما يجعل جهنّم وكأنّها حاضرة بين يدي المجرمين، وكأنّهم يقفون في محكمة العدل الإلٰهيّ.

المقارنة بين أهل الجنّة وأهل النار:

- من المفيد بمناسبة هذه الآيات التي تتحدّث عن أصحاب الجنّة وأصحاب النار، أن نعقد مقارنةً بين الفئتين، على ضوء هذه الآيات وغيرها:

أهل الجنّة	أهل النار
ظل وارف ودائم، ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾	ظلّ من الدخان والحرارة، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾
فاكهة دائمة، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾	﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾
﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾[1]	ماؤهم كالحديد الذائب في الحرارة، ﴿بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ﴾[2]
﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾[3]	يتمنّون الماء ويبحثون عنه، ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ﴾[4]
﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ﴾[5]	ماء حارّ ومسموم، ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾[6]
﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾[7]	﴿مِنْ غِسْلِينٍ﴾[8]
﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[9]	﴿مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾[10]
فيها جنّتان، ﴿جَنَّتَانِ﴾[11]	ضيق المكان على أهله، ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾[12]
سلام وسلامة، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[13]	التلاعن بين نزلا النار، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[14]
الدخول إليها باحترام، ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا﴾[15]	الدخول إليها بإهانة، ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[16]
التوفّر على الرحمة الإلهيّة، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[17]	الإهانة والإذلال، ﴿قَالَ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[18]
تسخير الخدم لأهل الجنّة، ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾[19]	الطواف بين النار والماء الحارّ، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[20]

(١) سورة الإنسان: الآية ٢١.
(٢) سورة الكهف: الآية ٢٩.
(٣) سورة محمّد: الآية ١٥.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٠.
(٥) سورة محمّد: الآية ١٥.
(٦) سورة ص: الآية ٥٧.
(٧) سورة محمّد: الآية ١٥.
(٨) سورة الحاقّة: الآية ٣٦.
(٩) سورة محمّد: الآية ١٥.
(١٠) سورة إبراهيم: ١٦.
(١١) سورة الرحمن: الآية ٤٦.
(١٢) سورة الفرقان: الآية ١٣.
(١٣) سورة الواقعة: الآية ٢٦.
(١٤) سورة الأعراف: الآية ٣٨.
(١٥) سورة الزمر: الآية ٧٣.
(١٦) سورة الحاقّة: الآية ٣٠.
(١٧) سورة يس: الآية ٥٨.
(١٨) سورة المؤمنون: الآية ١٠٨.
(١٩) سورة الواقعة: الآية ١٧.
(٢٠) سورة الرحمن: الآية ٤٤.

التعاليم:

١ ـ بين الناس يوم القيامة جماعة من أهل الشقاء يؤتَون كتاب أعمالهم بشمالهم، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

٢ ـ في أحوال أهل النار من الشدّة ما يدعو إلى العجب، ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

٣ ـ شدّة عذاب يوم القيامة. («سموم»، و«حميم»، وردت هاتان الكلمتان بصيغة النكرة، للدلالة على العظمة والشدّة).

٤ ـ يبتلي المترفون والمستهترون في الدنيا، بأشدّ أنواع العذاب والذلّ في الآخرة، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾.

٥ ـ الإصرار على الجرم يؤدّي إلى كبر الجرم وعظمته، ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٦ ـ الله سبحانه عادلٌ، يوازن بين الجزاء والعمل؛ فإذا كان يجازي الله العاصين بثلاثة أنواع من العذاب، هي: السموم، والحميم، والظلّ من يحموم، فإنّ ذلك يتناسب مع أنواع المعصية التي تصدر عنهم في الدنيا، وهي، الترف، والإصرار على الحنث، وإنكار المعاد، ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ... وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ...﴾.

٧ ـ الترف والتعلّق بمظاهر الدنيا، من الصفات المساعدة على ارتكاب المعاصي وإنكار المعاد، ﴿مُتْرَفِينَ... يُصِرُّونَ... أَئِذَا مِتْنَا...﴾.

٨ ـ لا يملك منكرو المعاد دليلاً على إنكارهم واستبعادهم العودة إلى الحياة بعد الموت، ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾.

٩ ـ ترويج العقائد الباطلة، أخطر من الاعتقاد بها، ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

١٠ ـ يحاول المشكّكون ترويج الشبهة من خلال توسعة دائرة استبعادهم، ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من تقديم الجواب عن الشبهة، حتّى لو كانت ناتجةً عن العناد فحسب، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾.

٢ ـ قدرة الله على حشر الأوّلين والآخرين على حدّ سواء، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ﴾.

٣ ـ يجمع الله الناس في يوم واحدٍ ليحاسبهم على أعمالهم، ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

٤ ـ يوم القيامة معلوم عند الله، على الرغم من أنّه سبحانه لم يكشفه لنا، ولا نعلم موعده، ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝٥٦﴾

إشارات:

- «زقّوم» اسم لنبات مرّ الطعم قبيح الرائحة، ويقال إن له سائلاً يؤدّي إلى تورّم الجسد إن هو أصابه، وهو طعام أهل النار. و«النزل» ما يعدّ للنازل من الزاد تمهيداً لاستضافته. «الهيم» من الهيام وهو داء يصيب الإبل من العطش فلا ترتوي مهما شربت، وتستخدم هذه المادة في وصف الأرض الرملية التي تبتلع الماء الذي ينزل عليها.

- الطعام المرّ إمّا لا يأكله الإنسان في الدنيا، وإما يأكل القليل منه لو اضطرّ إلى تناوله، وبعد تناوله يبحث عن بديل أطيب منه طعماً ليذهب بطعمه المرّ، وأما في الآخرة فإنّه لا يكتفي بأكله، ﴿لَآكِلُونَ﴾، بل يأكله بشغف، ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾، وإذا بحث عن بديل له فلا يجد إلا ما هو أسوأ منه، ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾.

التعاليم:

١ ـ يخاطَب أهل النار بأشدّ لهجةٍ وخطاب، ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾.

٢ ـ أصحاب الشمال هم الضالّون، ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾، الذين نطلب من الله أن لا نكون منهم في كل صلاة، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

٣ ـ التكذيب أسوأ من الضلال، فإنّ بعض الضالّين قد يهتدون سواء السبيل، بتوفيق من الله إلى الهداية، ﴿ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾.

٤ ـ أشكال الإهانة والتعذيب الروحي والجسديّ الموصوف في هذه الآيات كلّها، هو مقدّمة لنزول أهل النار، فما بالك بالعذاب الحقيقي، ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

٥ ـ عدل الله سبحانه مطلق لا حدود له، وجزاؤه مساوٍ للأعمال التي يقوم بها الإنسان في الدنيا، ويوم القيامة هو يوم الإدانة والجزاء، ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

إشارات:

- أشارت الآيات السابقة إلى إنكار بعض الناس المعاد، وفي هذه الآيات يقدّم الله سبحانه بعض المؤشّرات الدالة على قدرته المطلقة، لرفع أسباب استبعاد المعاد وإنكاره.
- أدلّة القرآن فوق الزمان والمكان، ولا تنتهي صلاحيّتها بانقضاء فترة نزول الوحي، فالنطفة في الرحم والبذر في الأرض وما شابه ذلك، من الأمور التي يمكن الاستناد إليها في كل زمان للدلالة على قدرة الله سبحانه.
- خفاء وقت الموت له حكم وأسرار شتّى منها، أنّه يؤدّي إلى الاستعداد الدائم لاستقبال لحظة الموت، بالعمل الصالح والتوبة المتكرّرة، ومنها الحفاظ على مسيرة الحياة بشكل طبيعيّ، ولو علم الإنسان وقت موته لأعرض عن الدنيا وضاقت في وجهه.

□ على الرغم من الدور الذي يؤدّيه الإنسان في تحقّق بعض الظواهر، كالحمل والولادة، فإنّ الفاعل الحقيقيّ هو الله، فما يحصل من الإنسان هو الوقاع، وأما تلقيح النطفة البويضة في الرحم، فهو من فعل الله سبحانه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، بل حتّى لو تمّ التلقيح خارج الرحم، فإنّ دور الإنسان يقتصر على المقدّمات فحسب.

التعاليم:

١ ـ ما الداعي إلى الشكّ في المعاد؟ ألا يقدر من خلق للمرّة الأولى أن يعيد الخلق ثانيةً، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

٢ ـ لا بدّ من مواجهة المنكر بالحجّة والدليل، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

٣ ـ يجب أن يكون اللوم والتأنيب بعد تقديم الدليل؛ فقد قال الله تعالى أولاً: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، ثمّ ثنّى بقوله ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

٤ ـ من المناسب جداً عدم الاكتفاء بدليل واحدٍ في مقام الإقناع وإقامة الحجّة، ﴿أَفَرَءَيْتُم... ءَأَنتُمْ﴾.

٥ ـ من الأساليب المناسبة في الجدل، والدعوة إلى الحقّ، أسلوب السؤال والجواب؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى تفتّح الذهن والاستعداد للفهم، ﴿أَفَرَءَيْتُم... ءَأَنتُمْ﴾.

٦ ـ قدرة الله تتجلّى في كل من الخلق، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾، والإماتة، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

٧ ـ الموت من الظواهر الخاضعة للقانون، وليس أمراً عشوائياً يتحقّق بالصدفة، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

٨ ـ نهاية العمر، وأجل الإنسان بيد الله سبحانه، وليس بيد غيره، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

٩ ـ لا يدلّ الموت على عجز الله سبحانه عن إدامة حياة الإنسان، بل هو نتيجة تقدير إلهيّ حكيم، ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

١٠ ـ الموت ووقته من الظواهر الخاضعة لإرادة الله سبحانه، ولا قدرة لأحد من الناس على تقديمها أو تأخيرها لحظة من الزمان، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

التعاليم:

١ ـ من الحكم الكامنة في الموت، إرادة الله استبدال بعض الناس ببعضهم الآخر، وإيجاد التحوّل والتطوّر على الأرض، ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ... نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ﴾.

٢ ـ قدرة الله على استبدال الأموات بأحياء يحلّون محلّهم، من الأدلّة الدالّة على إمكان المعاد وبعث الناس للحساب، ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ... نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ﴾.

٣ ـ الدنيا معبر ومحطّة تستقبل في كل يوم مسافرين جدد، ﴿نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ﴾.

٤ ـ لا يعلم الإنسان وقت الساعة، كما لا يعلم وقت موته، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

إشارات:

- «الحطام» من الحطم وهو الكسر، و«تفكهون» من المصدر «فكِه» وهو أكل الفاكهة، أو الحديث الذي فيه فكاهة، ووردت أيضاً بمعنى التعجّب والندم. و«مغرمون» من الغرم والغرامة؛ الخسارة.
- من الأمور الجديرة بالتفكّر والتأمّل أنّ الأرض تحوّل جسم الإنسان إلى تراب، ولكنّها لا تحوّل البذر الذي يلقى فيها إلى ترابٍ بل إلى نبات. وللبذرة في الأرض حركتان متعاكستان، إحداهما بمدّ جذورها إلى أسفل، والثانية امتدادها إلى أعلى؛ ولها في الحركتين قدرة على مواجهة الموانع والمعيقات.

□ إنَّ أشكال التغيير كلّها والتحوّل في الطبيعة عند الله سواء، وهو قادر عليها جميعاً بالمستوى نفسه. كالحياة والموت، وخلق الماء عذباً وأجاجاً، وإلى غير ذلـــك، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ... قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ...﴾، و﴿نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ... لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا...﴾، ﴿تَشْرَبُونَ... لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾.

□ من الطرق المفضية إلى معرفة الله سبحانه، افتراض خلاف ما هو موجود وقائم، على قاعدة: «تعرف الأشياء بأضدادها». مثلاً: ماذا كان يحصل لو أنّ الليل أو النهار، أطول مما هما عليه الآن؟ ماذا يحصل لو غار الماء في الأرض؟ ماذا لو كانت النباتات كلّها شوكاً؟ ماذا لو كان الماء مرًّا لا يُستساغ؟ من الذي يمكنه تغيير هذه الأمور إلى الأحسن لو كانت مخلوقةً كذلك؟

نعم، لو أنّ الإنسان يلتفت إلى مثل هذه الفرضيّات المعاكسة للواقع القائم حالياً، لفهم قدر نعمة الله، ولأدرك قدرته سبحانه ولطفه بالإنسان.

التعاليم:

١ ـ القادر على تخليق النبات من البذر الذي يلقى في الأرض، هو نفسه القادر على تخليق الإنسان من النطفة التي تبدو ميتةً لا حياة فيها، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾.

٢ ـ كل الأفعال وردّات الفعل الطبيعيّة، تحصل بقدرة الله تعالى وإرادته، ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾.

٣ ـ بعض الناس لا يتّعظون إلا عندما يحصدون بدل زرعهم شوكاً، وإلا عندما يضعون أيديهم على رؤوسهم لتفقد أثر الجدار أو الحجر الذي اصطدموا به، نعم بعض الناس لا يستيقظون إلا بصدمةٍ، ﴿حُطَٰمًا﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

إشارات:

□ «المزن» الغيوم البيضاء الحاملة للمطر. و«أجاج» أي مالح مع مرارة.

□ ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذي سقاني عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبي**»[١].

□ الالتفات إلى قيمة الماء ودوره في رفع العطش، ﴿تَشْرَبُونَ﴾، وإلى كيفيّة نزوله من الغيوم، ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾، وإلى كونه عذباً سائغاً للشرب، ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ يدعو الإنسان إلى الشكر والاعتراف بنعمة الله.

□ دوام لطف الله تعالى، لا يدلّ على عجزه عن الخيارات الأخرى المعاكسة، ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾، فلو شاء الله لجعل الماء العذب مالحاً لا يُستساغ.

□ يدعو التأمّل في نعم الله على الإنسان إلى الشكر والامتنان لله تعالى على نعمه، وفي الوقت عينه يعمّق روح التوحيد في نفسه، ﴿نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ... نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الأدلّة التي يشير إليها القرآن تتوفّر على البساطة والدقّة والعمق في آنٍ معاً. وبالتالي يكفي النظر إلى الماء للاعتراف بالمبدأ والمعاد، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾

٢ ـ نزول الماء الصالح للشرب من الغيوم، من الأمارات الدالّة على حكمة الله وقدرته، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾

٣ ـ نزول الماء من السماء، خارج عن قدرة الإنسان، وهذا يكفي للدلالة على معرفة الله، ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾

٤ ـ الخلق كلّه مدرسة للتدبّر، ﴿أَفَرَءَيْتُم...﴾، والتذكّر، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، والشكر، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) وسائل الشيعة، ج٢٥، ص٢٥٧.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

إشارات:

- «تورون» من الوري وهو إظهار الخفي، والمراد من التعبير في هذه الآية الإشارة إلى استعمال العرب بعض أنواع الأشجار بحكّها بعضها ببعض واستعمالها لإشعال النار، وبعبارة أخرى، كأنه سبحانه يقول: أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقدح من الشجر الرطب أأنتم أنشأتم شجرتها، يعني التي يكون منها الزناد وهي المرخ والعفار.
- «المقوين» من القواية أي الصحراء والبرّية، والمقوي هو المسافر في الصحراء.
- أشارت الآية ٤٧ إلى الشكّ في المعاد والرجوع إلى الحياة بعد الموت، وفي هذه الآيات يحدث الله الناس، ويشير إلى أدلّة معرفته أكثر من عشرين مرّة ليرفع أيّ شكّ وتردّد.
- يحدّثنا الله سبحانه في هذه الآيات عن العناصر الأربعة، وهي: التراب، والماء، والهواء، والنار، وهي جميعاً تحت سلطته، وقدرته، وخاضعة لمشيئته.
- يسأل الله سبحانه الناس أربع مرّاتٍ عن خلقهم، وعن الماء الذي ينزل إليهم من الغيم، وعن نموّ النبات، وعن النار التي يصطلون بها؟ لينتزع منهم الإقرار له بالربوبيّة والخلق.
- الحاجة إلى النار في الصحراء، أوضح من الحاجة إليها في محلّ السكن، فالمسافر يحتاج إلى النار للتدفئة، وللاستئناس بها في الظلام، والأمن بها من الحيوانات المفترسة.

التعاليم:

١ ـ الله الذي يخرج النار من الشجر الرطب، هو القادر على إعادة الحياة إلى الأجساد الميتة، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾.

٢ ـ خروج النار من الشجر الأخضر، يذكّر بالآخرة من جهتين، إحداهما جهة خروج النار الكامنة في الخشب، وهذا يلفت إلى إمكان عودة الأجساد الميتة إلى الحياة، والثانية أنّ نار الدنيا تذكر بنار الآخرة، ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾.

٣ ـ يدعو الله النبيّ ﷺ إلى تسبيح الله وتنزيهه، بغضّ النظر عن إيمان الناس واتّعاظهم بهذه المواعظ المنبّهات أو عدم اتّعاظهم، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

﴿۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

إشارات:

- لا يمكن لأيّ شخصٍ أو أيّ شيءٍ أن يؤثّر في الوجود من دون إرادة الله ومشيئته. وعليه فإنّ الاعتقاد بتأثير النجوم والكواكب في مصائر الناس وتحكّمها بمستقبلهم ما هو إلا خرافة، والنجوم لا تدلّ على سوء الطالع ولا على حسنه، وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنّ الله أثنى على النجوم وأقسم بمواقعها[1].
- «مواقع النجوم» هي مواضع استقرارها. والقسم بمواقع النجوم أهمّ من القسم بها نفسها؛ وذلك لأنّ محالّها أكبر منها بأضعاف.

التعاليم:

١ ـ ينقل الله الإنسان بفكره وعقله، من أصغر الأشياء كالنطفة والبذرة والنار، إلى النجوم ومواقعها في السماء، ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ... فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.

٢ ـ يقسم الله في القرآن ببعض الأمور الصغيرة كالتين والزيتون مثلاً، ويقسم أيضاً بما هو أكبر منها بأضعاف كالنجوم في هذه الآية؛ وذلك لأنّه لا فرق عند الله بين هذه الأشياء، فهي عنده سيّان.

٣ ـ لكلّ نجم موقع ومسار خاصّ به، يسير فيه وفق نظامٍ متقنٍ لا يحيد عنه، ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.

---

(١) تفسير راهنما.

٤ ـ لا يحيط الإنسان علماً بأوضاع الكواكب والنجوم وأحوالها، مهما بلغ من العلم والمعرفة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠)﴾

إشارات:

□ يبدو أنّ المراد من «الكتاب المكنون» في هذه الآية هو اللوح المحفوظ؛ وذلك لأنّ الله سبحانه يقول في سورة البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[1]، ويقول: في هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾.

□ يصف الله نفسه وما يرتبط به بالكرم، في آياتٍ عدّةٍ من القرآن الكريم:

ـ الله كريم، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[2].

ـ القرآن كريم، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾[3].

ـ الرسول كريم، ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾[4].

ـ ملاك الوحي كريم، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[5].

ـ وعن عليّ عليه السلام، في وصف أهل البيت، أنّهم كرائم القرآن[6].

ـ والإنسان وهو أعزّ مخلوقات الله عليه كريم، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[7].

□ قراءة القرآن وفهم معاني كلماته ميسوران لكلّ من يعرف العربيّة، ولكن التواصل مع القرآن بالروح، يتوقّف على طهارة خاصّة لا تتوفّر لكل الناس، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[8]؛ ولذلك لم يقل سبحانه «لا يقرأه ولا يفهم معانيه إلا المطهرون»، بل قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ

---

(١) سورة البروج: الآية ٢١ و٢٢.
(٢) سورة الانفطار: الآية ٦.
(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٧.
(٤) سورة الدخان: الآية ١٧.
(٥) سورة التكوير: الآية ١٩.
(٦) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٢.
(٧) سورة الإسراء: الآية ٧٠.
(٨) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، ولعلّ المراد من المماسّة هذا المعنى الذي أشرنا إليه وقد ورد في التفسير بالأثر، أنّ المطهرين في الآية هم المقرّبون[١].

❑ القرآن كريم؛ وذلك لأنّ:

- مكانه ومستقرّه في اللوح المحفوظ، ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾.

- الوسطاء بيننا وبينه مطهّرون سواء في ذلك الملائكة أم النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾.

- ولأنّه يقع في سياق الربوبيّة الإلٰهيّة وتربية البشريّة، ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

❑ القرآن طاهر مطهّر، ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾[٢] لا يمسّه إلا الطاهرون، ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾.

❑ ليس القرآن كما يتّهمه المشركون والكفّار، مما يمليه الخيال على النبيّ ﷺ، ﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾[٣]، وليس خرافات وأساطير، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ولم يتعلّمه النبيّ ﷺ من آخرين، ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، سواء كان المعلّم فرداً أم جماعةً، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، بل هو من الله سبحانه وتعالى، ومن مقتضيات ربوبيته وتربيته للإنسان، ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

❑ القرآن سرّ العظمة والرقيّ للإنسان فرداً ومجتمعاً. فهو كريم، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، والنظر فيه، وحفظه، وتدبّر آياته، مصدر كرمٍ ومنشأ رفعةٍ للإنسان، وفيه الحلول المتناسبة مع كرامة الإنسان وعلوّ مقامه بين سائر المخلوقات على جميع الصعد الفرديّة والاجتماعيّة التي يحتاجها الإنسان في حياته الدنيا، وفي الآخرة. ولا محلّ في القرآن للكلام الرديء، أو البعيد عن قواعد المنطق السليم، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

---

(١) الدر المنثور، ج٦، ص ١٦٢.
(٢) سورة البيّنة: الآية ٢.
(٣) سورة الفرقان: الآية ٥.

التعاليم:

١ ـ يقسم الله بأعظم وثيقة تكوينيّة لإثبات كرامة أعظم وثيقة تشريعيّة، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ... إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

٢ ـ يبلغ القرآن منتهى الكرم والكرامة؛ حيث إنّه يضع قواعده ومضامينه الراقية في معرض استفادة كلّ من يمكنه الاستفادة، وكلّ منهم على طريقته، وبحسب ما أوتي من قدرة، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

٣ ـ ليس القرآن مجرّد كلماتٍ وألفاظٍ، بل له مقام أعلى وأسمى محفوظ عند الله تعالى، ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾.

٤ ـ للاستفادة من القرآن آداب خاصّة، فلا يجوز للمحدث أن يمسّ القرآن قبل أن يتوضّأ[1]، ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾.

٥ ـ حقائق القرآن ساميةٌ وأرقى من أن يصل إليها أهل العناد والملوّثون بالشرك والنفاق، ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾.

٦ ـ القرآن أحد تجلّيات ربوبيّة الله تعالى، ويتضمّن برنامجاً تربويًا يتناسب مع تسامي الإنسان وتربيته، ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

إشارات:

- «مدهنون» من الدهن وهو الزيت وشبهه، وكلمة مداهنة تستعمل في كلّ من الضعف والمداراة.

- ورد في سبب نزول الآية أنّها نزلت في رجل من الأنصار في غزوة تبوك، ونزلوا الحجر فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا يحملوا من مائها شيئاً، ثم ارتحل ثم نزل منزلاً آخر وليس معهم ماء، فشكوا إليه ﷺ ذلك فقام فصلّى ركعتين ثم

(١) انظر: تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ٢٢٦.

دعا، فأرسل الله سحابة فأمطرت عليهم حتّى استقوا منها، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يُتّهم بالنفاق: ويحك قد ترى ما دعا النبيّ ﷺ فأمطر الله علينا السماء! فقال: إنّما مطرنا بنوء كذا وكذا. فأنزل الله الآية[1].

نعم يوجد في المجتمع الإنسانيّ عددٌ من الأشخاص يجعلون أقصى همّهم وغاية أهدافهم تسخيف أعمال الآخرين والغضّ من قيمتها. فلو وافق جميع الناس على أمرٍ لأنكره هو على قاعدة «خالف تُعرَف». وربّما كان سبب ذلك عند بعض هؤلاء أنّ أحدهم لا يجد لنفسه عملاً يؤدّيه، وبعضهم يعمد إلى وسائل أخرى ليظهر تفوّقه على الآخرين كالاهتمام بمظهره والمبالغة في العناية بملبسه وشكله الظاهريّ، يضيف ذلك كلّه إلى تصوير نفسه أرقى وأعمق فكراً من الآخرين.

التعاليم:

١ ـ كلّما كان الموضوع أكثر قداسةً، كان الإنكار أشدّ خطراً، وكان استحقاق التأنيب أوضح، ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

٢ ـ لا مجال للمداهنة والمساومة على أصول الدين ومبادئه الأساسيّة، ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ... أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

٣ ـ التساهل في أمور الدين يقود الإنسان تدريجاً إلى الإنكار والرفض، ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

إشارات:

- إذا كان بعض الناس يشكّون في المعاد؛ بسبب شكّهم في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، فهل يشكّون في قدرته على الإماتة وقبض الأرواح؟ فما مبرّر

(١) بحار الأنوار، ج٥٥، ص٣٢٨.

الشكّ والحال أنّ جميع الناس لو اجتمعوا للحيلولة دون موت المحتضر لما استطاعوا، وهذا يكشف عن خضوع ظاهرة الموت والحياة للإرادة الإلٰهيّة.

❑ على المؤمنين بالمعاد عدم الاكتفاء بوضوح هذه العقيدة في أذهانهم، فهذا هو القرآن يتضمّن الكثير من الأدلّة المتتابعة في سورة واحدة لإثبات هذا الأصل الاعتقاديّ، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، على الرغم من أنّه يقرن ذلك بتذكيرهم بعجزهم، كما في هذه الآيات التي تستعرض حالة الاحتضار والعجز عن التمسّك بالمحتضر وعدم تركه لقمةً سائغة للموت.

❑ الله سبحانه قريب من جميع عباده، مؤمنهم وفاسقهم وكافرهم، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، والمطلوب من الإنسان أن يحسن عملاً ليقترب هو من الله.

❑ «مَدين» من الدين بمعنى الجزاء، ولهذا المعنى سمّي يوم القيامة يوم الدين.

❑ النظر والإبصار ليسا بمعنىً واحد، فقد ينظر الإنسان ولا يبصر، ﴿تَنظُرُونَ... وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ ساعة الاحتضار والموت، حتميّة لجميع الناس، ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ (إذا أداة شرط للأمور اليقينيّة).

٢ ـ تخرج الروح من مجرى النفس، ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

٣ ـ يرفع الله الشكّ في المعاد، من خلال التذكير بقدرته في حالتي الحياة والموت، وبذلك يتمّ الحجّة على الناس، ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

٤ ـ الله سبحانه أقرب إلينا من أقرب الناس إلينا، فقرب الناس قرب ماديّ، وأما قرب الله فهو قرب إحاطة واستيلاء، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾.

٥ ـ المعاد والجزاء في الآخرة من الأمور القطعيّة، ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (ويُستفاد المعنى المذكور من استعمال الفعل الماضي).

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

إشارات:

- «الروح» بمعنى الراحة والرفاه والرحمة. و«الريحان» هو كلّ نبت طيّب الرائحة، وتستعمل في الرزق أيضاً. و«تصلية» من «الصلي» وهو الذوق، والشواء والسقوط.

- يشير الله سبحانه في أوّل السورة إلى تقسيم الناس إلى فئاتٍ ثلاث، بقوله تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾، المقرّبون إلى الله، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. وفي آخر السورة يكرّر الله الحديث عن مصير كل فئة من هذه الفئات.

- ينال كل امرئ ثوابه بحسب مقدار قربه من الله؛ كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله يجمع للمقرّب بين الروح والريحان في قبره، وبين جنّة النعيم في الآخرة. و«المقرّبون» هو السابقون إلى الإيمان والعمل الصالح؛ وذلك بالنظر إلى الآيتين العاشرة والحادية عشرة، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

وأصحاب اليمين يبشّرون عند الموت، بما يرفع عنهم القلق، ويؤجّل ثوابهم إلى الآخرة. ويبدو أنّ المراد من أصحاب اليمين، أولئك الذين يأتون صحيفة أعمالهم بيمينهم، والذين أشار إليهم الله تعالى في الآيات ٧١ من سورة الإسراء، و١٩ من سورة الحاقّة، و٧ من سورة الانشقاق، ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾. والمراد من أصحاب الشمال من يؤتى صحيفة أعماله بشماله. وعن الإمام الباقر عليه السلام أنّ المراد من المكذّبين الضالّين المشركين[1].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص ٢٣٠.

□ في تفسير قوله تعالى ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، أقوال واحتمالات عدّة، منها:

أ ـ أن يكون المراد توجيه السلام إلى أهل الجنّة من دون تعيين شخصٍ بعينه.

ب ـ أن يكون المراد توجيه السلام من أهل الجنّة إلى النبيّ ﷺ؛ لما تحمّله من مشاقّ أوصلتهم إلى المقام الذي هم فيه.

ج ـ أن يكون المراد أنّ النبيّ ﷺ في خير وسلامة، لفلاح هؤلاء الناس.

□ يقول سبحانه في الآية ٥١: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾؛ ولكنّه يقول في الآية ٩٢: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ فما الوجه في تقديم الضالين على المكذّبين في الآية الأولى، وتأخير ذكرهم في الآية الثانية؟

الجواب: يبدو أنّ الخطاب في الآية الأولى باعتبار الدنيا، وذلك أنّ الإنسان يؤول أمره إلى التكذيب بسبب الضلال؛ وأمّا باعتبار الآخرة وبالنظر إلى حالة نزع الروح، فيكون البدء بالعقاب على الجرم الأشدّ خطورةً.

□ يعرض الله سبحانه لنا في هذه الآيات مصير ثلاث فئات، ليختار الإنسان العاقل ما يناسبه منها، ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ... فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾.

□ لم يشر الله تعالى إلى مبرّر ثواب المقرّبين وأصحاب اليمين؛ وأمّا بالنسبة إلى عقاب الكافرين، فقد ذكر أنّ سبب العقاب هو التكذيب والضلال. والفرق بين الحالتين هو حاجة العقاب إلى بيان وخصوصاً في حالة التكذيب والضلال، وأمّا اللطف والمحبّة، فلا يحتاجان إلى دليل ومبرّر[١].

□ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**فنزل من حميم في قبره وتصلية جحيم في الآخرة**»[٢].

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير، عند تفسير هذه الآيات.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٢٩.

التعاليم:

١ ـ ينتقل المقرّبون بمجرّد مفارقة أرواحهم للأجساد إلى الراحة والريحان، ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ (حرف الفاء يدلّ على العطف من دون تراخٍ).

٢ ـ الموت بالنسبة إلى المقرّبين انتقال إلى الراحة، وخلاص من غصص الدنيا وآلامها ﴿فَرَوْحٌ﴾، ووصول إلى ألطاف الله، ﴿وَرَيْحَانٌ﴾، واستقرار في النعيم الأبديّ، ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

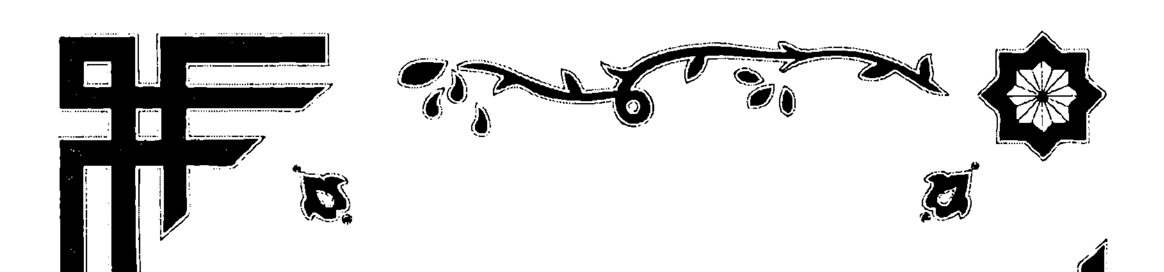
٣ ـ يجب أن نتعامل مع لحظات الاحتضار والموت، ومع كيفيّة خروج الروح، ومع مفاهيم أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، بشكل جادّ، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

٤ ـ صعوبة نزع الروح على الكافرين، وملاقاتهم بالحميم والجحيم، جزاء عادل مستحقّ، ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾.

٥ ـ عقوبة عمر من الضلال والتكذيب، ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، ضيافة بالماء الحارّ في الجحيم وحرارة جهنّم، ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، وهذا غاية العدل فالله سبحانه منزّه عن غير العدل، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٦ ـ يوم القيامة ونظام العقاب والثواب، من دلائل ربوبيّة الله سبحانه، ويقع في سياق تربية الله للإنسان، ومن الأمور التي تستحقّ من الإنسان الشكر والتسبيح، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

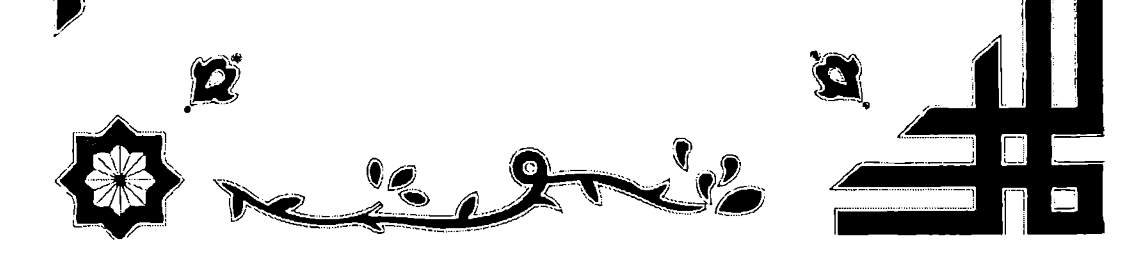
«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ الحَدِيدِ

السورة: ٥٧ الجزء: ٢٧

عدد الآيات: ٢٩



ملامح سورة الحديد

سورة الحديد مدنيّة وعدد آياتها، تسع وعشرين آيةً.

السمة الغالبة على آيات هذه السورة أنّها تتحدث عن المسائل الاعتقاديّة، كما أنّها تتعرّض لبعض القضايا الاجتماعيّة ذات الصلة بالدولة ونظام الحكم. وفي الآيات الأوَل منها تشير إلى ما يقرُب من عشرين صفةً من صفات الله ﷻ. وعظمة القرآن، وأحوال المؤمنين والمنافقين يومَ القيامة، ومصير الأمم السابقة، والإنفاق في سبيل الله من أجل تحقيق العدالة الاجتماعيّة، وانتقاد الرهبانيّة، هذه الموضوعات كلّها مما تعرّضت له سورة الحديد في آياتها.

وعن الإمام السجّاد عليه السلام، أنّه سئل عن التوحيد، فقال: **«إنّ الله ﷻ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون، فأنزل الله تعالى «قل هو الله أحد»، والآيات من سورة الحديد إلى قوله «عليم بذات الصدور»، فمن رام وراء ذلك فقد هلك»**[1].



(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٧٠٦.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

إشارات:

- تشترك الآية الأخيرة من سورة الواقعة والآية الأولى من سورة الحديد، في موضوعهما وهو التسبيح، ففي الأولى قوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، وفي الثانية قوله ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾.
- توجد في القرآن الكريم، ثماني سور تبدأ بالحديث عن التسبيح، هي: الإسراء، والنحل، والحديد، والحشر، والصفّ، والجمعة، والتغابن، والأعلى. وقد تكرّرت كلمة التسبيح بصيغ عدّة أكثر من تسعين مرّةً. وأمّا الحمد فقد ورد في مطلع أربع سورة فقط، هي: الحمد، والأنعام، وسبأ، وفاطر، وتكرّرت مفردة الحمد ما يقرب من سبعين مرّةً. وربّما كان السرّ في ذلك، هو إصرار القرآن على مواجهة الشرك، والخرافات الاعتقاديّة في ما يؤمن به الناس، وذلك على قاعدة الاهتمام بما تمسّ الحاجة إليه، أكثر من الاهتمام بالكماليّات؛ وذلك أنّ التسبيح والتنزيه حاجة، بينما الحمد كمال. ونلاحظ زيادة الاهتمام بالتسبيح على الاهتمام بالحمد، في الصلاة أيضاً، ومن هنا يتكرّر ذكر «سبحان الله» أكثر مما يتكرّر ذكر «الحمد لله».
- بحسب الرؤية الكونيّة الإسلاميّة، الكون ومظاهره كلّها في حالة تسبيح دائمةٍ لله تعالى، ولو لم نكن نفهم كثيراً من تسبيح مظاهر الطبيعة، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾[1]، وهذا التسبيح مقرون بالعلم ممن يصدر عنه، ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥۗ﴾[2].
- يذكر الله سبحانه وتعالى بعض مخلوقاته التي ينسب إليها التسبيح، ومنها:

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤. (٢) سورة النور: الآية ٤١.

أ ـ الملائكة، ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾[1].

ب ـ الرعد، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[2].

ج ـ الطير، ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ﴾[3].

ج ـ الجبال، ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾[4].

- تسبيح الله من الوسائل المساعدة على النجاة من البلاء، ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[5].
- كلمتا أوّل وآخر، عندما يوصف بهما الله تعالى، يراد بهما، الأزليّ والأبديّ. أي كان قبل أن يكون شيء، وسيبقى بعد فناء كلّ شيء. ووجوده أظهر من وجود أيّ شيء، وهو مع ذلك أخفى من الأشياء. وظهوره من جهة دلالة المخلوقات كلّها عليه، وهو باطن من جهة اطّلاعه على حقائق الأمور وبواطن الأشياء وعلمه بها.

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه منزّه عن كل عيبٍ ونقصٍ، ومظاهر الوجود كلّها في السماوات والأرض تشهد له سبحانه بذلك، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

٢ ـ قدّم الله تسبيح الموجودات السماويّة على الموجودات الأرضيّة، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

٣ ـ القدرة وحدها ليست مهمّةً وإنّما المهمّ هو اقترانها بالحكمة، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

٤ ـ الحاكم الحقيقيّ والمطلق في السماوات والأرض هو الله. وسلطة الإنسان على الأرض هي سلطة اعتباريّة مجازيّة، فعلى الإنسان أن لا يغترّ بقدرته على التحكّم في بعض الأشياء، ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٣.

(٣) سورة النور: الآية ٤١.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٥) سورة الصافّات: الآيتان ١٤٣ و١٤٤.

٥ ـ الإله الذي يتوفّر على العزّة، والحكمة، والحاكميّة، والقدرة المطلقة ويملك مقادير الحياة والموت، هو وحده من يستحقّ التسبيح والتمجيد، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ، لَهُۥ مُلْكُ، يُحْيِۦ وَيُمِيتُ، قَدِيرٌ﴾.

٦ ـ أول الوجود وآخره، وشهوده وغيبه، بيد الله سبحانه، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

٧ ـ الأهمّ من الخلق بحكمةٍ والأهم من الملك مع الاقتدار، العلم والرقابة الدائمة على المخلوقات، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (وذلك بالنظر إلى ما تقدّم في الآيتين السابقتين).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

- كل ما يدخل إلى جوف الأرض، من بذر نباتٍ، أو قطرات ماءٍ، أو جذور أشجار، أو أجساد الموتى، وما سوى ذلك من كنوز الأرض وشبهه، وكل ما يخرج من الأرض كأغصان الأشجار وثمارها، وما تخرجه الأرض من ماء ونبات، ونفط ومعادن، ذلك كلّه معلوم لله تعالى، لا يخفى عليه منه شيء.
- الإيمان بعلم الله سبحانه وحضور المخلوقات بين يديه، من أهمّ وسائل التربية الروحيّة؛ فعندما يلتفت الإنسان إلى علم الله بما يفعل لا ينبغي أن يقدم على مخالفة أو يجترئ على معصيةٍ.

التعاليم:

١ ـ على الرغم من أنّ قدرة الله واسعةٌ تسمح له بخلق الكائنات كلّها في لحظةٍ واحدةٍ، إلا أنّ حكمته تقتضي خلق الأشياء تدريجاً، ﴿خَلَقَ... فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

٢ ـ لله سبحانه سلطةٌ كاملةٌ ومطلقةٌ على الوجود بأسره، ﴿خَلَقَ... ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

٣ ـ يعلم الله جزئيات المخلوقات كلّها لا يغيب عن علمه منها شيء، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ...﴾.

٤ ـ الوجود كلّه في محضر الله سبحانه، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾.

٥ ـ علم الله علم حضوريّ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾.

٦ ـ لا يعلم الله جزئيّات المخلوقات فحسب، بل يعلم ما يصدر عنها من أعمال، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

- من أهداف القرآن، التعريف بالله وصفاته، والدعوة إلى التوحيد، وهذا من الأهداف الواضحة لسورة الحديد ولا سيّما في آياتها الأولى، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ، هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ، هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ، وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.
- يمكن اختصار أهمّ مبادئ الإدارة والسلطة، في ما يأتي:

أ ـ العلم والمعرفة بالظاهر والباطن، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ... وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

ب ـ القدرة، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ج ـ العزّة والحكمة، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

د ـ الرقابة والحضور الدائم، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

هـ ـ المحاسبة والجزاء على الأعمال، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه هو خالق الكون بما فيه، وهو المدير والمدبّر لأموره بكلّ تفاصيلها، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ... لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢ ـ لا شريك لله في الخلق، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ...﴾، ولا شريك له في إدارة شؤون المخلوقات وتدبيرها، ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٣ ـ الله سبحانه هو منشأ الوجود، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾، وإليه ينتهي مآل الأمور كلّها، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٤ ـ الوجود له هدف محدّد من قبل الله تعالى، وهو يسير باتّجاه هدفه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٥ ـ دوران الليل والنهار، وطول الأيّام وقصرها، من نماذج التدبير الإلهيّ للكون، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... يُولِجُ ٱلَّيْلَ...﴾.

٦ ـ لا يعلم الله أفعالنا وما يصدر عنّا فحسب، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، بل يعلم ما تكنّ صدورنا وما يعتمل في رؤوسنا من أفكار، ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

إشارات:

- الخطاب في الآية موجّه إلى المؤمنين، والمراد من الأمر بالإيمان، ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، هو العمل بمقتضيات الإيمان ولوازمه، وكأنّه يقول لهم إذا كنتم تدّعون الإيمان فلهذا الإيمان لوازم لا بدّ من الالتزام بها[(١)].
- يحتمل في المقصود من جعل الإنسان خليفة في قوله تعالى: ﴿جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾، إمّا جعله خليفة عن الله تعالى في الأرض كما ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)]، وإمّا المقصود الإشارة إلى أنّ على الإنسان أن لا يظنّ أنّه هو المالك لما في يديه من الأموال، بل عليه أن يلتفت إلى أنّ الله هو المالك الحقيقيّ وما الإنسان إلا مستخلف عليه أن يراعي إرادة من استخلفه على المال وغيره.

---

(١) انظر: الميزان في تفسير القرآن. (٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

وللاستخلاف في الآية معنى آخر هو أنّ الإنسان يأتي بعد غيره ممّن سبقه من الناس وسوف يأتي بعده من يخلفه في هذا المال وربّما يستفيد منه ويدخل به الجنّة.

التعاليم:

١ ـ قيمة الإيمان تستمدّ من العمل، ومن الأعمال التي تضفي على الإيمان قيمةً مساعدة الفقراء والإحسان إليهم، ﴿ءَامِنُوا... وَأَنفِقُوا﴾.

٢ ـ الإنفاق المجدي الذي له قيمة في الميزان الإلٰهيّ هو الإنفاق المقترن بالإيمان، ﴿ءَامَنُوا... وَأَنفَقُوا﴾.

٣ ـ كلّ ما في يد الإنسان عارية وأمانة، والمالك الحقيقيّ هو الله سبحانه، ﴿جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾.

٤ ـ على الرغم من أنّ الإيمان والإنفاق واجبان على الإنسان، فإنّ الله جعل عليهما وعلى غيرهما من الواجبات ثواباً لتحفيز الناس على العمل الصالح، ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا... وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، فالثواب من المحفّزات التي لا ينكر تأثيرها على الإنسان.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

- تدلّ عبارة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، على أنّ الخطاب موجّه إلى المؤمنين؛ ومن هنا يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ هو العمل بلوازم الإيمان. ويكون معنى الآية: ما لكم تتصرّفون على الصعيد العمليّ تصرّف من لا يؤمن بالله والرسول؟

- يرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الميثاق هو الميثاق المأخوذ من الإنسان في عالم الذرّ، إلا أنّ ذلك الميثاق هو ميثاق عامّ لجميع الناس، وأما الميثاق

المشار إليه في الآية فهو الميثاق المأخوذ من المؤمنين دون غيرهم من الناس، ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ في مقام الدعوة وتبليغ الأحكام يجوز الاستفادة في بعض الأحيان من التأنيب، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

٢ ـ يتمّ الله الحجّة على الناس قبل أن يدينهم، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾.

٣ ـ الأنبياء يدعون الناس إلى الله، وهذا بخلاف بعض الناس الذين يدعون الناس إليهم، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾.

٤ ـ يدعو الله الناسَ إلى الإيمان بالرسول كما يدعوهم إلى الإيمان به، ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

□ إنَّ البرامج والمقرّرات الإلٰهيّة كلها تنزل على قاعدة الحكمة، على الرغم من أنّ ما بيّنه الله لنا هو بعض حكمها، ومما بيِّن من الحكم والأهداف للأعمال والتشريعات:

١ ـ الهدف من النبوّة، هداية الناس، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٢ ـ الهدف من الصلاة، ذكر الله وشكره، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[1].

٣ ـ الهدف من الصيام، التقوى، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

---

(١) سورة طه: الآية ١٤. (٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

٤ ـ الهدف من الحجّ الحضور والاجتماع، وتحصيل المناسك والاشتراك في المناسك، ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[١].

٥ ـ الغاية من الجهاد، دفع الفتنة، وحفظ الدين، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[٢].

٦ ـ الغاية من القصاص، حفظ الحياة وصون الدماء، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[٣].

٧ ـ الغاية من الحجاب، التزكية والحفاظ على طهارة القلوب، ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[٤].

٨ ـ الغاية من الزكاة، التطهير، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾[٥].

٩ ـ الغاية من تحريم الخمر والقمار، إبطال محاولة الصدّ عن ذكر الله والصلاة.

❑ نجاة البشريّة من ظلمات الجهل، والظلم، والشرك، والخرافة والفرقة، مرهونة بالانعطاف نحو الوحي والاستنارة بنوره: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٦].

❑ كلمة «إنّ»، وحرف اللام، والجملة الاسميّة، وصيغة المبالغة في الجملة، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، تدلّ جميعاً على أنّ الرحمة الإلٰهيّة دائمة، وعميقة، وشاملة، وحتميّة.

التعاليم:

١ ـ العبوديّة الخالصة، من العوامل المساعدة على نزول الألطاف الإلٰهيّة، ﴿يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾.

٢ ـ على المبلّغ والداعي إلى الله، أن يكون مزوّداً بالحجج الباهرة الواضحة، ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ... آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.

(١) سورة الحجّ: الآية ٢٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٩.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.
(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٣.
(٦) سورة إبراهيم: الآية ١.

٣ ـ الهدف الأساس والأهمّ الذي يسعى الأنبياء لتحقيقه، هو هداية الناس وإخراجهم من ظلمات الجهل والشرك والفرقة، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٤ ـ السبيل الواضح، هو سبيل الله وصراطه والمستقيم، وما سواه كائناً ما كان، هو ظلمة وظلام، ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ... ٱلنُّورِ﴾، ويستفاد المعنى المذكور من استخدام صيغة الجمع في كلمة «ظلمات»، وصيغة المفرد في كلمة «نور».

٥ ـ الوحي ينزل على النبيّ على أساس اللطف والرأفة الإلٰهيّة، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ... وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦ ـ من أفضل الأدلة والآيات الكاشفة عن الرأفة والرحمة الإلٰهيّة، هداية العباد، ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

❑ وردت في القرآن الكريم مئات الآيات التي تتحدّث عن مساعدة المساكين والمحرومين، من خلال الزكاة، والخمس، والصدقة، والإنفاق، والقرض الحسن، والإطعام، والإيثار وإلى غير ذلك؛ ولم يكتفِ القرآن بالدعوة إلى هذه الأمور بل حدّد مقدار الإنفاق ونوع ما ينفق، وشروط المنفِق والمنفَق عليه. وهذه السورة تشتمل على نماذج من الآيات الواردة حول هذه الموضوع العامّ.

❑ ورد في الآية السابعة من هذه السورة الأمر بالإنفاق ممّا جعلنا الله مستخلفين فيه، وفي هذه الآية يؤنّب الله الذين لا ينفقون من هذا المال الذي وصل إليهم بالوراثة، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟...﴾، وينبّه إلى أنّ هذا المال لن يبقى فإنّنا كما ورثناه سوف نورّثه، ومن الذي سيرثه في نهاية المطاف هو الله سبحانه، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

□ السبق والتقدّم في الأمور من المعايير التي على أساسها تكتسب بعض الأعمال قيمةً مضاعفةً، ومن هنا كان الإنفاق قبل فتح مكّة أهمّ وأعلى قيمةً من الإنفاق بعدها، بالنظر إلى اختلاف الظروف لجهة شدّة الحاجة وغيرها.

التعاليم:

١ ـ يؤنّب الله في هذه السورة صنفين من الناس، هما الذين لا يؤمنون، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾، والذين آمنوا ولكن لا ينفقون، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا﴾.

٢ ـ الإخلاص، من الشروط التي لا يمكن أن يقبل العمل إذا تجرّد عنها، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٣ ـ المقارنة، من الأساليب النافعة في التربية والتعليم، ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم﴾.

٤ ـ على المؤمن الصادق أن يكون مستعدًّا للتخلّي عن ماله وعن نفسه، في سبيل الله، ﴿أَنفَقَ... وَقَاتَلَ﴾.

٥ ـ الإنفاق من الأمور التي تدعم المجاهدين في ساحات الجهاد، ﴿أَنفَقَ... وَقَاتَلَ﴾.

٦ ـ يضحّي المجاهد الصادق، بالمال والنفس في سبيل الله؛ ولذلك يجب أن يكون حيث يستحقّ في الترتيب الاجتماعيّ الإسلاميّ، ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾.

٧ ـ لا ينبغي أن يقلّل السابقون إلى الإيمان وغيرهم، من قيمة الذي آمنوا في مراحل لاحقةٍ من تاريخ الدعوة، فالواجب هو الإيمان، وحتى لو تأخّر الإنسان فيه فإنّه له حقوقاً على المجتمع المسلم، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾.

٨ ـ قد تتشابه الأعمال في شكلها الظاهريّ، ولكنّ الله له طريقته الخاصّة في تقويم الأعمال وإعطاء الجزاء عليها، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

□ أصل القرض القطع والفصل عن الشيء بالمقراض، وهو الآلة التي يقطع أو يقرض بها، و«القراضة» هو المال الذي المفصول عن أصله.

❑ من يقرض الله يسترجع قرضه يوم القيامة أضعاف مضاعفةً منه سبحانه. والقرض في القرآن يوصف دائماً بـ«الحَسَن»، والمراد منه القرض الذي يدفع فوراً، ولا يكون مقروناً بالمنّة، وقبل سؤال السائل، وعلى قدر الوسع والطاقة، ومن أجل الأعمال المفيدة.

❑ للقرض الحسن بركاتٌ عدّةٌ، منها: أنّه يزيد في المحبّة، ويحفظ ماء الوجه، ويحول دون الإفلاس، ويصلح الوضع الاقتصادي في المجتمع، ويحول دون رواج الربا، ويضبط الحرص والبخل، وينشر ثقافة التعاون في المجتمع.

❑ الله الذي له ملك السماوات والأرض وهو الذي يرثهما جميعاً، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾، يحضّ الناس على الإنفاق بدعوتهم إلى إقراضه قرضاً حسناً، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

❑ يرفض الإسلام أيّ شكلٍ من أشكال الركود والضعف:

١ ـ الركود في الطبيعة، من خلال عدم استغلالها، **«من وجد ماءً وتراباً، ثمّ افتقر فأبعده الله»**[١].

٢ ـ الركود في الجهود والطاقات الإنسانيّة، **«اللهمّ إنّي أعوذ بك من الكسل»**[٢].

٣ ـ الركود في المال، ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾[٣].

٤ ـ الركود العلمي والأخلاقي والمعنوي، ﴿زِدْنِى عِلْمًا﴾[٤]، ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾[٥]، **«من استوى يوماه فهو مغبون»**[٦].

٥ ـ الركود الفكريّ، **«من استبدّ برأيه هلك»**[٧].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٧، ص٤٠.
(٢) الكافي، ج٢، ص٥٨٥.
(٣) سورة التوبة: الآية ٣٤.
(٤) سورة طه: الآية ١١٤.
(٥) سورة محمّد: الآية ١٧.
(٦) بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٧٣.
(٧) وسائل الشيعة، ج١٢، ص٤٠.

التعاليم:

١ ـ يضع الله نفسه، إلى جانب المحتاجين إلى القرض فيطلب القرض لهم بطلبه له، وكأنّه يجعل نفسه كفيلاً وضامناً للمحتاجين، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ عمل الخير عندما يتحوّل إلى طبعٍ وعادةٍ، يصبح أفضل من العمل الذي يصدر مع تكلّف، ﴿...يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ العمل بحدّ ذاته ليس هو المهمّ، بل المهمّ هو الصفة التي يصدر عليها، ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾.

٤ ـ الإقراض لا يؤدّي إلى نقص المال، بل يؤدّي إلى مضاعفته وزيادته، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾.

٥ ـ العمل الشاقّ يحتاج إلى محرّض قويّ للقيام به (لمّا كان التخلّي عن المال شاقّاً على الإنسان، ضمن الله مضاعفة الثواب عليه، ليشجّع الإقدام عليه)، ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

٦ ـ الإقراض دليل على الكرم، والله سبحانه ضمن للكريم أجراً كريماً من لدنه، ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

٧ ـ على المربّي أن يهتمّ بكرامة من يربّيه ويكرمه، ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ في الآية التاسعة أخبرنا الله أنّ هدف الأنبياء هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفي هذه الآية يحدّثنا عن مآل الذي خرجوا من ظلمة الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمة التفرقة إلى نور الوحدة، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، يخبرنا عن نورهم الذي يسعى بين أيديهم يوم القيامة. وفي الآية ١٥٧ من سورة الأعراف، يدعو إلى اتّباع النور الذي نزل على النبيّ ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.

□ للمؤمنين نورهم الذي ينير لهم سبيلهم يوم القيامة، وقد حدّثنا الله عن هذا النور في هذه الآية وفي الآية الثامنة من سورة التحريم، ﴿ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾.

التعاليم:

١ ـ يرى بعض الناس يوم القيامة بعضهم الآخر، ويعرفون أحوالهم، ﴿يَوۡمَ تَرَى﴾.

٢ ـ الرجل والمرأة في تلقّي الثواب الإلٰهيّ والتكامل المعنويّ سيّان، ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

٣ ـ يتجسّد الإيمان يوم القيامة، على شكل النور ويقود المؤمنين إلى الجنّة، ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾.

٤ ـ البشارة بالنعمة، هي نعمةٌ بحدّ ذاتها وهي نعمة معنويّة ونفسيّة، ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾.

٥ ـ الفلاح والصلاح الحقيقيّ يتجلّى بأعلى درجاته يوم القيامة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾

إشارات:

□ «انظرونا» من مادة «نظر»، وهذه المادة عندما تستعمل من دون كلمة «إلى» تدلّ على الانتظار والإمهال، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾[1]، وإذا استعمِلت مع «إلى» فهي تدلّ على النظر والمشاهدة، كما في قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾[2].

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٢.
(٢) سورة محمّد: الآية ٢٠.

❑ «الاقتباس» هو أخذ شيء من النار المشتعلة. و«السور» هو الجدار الذي يحيط بقطعة أرضٍ أو منزلٍ أو مدينة أو قرية.

❑ يطلب المجرمون المساعدة يوم القيامة من أربع فئات، من الناس:

أ ـ من قادتهم في الدنيا، ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾[١].

ب ـ من المؤمنين كما في الآية التي نحن بصدد تفسيرها، ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾.

ج ـ من ملائكة النار، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾[٢].

د ـ ومن الشيطان بتحميله مسؤوليّة ضلالهم وانحرافهم، فيقول لهم بعد لومهم إيّاه: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[٣].

التعاليم:

١ ـ مرض النفاق لا يميّز بين الرجل والمرأة، وهو يصيب كليهما، ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾.

٢ ـ أولئك الذي حرموا أنفسهم في الدنيا من نعمة الخروج من الظلمات إلى النور، يحاولون يوم القيامة من دون جدوى استجداء النور من هنا وهناك، ومن هذا وذاك، ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾.

٣ ـ يتعرّض المنافقون يوم القيامة للإهانة باللفظ وبالعمل، ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ و﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾.

٤ ـ المنافق يتظاهر في الدنيا بأنّه مع المؤمنين وهو يبطن الكفر، وفي الآخرة يحاول أن يكون بين المؤمنين ليستفيد منهم، فيلحقه الله بجماعته التي كان

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢١.
(٢) سورة غافر: الآية ٤٩.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

معها في الدنيا، ويعذّبه بما ينسجم مع نفاقه بجدار يختلف باطنه عن ظاهره، ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- قوله تعالى ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي جعلتم أنفسكم ضحيّة فتنة النفاق. «التربّص» هو الانتظار، وتستعمل كثيراً في انتظار الشرّ. «الأماني» جمع أمنية، و«الغرور» بمعنى الخداع وهو لقب من ألقاب الشيطان.

- المؤمن لا يريد الشرّ لأحدٍ من الناس، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾(١)، وأمّا المنافق فإنّه ينتظر الحوادث التي تصيب الآخرين ليستفيد من مصائبهم، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾.

- المؤمن من أهل اليقين، وأمّا المنافق فيعيش حالة التردّد والشكّ بشكلٍ دائم، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾. والمؤمن واقعيّ في نظرته إلى الأمور، وأمّا المنافق فإنّه يعيش في الأوهام والخيال، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾. المؤمن تصيبه أحياناً وساوس الشيطان، ولكنّه سرعان ما يلتفت إلى الله ويستعيذ به منه، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾(٢)، وأمّا المنافق فإنّه يخدَع وتنطلي عليه حيل الشيطان: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

- في آيات أخرى يخبرنا الله عن أنّ المنافقين يرون أنّ دين المؤمنين هو سبب انخداعهم، ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾(٣)، أو يرون أنّ وعود النبيّ ﷺ خداع وغرور، ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾(٤)، وهذه الآية هي لونٌ من الجواب عن تلك الأوهام وتوضيح لحقيقة الحال.

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٠.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٩.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

التعاليم:

١ ـ يحصل التواصل يوم القيامة بين المؤمنين والمنافقين، وتدور بعض الحوارات بينهم، ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ (المضارع يدلّ على التكرار والاستمرار).

٢ ـ حديث المنافقين يكون دائماً من وراء جدار، ولا شكّ في أنّه مقرون بالصراخ والعويل، ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾.

٣ ـ لا ينسى الإنسان يوم القيامة ماذا كان يحصل له في الدنيا، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

٤ ـ التواصل الماديّ ليس له أيّ أهميّة فالمهمّ هو التواصل الروحيّ والفكريّ، فلا يكفي أن يكون الإنسان مع جماعة بجسده، وتكون أحلامه وعواطفه في موضع آخر، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ﴾.

٥ ـ أشدّ الأمور خطأً أن يخدع الإنسان نفسه، ويريها الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٦ ـ قد تتحوّل الأحلام العراض والأماني الكبيرة في الدنيا إلى مصدر خطر على الإنسان، وتودي به في أودية الشكّ والتردّد في يوم القيامة، ﴿وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾.

٧ ـ في كثير من الحالات يخدع الشيطان الإنسان بتأميله بسعة رحمة الله، وبمغفرته، فيغترّ الإنسان الضعيف مراهناً على الرحمة الإلٰهيّة التي قد لا تكون بالشكل الذي يريد المغترّ، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

□ «المولى» في هذه الآية هو الناصر والمعين، وفي هذا التعبير نوع من الطعن

على المنافقين. وكأنّه يقول لهم: الناصر الوحيد لكم في هذا اليوم هو مصدر ألمكم وما تسعون للخلاص منه[١].

❑ بين الدنيا والآخرة فوارق عدّة، منها أنّ الدنيا تحتمل الفداء والفدية، وأمّا في الآخرة فلا مجال للفدية. فالمجرم يوم القيامة مستعدّ للتضحية بكلّ شيء حتى بأقاربه للخلاص من العذاب، ولكن هيهات له ذلك، ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[٢].

التعاليم:

١ ـ لا تنفع الوسائل الماديّة والدنيوية يوم القيامة، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾.

٢ ـ يتجاور المنافقون والكفّار يوم القيامة، ويتشاركون المصير نفسه، ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ... وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٣ ـ المؤمن نصيبه يوم القيامة البشارة بالنعيم والثواب، ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، وأمّا الكافر والمنافق، فلا يلقيان إلا التيئيس والإحباط، ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ... مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

٤ ـ مولى المؤمنين وناصرهم في الدنيا والآخرة هو الله، ﴿ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[٣]، ومولى الكافرين والمنافقين النار، ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

إشارات:

❑ يأنِ من «آن»، بمعنى مطلق الزمان.

---

(١) انظر: تفسير الميزان، عند تفسير هذه الآية.

(٢) سورة المعارج: الآيات ١١ ـ ١٥.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٠.

□ بيّن الله سبحانه في هذه الآية أنّ سبب الخشوع هو ذكر الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، كما بيّن سبحانه أنّ سبب قسوة القلب هو طول البعد عن كتاب الله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وقد ورد في بعض الروايات أنّ طول فترة غيبة الإمام المهدي (عجّل الله فرجه) تؤدّي إلى قسوة القلب وبعد الناس عن الدين[1].

□ يدعو الله في بعض الآيات كما في هذه الآية التي هي محلّ البحث، إلى عدم التشبّه ببعض الفئات من الناس، وأن يتّخذوا آخرين قدوةً وأسوةً، ونعرض في ما يأتي بعض هذه الآيات ونشير إلى دلالتها:

أ ـ الدعوة إلى:

ـ أن يكونوا مع الصادقين، ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[2].

ـ وإلى الالتحاق بالصالحين، ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[3]، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[4].

ـ وإلى أن يكونوا مع الأبرار، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾[5].

ـ وإلى أن يكونوا مع الصابرين، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[6].

ـ وإلى أن يكونوا مع النبيّ ومن أتباعه الحقيقيّين، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[7]، و﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾[8].

ـ وإلى شكر نعمه عليهم، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[9].

ـ وإلى أن يكونوا من أهل العبادة والعبوديّة، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾[10].

---

(١) تفسير نور الثقلين.
(٢) سورة التوبة: الآية ١١٩.
(٣) سورة يوسف: الآية ١٠١.
(٤) سورة المنافقون: الآية ١٠.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٩٣.
(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.
(٧) سورة الأحزاب: الآية ٢١.
(٨) سورة الممتحنة: الآية ٤.
(٩) سورة الأعراف: الآية ١٤٤.
(١٠) سورة الحجر: الآية ٩٨.

- وإلى أن يكونوا عاملين بأوامر الله وتعاليمه، ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾[١].
- وإلى أن يكونوا من المسلّمين لله تعالى في الأمور كلّها، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢].
- وإلى أن يكونوا من أهل الإيمان، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].
- وإلى أن يكونوا قائمين بالقسط عاملين بالعدل، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾[٤].
- وإلى أن يكونوا قائمين بأمر الله، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾[٥].
- وإلى أن يكونوا أنصاراً لدين الله، ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾[٦]

ب- هذا جانب الإيجاب، وأمّا جانب السلب، فهو يدعو المؤمنين إلى أن لا يقتدوا أو لا يتّصفوا:

- بصفات المنافقين، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[٧].
- ولا يكونوا مرائين، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾[٨].
- ولا يكونوا ممّن ينقضون العهود والمواثيق، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾[٩].
- وينهاهم عن إيذاء النبي وإزعاجه، ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾[١٠].
- ويحذّرهم من نسيان الله، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[١١].
- ويدعوهم إلى عدم اليأس وترك القنوط، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾[١٢]، ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾[١٣].
- وأن لا يكونوا كافرين غير شاكرين، ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾[١٤].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧٩.
(٢) سورة النمل: الآية ٩١.
(٣) سورة يونس: الآية ١٠٤.
(٤) سورة النساء: الآية ١٣٥.
(٥) سورة المائدة: الآية ٨.
(٦) سورة الصف: الآية ١٤.
(٧) سورة الأنفال: الآية ٢١.
(٨) سورة الأنفال: الآية ٤٧.
(٩) سورة النحل: الآية ٩٢.
(١٠) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.
(١١) سورة الحشر: الآية ١٩.
(١٢) سورة الحجر: الآية ٥٥.
(١٣) سورة الزمر: الآية ٥٣.
(١٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٦.

- وأن لا يكونوا من أعوان الظالمين والمجرمين، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[١].
- ولا يكونوا من أهل الشك والتردّد، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[٢].
- ولا يكونوا من المعادين للحقّ والحقيقة، ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[٣].
- ولا يكونوا من أهل الغفلة والجهل، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٥].
- ولا يكونوا ممّن يكذّب بآيات الله ودلائل وجوده، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٦].
- ولا يكونوا أعواناً لأهل الكفر، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[٧].
- ولا يكونوا من الذين يبخسون ويخسرون الكيل والميزان، ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾[٨].
- وأن لا يسمحوا للتفرقة والاختلاف بأن يشقّا صفوفهم، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾[٩].

التعاليم:

١ - الإيمان غير المقرون بخشوع القلب يلام صاحبه عليه، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٢ - على الداعية والمربّي أن يستفيد من الإيمان للدعوة إلى الخشوع، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾.

٣ - أحد أهداف الوحي الإلٰهيّ هو تحقيق الخشوع في قلوب الناس، ﴿تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ... وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) سورة القصص: الآية ١٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٠.
(٣) سورة النساء: الآية ١٠٥.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٢٠٥.
(٥) سورة الأنعام: الآية ٣٥.
(٦) سورة يونس: الآية ٩٥.
(٧) سورة القصص: الآية ٨٦.
(٨) سورة الشعراء: الآية ١٨١.
(٩) سورة آل عمران: الآية ١٠٥.

٤ ـ ذكر الله وتلاوة آياته، من الأمور المحقّقة للخشوع، ﴿تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

٥ ـ ذكر ألطاف الله، وعفوه، وغضبه، وسننه، من وسائل تحقيق الخشوع، ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ علينا أن نعتبر من تاريخ الأمم السابقة، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ﴾.

٧ ـ دوام الغفلة يوجب قسوة القلب، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٨ ـ سنن الله سبحانه وتعالى، تجري على جميع الأمم على حدّ سواء، ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ... مِن قَبْلُ﴾.

٩ ـ لا ينبغي أن يسيء الإنسان الاستفادة من الإمهال، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

١٠ ـ قسوة القلب، من أسباب الفسق، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

١١ ـ أدوات الهداية وحدها لا تكفي، ولا بدّ من توفّر الاستعداد الروحيّ، ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ... فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

- أشار الله سبحانه في الآية السابقة إلى خشوع القلوب بذكر الله، وفي هذه الآية يحدثنا جلّ وعلا عن إحياء الأرض بعد موتها.

- ورد في بعض الروايات تأويل حياة الأرض بانتشار العدل فيها بعد موتها بالظلم، ومن ذلك، عن أبي إبراهيم عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، قال: **ليس يحييها بالقطر؛ ولكن يبعث الله رجالاً فيحيون العدل، فتحيى الأرض لإحياء العدل، ولإقامةُ الحدّ أنفع في الأرض من القطر أربعين صباحاً**»[1]. **ومنها ما عن أبي جعفر** عليه السلام **قال: «يحييها الله** عز وجل **بالقائم** عليه السلام **بعد موتها ـ بموتها بكفر أهلها ـ والكافر ميّت»**[2].

(١) الكليني، الكافي، ج٧، ص١٧٤.

(٢) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص٦٦٨.

□ يبحث الإنسان المعاصر عن وجود الحياة على الكواكب السماويّة البعيدة؛ ولكنّه حتّى الآن لم يعثر على شيءٍ من ذلك. وأمّا الأرض فإنّها تضجّ بالحياة سواء في ذلك اليابسة أو أعماق البحار والمحيطات، بل وفي أعالي السماء داخل الغلاف الجوّي، وأنواع الحياة وأشكالها متعدّدة من الكائنات ذات الخليّة الواحدة البسيطة، إلى الإنسان الذي ربّما كان أكثر الكائنات الحيّة تعقيداً.

وتشير هذه الآية إلى ظاهرة الحياة بوصفها علامةً من العلامات الدالّة على قدرة الله تعالى وعظمته. وهذه النعمة أي نعمة الحياة، مرهونةٌ بأمور عدّة تكشف كلّها عن عظمة المنعم، ومن هذه الأمور دوران الأرض حول الشمس، والمسافة المضبوطة بين الأرض والشمس، ووجود البحار والمحيطات، ونزول المطر من السماء.

التعاليم:

١ ـ تتجلّى الحياة المعنويّة في خشوع القلب، والحياة المادّية تظهر في الربيع بعد الشتاء والخريف، ﴿تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ... يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾.

٢ ـ على المربّي أن يستفيد من الظواهر الطبيعيّة لإيصال بعض المفاهيم، ﴿بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ﴾.

٣ ـ يحتاج فهم المسائل الطبيعيّة إلى الدقّة والعمق الفكريّ، ﴿ٱعْلَمُوٓا... تَعْقِلُونَ﴾.

٤ ـ التكامل المعنويّ يحتاج إلى قلبٍ رقيقٍ، وعقلٍ دقيق، ﴿تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ... تَعْقِلُونَ﴾.

٥ ـ الظواهر الطبيعيّة، مدرسة ووسائل إيضاح لتكامل الإنسان ورشده، ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

□ تحدّث الله في الآية ١٦ عن القلب، وأشار في الآية ١٧ إلى العقل، وفي هذه

الآية يحدّثنا سبحانه وتعالى، عن السلوك. وعليه فإنّ المنهج الأمثل للتربية والتعليم هو منهج التدرّج والخطوات المتلاحقة. في الآية ١٦ اعتُمِدت صيغة السؤال ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، ثمّ في الخطوة اللّاحقة ورد الحديث عن خشوع القلوب، وبعد ذلك عن العلم والتعقّل، وفي هذه الآية أخذ الكلام طابع اليقين والجزم، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾؛ بلى، يتوقّف العمل على مساعدة المحرومين والمساكين على شرطين أساسين، هما: أن يلين القلب ويخشع لذكر الله، وأن يفهم المتصدّق ويعقل أنّ فعله هذا ليس خسارة على المدى البعيد، بحيث يعلم أنّه كما تخضرّ الأرض وتزهر بعد قصف الرعود وتساقط المطر، ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾، كذلك نقص المال اليوم يعوَّض أضعافاً مضاعفةً في اليوم الآخر، ﴿يُضَٰعَفُ... أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ يتوقّف تلقّي الفيض الإلٰهيّ على الصدقة والبذل، كما يتوقّف على الإقراض واستعادة أصل المال من دون زيادة، وهو ما يسمّى بالقرض الحسن، ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ... وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ إقراض المحتاجين بمنزلة إقراض الله تعالى، فبدل أن يقول سبحانه وتعالى: «أقرضوا الناس»، قال: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ الرجل والمرأة في مرتبة واحدةٍ في مجال المساهمة بحلّ المشاكل الاقتصاديّة، وفي مجال التكامل المعنويّ، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾.

٤ ـ المهمّ هو حلّ مشكلة الفقر ورفع الحاجات الاقتصاديّة للمحتاجين، سواء أكان ذلك عن طريق الصدقة أو عن طريق الإقراض، ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ... وَأَقْرَضُوا۟...﴾.

٥ ـ الإنفاق والإقراض، في ظاهره نقص في المال؛ ولكنّه في واقعه وحقيقته تنمية وزيادة له، ﴿يُضَٰعَفُ﴾.

٦ ـ المقصد الإلٰهيّ من إقرار الثواب على الأعمال، هو تشجيع الناس على فعل الخير، ﴿يُضَٰعَفُ... أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

٧ ـ الصدقة والإقراض، من علامات الكرم، والثواب ومضاعفة الأجر من باب مقابلة الكرم بمثله، ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ... وَأَقْرَضُوا۟... وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

❑ «الصدّيق» هو من يتّصف بالصدق في القول والعمل؛ بحيث يكون الصدق جزءاً من طبيعته التي لا يخرج عنها إلى غيرها من الحالات. وقد أطلق هذا الوصف على المجموعة من الأشخاص في القرآن الكريم، منهم: إبراهيم، وإدريس، ويوسف، ومريم عليهم السلام؛ ولكنّ هذه الآية تفتح باب الاتّصاف بهذه الصفة، في وجه المؤمنين جميعاً.

«الشهداء» من الشهادة، وتنطبق هذه الصفة على شهداء الحرب في معركة الحقّ والباطل.

التعاليم:

١ ـ الإيمان بالله وأنبيائه جميعاً من المؤشّرات الدالّة على الصدق عند الإنسان، ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ... هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾.

٢ ـ نور الإيمان بالأنبياء في الدنيا، سوف يكون نوراً في الآخرة للمؤمنين، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

٣ ـ ينبغي الجمع بين الترغيب والترهيب، الترغيب والوعد بالثواب للمؤمنين، والترهيب والوعيد بالعقاب لغيرهم، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ... أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٤ ـ المؤمنون لهم أجرهم ونورهم، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾؛ والكافرون لهم العقاب وحده، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

- «الغيث» من الغياث والغوث، وهو المطر المفيد خاصّةً، وكلمة مطر تدلّ على كلّ ما ينزل من السماء من ماء على الأرض، مفيداً كان أم غير مفيد.
- «الكفّار» في هذه الآية هم المزارعون؛ وأصل الكفر التغطية، فالمزارع يطلق عليه كافر لأنّه يغطي الحبّ بالتراب، وغير المؤمن يسمَّى بهذا الاسم لأنّه يغطي الحقّ ويحاول طمس نوره.
- «يهيج» من الهيجان، وله معنيان: الجفاف واليبوسة، والغليان والفوران. و«الحطام» من الحطم وهو الكسر ويطلق على العشب الشديد الجفاف الذي يكسر لشدّة جفافه، فيكون كالتبن.
- ورد وصف الدنيا بأنّها لعب ولهو، مع قصرها وحصرها في ذلك، أربع مرّات في القرآن الكريم، هي:

١ - ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[١].

٢ - ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[٢].

٣ - ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٣].

٤ - ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٤].

- ربّما يمكن الخروج بتصوّر قرآنيّ عن الحياة الدنيا، من القرآن حاصله أنّ الدنيا عندما تكون هدفاً وغايةً، تكون سبباً للغرور والغفلة. وعندما يتمّ التعامل معها بوصفها مزرعةً للآخرة، ومقدّمةً ووسيلةً يكون تقويمها إيجابيّاً، وتكون

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٢.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٤.
(٣) سورة محمد: الآية ٣٦.
(٤) سورة الحديد: الآية ٢٠.

ممدوحةً. وبناءً عليه، فإنّ الوعد والوعيد، على الاهتمام بالدنيا، مرتبط بطريقة التعامل معها، فمن يتعامل معها بالطريقة الأولى يتوعّده الله بالعذاب، ومن يستخدمها وسيلة للوصول إلى رضوان الله، وآلةً لطاعته، يصل منها إلى ما يريد، وينال ثواب الله وحسن مآب.

- تشير هذه الآية إلى مراحل الحياة التي يمرّ بها الإنسان (الطفولة، والمراهقة، والشباب، والكهولة)، ولكنّها تشير إليها بالصفة التي تميّزها عن غيرها من المراحل، فالفترة الأولى (الطفولة) هي فترة اللعب، والفترة الثانية (المراهقة) هي فترة اللهو، والفترة الثالثة (الشباب) هي فترة الاهتمام بالمظاهر والزينة، والفترة الأخيرة (الكهولة) هي فترة التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد.

- حدّثنا الله سبحانه في الآية السابقة عن الصدقة والإقراض، وفي هذه الآية يخبرنا سبحانه عن موانع القيام بهذا العمل.

التعاليم:

١ ـ تحتاج معرفة الدنيا على حقيقتها إلى تعمّق ودقّة نظر، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾.

٢ ـ يصحّح القرآن للإنسان رؤيتَه إلى الدنيا، ويبصّره فيها، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

٣ ـ جمال الدنيا وحسنها سريع الزوال، ﴿وَزِينَةٌ... فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾.

٤ ـ الدنيا ليست ربيعاً دائماً، بل تتحوّل من ربيع إلى خريف، وكلّما أزهرت واخضرّت جنباتها، أتاها الخريف وجعلها صفراء وجرّدها من لونها الأخضر، ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾.

٥ ـ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وتفاخر، ولكنّها إذا لم توضع على المسير الصحيح، سوف تودي بالإنسان في جهنّم وعذاب الآخرة، ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ... أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ... وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

٦ ـ زينة الدنيا إذا تحوّلت إلى وسيلة للتفاخر والاعتداد بها، أودت بالإنسان إلى ما لا تحمد عقباه، ﴿وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ... وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

٧ ـ كثرة الأبناء والأحفاد، وزيادة العديد قد يجوز للإنسان أن يفرح بها ويفتخر؛ ولكن عندما لا تتحوّل إلى زيادة لعدد أهل جهنّم جرّاء التربية الفاسدة، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ... وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

٨ ـ إنّ الدنيا تخدع بعض أهلها وتكون سبباً لتورّطهم في العذاب، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وفي الوقت عينه للمؤمن وسيلة للتكامل المعنويّ وتحصيل المغفرة ورضوان الله، ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا... وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾.

٩ ـ لا ينال الإنسان رضوان الله ما لم يصلح أسباب الخلل في كيانه وسلوكه، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾.

١٠ ـ العذاب الشديد هو نتيجة وردّ فعل على العمل الذي يقوم به الإنسان، وأما المغفرة واللطف الإلٰهيّ فهو من جانب الله سبحانه، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (تنسب هذه الآية المغفرة والرضوان إلى الله تعالى).

١١ ـ على الإنسان أن يبقى بين الخوف والرجاء، ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾.

في التربية والتعليم مجموعة من الأصول والمبادئ لا بدّ من مراعاتها، وهي: البيان والتمثيل والاستنتاج، فقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا﴾ للبيان، وقوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ للتمثيل، وقوله: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ للاستنتاج.

﴿سَابِقُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

- في الآية السابقة حدّثنا الله سبحانه عن الأعمال في الدنيا وآثارها التي هي إمّا عذاب شديد، وإما مغفرة ورضوان من الله. وفي هذه الآية يؤكّد سبحانه على المسابقة والمسارعة إلى نيل المغفرة والفضل والرحمة الإلٰهيّة.

المسابقة المعنوية في القرآن

يكشف لنا التأمّل في الآية الكريمة عن شروط السباق المعنويّ وخصائصه في القرآن الكريم، ومن أبرز ما يمكن الإشارة إليه:

- السباق مفتوح لكلّ من يرغب في المشاركة، ﴿سَابِقُوٓاْ﴾.
- مورد السباق هو الأمور المعنويّة، ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾.
- صاحب الدعوة إلى السباق هو الله سبحانه، ﴿سَابِقُوٓاْ﴾.
- الجوائز معدَّة سلفاً، ﴿أُعِدَّتۡ﴾.
- ليس لهذا السباق مكان أو زمان محدّد، ﴿سَابِقُوٓاْ﴾.
- نوع الجائزة وخصائصها مبيّنة ومعلومة، ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ﴾.
- تستند الجائزة إلى فضل الله تعالى، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾.
- لا حدود للجوائز ولا قيود لها، ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

التعاليم:

١ ـ عندما يرفض أمر قبيح لا بدّ من استبداله وملء محلّه بأمر مطلوب ومرغوب فيه، ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ... سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ...﴾ فقد دعانا الله سبحانه إلى استبدال التفاخر بالأموال والأولاد إلى المسابقة إلى نيل الفضل والرحمة الإلٰهيّة.

٢ ـ ما يزيد في حسن الأفعال الحسنة، المسارعة إليها والمسابقة فيها، ﴿سَابِقُوٓاْ...﴾.

٣ ـ العفو والمغفرة من شؤون الربوبيّة، ﴿مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

٤ ـ يغفر الله للعباد أولاً، ثمّ يدخلهم إلى جنّته، ﴿مَغۡفِرَةٞ... وَجَنَّٰتٌ...﴾.

٥ ـ رفع مستوى المعرفة والخبرة عند الإنسان يساعده على حسن الاختيار ويسهّله عليه، ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا... ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ... وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ...﴾.

٦ ـ الإعراض عن الدنيا الضيّقة ومتاعها القليل، أثره جنّة عرضها السماوات والأرض، ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾.

٧ ـ الإيمان بالأنبياء جميعاً من لوازم الإيمان بالله تعالى، ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

٨ ـ الجنّة فضل من الله يخصّ به المؤمنين من عباده، وليست استحقاقاً، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾.

٩ ـ لا ينبغي أن نتولّى نحن الحكم على الناس، بالدخول إلى الجنّة أو النار، فالله سبحانه هو وحده من يحقّ له القضاء والحكم، وهو أعلم ببواطن الأشخاص وبما يستحقّون، فربّ شخص نتوقّع له الجنّة يستحقّ النار عند الله، والعكس صحيح أيضاً، ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾

❑ «نبرأها» من البرء بمعنى الإيجاد والخلق، ومنه «برأ النسمة»، تفيد هذه الآية أنّ الله سبحانه هو الذي خلق السماء والأرض، وهو الذي بإرادته ومشيئته يحدث ما يحدث فيها من مصائب وزلال وما يترتّب عليها من آثار وأضرار تصيب الإنسان والطبيعة.

❑ ورد في كتب التاريخ أن يزيد استشهد بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، على مسمع أسرى أهل البيت بقوله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ...﴾[1]، فأجابه الإمام السجّاد عليه السلام، بأنّ هذه الآية لم تنزل في أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ تلا الآية التي هي محلّ البحث.

وقد ورد في الحديث: **«البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»**[2].

التعاليم:

١ ـ الحوادث الطبيعيّة كالسيل والزلازل والبراكين التي تؤدّي إلى خراب المزارع والبساتين والمنازل، ﴿مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وتؤدّي كذلك إلى أضرار وخسائر

(١) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٤، ص ٢٣٥.

بشريّة، ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، كلّها تجري وفق قوانين محدّدة سلفاً لا محل فيها للفوضى أو الخروج عن دائرة التنظيم الإلهيّ، ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾.

٢ ـ عالم الوجود كلّه خاضع لقواعد وقوانين دقيقة، مقرّرة قبل وقوعها، ﴿مَآ أَصَابَ... إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾.

٣ ـ لا توجد حادثة تطرأ في عالم الإمكان تفاجئ الله، ومن دون أن يكون على علمٍ مسبقٍ بها، ﴿فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾.

٤ ـ لا ينبغي أن يعجب الإنسان من إحاطة العلم الإلهيّ بكلّ ما يحدث في عالم الطبيعة من أحداث، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- «مختال» من الاختيال وهو التكبّر المبنيّ على توهم العظمة والكبر.
- هذه الآية بمثابة التعليل والتبرير للآية السابقة، والمعنى: «أخبرناكم بكتابة الحوادث قبل وقوعها وتحقّقها؛ لئلا تحزنوا بما فاتكم من النعم، ولا تفرحوا بما أعطاكم الله منها؛ لأنّ الإنسان إذا أيقن أنّ الذي أصابه مقدّر كائن لا محالة، لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أوتيه من النعم وديعة عنده إلى أجل مسمّى لم يعظم حزنه إذا فاته، ولا فرحه إذا أوتيه»[1].
- المصائب والنعم أشبه بدرجات يستخدمها الإنسان للصعود إلى الأعلى، فلا ينبغي بالإنسان أن يلتفت إلى لونها، بل عليه أن يستخدمها للوصول بها إلى مقصده.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص١٦٧.

- يتولّى الموظّف في المصرف في بعض الأحيان تقديم المال إلى الناس، وأحياناً أخرى يتولّى أخذه منهم، وبالتالي هو لا يحزن عندما يعطي ولا يفرح عندما يأخذ. والله سبحانه يريد أن يربّي الإنسان على مثل هذه الروحيّة كيلا تؤثّر فيه مرارة الأيام والأحداث ولا حلاوتها، وقد وصل بعض عباد الله الصالحين إلى مثل هذه الحالة، فهذه زينب عليها السلام، تقول بعد كلّ ما أصابها، عندما سئلت عن فعل الله فيها: **«ما رأيت إلا جميلاً»**[1]. وهذا الإمام الحسين عليه السلام قال في اللحظات الأخيرة من عمره الشريف: **«رضاً بقضائك، صبراً على بلائك»**. والإمام عليّ عليه السلام عبّر عن شوقه إلى لقاء الله بقوله: **«والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه»**[2].

- الاعتقاد بأنّ الأحداث والوقائع تتحقّق بإرادة الله ووفق نظام محدّد مسبقاً، يؤدّي إلى أن يتخلّص الإنسان من الحسد، والبخل، والعداوة، والغضب؛ وذلك لأنّ الأمور مقرّرة ولا بدّ من أن تجري وفق التقدير الإلٰهيّ. ولازم الاعتقاد بأنّ النعمة مسؤوليّة يتبعها حساب، هو عدم فرح الإنسان بالنعمة. كما أنّ لازم الاعتقاد بالتعويض الإلٰهيّ المضاعف عن المصائب، هو الرضا بالقضاء والركون إلى اختيار الله وتقديره.

- عن الإمام عليّ عليه السلام: **«الزهد كلّه بين كلمتين من القرآن، قال الله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا... ءَاتَىٰكُمْ﴾، ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزهد بطرفيه»**[3].

التعاليم:

١ ـ الأحداث والوقائع التي تحصل، تجري لتحقيق أهداف وغايات، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ... لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف، ص١٦٠.

(٢) نهج البلاغة، خطبة الجهاد، الخطبة رقم ٥.

(٣) نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة رقم ٤٣٩.

٢ ـ النعم من الله سبحانه، ﴿ءَاتَىٰكُمْۗ﴾؛ ولكنّ سلب النعم لا ينسب إليه سبحانه، ﴿مَا فَاتَكُمْ﴾.

٣ ـ العلم بآثار الحوادث وأهدافها وغاياتها، يولّد الطمأنينة والاستقرار في النفس الإنسانيّة، ﴿فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ... لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾.

٤ ـ لقد أخبر الله عن تقدير الوقائع والأحداث كي لا يصاب الإنسان بالأسى على المصائب، ولا يغترّ بالنعم، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا... وَلَا تَفْرَحُوا﴾.

٥ ـ الحزن والفرح الطبيعيّين ليسا سيّئين، فالمذموم والمستنكر هو الحزن المفرط على ما فات والفرح والاغترار بالآتي من نعم، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا... وَلَا تَفْرَحُوا﴾.

٦ ـ الشخص الغافل عن المقدّرات الإلٰهيّة يحسب أنّ النعم أعطيت له لاستحقاق أو لميزة تتوفّر فيه دون غيره، فيفاخر بما أصاب من خير، ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

٧ ـ الأوهام النفسيّة الباطنة، مقدّمة للافتخار والغرور الظاهرين، ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

- الرغبة بالفخر والتفاخر على الآخرين من أسباب البخل؛ وذلك لأنّ نِعم الله إذا كانت في أيدي جميع الناس، لا يبقى للبخيل ما يراه مميّزاً له عن سائر الناس.
- عن الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة في الخطبة ١٨٣، قوله: «فالله الله معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفسحة قبل الضيق فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تغلقه رهائنها، أسهروا عيونكم وأضمروا بطونكم واستعملوا أقدامكم، وأنفقوا أموالكم وخذوا أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها، فقد قال الله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، فلم يستنصركم من ذلّ ولم يستقرضكم من قلّ، استنصركم وله جنود السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن

السماوات والأرض وهو الغني الحميد، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملاً، فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره».

ملامح البخل في الروايات:

- عن الإمام علي عليه السلام أنّه سأل ابنه الإمام الحسن عليه السلام: ما الشحّ؟ فقال: «أن ترى ما في يدك شرفاً وما أنفقت تلفاً»[١].
- «البخل بالموجود سوء الظنّ بالمعبود»[٢].
- عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه كان يدعو في طوافه فيقول: «اللهم قني شحّ نفسي»[٣].
- ليس البخل هو البخل بالمال فحسب، بل: «البخيل من بخل بالسلام»[٤].
- «البخل بإخراج ما افترضه الله سبحانه من الأموال أقبح البخل»[٥].
- «البخيل حقًّا من ذكِرتُ عنده ولم يصلّ عليّ»[٦].
- «لا تدخّلنّ في مشورتك بخيلاً»[٧].
- «النظر إلى البخيل يقسي القلب»[٨].

التعاليم:

١ ـ فعل البخل والدعوة إليه، من علامات المتكبّرين وأهل الفخر، ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾.

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٠٥.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة رقم: ٦٥١٢.
(٣) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٠١.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة رقم: ٦٥٨١.
(٦) بحار الأنوار، ج٧٣، ص٣٠٦.
(٧) نهج البلاغة، قسم الكتب، الكتاب ٥٣.
(٨) بحار الأنوار، ج٧٨، ص٥٣.

٢ ـ البخلاء ممّن لا يحبّهم الله، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾.

٣ ـ المعصية تتحوّل إلى خطرٍ أو يزداد خطرها عندما تتحوّل إلى طبع وعادة، ﴿يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ... بِالْبُخْلِ﴾.

٤ ـ البخيل يعلم أنّه إذا بذل غيره وظهر منه الكرم، فإنّ اتّصافه هو بالبخل سوف يكون ظاهراً ومكشوفاً؛ ولأجل ذلك فهو يدعو الناس إلى البخل، كي يخفي بخله وشحّه، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

٥ ـ البخل إعراض عن الله وأوامره، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾.

٦ ـ الغنى لا يكفي ليكون الإنسان محبوباً، بل الحبّ بين الناس يحصل بالإحسان إليهم، من خلال الإنفاق أو الإقراض أو الأمر بهما. (فبعض الناس أغنياء ولكنّهم لا يحمدون عند الناس، ولذلك وصف الله نفسه بأنّه ليس غنياً فقط بل هو حميد أيضاً)، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

إشارات:

- المراد من «البيّنات» في الآية هو المعجزة الواضحة التي تقطع عذر المعتذرّين وتتمّ الحجّة عليهم. و«الكتاب» هو الوحي السماويّ الذي لا بدّ من أن يكتب ليحفظ.
- «الميزان» هو وسيلة القياس المعروفة، وهو رمز العدالة في المعاملات والقوانين، والشريعة والقوانين السماوية هي المعيار الذي تقاس به الأفعال وليس الذوق الشخصي.
- إنزال الحديد في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ شبيه بإنزال الأنعام في قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[1]؛ وذلك لأنّه بناء على قوله

(١) سورة الزمر: الآية ٦.

تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[1]، يكون الله مصدر كل خير وبركة، وهو الذي يعيّن حدود الموجودات ويخلقها بعد ذلك، وهذا نوع من النزول[2].

- المراد من قوله تعالى ﴿يَنصُرُهُۥ... بِٱلْغَيْبِ﴾ نصرة الله ورسله من دون أن يكون الناصر مرئياً، ومن الواضح أنّ المراد من نصرة الله والرسل هو نصرة الدين الذي يحملونه.
- ذِكر الحديد أكثر من مرّة في القرآن الكريم، ففي قصّة ذي القرنين ذكر القرآن أنّه طلب الحديد لبناء السدّ. وأشير إلى إلانة الحديد لداود عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[3]. وفي هذه الآية أشار الله إلى إنزال الحديد من السماء. وفي آية أخرى يخبرنا الله سبحانه أنّ الحديد وسيلة من وسائل التعذيب في جهنّم، ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[4].

التعاليم:

١ ـ في الإدارة لا بدّ من إعطاء المدير ما يحتاجه من وسائل وأمور مساعدة له في عمله، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ و... ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

٢ ـ تقوم الإدارة الصحيحة على قاعدة أنّ الإرشاد من المدير، والعمل من الناس، ﴿أَرْسَلْنَا... ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ... لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٣ ـ العدالة الحقيقيّة لا تتحقّق إلا في ظلّ شريعة الله وبرعاية القائد الإلٰهيّ، ﴿رُسُلَنَا... ٱلْكِتَٰبَ... لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٤ ـ فلسفة النبوّة وعلّة وجودها، إقامة العدالة في الأرض، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا... لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٥ ـ بعد إتمام الله الحجّة، على الناس أن ينهضوا للتنفيذ وتطبيق شريعة الله، ﴿أَرْسَلْنَا... رُسُلَنَا... لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢١.
(٢) الميزان في تفسير القرآن.
(٣) سورة سبأ: الآية ١٠.
(٤) سورة الحج: الآية ٢٢.

٦ ـ العدالة مطلوبة بكلّ وجوهها، فكلمة «بالقسط» وردت مطلقة من دون أي قيد، وتدلّ على عموم الأبعاد والمستويات، ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٧ ـ للأنبياء جميعاً هدفٌ واحدٌ، وغايةٌ مشتركةٌ، ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا... لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٨ ـ على الأمّة أن تمهّد الوسائل والمقدّمات المطلوبة لتطبيق العدالة وتحكيم شريعة الله، ومن هذه المقدّمات وجود الدولة والتشكيلات، ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

٩ ـ ما يأتي في الدرجة الأولى هو العمل الثقافيّ والتربويّ، وبعد يأتي دور السلطة والتأديب، ﴿أَنزَلْنَا... ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ... وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾.

١٠ ـ المجتمع السالم يحتاج إلى ثلاث سلطات: السلطة التشريعيّة، ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والسلطة القضائية، ﴿وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾، والسلطة التنفيذيّة، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

١١ ـ ينبغي مواجهة معيقات العدالة بشدّة وحزم، ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

١٢ ـ قبول دعوة الأنبياء، هو في الواقع نصرة لله ودينه، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾.

١٣ ـ الدفاع عن الدين يكون مقبولاً وممدوحاً، عندما يكون نابعاً من الباطن ومن أعماق النفس، ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ﴾.

١٤ ـ لا ينبغي أن يظنّ أحدنا أنّ الله بحاجةٍ إليه في الوصول إلى ما يريد، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ... إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

إشارات:

❑ في الآية السابقة حدّثنا الله سبحانه عن إرسال الأنبياء بشكلٍ عام. وفي هذه

الآية قدّم لنا نموذجين من الأنبياء الذين أرسلهم، هما رأس السلسلة النبويّة اللّاحقة لهما.

- يحدّثنا الله سبحانه في هذه الآية عن جعل النبوّة في ذرّيّة بعض الأنبياء، كما جعل الإمامة في ذرّيّة النبيّ ﷺ، وهذا لا يدلّ أبداً على أنّ النبوّة والإمامة وراثيّة، بل معناه أنّ مهمّة النبوّة تحتاج إلى مواصفات تنتقل بالتربية والوراثة وتزيد من احتمال الطهارة واللياقة في من ينتسب إلى الطاهرين واللائقين؛ ولا تعني بالضرورة أنّ كلّ من انتسب إليهم يكون صالحاً حتماً؛ ولذلك نجد أنّ الله ردّ على النبيّ ﷺ عندما طلب الإمامة لذرّيته بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، ردّ عليه سبحانه بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1] وهذا الردّ يعني أنّ مجرّد الانتساب إلى النبيّ إبراهيم عليه السلام لا يعني بالضرورة نيل عهد الإمامة.

التعاليم:

١ ـ من الآداب المطلوبة في الحديث، تقديم السابقين على غيرهم، ﴿نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾.

٢ ـ لا ينال مقام النبوّة بالانتخاب والتأييد، بل هو خاضع لإرادة الله وحسن اختياره، ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾.

٣ ـ الناس عبر التاريخ، كانوا ينقسمون بين من يقبل دعوة الأنبياء وبين من يرفضها ويردّها، ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ...﴾.

٤ ـ في مجال العقائد والأخلاق وغيرها من المجالات المشابهة، الكثرة والقلّة ليستا معياراً لتمييز الخطأ من الصواب، والحسن من القبيح، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

٥ ـ لا يؤدّي الانتساب إلى الطاهرين، إلى الطهارة والنقاء بالضرورة، بل قد يخرج من ذرّية الطاهرين من ليس بطاهرٍ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إشارات:

- «**الرهبانيّة**» مشتقّة من الرهبة، وهي الخوف والخشية. وتطلَق في الاصطلاح الدينيّ واللّاهوتيّ على اتّباع نمطٍ خاصّ من العيش خوفاً من الله تعالى. والشخص المتّصف بهذه الصفة يسمّى راهباً والجمع رهبان.

- على الرغم من أنّ الله سبحانه لم يوجب الرهبانية على أتباع النبيّ عيسى عليه السلام، وهم الذين تطوّعوا بهذا العمل لوجه الله تعالى، فإنّ على الإنسان أن يؤدّي ما التزم به على أكمل وجهٍ حتّى لو كان هو الذي تبرّع به من دون إيجاب من الله.

- ربّما يكون المراد من الآية إعلان الله سبحانه رضاه عن هؤلاء الذين التزموا بحياة الرهبان، لو أنّهم راعوا شروطها وحدودها، كما في حالة أصحاب الكهف الذين اعتزلوا الناس وأووا إلى الكهف من دون أن يكون ذلك واجباً عليهم، إلا أنّ الله رضي منهم ذلك.

- «البدعة» من الإبداع أي اختراع الجديد، وهو في الأمور العلميّة والصناعة وما شابه ذلك أمر مقبول ومستحسن، وأمّا في الأمور الدينيّة فإنّه غير مقبول؛ لأنّ التشريع حقّ إلهيّ، لا يسمح للإنسان أن يبتدع في الدين ما ليس منه.

- يريد الله الكامل من الأعمال؛ ومن هنا، يذمّ سبحانه وتعالى من لا يتقن العمل الذي التزم به، ويقول: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، وفي موارد أخرى يدعو المؤمنين إلى تقوى الله حقّ تقاته، وكذلك إلى الجهاد، وفي قوله سبحانه كذلك ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[١]، و﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[٢].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٢. (٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

الرهبانية في الإسلام:

يرفض الإسلام الرهبانية وترك الدنيا في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[١].
- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[٢].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٣].

وقد ورد في كتب السيرة والتاريخ أنّ جماعة من المسلمين أقسموا على ترك النساء، وعدم النوم في الليل، والصيام الدائم في النهار، فدعاهم النبيّ ﷺ إلى المسجد، وقال لهم: «**ما بال أقوام يحرّمون على أنفسهم الطيّبات؟ ألا إنّي أنام الليل وأنكح، وأفطر بالنهار فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٤].

اعتزل عثمان بن مظعون الناس وانزوى في بيته إثر وفاة ابنه، فاستدعاه النبيّ ﷺ وقال له: «**لم يكتب علينا رهبانية، إنّما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله**»[٥].

وعاد الإمام عليّ عليه السلام العلاء بن زياد، وكان له منزل واسع، ولفت الإمام نظره إلى أنّه أحوج إلى منزل واسع في الجنّة منه إلى هذا المنزل في الدنيا، ودعاه للتعويض عن الترف بصلة الرحم وقرى الضيف، لتكون الدنيا وسيلة لنيل الآخرة، فأخبره علاء عن اعتزال أخيه عاصم الدنيا وتركه إيّاها، فاستدعاه الإمام وقال له: «**يا عديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحِمتَ أهلك وولدك، أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك،** قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة أكلك، قال: **ويحك إني لست كأنت إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره**»[٦]. وعلى أيّ حال يعدّ هذا الأمر من الأحكام التي

---

(١) سورة التحريم: الآية ١.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٢.
(٣) سورة المائدة: الآية ٨٧.
(٤) بحار الأنوار، ج٦٧، ص١١٧.
(٥) بحار الأنوار، ج٦٧، ص١١٥.
(٦) بحار الأنوار، ج٦٧، ص١١٨.

تخضع لتحوّلات الزمان والمكان، فلا بدّ من مراعاة أحوال الناس وأوضاعهم، فكما أنّه لا يحسن من الإنسان أن يضحك في الجنازة، عليه أن يراعي أحوال الناس في المأكل والمشرب، وقد دعينا إلى مثل هذا التكيّف، فإذا ساء الزمان وأهله لا يحسن حسن الظنّ، وهكذا. ومن هنا نقرأ في بعض كتب التاريخ أنّ بعض الصوفية اعترضوا على الإمام الرضا عليه السلام، وقالوا له: الإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشب، ويلبس الخشن، ويركب الحمار. فقال لهم: إنّ يوسف كان نبيًّا يلبس أقبية الديباج المزرّدة بالذهب، ويجلس على متّكآت آل فرعون ويحكم، إنّما يراد من الإمام قسطه وعدله: إذا قال صدق، وإذا حكم عدل، وإذا وعد أنجز، إن الله لم يحرّم لبوساً ولا مطعماً ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ...﴾[1].

وكان يدخل رسول الله على إحدى زوجاته فيقول لها: **«ما لي أراك شعثاء مرهاء سلتاء»**[2].

- ❑ وردت كلمة إنجيل في هذه الآية مفردة، وبالتالي الإنجيل الذي نزل على عيسى هو إنجيل واحد، فمن أين أتت هذه الأناجيل المتعدّدة الأربعة المعروفة أو غيرها؟
- ❑ يتميّز أتباع النبيّ عيسى عن غيرهم من الناس، بالرأفة والرحمة، ﴿ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، وأمّا أتباع النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله فإنّهم أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[3].

التعاليم:

١ ـ واتر الله أنبياءه إلى البشريّة منذ فجر التاريخ إلى زمن بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله، وبالتالي مسيرة النبوّة مسيرة مستمرّة، ﴿قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم... قَفَّيْنَا﴾.

٢ ـ علينا أن نحترم الأشخاص المميّزين، وهذا أدب قرآنيّ نستفيده من هذه الآية ومن غيرها، فقد ذكر الله الرسل بعبارة عامّة، ﴿رُسُلَنَا... رُسُلَهُۥ﴾، ثمّ خصّ

(١) المصدر نفسه، ص١٢١.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٢.
(٣) سورة الفتح: الآية ٢٩.

بعض الأنبياء بالذكر احتراماً لهم وتقديراً لشأنهم، ﴿قَفَّيْنَا... بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

٣ ـ ينبغي ذكر الصفات الحسنة التي تتوفّر في أتباع الأديان الأخرى، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

٤ ـ اتّباع الأنبياء وطاعتهم، من العوامل المساعدة على صفاء القلب وتحوّله إلى منبع للرأفة والرحمة، ﴿اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

٥ ـ علينا أن نرفع موانع المودّة بيننا وبين الآخرين، ﴿رَأْفَةً﴾، وأن نطوّر دوافع المحبّة في آن معاً، ﴿وَرَحْمَةً﴾.

٦ ـ لا يقبل الله أن يدخل في دينه ما ليس منه، لأسباب شخصيّة وذوقيّة، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾

٧ ـ البدعة والابتداع، من الآفات التي يمكن أن تصيب الأديان الإلٰهيّة وتخرّبها، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾.

٨ ـ لا تؤثّر النوايا الحسنة في تجويز البدعة، فربّ بدعةٍ تكون بدوافع طيّبة، ولكنّها تنتهي إلى الخرافات ولزوم ما لا يلزم بل ما يضرّ ويخرّب، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا... ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾.

٩ ـ الكفر والفسق قرينان. (جعل الفسق مقابلاً للإيمان في الآية، مع أنّه بحسب اللغة ينبغي أن يكون الكفر هو المعنى المقابل)، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا... وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

إشارات:

□ قد يكون المخاطب بهذه الآية هو المسيحيّون المذكورون في الآية السابقة، وهم مدعوّون في هذه الآية إلى أداء حقّ ترك الدنيا والرهبانية على الوجه

الأكمل، وذلك بالإيمان بالنبيّ ﷺ بعد عيسى عليه السلام، وبالتالي ليجمع الله لهم أجر الإيمان بعيسى عليه السلام، وثواب الإيمان بالنبيّ محمّد ﷺ، وقد ورد في الحديث عن النبيّ ﷺ: «**من آمن بي وصدّقني واتّبعني، فقد رعاها حقّ رعايتها. ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون**»[1]. ويمكن فهم هذه الآية بشكلٍ مستقلٍّ عن الآية السابقة، فتكون دعوةً للمسلمين إلى تعميق إيمانهم بالله وبرسوله.

- ربّما يكون المراد من قوله تعالى، ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ النور الباطني الذي يشرق على قلب المؤمن، والثاني المغفرة الإلٰهيّة المشار إليها في الآية.

التعاليم:

١ ـ التقوى من لوازم الإيمان بالله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ على المؤمن أن يسعى دائماً في سبيل تعميق إيمانه وتقويته، ﴿ءَامَنُوا۟... وَءَامِنُوا۟﴾.

٣ ـ كلٌّ من الإيمان والتقوى جزء وحصّة من الرحمة الإلٰهيّة، ﴿ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟... يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

٤ ـ المؤمن التقيّ لا يصل أبداً إلى طريق مسدود، ﴿ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟... وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾.

٥ ـ المؤمن ليس معصوماً بالضرورة من الخطايا، ولكنّه يدخل ميدان الحياة متسلّحاً بالتقوى، ومن هنا فإنّ الله يغفر له ما يصدر منه من هفوات ومعاصي، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٦ ـ في مجال تلقّي الألطاف الإلٰهيّة السنّ والعرق والقبيلة التي ينتسب إليها الإنسان ليست هي المعيار، بل المعيار الأساس هو الإيمان والتقوى، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟... يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾.

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص٣٦٥.

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

إشارات:

- ابتدأت هذه السورة بالتسبيح واختتمت بالحديث عن الفضل الإلٰهيّ.
- يعِد الله سبحانه في الآية ٥٤ من سورة القصص، أهلَ الكتاب الذين يؤمنون بمضاعفة الثواب فيقول: ﴿أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، وفي هذه الآيات يخاطب المسلمين ويعدهم بمضاعفة الثواب والرحمة، ويبرّر ذلك في هذه الآية بأنّه كي لا يظنَّ أهل الكتاب أنّهم استثناء ولهم خصوصية لا تتوفّر في المسلمين، فلا يقدرون على نيل ألطاف الله والمزيد من فضله.
- بالنظر إلى عددٍ من الآيات التي ورد فيها تعبير «فضل عظيم»، يبدو أنّ الفضل العظيم هو: الهداية، والمغفرة، والجنّة، والنبوّة، واتّباع رضوان الله، والتوفّر على سلامة التشخيص. ولم يرد هذا التعبير في مجال الألطاف والنعم المادّية.

التعاليم:

١ ـ على المؤمن أن يقف في مواجهة الأوهام والتوقّعات والانحرافات بصراحة ووضوح، ليحول دون وقوعها، ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

٢ ـ الفضل الإلٰهيّ مرتبط ومتوقّف على الحكمة الإلٰهيّة، وليس تابعاً لأوهام الناس كائناً من كانوا، ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ يختار الله سبحانه على ضوء حكمته التي لا غاية لها، بعض الأشخاص الذين يراهم صالحين لتلقّي فضله وألطافه، ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

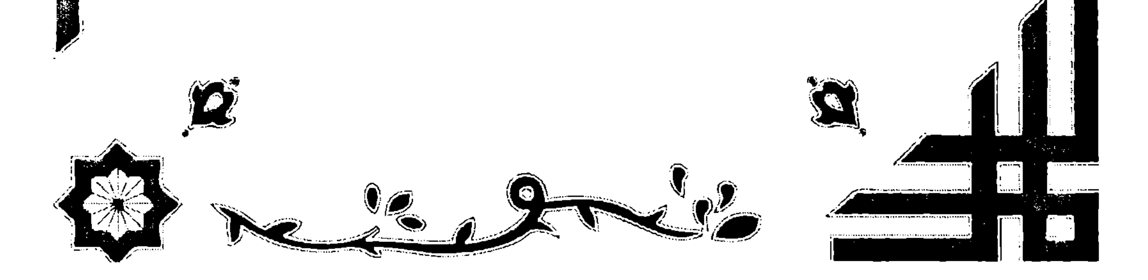
«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ المجادلة

السورة:٥٨ الجزء: ٢٨

عدد الآيات: ٢٢



ملامح سورة المجادلة

تتألّف سورة المجادلة من اثنتين وعشرين آيةً. وهي من السور المدنيّة. وهي تتميّز عن غيرها من سور القرآن بأنّ لفظ الجلالة موجود في كلّ آيةٍ من آياتها.

وقد سُمّيت بهذا الاسم للحديث في أوّلها عن المرأة التي أتت إلى النبيّ ﷺ لتجادله في أمر العلاقة بينها وبين زوجها.

ومن المباحث التي تشتمل عليها هذه السورة:

١ ـ الظهار الذي كان شكلًا من أشكال الطلاق في الجاهليّة.

٢ ـ النجوى وتقسيمها إلى حسنةٍ وقبيحةٍ.

٣ ـ احترام الوافد إلى مجلسٍ منعقدٍ وإفساح المجال له ليأخذ محلًّا فيه.

٤ ـ التمييز بين حزب الله وحزب الشيطان.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾

إشارات:

❑ الظهار من العادات الجاهلية التي كانت متعارفة في العلاقة بين الزوج والزوجة، وهو شكل من أشكال الطلاق لا يحقّ للزوج الرجوع بعده إلى زوجته، ولا يحقّ للزوجة أن تتزوّج غير زوجها، وكان يتمّ هذا الشكل من الطلاق بأن يقول الزوج لزوجته: «أنتِ عليّ كظهر أمّي»؛ ومن هنا سمّي بهذا الاسم: «الظهار».

وقد حصل مثل الأمر في عهد رسول الله ﷺ؛ فظاهر رجل زوجته، فأتت إلى النبيّ ﷺ تشتكي ما آل إليه حالها في علاقتها بزوجها، فقال لها النبي ﷺ إنّه لم ينزل عليه من الله تشريع خاص في هذه الواقعة، فابتأست المرأة وقالت: «أشكو إلى الله فاقتي وحاجتي وشدّة حالي». ولم يطل الأمر ونزلت هذه السورة وجعلت حلًّا فيه تخيير الزوج بين الوفاء بقسمه وطلاق المرأة أو الكفّارة والرجوع إلى زوجته، والكفّارة تتراوح بين عتق عبد أو إطعام ستين مسكيناً، أو صيام شهرين متتابعين. وتولّى رسول الله ﷺ مساعدة الرجل ماليا ليطعم ستين مسكيناً ويكفّر بذلك عن ظهاره لتعود إليه زوجته.

❑ يذكر الله صفة السمع وينسبها إلى نفسه فيها ثلاث مرّات، فيقول: ﴿سَمِعَ، ويَسْمَعُ، سَمِيعٌ﴾، والدلالة التي تستفاد من ذلك، هي أنّه يدعو الناس إلى الحديث معه.

التعاليم:

١ ـ على الإنسان أن يلتفت إلى كلّ كلمةٍ تصدر منه فالله يسمع ما يصدر عنّا من قول، ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى...﴾.

٢ ـ يسمع الله دعاءنا وأنيننا وشكوانا إليه فعلينا أن لا نيأس عند المصاب ما دام لنا ربّ يسمع ما نطلب ما نشكو منه، ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى...﴾.

٣ ـ على الرغم من عظمة موقع النبيّ ﷺ الدينيّ والدنيوي، وقيادته للمسلمين وكونه حاكماً ونبيًّا في آنٍ معاً، فإنّه لم يكن بينه وبين الناس حجاب يحول دون وصولهم إليه ووضع شكواهم بين يديه، ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾.

٤ ـ الحرّية متاحة في المجتمع الإسلاميّ والتعبير عن الرأي مسموح، إلى حدٍّ يسمح لامرأة أن تشتكي وتناقش بل وتجادل، ﴿ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾.

٥ ـ في حالات الشدّة والضيق، على الإنسان أن يلجأ إلى الله وأوليائه، ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ الحوادث، والحاجات، والأزمات، هي الخلفيّة التي توضع كثير من القوانين لحلّها عند حدوثها، ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ... سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

٧ ـ من شروط قيادة المجتمع وعناصر الصلاحية لتولّي هذه المهمّة، أن يكون القائد مستعدًّا للاستماع إلى شكاوى الناس وحاجاتهم، ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ... إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

❑ تحدّثنا في تفسير الآية السابقة عن الظهار الذي كان طريقة من طرق الطلاق عند أهل الجاهليّة. وقد حرّم الله هذه الطريقة لقطع العلاقة الزوجيّة، ولكنّه رتّب عليها آثارها فتحرم الزوجة على زوجها إلى أن يكفّر، وإلا فعليه أن يطلّق زوجته ولا يتركها كالمعلّقة كما سيأتي في آيةٍ لاحقةٍ.

❑ «الزور» هو القول الباطل المخالف للحقّ.

❑ من لطف الله سبحانه وتعالى على العباد أنّ كثيراً من أحكامه لا ترجع إلى الوراء، ففي هذه الآية أعلن الله العفو عن الذين كانوا يظاهرون زوجاتهم قبل هذا التشريع الجديد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

التعاليم:

١ ـ للأنبياء مهامٌ عدّة منها قطع دابر الخرافات والعادات والسنن الخاطئة التي تكون رائجةً في المجتمعات التي يبعث فيها الأنبياء، ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ...﴾.

٢ ـ كانت المرأة مظلومة في الجاهليّة، فأتى الإسلام لرفع هذا الظلم والحيف عنها، والظهار من الظلم الذي كان يمارس في حقّ النساء في الجاهليّة، فأتى الإسلام وجرّم الظهار وحرّمه وجعل الله على من يفعله عقوبةً دنيويةً ثقيلةً، ﴿يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم... لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

٣ ـ مواجهة الباطل مطلوبة، ولكن لا بدّ من أن تتمّ بطريقةٍ منطقيّةٍ وبمساندة الدليل والبرهان، ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾.

٤ ـ قد تكون صرخة ألم بحقّ في بعض الأحيان منشأً لخير كثير يعمّ الأجيال اللّاحقة، ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ... إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾.

٥ ـ القول المنكر والباطل، من السير الجاهليّة التي أتى الإسلام لمواجهتها، ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا...﴾.

٦ ـ لكلّ مشكلةٍ في الإسلام حلّ شرعيّ وقانونيّ، فلم يترك الله أمر إنهاء العلاقة بين الزوجين للعادات والتقاليد الباطلة، بل شرّع قوانين تنظّم قطع العلاقة وتحفظ حقوق الطرفين، وحرّم الحصول على نتيجة الطلاق بواسطة الظهار أو غيره من الطرق التي لم تقرّها الشريعة الإسلاميّة، ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

٧ ـ الله سبحانه يعفو ويستر، ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

٨ ـ مهما كبُرت المعصية فإنّ رحمة الله ومغفرته تتّسع لها وتمحوها، ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا... لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾

إشارات:

- فتح الله أبواباً عدةً لتحرير العبيد، منها: العتق بالكفّارة، في موارد منها: قتل الخطأ[١]، والقسم في غير محلّه[٢]، والظهار.

نظرة إلى الموعظة:

الموعظة هي نوع من التحذير يهدف إلى التذكير وتليين قلب المخاطب، وهو نعمةٌ من النعم الإلٰهيّة على الإنسان، وللموعظة موقعها الخاصّ في الإسلام:

- فالله هو أحد الواعظين: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾[٣].
- والنبيّ ﷺ مأمور بوعظ الناس: ﴿وَعِظْهُمْ... قَوْلًا بَلِيغًا﴾[٤].
- والقرآن نفسه موعظة للناس جميعاً وللمتّقين خاصّةً: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

- وللموعظة أنواع عدّة منها:

أ ـ الموعظة بالقول، كما في حالة موعظة لقمان، ﴿قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾[٦].

ب ـ الموعظة بواسطة العمل، وقد ورد في الأحاديث المنسوبة إلى النبيّ ﷺ والأئمة عليهم السلام الكثير من الحديث عنه، كما في قوله عليه السلام، **«كونوا دعاةً لنا بغير ألسنتكم»**[٧].

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٢.
(٢) سورة المائدة: الآية ٨٩.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٨.
(٤) سورة النساء: الآية ٦٣.
(٥) سورة آل عمران: الآية ١٣٨.
(٦) سورة لقمان: الآية ١٣.
(٧) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣٠٩.

ج ـ الموعظة بواسطة التأديب والعقاب، كما في أمر الله بتحرير عبدٍ عقوبةً لمن يظاهر من زوجته، ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

□ يهتمّ الإسلام بالموعظة في القضايا المترتبطة بالحياة الأسريّة:

أ ـ يأمر الله سبحانه الرجال بموعظة أزواجهنّ، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾[1].

ب ـ في حالة الطلاق وبعد حديثه سبحانه عن إتمام الزوجة العدّة وتخيير الزوج بين إمساكها أو الانفصال عنها، بالعدل والإحسان، يقول: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾[2].

ج ـ في حالة الظهار أيضاً يعظ الله الرجال فيقول: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

د ـ للموعظة محلّ ودور في علاقة الأبوين بالأبناء، ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾.

التعاليم:

١ ـ كانت المرأة في الجاهليّة مورداً ومحلًّا لظلم الرجل وخصوصاً الزوج، ﴿يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾.

٢ ـ لا يسدّ الإسلام الأبواب في وجه الإنسان، ومهما بلغ الانحراف وبالغ المنحرف، يمكنه العودة إلى جادّة الصواب، ﴿يَعُودُونَ﴾.

٣ ـ العقاب، ليس انتقاماً بالضرورة بل هو رادع كما يهدف إلى التخفيف من الجرائم، ﴿يُظَٰهِرُونَ... فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

٤ ـ لا يجوز للرجل أن يقول لزوجته كلّ ما يخطر على باله، فبعض الكلمات تترتّب عليها الكفّارة الثقيلة، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، ومن هنا على الإنسان أن يستشعر المسؤوليّة عن كلّ كلمة تصدر عنه.

٥ ـ ظلم الزوج زوجتَه لا يمرّ من دون أثر وغرامة، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

٦ ـ يستغلّ الإسلام كلّ فرصةٍ متاحةٍ لتحرير العبيد وعتقهم، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...تُوعَظُونَ﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ٣٤. (٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

٧ ـ شرّع الله العقوبات والكفّارات والغرامات لضبط العلاقة الزوجيّة وتنظيمها، ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾.

٨ ـ لا تكفي المحاضرات والخطب لردع الإنسان عن الخطأ، ففي بعض الأحيان تكون العقوبة والغرامة وسيلة من وسائل الوعظ والإرشاد، ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ... تُوعَظُونَ﴾.

٩ ـ العقوبات والغرامات في الإسلام ليست انتقاماً بل هي وسائل للتربية والإصلاح، ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

١٠ ـ لا مجال للفرار من دفع الغرامات والخضوع للعقوبات، فإنّ الله حاضر مطّلع، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾

إشارات:

- وردت كلمة «حدود» أكثر من عشرة مرّات في القرآن الكريم، وأكثر هذه الموارد مرتبطة بالأسرة وحقوقها.
- من لا يجد عبداً لعتقه كفّارة عن الظهار أو غيره من الأفعال التي تترتّب عليها الكفّارة، يجب عليه أن يصوم شهرين متتابعين، وفي تفسير المراد من الشهرين المتتابعين ورد أنّ عليه أن يصوم الشهر الأوّل ويوماً من الشهر الثاني؛ أي واحداً وثلاثين يوماً، ثمّ يصوم ما بقي من الأيام كما يشاء. وورد في عددٍ من الروايات أنّ هذا تخفيف ورد من طريق أهل البيت عليهم السلام[١].
- تكرار جملة ﴿قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾، في هاتين الآيتين، يدلّ على حرمة المعاشرة بين الزوجين قبل دفع الكفّارة[٢].

---

(١) انظر: تفسير نمونه، وتفسير نور الثقلين، عند تفسير الآية.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص٩٨.

التعاليم:

١ ـ يجب أن تقبل أحكام الدين العالميّ التطبيق في كلّ زمان ومكانٍ، وأن تتمتّع بالمرونة الكافية؛ كي لا يواجه المكلّف المآزق والطرق المسدودة، فقد لا يوجد العبيد في بعض الأزمنة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾، وفي بعض الحالات قد لا يقدر المكلّف على الصوم، ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾.

٢ ـ العقوبات في الإسلام مصدر للبركة والخير على المجتمع الإسلاميّ:

ـ تؤدّي إلى تحرير العبيد، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾.

ـ تعلّم المخالف الصبر والمقاومة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

ـ تؤمّن الرزق والشبع للفقراء والمساكين، ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾.

٣ ـ ينبغي أن تكون العقوبات متنوّعة ومتدرّجة، وتراعي أوضاع الزمان والمكان وقدرات الأفراد، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... فَمَن لَّمْ يَجِدْ... فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾.

٤ ـ تقبل الأحكام الإلٰهيّة التخفيف؛ ولكنّها لا تقبل التعطيل، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ... فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ...﴾.

٥ ـ لا تؤدّي العقوبات والغرامات الشرعيّة إلى النقص من قدراتكم البدنيّة أو الماليّة فحسب، بل تؤدّي إلى رفع مستوى الإيمان عندكم، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ... فَإِطْعَامُ سِتِّينَ... ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾.

٦ ـ المشرّع الحكيم يبيّن للمكلّفين فلسفة التشريعات والحكم المبتغاة منها، ليقبلوا عليها بطيب نفس، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾.

٧ ـ ترك العمل بأحكام الله وعدم الاعتناء بها كفر، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ﴾، المحادّة إقامة الموانع والمعارضة لحدود الله، وتارة تكون بالحديد والسيف، وأخرى تكون بالعناد والتآمر وغيرها من الوسائل المشابهة.

□ ﴿كُبِتُوا﴾ من الكبت وهو القهر والغلبة.

□ تكرّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، مرّتين في هذه السورة، وفي المرّتين ذكر الله سبحانه العذاب المهين والذلّ عقوبةً لمن يخالف حدود الله ويعتدي عليها. كما يقول سبحانه في الآية ٢٠: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ الإصرار على عادات الجاهليّة، وتجاهل حدود الشريعة الإلٰهيّة بمثابة إعلان الحرب على الله ورسوله، ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ... فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ... تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ... ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ ينتهي الصراع بين الحقّ والباطل دائماً بهزيمة الباطل وخزيه، ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ... كُبِتُوا﴾.

٣ ـ يساوي الله في العقوبة والآثار المترتّبة على الإيمان به أو الحرب عليه، وبين الآثار المترتّبة على الإيمان برسوله وإعلان الحرب عليه، ﴿لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ... يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٤ ـ على الإنسان أن لا يقف في وجه تطبيق أحكام الله وشريعته، فالعاقبة مرّة وقاسية، ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ... كُبِتُوا﴾.

٥ ـ علينا أن نحذّر المعارضين، ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ... كُبِتُوا﴾.

٦ ـ من يشكّ في سوء عاقبة أهل الباطل، عليه أن يراجع التاريخ وينعم النظر فيه، ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٧ ـ التاريخ والأحداث التي تقع فيه، خاضعة للقوانين والسنن، ولا تجري بشكلٍ عشوائيّ، ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ...﴾.

٨ ـ لا يعدم الحقّ عدوًّا عبر التاريخ، ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٩ ـ القهر الإلٰهيّ والعقوبة الربّانية تأتي دائماً بعد إتمام الحجّة، ﴿كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ...﴾.

١٠ ـ آيات الله واضحة ومتعدّدة، ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾.

١١ ـ مواجهة الأنبياء إهانةٌ لهم؛ ولذلك وبمقتضى قاعدة التناسب بين الجرم والعقوبة، فإنّ العقوبة هي الإذلال والإهانة، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

١٢ ـ مواجهة الأحكام الإلٰهيّة ومنع تطبيقها، إمّا كفر وإمّا طريق يفضي إلى الكفر، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

- تشير هذه الآية إلى بعث الناس جميعاً للحساب يوم القيامة، ولها في القرآن أمثلة عدّة منها، قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[(١)]. كما تتحدّث هذه الآية عن إحصاء الأعمال ولها أيضاً مثيل في القرآن الكريم، وهو قوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا...﴾[(٢)].
- كلمة «شهيد» في القرآن الكريم، ترد تارةً بمعنى مشهود، وطوراً بمعنى شاهد، وفي هذه الآية وردت بالمعنى الثاني أي شاهد، والقرينة الدالّة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ...﴾، والله هو الشاهد وليس هو الشاهد الوحيد على الإنسان، بل يوجد شهود آخرون يشير إليهم قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[(٣)].

التعاليم:

١ ـ القهر والعذاب الإلٰهيّ يكون في الدنيا، ﴿كُبِتُواْ﴾، ويكون في الآخرة كذلك، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ المعاد هو ساحة تجلّي القدرة والعلم الإلٰهيّين؛ فقوله تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ

(١) سورة الكهف: الآية ٤٧.
(٢) سورة الكهف: الآية ٤٩.
(٣) سورة غافر: الآية ٥١.

جَمِيعًا﴾ دليل على القدرة، وقوله تعالى ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ دليل على العلم.

٣ ـ المحكمة الإلٰهيّة يوم القيامة علنيّة وعامّة، ﴿جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم﴾.

٤ ـ علينا أن نفهم المجرم جرائمه عند الحكم عليه، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾.

٥ ـ على العاصين والمجرمين أن يعلموا أنّ أعمالهم محصيّة مدوّنة في صحيفة أعمالهم ولا تُنسى حتّى لو نسوها هم، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ... وَنَسُوهُ﴾.

٦ ـ على الإنسان أن لا يستصغر ذنوبه ومعاصيه، فالحساب بين الله تعالى دقيق يحصي كلّ صغيرة وكبيرة، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

٧ ـ نسيان سيّئات الأعمال لا يؤدّي إلى مغفرتها والتجاوز عنها، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

٨ ـ العالم كلّه في حضرة الله، ولا ينبغي أن يعصى الله في حضرته، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

إشارات:

□ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من الرؤية بمعنى المشاهدة، وفي بعض الأحيان تستخدم هذه الكلمة بمعنى الفهم، وهذا المعنى هو المراد في هذه الآية.

□ «النجوى» من «نجوة» وهي المكان المرتفع من الأرض المنفصل عن غيره من الأماكن، ووجه تسمية الحديث مع شخص آخر سرّا بهذا الاسم هو أنّه عادة يؤخذ جانباً فيفصل عن سائر الناس ليتحدّث معه، أو من جهة أنّ الحديث معه يؤدّي إلى فصله عن غيره من الناس بحيث لا يطّلع على مضمون الحديث إلا هو ومن يناجيه، أو لأنّ الإسرار إلى شخص بسرّ يؤدّي في كثير من الحالات إلى نجاته وتحذيره.

كما أنّ النجوى قد تتمّ بين المجرمين الذين يعقدون الجلسات السرّيّة فيتآمرون ويخطّطون وينفّذون من دون أن يطّلع على سرّهم أحد من الناس.

- يحدّثنا القرآن الكريم عن علم الله سبحانه وتعالى بأسرار الناس ونجواهم في عددٍ من الآيات، ومن ذلك قوله تعالى، في الآية ٧٨ من سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وقوله في الآية ٨٠ من سورة الزخرف: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

- يشير سبحانه في هذه الآية وفي الآية السابقة عشرة مرّات إلى علمه، وهذا الأمر ورد في مطلع هذه الآية وخاتمتها، ﴿يَعْلَمُ... عَلِيمٌ﴾.

- يفيد النظر في الآيات السابقة مجموعة من خصائص العلم الإلٰهيّ، ومنها:

- علم الله يتعلّق بالجزئيّات، ﴿هُوَ رَابِعُهُمْ... هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.
- علم الله دقيق، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.
- علم الله حضوريّ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.
- لا يغطّي غبار النسيان علمه سبحانه، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.
- الله يعلم ويعلِم ويذكّر الناسين ما كانوا يفعلون، ﴿وَنَسُوهُ... يُنَبِّئُهُم﴾.
- علم الله محيط بالأفعال والفاعلين دائماً أبداً، ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾.
- يعلم الله سبحانه كلّ تفصيل من تفاصيل أفعالنا؛ ولكنّه لا يفضحنا في الدنيا بين خلقه، ﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.
- علمه دائم وليس موسمياً، ﴿يَعْلَمُ، عَلِيمٌ﴾.
- علمه بما في السماوات كعلمه بما في الأرض على حدّ سواء، ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

التعاليم:

١ ـ النظر الذي لا يفضي إلى العلم والمعرفة لا قيمة له ويستحقّ صاحبه عليه التأنيب والتوبيخ، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

٢ ـ السماء والأرض، والكبير والصغير، والسر العلن، في ميزان علم الله حكمها واحد، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ... هُوَ رَابِعُهُمْ... هُوَ مَعَهُمْ﴾.

٣ ـ تعدّد الأشخاص وتعدّد أفعالهم وأقوالهم، لا يعيق الله سبحانه عن علم ما يقولون ويفعلون، ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾.

٤ ـ لما كان الوجود الإلٰهيّ غير محدود، كان الله معنا أينما كنّا، ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾.

٥ ـ لا أثر للمكان والزمان في تبدّل علم الله سبحانه وتعالى، أو ضيقه أو سعته، ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾.

٦ ـ المخبر يوم القيامة، يخبر بما شاهد واطّلع عليه، ﴿شَهِيدٌ، عَلِيمٌ، يُنَبِّئُهُمْ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

□ حدّثتنا الآية السابقة عن علم الله سبحانه واطّلاعه على النجوى والأسرار، وفي هذه الآية يحدّثنا سبحانه عن نموذج من نماذج النجوى بين بعض الناس الذين يجمعهم العداء للنبيّ ﷺ.

□ «الصلي» هو الدخول إلى محلّ الاحتراق ومقاساة حرّه[١].

□ يتدرّج الإنسان في ارتكاب المعاصي من الأمور الصغيرة إلى ما هو أكبر منها:

ـ «الإثم» هو المعصية الفرديّة كشرب الخمر.

ـ «العدوان» الاعتداء على حقوق الآخرين.

ـ «معصية الرسول» مخالفة الأوامر والمقرّرات الاجتماعيّة للقائد الإلٰهيّ والتي تصدر للمحافظة على مصالح الإسلام والمسلمين.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٧، ص١١١.

التعاليم:

١ ـ النجوى في جمع من المؤمنين منكر منهيّ عنه، ﴿نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾، وفي الآية العاشرة يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾.

٢ ـ على الناهين عن المنكر أن لا يتوقّعوا أنّ مرتكبي المنكر سوف يقلعون عما هم فيه بمجرّد نهيهم وتحذيرهم من المنكر الذي يرتكبون، ﴿يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا﴾.

٣ ـ العود إلى المعصية والإصرار عليها يزيد من وخامتها ويضاعف من قبحها، ﴿يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا﴾.

٤ ـ طاعة الرسول المعصوم واجبة بشكلٍ مطلق؛ ولذلك ينتقد الله كلّ شكلٍ من أشكال مخالفة النبيّ ﷺ، ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾.

٥ ـ لا ينبغي أن يغرّنا كل تمجيد أو مدح وثناء (فالمنافقون يمدحون النبيّ ﷺ في محضره، ثمّ في غيابه يدسّون له الدسائس ويعصون أوامره ونواهيه، ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

٦ ـ التملّق والثناء الزائد عن الحدّ المتعارف، من علامات النفاق، ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

٧ ـ يجب مراعاة الحدود والضوابط حتّى في الثناء على أشرف الخلق محمّد ﷺ، ﴿لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

٨ ـ لا يعلم الله نجوى المنافقين فحسب، بل يعلم ما يدور في خلدهم، وما تضمر صدورهم، أي ما يسمّى في الأدبيّات الإسلاميّة، بحديث النفس، ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾.

٩ ـ لا ينبغي أن نغترّ بالمهلة التي يعطينا إيّاها الله، فليس الإمهال دليلاً على الرضا، ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

١٠ ـ عاقبة النفاق جهنّم، ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

١١ ـ القول السيّء يمهّد السبيل لسوء العاقبة لصاحبه، ﴿بِمَا نَقُولُ... فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾

إشارات:

- «البرّ» عنوان عامّ يشمل كلّ أفعال الخير، والإيمان من نماذجه التي ذكِرت في سورة البقرة في الآية ١٧٧، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ...﴾
- النجوى والهمس في الأذن فعل له أحكام عدّة:

- فالنجوى التي يترتّب عليها كشف الأسرار التي يخشى منها الضرر على الإسلام والمسلمين، واجبة.
- وعندما تكون النجوى سبباً لإثارة الخوف والقلاقل، تكون محرّمةً.
- وعندما يراد منها مساعدة الآخرين ودعوتهم إلى التقوى تكون مستحبّةً.

- موضوع الكلام ومضمونه هو الذي يضفي عليه القيمة، فيكون الكلام جيداً وذا قيمة أخلاقيّة إيجابيّة عندما يكون دعوةً إلى الخير والتقوى؛ وأمّا عندما يتضمّن الدعوة إلى الشرّ كالظلم وما شابهه، فيكون حراماً. وفي بعض الحالات قد يكون المضمون جيّداً إلا أنّ الوقت يكون غير مناسب فيأخذ حكمه من الوقت، كما في حالة النجوى بالخير في جمع من المؤمنين.

التعاليم:

١ ـ المؤمن محترمٌ حتّى في حالة نهيه عن المنكر، فلا يبرّر ارتكابه المنكر إهانته، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٢ ـ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشاد والتبليغ، لا ينبغي الاكتفاء بالحديث عن العموميّات، بل لا بدّ من ذكر مصاديق الحقّ والباطل وبيانها، ﴿...فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ... وَتَنَٰجَوۡاْ﴾.

٣ ـ لا ينبغي الإعلان والجهر بكلّ كلام، فالكلام في الخير، في بعض الأحيان لا بدّ من الإسرار به، ﴿...وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

٤ ـ لا يجوز عدّ النجوى في الباطل كالنجوى في الحقّ، ﴿وَتَنَاجَوْا... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

٥ ـ التقوى والالتفات إلى المعاد، من العوامل المساعدة على تجنّب الكلام الباطل، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

التعاليم:

١ ـ كما أنّ التبذير والاستهلاك الزائد عن الحدّ المعقول، يجعل الإنسان قريناً للشيطان، ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[(١)]، النجوى في الباطل كذلك تقرّب صاحبها من الشيطان، ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾.

٢ ـ كلّ كلام يؤدّي إلى إثارة الخوف والفتنة بين المسلمين، هو عمل شيطانيّ، سواء أكان في السرّ أم في العلن، ﴿النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٣ ـ يجب التطمين وتسلية الأفئدة وتعليم المخاطب على أن الأمور بيد الله فما لم يرد أمراً لن يقع، ﴿لِيَحْزُنَ... وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ﴾.

٤ ـ المؤمنون في حفظ الله وحراسته، ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾.

٥ ـ جهود المنافقين في التخريب على الإسلام والمسلمين، لا تقع خارج حدود القدرة الإلهيّة، ولا تعجزه سبحانه، ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٦ ـ على المؤمنين أن يبطلوا آثار الحرب النفسيّة التي يخوضها الأعداء ضدّهم، ﴿لِيَحْزُنَ... وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾.

٧ ـ التوكّل على الله دواء لكلّ مصادر القلق ورافع لكلّ المخاوف والاضطرابات، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

٨ ـ التوكلّ على الله ليس عملاً يؤدّيه الإنسان كائناً ما كان، بل يشترط فيه الإيمان، ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ومن جهةٍ أخرى على المؤمنين أن يتوكّلوا على الله ويلتفتوا إلى هذا الأمر حتّى لو كان الله هو الضامن لحمايتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- التفسّح هو توسعة المكان للقادم الذي يريد الجلوس، والنشزُ هو القيام من المحلّ احتراماً للقادم.
- حدّثتنا الآية السابقة عن النجوى بوصفها سبباً من أسباب إثارة المخاوف والقلق بين المؤمنين، وفي هذه الآية يحدّثنا الله سبحانه عن توسعة المكان بوصفه سبباً من أسباب السعادة بينهم.
- بيّن الله في القرآن منزلة مجموعة من الأشخاص بوصفهم جماعات متميّزة، وهم: الأنبياء، والمجاهدون، والمصلّون، والمنفقون، والمؤمنون الذين يعملون الصالحات، والعلماء.
- ربّما كان المراد من قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، الدعوة إلى القيام احتراماً لمقدم المؤمنين والعلماء[1].

قصّة وعبرة:

يروي الطبرسي في الاحتجاج أنّ رجلاً في عصر الإمام الهادي عليه السلام من فقهاء شيعته كلّم بعض النواصب، فأفهمه بحجّته حتّى أبان عن فضيحته، فدخل إلى الإمام عليه السلام، وبحضرته خلق من العلويّين وبني هاشم، فما زال يرفعه حتّى أجلسه في صدر المجلس، وأقبل عليه فاشتدّ ذلك على أولئك الأشراف، فقال له

(١) تفسير نمونه.

شيخ الهاشميّين: يا ابن رسول الله هكذا تؤثر عاميا على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين. فقال عليه السلام: إيّاكم وأن تكونوا من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[1]، أترضون بكتاب الله حكما. قالوا: بلى. قال: أليس الله يقول: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2]، فلم يرض للعالم المؤمن إلاّ أن يرفع على المؤمن غير العالم، فكيف تنكرون رفعي لهذا لما رفعه الله. إنّ كسر هذا (لفلان) الناصب بحجج الله التي علّمه إياها، لأفضل له من كل شرف في النسب[3].

التعاليم:

١ ـ الإيمان له شروط ولوازم ولا بدّ من مراعاة شروط الإيمان ولوازمه، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾.

٢ ـ الإفساح وتوسعة المكان لجلوس القادمين، قيمة من القيم الأخلاقيّة، ﴿فَافْسَحُوا... انْشُزُوا﴾.

٣ ـ إفساح المجلس لمن يريد الجلوس، أمر مطلوب دائماً وفي كلّ مكان، ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾.

٤ ـ العمل بأوامر الله وتعاليمه، من موجبات توسعة الله الثوابَ للعاملين بها، ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ﴾.

٥ ـ التوسعة على الناس، من موجبات توسعة الله على العبد، ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ﴾، وثواب الله متناسب مع الفعل، الفسح يقابله فسح.

٦ ـ دعوة الإسلام إلى كلّ الآداب، ومنها آداب المجالس والاجتماع، ﴿فَافْسَحُوا... انْشُزُوا﴾.

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٣.
(٢) سورة المجادلة: الآية ١١.
(٣) الطبرسي، الاحتجاج، ج٢، ص٢٠٥.

٧ ـ يقتضي الاحترام القيام عند دخول بعض الكبار من أهل العلم والمعرفة إلى المجلس، ﴿ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

٨ ـ العلم هديّة وتفضّل إلهيّ، ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ...﴾.

٩ ـ ينبغي أن يكون لأهل العلم في المجتمع الإسلاميّ مكانة خاصّة تليق بهم، ﴿...وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

١٠ ـ يترتّب على عمل العالم ثواب أكثر من الذي يترتّب على عمل غيره[١]، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ... وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

١١ ـ إفساح المجال في المجالس وغيرها، والقيام والاحترام، يجب أن يكون من أجل الله لا من أجل الدنيا أو أيّ شيء آخر، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

١٢ ـ على الإنسان أن لا ينسى الله أثناء قيامه بواجباته الاجتماعيّة، وخلال قيامه وقعوده، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

- كان بعض الناس يزعجون النبيّ بمناجاته عندما يكون بين الناس، وكان أكثرهم من الأغنياء وأهل الدنيا، فكان ذلك يؤذي النبيّ ﷺ والمؤمنين الحاضرين في المجلس، فنزلت الآية لاختبار مدى صدق علاقتهم بالنبيّ ﷺ، ولم يكن هذا الحكم من الأحكام الدائمة، بل كان حكماً موقتاً رفع بعد انقضاء الحاجة إليه[٢].
- كان يفتخر الإمام عليّ عليه السلام بأنّه لم يعمل غيره لا قبله ولا بعده بهذه الآية، وكان قد صرّف ديناراً بدراهم ليتصدّق بدرهم كلّما أراد مناجاة النبيّ ﷺ[٣].

---

(١) انظر: التبيان في تفسير القرآن، ج٩، ص٥٣٧.

(٢) تفسير نمونه.

(٣) أشارت كثير من كتب التفسير إلى هذا الكلام المنقول عن الإمام عليه السلام، عند تفسير الآية، ومن ذلك: كنز الدقائق، ونمونه، والدرّ المنثور.

❑ الطهارة على نوعين:

١ ـ طهارة الجسم، ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾[(١)]؛

٢ ـ طهارة الروح، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

التعاليم:

١ ـ الإيمان يولّد المسؤوليّة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا...﴾.

٢ ـ تدفع الصدقة قبل الإقدام على الأعمال، ﴿فَقَدِّمُوا... صَدَقَةً﴾.

٣ ـ يمكن للمعلّم أن يجعل على المتعلّم مبلغاً مقرّراً يدفعه، سواء أخذه المعلّم نفسه، أو أمره بدفعه إلى غيره، كما في الصدقة والدفع إلى الفقراء، ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾.

٤ ـ لم يحدّد الشرع مبلغاً للصدقة؛ ليترك الأمر إلى الناس ليدفع كلّ منهم ما يقدر عليه، وما تجود به نفسه، ﴿صَدَقَةً﴾.

٥ ـ يهتمّ الإسلام برفع حاجة الفقراء بأيّ وسيلة ممكنة، ولو بفرض الصدقة على الذين يريدون اللقاء الخاصّ بالنبيّ ﷺ والخلوة به، ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾.

٦ ـ يعرف مدى إيمان الناس، ومقدار صدق رغبتهم في العلاقة بالنبيّ ﷺ، بتخييرهم بين المال وبين النبيّ ﷺ، ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾.

٧ ـ الصدقة، من الأفعال التي تترتّب عليها عشرات الفوائد والمصالح الاجتماعيّة والفرديّة، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

٨ ـ التعلّق بالدنيا رجس، والانفصال عنها طهارة وخير، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

٩ ـ الصدقة شكل من أشكال التطهير، ﴿وَأَطْهَرُ﴾، ويقول سبحانه في محلّ آخر من القرآن الكريم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾[(٢)].

١٠ ـ لا محلّ للمآزق والأبواب المسدودة في الأحكام الإسلاميّة، ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا...﴾.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٣.

١١ ـ على المشرّع أن يراعي أوضاع الناس وأحوالهم، عند سنّ القوانين وتشريعها، ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ...﴾.

١٢ ـ على الفقراء أن لا يشعروا بأيّ درجة من الحقارة، فإنّهم مشمولون بالرحمة الإلٰهيّة كغيرهم من الناس، وربّما أكثر، ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

١٣ ـ لا يجرّد الإسلام أيّ شخص من حقوقه الاجتماعيّة ولا يحرمه بسبب فقره، ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- الإشفاق هو الخشية، وهو نوع عناية مختلطة بخوف؛ لأنّ المشفق يحبّ المشفَق عليه، ويخاف ما يلحقه[1].
- تكشف هذه الآية عن أنّ الهدف من تشريع الصدقة قبل مناجاة النبيّ ﷺ هو اكتشاف المؤمن الصادق والمحبّ للنبيّ ﷺ وتمييزه عن غيره، ولم يكن الهدف هو الصدقة، ثمّ رفع الحكم عندما لم يلتزم أكثرالناس به.
- يعاتب الله في هذه الآية المؤمنين الذين رجّحوا الأموال على مناجاة النبيّ وتركوا المناجاة لأنّها تلزمهم بالصدقة قبلها.

التعاليم:

١ ـ يؤنّب الله في هذه الآية الذين تركوا مناجاة النبيّ ﷺ، مع أنّ المناجاة ليست واجبةً وربّما ليست مستحبّة، والتأنيب لأنّ الدافع إلى تركها هو البخل والفرار من دفع الصدقة، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج١٥، ص١٩.

٢ ـ لم يكن جميع أصحاب النبيّ من المطيعين المسلّمين لأمره ﷺ، ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾؛ لأنّهم بحسب هذه الآية لم يعملوا بالأمر الصريح بأداء الصدقة قبل المناجاة، ﴿...فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾.

٣ ـ إذا لم نفعل المستحبّات فعلى الأقل لنقم بالواجبات، فالله سبحانه في هذه الآية يأمر الذين لا يدفعون الصدقة قبل مناجاة النبيّ ﷺ، بإيتاء الزكاة، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا... صَدَقَاتٍ... وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾.

٤ ـ التأنيب ينبغي أن يفتح باب الإصلاح والتوبة، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا... وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾.

٥ ـ علينا أن لا نيأس من الذين يقعون في المعصية في بعض الأحيان، ويجب التعامل معهم بعدل على الرغم من عصيانهم، فالله في هذه الآية يطلب الطاعة ممّن عصوا أمراً من أوامره، ﴿لَمْ تَفْعَلُوا... أَطِيعُوا اللَّهَ﴾.

٦ ـ الاهتمام بالزكاة والصلاة، يجبر بعض المصالح التي تفوت من ترك امتثال بعض الأحكام، ﴿لَمْ تَفْعَلُوا... فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾.

٧ ـ الدين ليس علاقةً بين الإنسان الفرد والله سبحانه وتعالى فقط، بل هو في الوقت عينه، نظام اجتماعيّ يهتمّ بالفقراء وأوضاعهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٨ ـ علينا أن ننعم النظر في أعمالنا فالله سبحانه وتعالى هو المراقب المطّلع، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

إشارات:

- على الرغم من أنّ الله سبحانه يخبر عن غضبه على عددٍ من الأشخاص والجماعات، إلا أنّه ربّما كان المراد ممن غضب الله عليهم، في هذه الآية

اليهود؛ وذلك لأنّ صرّح القرآن بالغضب على اليهود في آيات أخرى، بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1].

❑ المراد من الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم، هو المنافقون.

التعاليم:

١ ـ تولّي الذين غضب الله عليهم، وإنشاء علاقة صداقة حميمة بهم، من الأمور التي يستحقّ فاعلها التأنيب، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ...﴾.

٢ ـ الإنسان الذي يسحب يده من يد النبيّ ﷺ، يضع يده في يد المغضوب عليهم عبر التاريخ، ﴿تَوَلَّوْا... غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

٣ ـ من الأمور المطلوبة في المجتمع الإسلاميّ تمييز الموالي عن غيره، ومعرفة العدوّ والمنافق، ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

٤ ـ من عادة المنافقين اللّجوء إلى الأيمان الكاذبة، لإثبات براءتهم، ﴿...وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾.

٥ ـ سوء الاستفادة من المقدّسات، من عادة المنافقين، ﴿يَحْلِفُونَ﴾.

٦ ـ يقدم المنافقون على المعصية عن علم ومعرفة، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

٧ ـ العذاب والعقاب الإلٰهيّ يكون دائماً تابعاً لأعمال الإنسان السيّئة، ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

إشارات:

❑ يعتمد شياطين الجنّ والإنس على وسائل عدّة لصدّ الناس عن سبيل الله، وجرّهم إلى الانحراف، ومن هذه الوسائل:

(١) سورة البقرة: الآيتان ٦٠ و٩١؛ وسورة آل عمران: الآية ١١٢.

ـ القسم الكاذب المشار إليه في هذه الآية.

ـ إنفاق الأموال وصرفها من أجل إضلال الناس، ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

ـ استخدام الدعاية المضلّة لإشاعة الفساد ونشر الضلال، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2].

ـ البدعة واختراع مفاهيم دينيّة ونسبتها إلى الله، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[3].

ـ تزيين قبيح الأعمال وتحسينها في عيون فاعليها، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[4].

التعاليم:

١ ـ يحاول المنافقون استخدام المقدّسات الدينية بهدف ضرب الدين، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾.

٢ ـ عذاب المنافقين شديد، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ... هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

٣ ـ القرآن جادّ في تحذيره، ولا تنفع الأموال ولا الأولاد يوم القيامة، ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم...﴾.

٤ ـ الدنيا تختلف عن الآخرة كثيراً، ومن ذلك أنّ الأموال والأولاد قد تعطي صاحبها موقعاً في الدنيا وتساعده على تحقيق ما يريد، وأمّا في الآخرة فلا أثر لا للمال ولا للولد، ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم...﴾.

٥ ـ في التحذير والوعظ، علينا أن نضع الإصبع على الجرح مباشرة ونلفت إلى العلّة والسبب الذي يدعو إلى الغفلة، وهو كما في هذه الآية المال والولد، ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم...﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٦.

(٢) سورة لقمان: الآية ٦.

(٣) سورة الزمر: الآية ٨.

(٤) سورة النمل: الآية ٢٤.

٦ ـ النفاق في الدنيا من أسباب الخلود في النار في الآخرة، ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

- ورد ذكر القسم الكاذب يوم القيامة أكثر من مرّة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام الآية ٢٣: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.
- بما أنّ القسم يجرّ الناس شيئاً فشيئاً إلى التصديق كان لا بدّ من تحذير الناس من الأيمان الكاذبة كي لا يصدّقوا ما يسمعونه ممّن يقسم كاذباً، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، والكلمات ﴿أَلَآ، إِنَّ، هُمُ﴾ جميعها للفت الانتباه إلى ضرورة عدم التصديق.
- المنافق كاذب سواء في الدنيا أو الآخرة، ففي سورة المنافقين يؤكّد الله أنّ إقرار المنافقين بالإسلام وتصديقهم بالنبيّ ﷺ هو إقرار وتصديق كاذب، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، وفي هذه الآية يخبرنا عن كذبهم يوم القيامة.

التعاليم:

١ ـ عندما يتحوّل الكذب إلى طبع وملكة، يبقى ملازماً للإنسان حتّى في الآخرة ويوم القيامة، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

٢ ـ يغرق المنافقون أو يغرقون أنفسهم في بحر من الأوهام والخيالات الباطلة، ﴿...وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

٣ ـ حياة المنافقين مملوءة بالكذب والمداهنة، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

إشارات:

- يحدّثنا الإمام عليّ عليه السلام عن أنّ الحق عندما يكون صريحاً وصافياً يعرف،

وكذلك الباطل، ولكن المشكلة عندما يتمّ المزج بينهما: «**ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه**»[١].

وعن الإمام الحسين عليه السلام، مخاطباً جيش يزيد: «**استحوذ الشيطان على أوليائه**»[٢].

❑ من قواعد المنهج الشيطانيّ:

- يجرّ الإنسان خلفه خطوةً بعد خطوة، ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٣].
- في بعض الأحيان قد يلقي فكرة أو أمراً من بعيد، كما يلقي أحدهم الحجر لغرض من أغراضه، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ...﴾[٤].
- في بعض الحالات يمسّ الهدف من دون أن ينفذ فيه، ﴿مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٥].
- وفي بعض الأحيان ينفذ إلى الداخل فيوسوس في الصدور، ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[٦].
- وفي أحيان أخرى يستقرّ في القلوب ويقارن أصحابها، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[٧].
- وفي بعض الحالات يؤاخي أهدافه ومن يرغب في إضلالهم، ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[٨].
- وفي بعض الحالات يستولي على هدفه بالكامل ويحيط به من كل ناحية، ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

التعاليم:

١ ـ المؤمن يتذكّر الله عندما يشعر باقتراب الشيطان منه، ﴿مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٥٠.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٨٦.
(٣) سورة النور: الآية ٢١.
(٤) سورة الحج: الآية ٥٢.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.
(٦) سورة الناس: الآية ٥.
(٧) سورة الزخرف: الآية ٣٦.
(٨) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

﴿ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾[1]، وأمّا المنافق فلأنّه وصل إلى مرحلة الاتّحاد بالشيطان، فإنّه لا يذكر الله ولا يلتفت إليه، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ اليمين الكاذبة من مقدّمات تسلّط الشيطان، ﴿يَحْلِفُونَ... ٱسْتَحْوَذَ...﴾.

٣ ـ يقترب الإنسان من حزب الشيطان ويدخل في دائرة أعوانه، بحسب درجة نسيانه ذكر الله تعالى، ﴿...فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ... حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

٤ ـ لا ينبغي للإنسان أن يضع نفسه في تصرّف أي حزب أو جماعة، فبعض الأحزاب والجماعات قد تكون من حزب الشيطان، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

٥ ـ الخسران الحقيقيّ هو أن يخسر الإنسان نفسه بدخوله في حزب الشيطان وجماعته لا أن يخسر أمواله، ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

- يبدو أنّ هذه الآية تقع في سياق استكمال الآيات السابقة وبالتالي هي في سياق وصف المنافقين والحديث عنهم، ولا سيّما بالنظر إلى حديث الآيات السابقة عن كبتهم بسبب معاداتهم لله وللرسول، ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.
- المشاكل التي ربّما يعانيها المؤمنون هي ظرفيّة تزول لاحقاً، وبالتالي لا ينبغي أن يشعروا باليأس عند حدوثها، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[2]، وأمّا ذلّ المعارضين للحقّ فهو ذلّ أبديّ وخالد على الرغم من العزّ الظاهريّ الذي قد يتجمّلون به، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

التعاليم:

١ ـ يفضي النفاق بالإنسان إلى أن يتحوّل إلى عدوّ لله ولرسوله، ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٣.

٢ ـ كما أنّ أوامر الرسول ونواهيه هي أوامر الله ونواهيه، فكذلك معاداة الرسول هي معاداة لله وإعلان للحرب عليه سبحانه، ﴿ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

٣ ـ من يقف في وجه الحقّ، لن يكون مصيره إلا الذلّ، ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ...﴾.

٤ ـ الأشخاص الذين يعتقدون أنّ المسلمين أذلاء، ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[1]، هم في الواقع في أقصى درجات الذلّ، ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

٥ ـ بما أنّ العزّة هي لله ولرسوله فإنّه سبحانه لن يمنح شيئاً منها لمن يقف في وجه الحقّ ودعوة الله والأنبياء، ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

٦ ـ عاقبة معارضة الله ورسوله ومخالفة أوامرهما ونواهيهما الذلّ في الدنيا والآخرة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

إشارات:

- من السنن الإلٰهيّة التي تحكم العلاقة بين الحقّ والباطل، انتصار الأوّل على الثاني. فإلى أين وصلت التهم والافتراءات التي حيكت ضدّ النبيّ ﷺ وغيره من الأنبياء؟ اسم من خلّد التاريخ، هل خلّد اسم إبراهيم عليه السلام، أم اسم النمرود؟ هل الإمام الحسين عليه السلام هو العزيز أم يزيد؟ لقد حقّق الإمام الحسين هدفه وهو فضح بني أميّة وتعليم البشريّة كلّها درس الحريّة والتحرّر، فماذا عن يزيد؟

سؤال: إذا كان الحقّ منتصراً دائماً، فلماذا يتعرّض المدافعون عنه إلى الهزيمة؟

الجواب: عندما يقال إنّ الولد نعمة، فهذا لا يعني نفي كلّ المتاعب التي تسبق الحصول عليه، كمتاعب الحمل والولادة، بل المراد أنّه نعمة على الرغم

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

من المصاعب كلها التي تسبق أو تقارن الحصول عليه. وانتصار الحقّ على الباطل سنّة في ظلّ الإيمان والثبات والوحدة، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[١]، وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢]، أمّا إذا عرف الضعف والتمرّد طريقه إلى جبهة أنصار الحقّ فلن تنطبق عليهم سنّة الله في انتصار الحقّ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾[٣].

- ☐ يستفاد من الروايات الواردة في التراث الإسلاميّ، أنّ النصر النهائي والكامل للحقّ لن يتحقّق إلا في زمان ظهور الإمام المهديّ (عجل الله فرجه).

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾

إشارات:

- ☐ مقام الرضا أرفع من مقام التسليم، والفرق بين المقامين، هو أنّ الإنسان تارةً يسلّم بما يصيب من الأقدار الإلٰهيّة، وأخرى يكون راضياً بها مسروراً بما يصيبه منها.
- ☐ لا يجتمع الإيمان مع الكفر بأي وجهٍ من الوجوه. يقول الله سبحانه لنوح عليه السلام، عن ولده: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[٤]، وعندما تبيّن لإبراهيم عليه السلام انحراف عمّه ويئس من هدايته تبرّأ منه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٥]، وقد نهى الله سبحانه النبيّ صلى الله عليه وآله عن الاستغفار للمشركين: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[٦].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٠.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.
(٤) سورة هود: الآية ٤٦.
(٥) سورة التوبة: الآية ١١٤.
(٦) سورة التوبة: الآية ١١٣.

التولّي والتبرّي:

ورد الحديث في سورة المجادلة مرّات عدّة عن التولّي والتبرّي، وهذا يكشف عن أهميّة موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه:

- ﴿تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾، و﴿لَّا تَجِدُ... يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾.
- عن الإمام الرضا عليه السلام: «كمال الدين ولايتنا والبراءة من عدوّنا».
- وعن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قيل له إنّ فلاناً يواليكم إلا أنّه يضعف عن البراءة من عدوّكم، فقال: «هيهات، كذب من ادّعى محبّتنا، ولم يتبرّأ من عدوّنا»[1].
- وعنه عليه السلام أيضاً: «أوحى الله إلى نبيّ من أنبيائه، قل للمؤمنين لا تلبسوا لباس أعدائي، ولا تطعموا مطاعم أعدائي، ولا تسلكوا مسالك أعدائي، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي»[2].
- وورد في الحديث: «هل الدين إلا الحبّ والبغض»[3].

□ التأييد الإلهيّ في القرآن على أنواع:

- التأييد بملائكته كجبرائيل، ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[4].
- التأييد بتأييد خاصٍّ منه سبحانه، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.
- التأييد بالمؤمنين به، ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[5].
- التأييد بجنوده سبحانه، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[6].

□ وردت عبارة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، مرّاتٍ عدّة في القرآن الكريم:

١ ـ في سياق الحديث عن الصادقين في القول والعمل، ﴿يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ... رَّضِيَ اللَّهُ...﴾[7].

٢ ـ في سياق الحديث عن السابقين والمسارعين في الخيرات، ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ... رَّضِيَ اللَّهُ...﴾[8].

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٧، ص٥٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج٣، ص٢٧٩.
(٣) بحار الأنوار، ج٦٥، ص٦٣.
(٤) سورة المائدة: الآية ١١٠.
(٥) سورة الأنفال: الآية ٦٢.
(٦) سورة التوبة: الآية ٤٠.
(٧) سورة المائدة: الآية ١١٩.
(٨) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

٣ ـ في سياق الحديث عن المؤمنين الحقيقيّين، ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ... رَّضِيَ ٱللَّهُ...﴾.

□ اتّخاذ الموقف المعادي لله ورسوله قبيح إلى حدٍّ دعا الله سبحانه إلى ذكره في القرآن أربع مرّات، وفي كلّ مرّةٍ يتهدّد أصحابه بالغضب الإلٰهيّ، ومن هذه الموارد في الآيات ٥ و٢٠ و٢٢ من هذه السورة:

- ﴿كُبِتُواْ﴾.
- ﴿فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾.
- ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا... يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾.
- ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ... لَهُۥ نَارَ... خَٰلِدًا...﴾[1].

التعاليم:

١ ـ لا يجتمع حبّين في قلب واحدٍ، فحبّ الله وحبّ أعدائه لا يجتمعان في قلب واحدٍ، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ... يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾، وفي آية أخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾[2].

٢ ـ علينا أن نقتلع العيوب والآفات من الجذور. فمودّة أعداء الله تقود الإنسان إلى الميل نحوهم على صعيد الفكر، والعمل، والأخلاق؛ لذلك لا بدّ من العلاج على مستوى الجذور وتجفيف منابع الانحراف، ﴿لَّا تَجِدُ... يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ العلاقات والولاء والبراء في الإسلام يجب أن تكون على قاعدة رضا الله سبحانه، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ﴾.

٤ ـ العلاقات الأسريّة لها حدود وخطوط حمراء لا ينبغي تجاوزها سلباً وإيجاباً، ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ...﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦٣. (٢) سورة الأحزاب: الآية ٤.

٥ ـ أبدل الله سبحانه من يقطع علاقته من أجل الله بأربعة أشخاص (الأب، والابن، والأخ، والأسرة) أربعة أشكال من لطفه وكرمه، هي الإيمان، والتأييد، والجنّة، والرضوان، ﴿ٱلْإِيمَٰنَ، وَأَيَّدَهُم، جَنَّٰتٍ، رَضِىَ ٱللَّهُ﴾.

٦ ـ قيمة الإيمان تكمن في ثباته واستقراره، وأمّا الإيمان الموسميّ والمتقطع فلا قيمة له[1] وكثيراً ما يتوفّر، ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

٧ ـ ينبغي أن يستقرّ الإيمان في القلب ويثبت، ثمّ يأتي بعد التأييد والنصرة، ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ... وَأَيَّدَهُم﴾.

٨ ـ الدين ليس علاقة فردية بين الإنسان والله، بل هو المرجعيّة التي تنظّم علاقات الإنسان الاجتماعيّة، ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ...﴾.

٩ ـ لا يؤجّل الله ثوابه إلى يوم القيامة، بل جعل في الدنيا أشكالاً من الثواب لمن يستحقّ، كالإيمان والتثبيت والنصرة، ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ... وَأَيَّدَهُم﴾.

١٠ ـ حزب الله لا يمكن أن يكونوا من أولياء أعداء الله، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا... يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ... أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾.

١١ ـ الانتماء إلى حزب الله ليس مرهوناً بعرقٍ أو لغة، أو منطقة، بل كلّ مؤمن مقاوم ثابت الإيمان هو من حزب الله، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ... يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ... أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾.

١٢ ـ النصر يأخذ قيمته الواقعيّة من الوصول إلى الأهداف وتحقيق الشعارات التي من أجلها كانت المعركة، فيقول الله سبحانه في موردٍ آخر: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2]، ويقول هنا: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٣ ـ دوام النعمة هو بحدّ نفسه نعمة من النعم في الجنّة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

١٤ ـ أن نرضى عن الله فهذا وجه من وجوه القضيّة، والمهمّ هو رضا الله سبحانه عنّا، ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

---

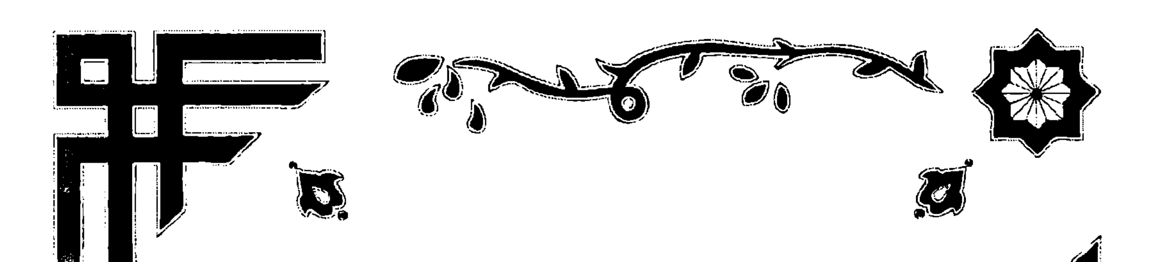
(١) سورة الأنعام: الآية ٩٨.
(٢) سورة المائدة: الآية ٥٦.

١٥ ـ النعم في الآخرة نوعان، نعم ماديّة، ﴿جَنَّٰتٍ...﴾، وأخرى معنويّة، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ...﴾، كما يقول سبحانه في موضعٍ آخر: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[1].

«والحمد لله ربّ العالمين»

---

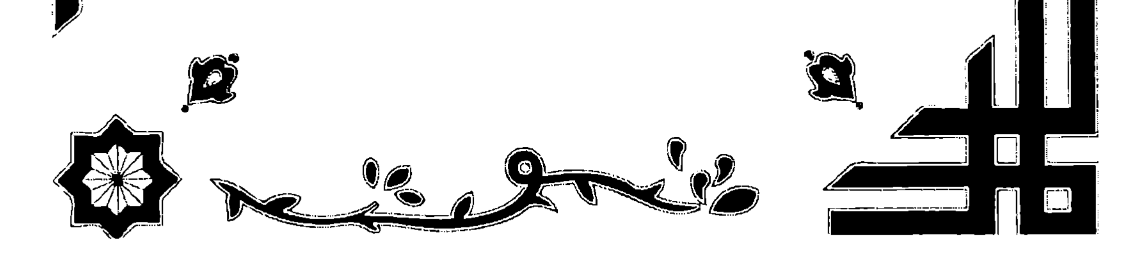
(١) سورة التوبة: الآية ٧٢.



سورة الحشر

السورة: ٥٩ الجزء: ٢٨

عدد الآيات: ٢٤



ملامح سورة الحشر

تتألّف هذه السورة من أربع وعشرين آية، وهي من السور المدنيّة.

أخذت السورة اسمها من كلمة «الحشر» الواردة في الآية الثانية، والحشر المقصود في هذه السورة ليس هو الحشر يوم القيامة، بل المراد هو اجتماع الناس استعداداً للرحيل.

تبدأ السورة وتختتم بالحديث عن تسبيح الموجودات جميعاً اللهَ سبحانه، وتتحدّث عن العلاقة بين المنافقين ويهود المدينة، ومؤامراتهم ضدّ الإسلام والمسلمين. وفي هذه السورة يطمئن الله سبحانه إلى أنّهم مهما كادوا فلن يصلوا إلى مبتغاهم.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

إشارات:

- استخدِمت كلمة «تسبيح» ومشتقّاتها ما يقرب من ٨٥ مرّةً في القرآن الكريم. وتشتمل الصلاة في الإسلام على التسبيح في أكثر من حالة من حالاتها كالركوع والسجود مثلاً.
- أحد معاني مادة «سبح» في اللغة العربيّة الحركة في الماء أو الهواء، وفي الاصطلاح الدينيّ تنزيه الله عن كل عيب وتدلّ كذلك على السرعة في العبادة.
- صفات الله سبحانه على نوعين: صفات ثبوتيّة، وصفات سلبيّة. والنوع الأول من الصفات هو الصفات التي تنسب إلى الله سبحانه كالعلم والقدرة والرحمة وإلى غير ذلك والنوع الثاني من الصفات هي التي ينزّه الله عنها كالظلم والجهل والعجز وما شابه، والتسبيح مرتبط بالصفات السلبيّة، والحمد مرتبط بالنوع الأوّل.
- في بعض الموارد من القرآن أو الصلاة يجمع بين التسبيح والحمد، كما في قوله تعالى في القرآن ﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1]، وفي الصلاة عندما يقول المصلّي: «سبحان ربّي الأعلى وبحمده». وهذا جمع بين الصفات الثبوتيّة والسلبيّة في عبارة واحدة، والمعنى هو أنّ المصلّي ينزّه الله عن كلّ عيب ويحمده على ما يسّر له من ألطافه.

تسبيح الموجودات:

يقول بعض المفسّرين وغيرهم إنّ تسبيح الموجودات هو تسبيح تكوينيّ؛ أي الموجودات كلّها من خلال وجودها هي آيات لله تعالى، تدلّ على علمه وحكمته

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

وقدرته وبراءته عن كلّ عيب، فهي بذلك تسبّحه وتنزّهه وهذا ما يعبّر عنه بالتسبيح بلسان الحال، ولا مبرّر للاعتقاد بأنّ الموجودات تقول «سبحان الله» وتردّد هذا الذكر بلسانها الخاصّ.

وعلى الرغم من اشتهار هذه القول وانتشار الاعتقاد به، إلا أنّه يبدو أنّ لكلّ موجود لسانه الخاص الذي يسبّح الله به، وذلك لأمور:

- إنّ الإنسان ومنذ قديم الزمان كان يرى في الموجودات آيات تدلّ على حكمة الله ونزاهته، وبالتالي هو يفهم تسبيحها بهذا المعنى، فكيف يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].
- لو كان التسبيح بالمعنى المشار إليه أعلاه، لكان تسبيح الموجودات أشبه بتسبيح اللوحة الفنيّة التي يرسمها فنّان، أو القصر الجميل الذي يبنيه معماريّ، ولا يصدق على مثل هذا التسبيح قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[2]، فهذه الآية تدلّ على أن تسبيح الموجودات صادرٌ عن وعيٍ ومعرفةٍ.

□ الوجود كلّه في حالةِ تسبيحٍ دائمةٍ لله تعالى، وقد عبّر عنه أحياناً بصيغة الفعل الماضي، ﴿سَبَّحَ﴾، وأحياناً بصيغة الفعل المضارع، ﴿يُسَبِّحُ﴾.

التعاليم:

١ ـ المخلوقات التي في السماء والأرض، لها شكل من أشكال الشعور والإدراك، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾.

٢ ـ ربّما ترى أنّ بعض الناس ليسوا من أهل التسبيح، ولكنّ الوجود كلّه في حالة تسبيح لله تعالى، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ...﴾.

٣ ـ عزّة الله سبحانه وحكمته هما اللتان تدفعان الموجودات إلى التسبيح، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٤ ـ بعض الناس قد تدفعهم القدرة والعزّة إلى فقدان توازنهم، وأمّا الله سبحانه

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٢) سورة النور: الآية ٤١.

فإنّ حكمته لا حدّ لها، على الرغم من أنّ عزّته لا تعرف الحدود، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾

إشارات:

□ «الحشر» هو الجمع والإبعاد والطرد من المسكن.

□ قوله تعالى ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾، من العبور ووجهه أنّ الفهم وأخذ العبرة هو عبور من اللفظ أو الحادثة أو غيرها إلى المعنى الذي تختزنه، وتعبير الرؤيا هو عبور من ظاهرها إلى معناها الحقيقيّ.

□ كانت تسكن في المدينة ثلاث قبائل: هي بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وعندما هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة توافقوا معه على عدم التعرّض له بالأذى وعدم مناصرة غيره عليه، ولكن بعد معركة أحد بدأ بعضهم يتآمر مع مشركي قريش ضدّ الإسلام والمسلمين، فعلم النبيّ ﷺ بذلك وتصدّى لهذه المحاولات. فقتل أحد قادتهم وهو كعب بن الأشرف، فلجأوا إلى حصن من حصونهم يحتمون به، فحاصرهم المسلمون فيه، وبعد أيام من الحصار وافقوا على الرحيل عن المدينة، فحملوا ما استطاعوا حمله من الأموال وما لم يستطيعوا حمله خرّبوه كي لا يستفيد منه المسلمون[(١)].

□ يشير القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى الخوف كسلاح من الأسلحة التي يضرب بها أعداءه، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) التفسير الأمثل، ج١٨، ص١٦٨.
(٢) سورة الأنفال: الآية ١٢.

﴿ٱلرُّعْبَ﴾[١]، وهذا الرعب الذي يُلقَى في قلوب الأعداء يؤدّي إلى فرار الأعداء وتحقّق النصر للمسلمين من دون إراقة الكثير من الدماء. وقد ورد في الروايات أنّ الإمام المهديّ (عجل الله فرجه) ينصر بالرعب، كما ينصر بالملائكة والمؤمنين[٢].

- التفكّر والاعتبار في الإسلام شكل من أشكال العبادة، وقد ورد في الحديث: **«كان أكثر عبادة أبي ذرّ التفكر والاعتبار»**[٣].
- لا شيء ممّا عند الله يخضع لحساباتنا وأوهامنا، لا لطفه ورحمته، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٤]، ولا قهره وغضبه، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾.
- يتصرّف الله سبحانه في قلوب الخلق، فتارةً ينزل عليها السكينة والاطمئنان، ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، وأخرى يلقي فيها الرعب والخوف، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

التعاليم:

١ ـ غضب الله سبحانه على اليهود الذين نقضوا العهد مع رسوله ﷺ يقع ضمن إطار الحكمة، بل هو من مقتضياتها، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ﴾.

٢ ـ من علامات العزّة الإلهيّة، تشريد اليهود الذين نقضوا العهد والميثاق، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ﴾.

٣ ـ ينبغي أن يعلم الإنسان أنّ النصر من عند الله وبحوله وقوّته، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾.

٤ ـ يجب على المسلمين التمييز بين الخونة وأهل الوفاء حتّى لو كانوا أهل قبيلة واحدة أو دينٍ واحدٍ، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥١.

(٢) إثبات الهدى، ج٧، ص١٢٤.

(٣) ورد في الخصال للشيخ الصدوق، وروي أيضاً في: تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٢٧٤.

(٤) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٥) سورة الفتح: الآية ٤.

٥ ـ النفي والإبعاد عن الأوطان، من العقوبات الإلٰهيّة، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ... مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾.

٦ ـ لا ينبغي أن يظنّ صاحب القوّة أنّ قوّته خالدة، ولا ينبغي أن يُظَنَّ في حقّه ذلك، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾.

٧ ـ عقوبة من ينقض عهوده الاجتماعيّة أن يخرج من البيئة التي يسكن فيها، ﴿أَن يَخْرُجُوا...﴾.

٨ ـ لا ينفع أيّ شيء في مواجهة الإرادة الإلٰهيّة، ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾.

٩ ـ لا ينبغي أن يكون المعيار في الإعداد للقتال محصوراً في المادّة والمادّيات من عتاد وعدد، فهناك أمور أخرى لا بدّ من إدخالها في الحساب، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾.

١٠ ـ في بعض الحالات قد يجوز تخريب بيوت الأعداء، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١١ ـ عندما تقتضي إرادة الله شيئاً يتعاون حتّى الأعداء في ما بينهم لتنفيذ الإرادة الإلٰهيّة، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٢ ـ الله سبحانه هو مسبّب الأسباب، كما هو معطّلها أيضاً، فيجعل الخوف سبباً للهزيمة، وبالخوف يبطل أهميّة الحصون والقلاع، ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

١٣ ـ مطالعة التاريخ وتقليب صفحاته، من أجل العبرة لا من أجل التسلية والمعرفة المجرّدة، ﴿فَٱعْتَبِرُوا...﴾، والتاريخ معبر وليس مستقرًّا.

١٤ ـ الاستفادة من التاريخ تحتاج إلى بصيرة، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

□ «الجلاء» هو ترك الأوطان والهجرة منها لأجل بلاء وشبهه.

□ «شاقّوا» من الشق، وهو الفصل والمواجهة والعداوة.

□ يقول سبحانه وتعالى، في سورة المجادلة الآية ٢١: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾، ويقول في هذه الآية: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾، وهذا يعني أنّ النصر وهزيمة الأعداء ورحيلهم عن الأوطان، ذلك كلّه يتمّ بإرادة الله تعالى.

□ الآية ١٣ من سورة الأنفال التي تتحدّث عن معركة بدر، تشبه الآية الرابعة من هذه السورة.

□ الله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وهذا لا يتنافى وصفه بأنه: ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، فإنّ لكلّ من الرحمة والعقوبة محلّها الخاصّ، ونقرأ في دعاء الافتتاح: «وأيقنت أنّك أرحم الراحمين في موضوع العفو والرحمة، وأشدّ المعاقبين في موضع النكال والنقمة».

التعاليم:

١ ـ النفي والإبعاد من الأوطان هو الحدّ الأدنى من العقوبة لمن ينقض العهد والميثاق، فكان يستحقّ بنو النضير عقوبةً أشدّ؛ ولكنّه سبحانه كتب عليهم الجلاء وأعفاهم ممّا هو أشدّ، ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾.

٢ ـ جلاء بني النضير بسبب خيانتهم ومعاداتهم لله ورسوله، وليس بسبب يهوديّتهم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ العقوبات الإلٰهيّة عادلة، وهي تترتّب على أعمال الإنسان، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٤ ـ مواجهة القائد المرسل من السماء، هي مواجهة لله سبحانه وتعالى، فأول الآية تحدّث عن مشاقّة الله الرسول، وأمّا في آخر الآية فاكتفى سبحانه بالإشارة إلى مشاقّة الله، ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ... يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

إشارات:

- «لينة» من اللين وهو ضدّ الخشونة، وقوله تعالى ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، أي من نخلة ناعمة[1].
- ينهى الإسلام المجاهدين عن قطع الأشجار أو تسميم مياه العدوّ؛ ولكن في بعض الحالات قد تعيق بعض الأشجار حركة المقاتلين فيصدر الأمر بقطعها، وربّما نزلت هذه الآية لرفع شكّ المسلمين في صحّة ما فعلوه أو للردّ على اعتراض اليهود.

التعاليم:

١ ـ يجب أن تكون كلّ حركة وسكون في ساحات القتال بإذن قائد القتال وتحت إشرافه، ﴿مَا قَطَعْتُم... فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٢ ـ قد تدعو بعض ضرورات القتال إلى تخريب بعض البيوت وقطع بعض الأشجار، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم... قَطَعْتُم...﴾.

٣ ـ قطع الأشجار أو إبقاؤها قائمة، له حدود وضوابط يقرّرها الله سبحانه وتعالى، ﴿مَا قَطَعْتُم... أَوْ تَرَكْتُمُوهَا... فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٤ ـ الفسق وغيره من الصفات الأخلاقيّة تترك آثارها على أموال الإنسان وثرواته، ﴿مَا قَطَعْتُم... الْفَاسِقِينَ﴾.

٥ ـ بعض الأعمال التي يراد منها الإيذاء يمكن فعلها في ساحات الحرب والقتال، ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: «لين».

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾

إشارات:

- أفاء من الفيء وهو العود، والمقصود منه في الاصطلاح ما يعود إلى المسلمين من غنائم يحصل عليها من دون حربٍ أو قتالٍ. وربّما كان سبب تسمية الغنيمة فيئاً، هو الإشارة إلى أنّ هذه الأموال بالغنيمة عادت إلى أصحابها الحقيقيّين، وذلك لأنّ الوجود كلّه لله تعالى وهو قد خلقه من أجل أوليائه.
- «أوجفتم» من الوجيف وهو سرعة السير، وأوجفت البعير أسرعته. والخيل الحصان والفرس، والركاب الجمل.
- الأموال التي يجوز للمسلمين التصرّف فيها، على أنواع:

أ - الأموال التي يغنمها المسلمون في القتال، فهذه يملكها المجاهدون بعد إخراج الخمس منها.

ب - الأموال التي يحصلون عليها من دون قتال، وهي ما يسمّى بالفيء وهو ما تتحدّث عنه الآية.

ج - الأموال التي ليس لأحد يد عليها كالجبال والأودية والآجام، وهي ما يسمّى بالأنفال وقد ورد حكمها في أوّل سورة الأنفال.

- يستفاد من هذه الآية أنّ الأموال التي يحصل عليها المسلمون من دون قتال، لا يملكها المسلمون، وإنّما تدخل تحت صلاحيّة النبيّ ﷺ وهو الذي يتصرّف فيها بحسب ما يراه من المصلحة.
- أحكام الإسلام تتوافق مع الحكمة فعندما يتعب المجاهدون لا يحسن حرمانهم من الغنيمة، وأمّا عندما تُنال الغنيمة من دون تعبٍ فيمكن إعطاء صلاحيّة التصرّف فيها إلى النبيّ ﷺ.

التعاليم:

١ ـ في المسائل الماليّة، حتّى النبيّ ﷺ لا يحوز التصرّف من دون إذنٍ إلهيٍّ، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

٢ ـ لا يتوقّف النصر دائماً على القتال والحرب، فقد ينصر الله أولياءه من دون قتال، ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾.

٣ ـ السلطة بحدّ نفسها لا قيمة لها، وإنّما تكسب قيمتها من مصدرها ومن الآذن بها، ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾.

٤ ـ عندما يريد الله لا يقف شيء في وجه إرادته، لا الحصون ولا القلاع ولا غيرها، ﴿مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم... وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾

إشارات:

- «دولة» من التداول وهو الانتقال من يدٍ إلى يدٍ.
- ورد الأمر بالدعم الاقتصاديّ لأهل بيت النبيّ في القرآن أربع مرّات، وذلك بعنوان الخمس أو غيره من العناوين، وذلك في الآيات الآتية: ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1]، ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[2]، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[3]، ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[4].
- في الآية السابقة هدّد الله سبحانه الذين يشاقّون الرسول بشدّة العقاب، وفي هذه الآية أشير إلى شدّة العقاب في حقّ من ربّما يعترض على تقسيم النبيّ ﷺ للفيء.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.
(٢) سورة الحشر: الآية ٧.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٢٦.
(٤) سورة الروم: الآية ٣٨.

□ في هذه الآية أشار الله سبحان إلى الحكم أولاً: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى...﴾، ثمّ بيّن سبب الحكم وحكمته، ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً...﴾، وختمت الآية بالدعوة إلى الالتزام بأوامر النبيّ ونواهيه.

□ أشار الله في حقّ أهل البيت عليهم السلام، إلى الارتباط بهم معنوياً، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]، كما دعا إلى دعمهم اقتصادياً ومالياً، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ... وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

□ تتحدّث هذه الآية عن ستة مصارف للفيء، ولكنّ المفسّرين والفقهاء لا يحكمون بوجوب القسمة على هذه المصارف بالتساوي.

□ الفيء من صلاحيّات المنصب لا من صلاحيّات الشخص فبعد النبيّ ﷺ تعود صلاحيّة التصرّف في الفيء إلى الإمام الواجب الطاعة.

التعاليم:

١ ـ أحكام الإسلام ليست خاصّةً بزمان بعينه وإنّما هي عامّة لكلّ زمانٍ ومكانٍ، فقانون الفيء ليس خاصاً ببني النضير، بل ينطبق على كلّ الأموال التي يتركها أهلها، وكلمة «ما» وكلمة «القرى» فيهما بعض الدلالة على العموم، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾.

٢ ـ أموال الكافرين الذي يفرّون ويتركون أموالهم، تدخل ضمن صلاحيّات القائد الدينيّ الشرعيّ، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

٣ ـ النظام الإسلاميّ بحاجة إلى الدعم المالي والاقتصاديّ، ومن الموارد الاقتصاديّة في الإسلام الفيء وهو الأموال التي يتركها الكفّار من دون حربٍ أو قتال، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ....﴾.

٤ ـ من آداب الكلام تقديم الأهمّ على المهمّ، ومن هنا تشير الآية إلى الله أولاً ثمّ إلى الرسول ثم من بعده، ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

٥ ـ سهم الله يتصرّف فيه النبيّ ﷺ بما يرضي الله، ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ...﴾.

٦ ـ رفع الفقر من الأمور التي يعطيها الإسلام أولويّةً وعناية، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾.

٧ ـ إذا كان الله يمنع حصر تداول الثروة بين المسلمين، فإنّه يطريق أولى يمنع حصر تداولها بأيدي الكفّار، ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ...﴾.

٨ ـ على الذين يخطّطون ويديرون اقتصاد المجتمعات أن يجعلوا ضمن برامجهم أن لا ينحصر تداول الثروة بين فئة محدّدة وطبقة اجتماعيّة دون غيرها، ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ...﴾.

٩ ـ لا تجوز طاعة أيّ كان من الناس مطلقاً من دون قيدٍ أو شرطٍ، حتّى النبيّ ﷺ لولا عصمته لما وجبت طاعته، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾.

١٠ ـ يجب تطبيق سنّة النبيّ ﷺ وتنفيذها، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾.

١١ ـ ليس من الضروريّ أن ينصّ القرآن الكريم على جميع الأوامر والنواهي، بل قد نعرف بعضَ الواجبات والمحرّمات من النبيّ ﷺ، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

١٢ ـ علينا المسارعة إلى تنفيذ أوامر النبيّ ﷺ، ﴿فَخُذُوهُ... فَٱنتَهُوا۟﴾، الفاء تدلّ على التعقيب من دون تراخٍ.

١٣ ـ القضايا والمسائل الماليّة مزلّة للأقدام؛ ولذلك لا بدّ من التسلّح بالتقوى عند الخوض فيها، ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٤ ـ طاعة الرسول من دون تردّد أو تلكّؤ، من علامات التقوى، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ... وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

١٥ ـ قلّة التقوى يترتّب عليها العقاب الشديد، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

١٦ ـ التذكير بالعقاب الشديد، يدعو الإنسان إلى التقوى، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾

إشارات:

❑ هذه الآية بمنزلة الشرح للمصارف الستة التي وردت الإشارة إليها في آية سابقة، وفيها لفت ودعوة إلى الاهتمام بنوع خاصّ من الفقراء وهم الذين أصابهم الفقر؛ بسبب هجرتهم إلى الله ورسوله.

التعاليم:

١ ـ حتّى لو كان الفقراء لا يتوقّعون منّا أي شيء، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، علينا أن نجعل لهم سهما في أموالنا، ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾.

٢ ـ التعلّق بالأوطان حقّ طبيعيّ وإلهيّ، يمكن متابعته والتعويض عنه، ﴿أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾.

٣ ـ الأشخاص الذين يدّعون الإيمان بصدق، يدافعون عن النبيّ ويحمون رسول الله ودين الله، على الرغم من الفقر والتشرّد والبعد عن الأوطان، ﴿لِلْفُقَرَآءِ... أُخْرِجُوا۟... وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ... هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

٤ ـ الكمالات والصفات الأخلاقيّة التي تستحقّ المدح والثناء، هي الصفات والكمالات الثابتة، ﴿يَبْتَغُونَ... يَنصُرُونَ﴾، (الفعل المضارع يدلّ على الاستمرار).

٥ ـ الدنيا تكون جميلة وذات قيمة، عندما تقترن بالآخرة، ﴿فَضْلًا... وَرِضْوَٰنًا﴾.

٦ ـ المخلصون يرون ما ينالونه من نصيب في الدنيا لطفاً وتفضلاً من الله وليس حقاً، فلا يرون لأنفسهم حقّا على الله، ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ الصدق والوفاء يعرف بالعمل لا بالشعارات والكلام، ﴿وَيَنصُرُونَ... ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾

إشارات:

- تبوّأ من البواء وهو النزول في المكان. والخصاصة هي الفقر الذي لم يسدّ. و«يوق» من الوقاية بمعنى الحماية. و«الشحّ» هو بخل مع حرص.
- بعد أن أوصى الله بالاهتمام بفقراء المهاجرين، أثنى على الأنصار الذين آثروا إخوانهم على أنفسهم، وأحبّوهم وشاركوهم في بيوتهم وأموالهم.
- ورد في بعض الروايات أنّ الإمام الجواد عليه السلام، بقي يدعو طوال الليل، ويقول: **«اللهم قني شحّ نفسي»**. فاستفسر منه السامع عن حصر الدعاء بهذا الأمر، فقال: **«فأي شيء أشدّ من الشحّ»**. وفي الحديث: **«لا يجتمع الشحّ والإيمان في قلب رجلٍ مسلم»**[1].
- الإيثار صفة من صفات الكمال الأخلاقيّ؛ ولكن لا يجوز أن يخرج الإيثار عن حدّه المعقول، كما يوصي الله سبحانه وتعالى في الآية ٦٧ من سورة الفرقان، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، وقد ورد مثل هذا المعنى في عددٍ من الروايات عن الأئمة عليهم السلام.

التعاليم:

١ ـ التمهيد لخدمة الناس من الأعمال التي تستحقّ الثناء والمدح، ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾.

٢ ـ لا يحسُن المرء إلا حسنُ ظاهره وباطنه، ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ﴾.

٣ ـ لا حد ولا حدود لمحبّة أهل الإيمان، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٣٩٢.

٤ ـ الثناء على من يستحقّ الثناء والمدح أمر مطلوب ويحسن فعله، ﴿يُحِبُّونَ... وَيُؤْثِرُونَ﴾.

٥ ـ الصداقة التي تدوم هي الصداقة المبنيّة على الخصال الحميدة، لا الصداقة المؤسّسة على الانتماء القبليّ أو الطبقي أو غير ذلك، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ﴾.

٦ ـ لا قيمة للتظاهر بالكمال، بل الكمال الحقيقيّ والواقعيّ هو الكمال المستقرّ في الأعماق، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾.

٧ ـ على القائد والمربّي أن يكون متوازناً فعندما يثني على جماعةٍ، لا ينبغي له أن ينسى الجماعة المنافسة. ففي الآية السابقة أشار الله إلى المهاجرين وأثنى عليهم، ثمّ عقّب بعدها بالثناء على الأنصار ومدحهم، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ...﴾.

٨ ـ إكرام الضيف وإظهار الحبّ له من مكارم الأخلاق؛ ولكنّ الأحسن منه إكرام المهاجرين لأنّ الضيف يقيم أيّاماً ويغادر، وأمّا المهاجر فليست مغادرته باختياره، فقد يطول به المقام، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

٩ ـ ينبغي مراعاة المقامات في سياق الثناء على الأشخاص والجماعات، فالمهاجرون أوّلاً في الآية السابقة، والأنصار أولاً في هذه الآية، ثم بعدهما ورد الثناء على التابعين.

١٠ ـ يثني الله على الذين لا يعرف الحسد إلى قلوبهم طريقاً. (والحسد يظهر عادةً عند تقسيم الأموال والمكاسب، ويخبرنا الله عن قسمة الفيء بين المهاجرين وحدهم، ومع ذلك لم تظهر أمارات الحسد على الأنصار)، ﴿لَا يَجِدُونَ... حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾.

١١ ـ كرم الأخلاق وسعة الأفق والرؤية، من الأمور الممدوحة في القرآن الكريم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾.

١٢ ـ إظهار المودّة على الرغم من أنّه يطيّب خاطر المودود، ولكن الأهم هو المودّة العمليّة، ﴿يُحِبُّونَ... وَيُؤْثِرُونَ﴾.

١٣ ـ العطاء مع الحاجة أرقى وأهمّ من العطاء مع الاستغناء، ﴿وَيُؤْثِرُونَ... وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

١٤ ـ الخلوص من البخل، من مقدّمات الفلاح، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ... هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٥ ـ البخل من الأخلاق الراسخة في النفس الإنسانيّة. فمن يستيطع التخلّص من البخل لا يجود بماله فحسب، بل يصبح مستعداً للجود بنفسه، ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾.

١٦ ـ لا يمكن أن يفوز البخيل أو يفلح، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

١٧ ـ الخلاص من خلق البخل يحتاج إلى المدد الإلٰهيّ. ومن هنا وردت كلمة «يوق» مبنية للمجهول، وربّما كان الفاعل هو الله.

١٨ ـ تتوقّف كثير من الكمالات على التخلّص من البخل. ومن هنا وردت جملة ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾، بمثابة المفتاح للفلاح والفوز.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

إشارات:

□ أثنى الله سبحانه على المهاجرين في آيةٍ، وعلى الأنصار في آيةٍ أخرى، وعلى التابعين في هذه الآية، وكلمة «تابعين» ربّما تشمل كل من أتى بعد المهاجرين والأنصار وآمن بالنبيّ ﷺ.

□ ذكرت الآيات من ٨ إلى ١٠ من هذه السورة إلى أسباب الوحدة، وهي:

١ ـ المحبّة، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

٢ ـ الإيثار، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٣ ـ الدعاء، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا...﴾.

٤ ـ الخدمة، ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾.

٥ ـ ترك الحرص والحسد، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾.

٦ ـ ترك البخل، ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾.

٧ ـ الأخوّة، ﴿ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾.

٨ ـ سعة الصدر والتجرّد من الحقد، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

المغفرة والاستغفار:

ورد ذكر المغفرة والاستغفار في القرآن الكريم أكثر من مئتي مرّة. فدعينا إلى أن نستغفر الله سبحانه ونطلب المغفرة منه، كما دُعينا إلى أن نطلب من أولياء الله أن يستغفروا لنا الله سبحانه، ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾[1] والملائكة يستغفرون للمؤمنين، ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2]، نعم الإيمان من شروط المغفرة، فالاستغفار للمشركين والكفّار لا يجدي ولا يقبله الله، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[3] و﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[4].

وللمغفرة أسباب تساعد على تحققها، منها:

١ ـ طاعة القائد الإلٰهيّ، ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[5].

٢ ـ التقوى، ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... يَغْفِرْ لَكُمْ﴾[6].

٣ ـ العفو والصفح عن الناس، ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[7].

٤ ـ الكلام المقرون بالدليل والبرهان، ﴿وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا... يَغْفِرْ لَكُمْ﴾[8].

٥ ـ القرض الحسن، ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ... يَغْفِرْ لَكُمْ﴾[9].

٦ ـ التوبة والاستغفار، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[10].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٧.
(٢) سورة غافر: الآية ٧.
(٣) سورة المنافقون: الآية ٦.
(٤) سورة التوبة: الآية ١١٣.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٣١.
(٦) سورة الأنفال: الآية ٢٩.
(٧) سورة النور: الآية ٢٢.
(٨) سورة الأحزاب: الآيتان ٧٠ و٧١.
(٩) سورة التغابن: الآية ٥.
(١٠) سورة النساء: الآية ١١٠.

التعاليم:

١ ـ المذهب والدين الكامل، هو الذي يلحظ في خططه وبرامجه، أتباعه الآتين في المستقبل، فيخطّط لرشدهم وتكاملهم، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾.

٢ ـ علينا أن نبدأ بالاستغفار لأنفسنا، ثمّ الاستغفار للآخرين، وذلك من أجل أن لا يُفهم أننا ننزّه أنفسنا عن الحاجة إلى المغفرة، ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾.

٣ ـ المؤمن ليس بالضرورة أن يكون معصوماً، فقد يرتكب المعصية، ولكنّ الفرق بينه وبين غيره من الناس أنّه لا يؤجّل التوبة والاستغفار، بل يبادر إليهما فور صدور الزلل منه، ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾.

٤ ـ من أخلاق الإسلام وآدابه، الدعاء للأسلاف السابقين إلى الإيمان، وطلب المغفرة لهم، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ... ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

٥ ـ المسلمون إخوة في ما بينهم، ويدعو بعضهم لبعضهم الآخر، ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

٦ ـ السبق إلى الإيمان من الفضائل في نظام القيم الإسلاميّ، ﴿سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

٧ ـ الأخوّة الحقيقيّة هي الأخوة في الإيمان، ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

٨ ـ الأخوة الدينيّة، لا تخضع لمعايير الزمان والمكان، والعرق واللون وغيرها، ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

٩ ـ على المؤمن أن يطهّر قلبه من رجس الحقد بالدعاء للآخرين وتمنّي الخير لهم، ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ... وَلِإِخۡوَٰنِنَا... وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١٠ ـ المؤمن لا يمكن أن يتمنّى الشرّ للآخرين، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١١ ـ لا يستطيع الإنسان تهذيب نفسه وبناءها من دون الاستعانة بالله سبحانه، ﴿رَبَّنَا... وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا﴾.

١٢ ـ لا بدّ لتحقّق الإصلاح من البدء من الجذور، فالحسد والغلّ والعداوة هي سبب كثير من المعاصي والآثام، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾.

١٣ ـ الالتفات إلى ربوبيّة الله ورأفته ورحمته من الآداب الدينيّة ومن العوامل المساعدة على استجابة الدعاء، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ... إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)﴾

إشارات:

- بعد أن أثنى الله على المهاجرين والأنصار والتابعين في الآيات السابقة، بدأ في هذه الآية برسم الصورة المقابلة تماماً لتلك الفئات، وهي صورة المنافقين، فالجماعات الأولى تدعو إلى المغفرة، وهؤلاء يدعون إلى التمرّد والعصيان.
- يحدّثنا المفسّرون عن وعود ضربها المنافقون لليهود الذين نقضوا عهدهم مع النبيّ ﷺ، فوعدوهم بالوقوف إلى جانبهم في أي مواجهة قد يقدم عليها المسلمون.
- بالنظر إلى الآية التي نصّت على ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، يظهر أنّ الأخوّة بين المنافقين واليهود أخوّة ظاهريّة وصوريّة فحسب، ﴿لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾، فالأخوّة الحقيقيّة يترتّب عليها المواساة والنصرة والإيثار، كما كان بين المهاجرين والأنصار، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، وأمّا الأخوّة الظاهريّة فلا تتجاوز الادّعاء واللسان والوعود الكاذبة، ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ ينبغي بقائد المجتمع الإسلاميّ، أن يكون على علمٍ بالعلاقات التي تربط المنافقين بالأعداء الخارجيّين، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

٢ ـ كانت توجد بين المنافقين واليهود في صدر الإسلام علاقات خفيّة تتضمّن الخيانة، وكان المنافقون يحرّضون اليهود على العداوة ويعدونهم بالنصرة إن

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

هم احتاجوا إليها في مواجهة المسلمين، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا...﴾.

٣ ـ المنافقون والكفّار إخوة، ﴿نَافَقُوا... لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

٤ ـ لم يقف أهل الكتاب جميعاً صفًّا واحداً ضدّ الإسلام والمسلمين، بل فعل ذلك جماعة منهم دون الآخرين، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

٥ ـ يعتمد المنافق أسلوب التأكيد والجزم في خطابه، من أجل جعل المخاطب يصدّق وعوده، ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ... لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾.

٦ ـ المنافق على الرغم من أنّه يعيش في المجتمع الإسلاميّ، فإنّه غير مستعد لطاعة القائد الإسلامي في القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة، ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢)﴾

التعاليم:

١ ـ معرفة المؤمنين بهزيمة الكفّار، وبعدم ثبات المنافقين على مواقفهم وعدم التزامهم بعهودهم، يؤدّي إلى رفع روحهم المعنويّة، ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ... لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾.

٢ ـ لا ينبغي أن نخشى أبواق المنافقين، وقوّة دعايتهم الإعلاميّة، فهم على الرغم من كلّ ما يظهرونه من قوّة الموقف فإنهم سرعان ما يفرّون عندما تقتضي الظروف الثبات، ﴿لَا يَخْرُجُونَ... لَا يَنْصُرُونَهُمْ... لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾.

٣ ـ قلّة الوفاء عند المنافقين تصل إلى أقصى الحدود، فهم لا يلتزمون بوعودهم لأشدّ لإخوانهم الكافرين، ﴿لَا يَخْرُجُونَ... لَا يُنْصَرُونَ﴾.

٤ ـ عاقبة النفاق الذلّ والخزي، ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

❑ «الرهبة» هي الخوف العميق الذي يضرب أعماق النفس، ويتجلّى في مقام العمل.

❑ هذه الآية بمثابة الدليل والبرهان على الآية السابقة، فالمنافقون لا يثبتون في ساحات الوغى ولا ينصرون إخوانهم، وذلك لأنّهم لا يؤمنون بالله، وهم في الواقع يخافون بريق سيوف المسلمين أكثر من خوفهم الله تعالى.

التعاليم:

١ ـ المؤمن له هيبة ورهبة، وهو صاحب أبّهة وعزّ، ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ من علامات النفاق، الخوف من الناس أكثر من الخوف من الله، ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ لا يفهم المنفاقون وأنّى لهم أن يفهموا، أنّ مصدر عزّة المسلمين ومنشأ شوكتهم هو إيمانهم بالله وارتباطهم به، ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

٤ ـ الخوف من الناس بدل الخوف من الله، ينشأ من التفكير السطحيّ وخفّة العقل، ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً... لَا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

❑ «القرى» جمع قرية، وهي محلّ اجتماع الناس للسكن والاستقرار، و«محصّنة» من الحصن وهو السور أو الخندق أو حول المدينة، أو أبراج المراقبة أو غيرها ممّا يعطي المدينة حصانة في مواجهة العدوّ.

□ أهمّية الوحدة وبركاتها تظهر بأدنى مستوى من التفكّر والتأمّل؛ ولذلك يختم الله سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾. أمّا معرفة أنّ زمام الأمور كلّها بيد الله وأنّ على الإنسان أن لا يخاف من ما سوى الله، فهو من الأمور التي لا تدرَك إلا بعد الوصول إلى التوحيد الخالص، وبالتالي تحتاج إلى مستوى أعمق من الفهم وهو الفقه؛ ولذلك ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ تقويم الروح المعنويّة للأعداء وحلفائهم، من الأساليب المهمّة في المواجهة، ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا... تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعًا و...﴾.

٢ ـ على المسلمين أن لا يسمحوا للمنافقين بالتحصّن في مناطق خاصّةٍ بهم؛ لأنّ ذلك يجعل خطرهم جدّياً عند أيّ مواجهة للمسلمين معهم أو مع غيرهم من الأعداء، ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ... إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ﴾.

٣ ـ لا قيمة للتحالفات والاتحادات التي لا تبنى على أسس إيمانيّة ومعنويّة، ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾.

٤ ـ التجهيزات المادّية والعسكريّة الدفاعية والهجوميّة لا تحقّق الأمن، فالكفّار على الرغم من كل ما يتوفّرون عليه من تحصينات، لا يتمتّعون بالأمن الداخلي، بل إنّ أسباب الصراع بينهم قائمة، ﴿قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ... بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ﴾.

٥ ـ ينبغي بوسائل الإعلام الإسلاميّة والقيادات، أن تحقّر المنافقين وتكشف عن حقيقتهم، ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ... قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾.

٦ ـ الاختلاف في حالة الحرب، من علامات قلّة العقل، أو من نتائجها، ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا... وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ... لَا يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾

إشارات:

□ الوبال، العواقب والآثار السيّئة لأيّ أمرٍ.

□ لا يلدَغ المؤمن من جحر مرّتين، ولكنّ بني النضير لدِغوا من المنافقين أكثر من مرّة، وصدّقوا وعودهم التي سبق أن أعطوها لأهل ملّتهم من بني قينقاع.

التعاليم:

١ ـ يعرف واقع الأشخاص والجماعات ومستقبلهم، من التعرّف على ماضيهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

٢ ـ ينبغي بقائد المجتمع الإسلاميّ، أن يعرف تاريخ الأقوام والجماعات التي يمكن أن تؤثّر على المجتمع الإسلاميّ، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

٣ ـ في الدعوة والتبليغ يحسن ضرب الأمثلة، ولكن ليس أيّ أمثلة بل الأمثلة القريبة إلى عقول المخاطبين، ﴿قَرِيبٗاۖ﴾.

٤ ـ البلايا الماديّة تجلٍّ من تجلّيات الغضب الإلٰهيّ، ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾.

٥ ـ للتاريخ قوانين وسنن ثابتة لا تقبل التغيير. فإذا انطبق أحد قوانينه على الكفّار في حالة من الحالات، ينطبق على غيرهم إذا فعلوا ما فعلوه حتّى لو كانوا مسلمين، ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾.

٦ ـ البلايا والمصائب التي قد تصيب الإنسان، هي من آثار علمه ومن صنع يمينه، ﴿وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾.

٧ ـ التعاون مع المنافقين، له آثاره السيّئة في الدنيا كما له عقوبته في الآخرة، ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾

إشارات:

□ هذه الآية تقع في سياق تتميم الآيات السابقة، يشبّه الله فيها عدم وفاء المنافقين بوعودهم، بعدم وفاء الشيطان بوعوده، فليست وعوده إلا كالبرق الخلّب، وما أكثر الأشخاص بل الدول الشيطانية التي تعد أنصارها، ثمّ تتركهم عند الأزمات يواجهون مصيرهم بأنفسهم.

❑ يروي المفسّرون عن ابن عبّاس عند تفسير هذه الآيات، قوله: إنّه كان في بني إسرائيل عابد اسمه برصيصا عَبَدَ الله زماناً من الدهر، حتّى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوذهم فيبرأون على يده، وقد جهد الشيطان في إغوائه فأعيته الحيلة، إلى أن أتِي بامرأةٍ في شرف قد جُنّت وكان لها إخوة فأتَوه بها فكانت عنده فلم يزل به الشيطان يزيّن له حتّى وقع عليها، فحملت فلما استبان حملها قتلها ودفنها، فلما فعل ذلك ذهب الشيطان حتّى لقيَ أحدَ إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب وأنه دفنها في مكان كذا، ثمّ أتى بقيّة إخوتها رجلا رجلا فذكر ذلك له، فجعل الرجل يلقى أخاه فيقول والله لقد أتاني آتٍ فذكر لي شيئاً يكبر عليّ ذكره، فذكر بعضهم لبعضٍ حتّى بلغ ذلك ملكهم فسار الملك والناس فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذي فعل، فأمِر به فصلِب فلما رفِع على خشبته تمثّل له الشيطان فقال أنا الذي ألقيتك في هذا فهل أنت مطيعي في ما أقول لك أخلصك ممّا أنت فيه؟ قال: نعم، قال: اسجد لي سجدةً واحدةً، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة؟ فقال: أكتفي منك بالإيماء فأومى له بالسجود فكفر بالله، وقتل الرجل فهو قوله، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾. ضرب الله هذه القصة لبني النضير حين اغتروا بالمنافقين ثم تبرأوا منهم عند الشدة[(١)].

❑ يستخدم الشيطان لكلّ امرئ وسيلة خاصّة به لإغوائه وحرفه عن الجادّة:

ـ فعابد بني إسرائيل أغواه الشيطان من باب العبادة، إذ تصنّع العبادة أمامه وأقنعه بأنّ قدرته على العبادة ناتجة من ارتكابه الزنا مرّة وتوبته بعد ذلك، فدعاه ذلك إلى خوض التجربة.

ـ قارون أغوته ثقته الزائدة بنفسه وبقدرته على إدارة الأموال والتجارة، ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[(٢)].

---

(١) مجمع البيان، ج٩، ص٣٩٦؛ تفسير القرطبي، ج١٨، ص٣٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٧٨.

- بلعم بن باعوراء غرّته معرفته بالاسم الأعظم، ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[١].
- والسامريّ أغوته معرفته واطّلاعه على ما لا يعرفه غيره من الناس، ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟﴾[٢].
- وبعض الناس تغرّهم أموالهم وثرواتهم، : ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾[٣].
- ومن الناس من يغترّ بأبنائه، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾[٤].
- وبعض الناس تغويهم السلطة، ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾[٥].
- وآخرون تضلّلهم قدراتهم الدفاعية وحصونهم، فيحسبون أنّها تجعلهم في مأمن من غضب الله، ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾[٦]، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[٧].

وجوه الشبه بين المنافقين والشيطان:

١ ـ كلاهما عدوٌّ للإنسان، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٨]، ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾[٩].

٢ ـ كلاهما يدعو الإنسان إلى الفحشاء والمنكر، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[١٠]، ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾[١١].

٣ ـ على الإنسان أن يتجنّبهما معاً، ﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[١٢]، ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾[١٣].

٤ ـ كلاهما له ظاهر مخادع يختلف عن باطنه، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ... قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ﴾، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾[١٤].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٥.
(٢) سورة طه: الآية ٩٦.
(٣) سورة التوبة: الآية ٧٦.
(٤) سورة المدثر: الآية ١٣.
(٥) سورة الزخرف: الآية ٥١.
(٦) سورة الفجر: الآية ٩.
(٧) سورة الشعراء: الآية ١٤٩.
(٨) سورة يس: الآية ٦٠.
(٩) سورة المنافقون: الآية ٤.
(١٠) سورة البقرة: الآية ٢٦٨.
(١١) سورة التوبة: الآية ٦٧.
(١٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.
(١٣) سورة المنافقون: الآية ٤.
(١٤) سورة البقرة: الآية ١٤.

٥ ـ كلاهما يستغلّ الشعارات البرّاقة والتظاهر بإرادة الخير لإغواء مخاطبه، ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾[1]، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[2].

٦ ـ المحلّ المناسب لكليهما هو النار، ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[4].

التعاليم:

١ ـ من وسائل التأثير في المخاطب، الإشارة إلى أكثر من نموذج ومثال للفكرة التي يراد إيصالها إليه، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾.

٢ ـ وسوسات المنافقين تشبه وسوسات الشيطان وتسويلاته، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ... كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

٣ ـ لا يفعل الشيطان أكثر من دعوة الإنسان إلى الانحراف، وأمّا الانحراف فهو من فعل الإنسان الذي يستجيب الدعوة، ﴿ٱكْفُرْ... فَلَمَّا كَفَرَ﴾.

٤ ـ الشيطان لا يرافق الإنسان أكثر من نصف الطريق، ﴿ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ﴾.

٥ ـ يتجاوز الإنسان الشيطاني الحدود المعقولة ويصل إلى حدّ يتبرّأ الشيطان منه ويرى نفسه غير قادر على مجاراته، ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾.

٦ ـ يبرّر الشيطان والمنافقون عدم وفائهم بوعودهم بدعوى الخوف من الله، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، وهكذا يتّضح أنّ عاقبة النفاق والكفر النار والخلود فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

إشارات:

❑ يكرّر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الأمر بالتقوى، وهذا يفيد التأكيد،

---

(١) سورة طه: الآية ١٢٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ١١.
(٣) سورة الحشر: الآية ١٧.
(٤) سورة النساء: الآية ١٤٥.

ومضافاً إليه يمكن أن يدلّ التكرار على المعاني الآتية:

١ ـ الدعوة الأولى تتعلّق بأصل العمل، والثانية تتعلّق بكيفيّة أدائه.

٢ ـ الدعوة الأولى هي دعوة إلى فعل الخير، والثانية هي دعوة إلى ترك المحرّمات.

٣ ـ وربّما تكون الدعوة الأولى دعوة إلى التوبة، والثانية دعوة إلى التزوّد للآخرة.

❏ عن الإمام الصادق عليه السلام، عن رسول الله ﷺ: «تصدّقوا ولو بصاع من تمر، ولو ببعض صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، ولو بشقّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيّبة، فإنّ أحدكم لاقي الله فيقال له: ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أجعلك سميعاً بصيراً؟ ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فيقول: بلى. فيقول الله تبارك وتعالى: فانظر ما قدّمت لنفسك. قال، فينظر قدّامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله، فلا يجد شيئاً يقي به وجهه من النار»[1].

التعاليم:

١ ـ الإيمان هو الأرضيّة المساعدة على التقوى، والتقوى هي الشرط الذي يرتّب النفع على الإيمان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ﴾.

٢ ـ على الإنسان أن لا يراهن على فعل ورثته الخير له، بل عليه أن يفكّر هو نفسه في آخرته، ويعدّ العدّة لها، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

٣ ـ علينا أن ننعم النظر في ما ندّخره لآخرتنا بوصفه عملاً صالحاً، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾.

٤ ـ محاسبة النفس من الواجبات، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ (فإذا لم ننظر اليوم ونتأمّل فسوف نشعر بالخجل والحياء يوم القيامة من تقصيرنا)، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[2].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٥، ص٣١٣.

(٢) سورة النبأ: الآية ٤.

٥ ـ ليس يوم القيامة بعيداً، ﴿لِغَدٍۖ﴾؛ (وفي محلٍّ آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1].

٦ ـ بُعد النظر والتفكير في العاقبة، من لوازم الإيمان، ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾.

٧ ـ التقوى من دواعي محاسبة النفس، ومحاسبة النفس سبب للرشد وتمتين حالة التقوى. (فقد ورد قوله تعالى ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ بين أمرين بالتقوى).

٨ ـ لا ينبغي أن يعدّ الإنسان نفسه في مأمنٍ في أيّ فترة من فترات حياته، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ... وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾.

٩ ـ الإيمان بخبرة الله وسعة علمه، من العوامل المساعدة على التقوى، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ... إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ﴾

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

إشارات:

- المنافقون هم أبرز مصاديق الذين نسوا الله. يقول الله سبحانه في الآية ٦٧ من سورة المنافقين: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾، ومن الواضح أنّ الله سبحانه لا ينسى ولا يغيب عن علمه شيء، والمراد هو أنّه يحجب عنهم لطفه وكرمه، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[2].

- الغفلة من أخطر الآفات التي تصيب الإنسان. يحكم الله على بعض الناس بأنّهم أسوأ حالاً من البهائم، فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[3]، وعليه فإنّ الغفلة عن الله، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾[4]، والغفلة عن يوم القيامة، ﴿نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[5]، والغفلة عن آيات الله، ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ﴾[6]، تؤدّي إلى سقوط الإنسان في حضيض الحيوانيّة، بل إلى ما دونها.

---

(١) سورة المعارج: الآية ٦.
(٢) سورة مريم: الآية ٦٤.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.
(٤) سورة التوبة: الآية ٦٧.
(٥) سورة ص: الآية ٢٦.
(٦) سورة طه: الآية ١٢٦.

- الإنسان الذي ينسى الله، هو إنسان ضلّ الطريق، وفقد القائد، والهدف، والقانون، وهو إنسان غارق في الشهوات، وهو أسير الشهوات والرغبات في كلّ أعماله، وهذا من أخطر ما يهدّد الإنسان.

من ينسى لطف الله، يدخل نفسه في نفق اليأس. ومن ينسى عفو الله، يرى أنّ حاله لا يقبل الإصلاح، وبالتالي ييأس من نتيجة أيّ عملٍ.

ومن ينسى القائد الإلٰهيّ، يعطي زمام قياده إلى الطاغوت فيجرّه إلى الانحراف والضلال. ومن ينسى القانون الإلٰهيّ، يتبع كلّ ناعقٍ، ويدخل في آتون الأفكار الضالّة. ومن ينسى طريقه، يدخل نفسه في متاهة لا يعرف من أين يدخل ولا من أين يخرج. ومن ينسى أولياءه، يتولّى من يتلاعب بمصيره. ومن ينسى نعمة الله عليه، يتملّق من يحسب أنّهم المنعمون عليه.

- ومن ينسى الله، سوف ينسى الغايات والأهداف التي خلقه الله لأجلها، ومثل هذا الشخص سوف يضيع العمر من دون جدوى.
- الإنسان مؤمن يعرف الله بالفطرة، والنسيان أمر عارض عليه، فـ«النسيان» كلمة لا تنطبق إلا على حالة العلم السابق.

التعاليم:

١ ـ المؤمن في معرض الغفلة عن ذكر الله؛ ولذلك يحتاج إلى التحذير والتذكير، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

٢ ـ الدرجة الأولى في سلم هبوط الإنسان، هي نسيان الله والغفلة عن ذكره، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ﴾.

٣ ـ العقوبات الإلٰهيّة متناسبة مع الأعمال الإنسانيّة، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.

٤ ـ المعصية والانحراف من نتائج الغفلة عن ذكر الله، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ التأنيب غير المباشر، من الأساليب التربويّة الناجحة، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ... وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا﴾.

٢ ـ القرآن كتاب إلهي، وهو كامل لا نقص فيه ولا خلل، وإذا كان من خلل فهو في قابليّات الإنسان واستعداده للاستفادة الكاملة منه، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا...﴾.

٣ ـ من أساليب القرآن في الهداية استعمال الأمثال لشرح الحقائق المعنويّة، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ...﴾.

٤ ـ الجبال على الرغم من صلابتها ومتانتها تنهدم تحت وطأة القرآن، وقلوب بعض الناس لا تهتزّ لآيات الله، وهذا يعني أن بعض القلوب أقسى من الجبال، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا...﴾.

٥ ـ الوجود الماديّ فيه شكل من أشكال الشعور والوعي، فالجبال تتأثّر بكلام الله وتخشع له، ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

٦ ـ أمثال القرآن تحتاج إلى التدبّر والتأمّل، وإلا لا يتسنّى إدراكها وفهمها، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

إشارات:

- ورد الأمر بقراءة الآيات الأخيرة من سورة الحشر في عددٍ من الروايات، وذكِر لقراءتها ثواب عظيم، وبركات جمّة، ومنها الحصول على ثواب الشهداء ومقامهم.
- قد تشتمل هذه الآيات ٢٢ ـ ٢٤ على الاسم الإلٰهيّ الأعظم؛ لأنّ فيها ما

يقرب من خمسة عشر اسماً، وبمزيد من العناية والتدقيق ربّما تصل الأسماء والصفات الإلٰهيّة المذكورة فيها إلى ثماني عشرة صفة، تشير كلّ واحدةٍ منها إلى صفة كمالٍ من كمالاته تعالى.

- ❑ المعبود الحقيقيّ، هو الوجود الذي بلغ من سعة العلم والرحمة والقداسة والعزّة والقدرة والعظمة، الحدّ الأعلى المطلق، وبما أنّ ذلك لا يتوفّر إلا في الله سبحانه، فلا أحد غيره يستحقّ أن يكون معبوداً للإنسان.
- ❑ يظهر من تتبّع موارد ذكر الغيب والشهادة في القرآن، تقدّمَ الغيب على الشهادة، والتقديم يكشف عن الأهميّة.
- ❑ عن الإمام الصادق عليه السلام، قوله: «**الغيب ما لم يكن، والشهادة ما قد كان**»[1].

التعاليم:

١ ـ الوحدانيّة من أوّل الصفات الإلٰهيّة وأهمّها، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢ ـ هو الله الذي تبحث عنه كل ذرة من ذرّات الوجود، ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾.

٣ ـ لا فرق في علم الله بين الغيب والشهود، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

٤ ـ على الرغم من أنّ الله يعلم كلّ شيء، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، فإنّه يتعامل مع عباده بالرحمة. فإذا كان علمه سبحانه مصدر خشيةٍ وخوفٍ، فإنّ رحمته مصدر الأمل والرجاء، ومن أصول التربية الإسلاميّة أن يبقى الإنسان بين حدّي الخوف والرجاء، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٥ ـ لا أحد سوى الله سبحانه يتوفّر على العلم المطلق والرحمة الواسعة التي لا حدّ لها، ﴿هُوَ... عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ... هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

---

(١) معاني الأخبار، ص١٤٦.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

إشارات:

- «ملك» هو المالك للأمر والمتصرّف فيه. «قدّوس» المنزّه عن كلّ عيبٍ ودنسٍ. «مهيمن» صاحب السلطة المطلقة التي لا تزاحمها سلطة. «جبّار» القادر على الجبر، والذي يجبر.
- «سلام» مصدر مستخدم كصفة مثل عدل بدل عادل، والسلام هو الذي يتعامل بسلامة وعافية. «مؤمن» المؤمن هو الذي يعطي الأمان من الأخطار.
- الملوك والحكّام في الدنيا، محاطون بكلّ أشكال العجز والمحدوديّة، ومع ذلك لا يأمن المحكومون شرّهم. أمّا الله فهو الحاكم المطلق، المقدّس المنزّه عن كلّ عيب ونقص في سلطته وذاته، يجمع بين إعطاء الأمان والأمن وبين السيطرة الكاملة التي لا يحدّها حدّ، وهو القادر الذي لا حدّ لقدرته، وقدرته منشأ لجبر نقص كل قدرة ناقصة.

التعاليم:

١ ـ من ينبغي أن يكون المعبود الوحيد للوجود كلّه، هو الحاكم المطلق الذي لا حدود لسلطته وحكمه، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾.

٢ ـ سلطة الله منزّهة عن كلّ نقصٍ، وملؤها القداسة، ﴿ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾.

٣ ـ لا يمكن أن يصدر عن الله أيّ شيء يضرّ مخلوقاته، ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾.

٤ ـ الله سبحانه وتعالى محيط بكلّ شيء، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾.

٥ ـ ظنون المشركين في الله أوهام باطلة، وفي غير محلّها، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

إشارات:

❑ «البارئ» هو الخالق الذي تتمايز مخلوقاته بعضها عن بعض.

❑ هذه السورة هي السورة الوحيد التي تبدأ بالتسبيح وتختتم به، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ... يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾. تنصّ الآية الأولى منها على عزّة الله وحكمته، وتنتهي الآية الأخيرة منها بوصف الله بأنّه عزيز حكيم.

التعاليم:

١ ـ الله سبحانه هو الخالق الذي لم يخلق وفق نموذج سابق يبنى عليه، بل كلّ ما خلقه الله بديع غير مسبوق، ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾.

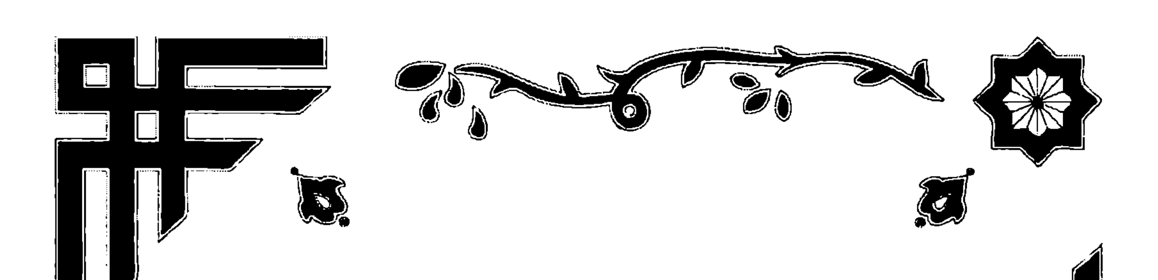
٢ ـ من هو أهل لتسبيح الوجود والموجودات كلّها، هو الموجود الحائز على الكمالات جميعاً، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ...﴾.

٣ ـ تسبيح الموجودات، يكشف عن شكلٍ من أشكال الشعور والوعي عند الموجودات كلّها، كلّ بحسبه، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٤ ـ في تسبيح الموجودات ذكرى وموعظة للناس الذين ليسوا من أهل التسبيح، ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٥ ـ قدرة الله مقرونة بالحكمة، وبعيدة عن الجور والظلم، ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»



سُورَةُ المُمتَحنَةِ

السورة: ٦٠ الجزء: ٢٨

عدد الآيات: ١٣



ملامح سورة الممتحنة

سورة الممتحنة مدنيّة، عدد آياتها ثلاث عشرة آيةً. وقد أخذت اسمها من الآية العاشرة فيها، والتي تدعو إلى امتحان النساء المهاجرات.

من أهمّ مضامين السورة الحديث عن محبّة الله، والنهي عن موالاة أعدائه، وفيها دعوةٌ للمسلمين إلى اتّخاذ النبيّ ﷺ أسوةً وأمثولةً.

توجد بين سور القرآن الكريم تسع سور تبدأ بالحديث عن معرفة العدوّ؛ وهي سور: براءة، والأحزاب، ومحمّد، والممتحنة، والمنافقون، والمعارج، والبيّنة، والكافرون، والمسد.

وعدد الآيات التي تتحدّث عن العدوّ يفوق عددَ الآيات التي تتحدّث عن الأحكام؛ فقد استخدِمت كلمة «ضلّ» مئة وتسع مرّات، وكلمة «كفر» وردت خمسمئة وإحدى وعشرين مرّةً، وكلمة «نفاق» تكرّرت في القرآن الكريم سبعاً وثلاثين مرّةً، وكلمة «صدّ» وردت خمساً وأربعين مرّةً.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١﴾

إشارات:

❑ تطلق كلمة العدوّ على الفرد وعلى الجماعة، والمراد منها هنا الجماعة؛ وذلك بقرينة المقابلة بينها وبين كلمة «أولياء»[1].

❑ المقصود من «إخراج» النبيّ ﷺ والمسلمين هو إيذاؤهم وإزعاجهم، كي يطلبوا الخلاص بالخروج من مكّة والهجرة إلى غيرها من البلاد.

❑ ورد في كتب التفسير أنّ أحد أصحاب النبيّ أعطى امرأة رسالة لتحملها إلى مشركي مكّة، يطلعهم فيها على عزم النبيّ ﷺ على فتح مكّة. وكتب في الكتاب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكّة إنّ رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم» فخرجت المرأة ونزل جبرائيل فأخبر النبيّ ﷺ بما فعل فبعث رسول الله ﷺ عليًّا وآخرين من أصحابه، وكانوا كلّهم فرساناً ـ وقال لهم: «انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها»؛ فخرجوا حتّى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحّوها وفتّشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً، فهمّوا بالرجوع فقال علي عليه السلام والله ما كُذِّبنا ولا كَذبنا، وسلّ سيفه وقال لها: أخرِجي الكتاب وإلا والله لأضربنّ عنقك، فلمّا رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها قد أخبأته في شعرها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر: الميزان في تفسير القرآن، عند تفسير الآية.

فأرسل إلى حاطب فأتاه فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم. قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكّة من يمنع عشيرته، وكنت عريراً فيهم، أي غريبا، وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتّخذ عندهم يداً وقد علمت أنّ الله ينزل بهم بأسه وأنّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه رسول الله ﷺ وعذره، فنزلت الآيات في هذه الحادثة.

واللّافت في هذه الحادثة أنّ المرأة أتت إلى المدينة تطلب المساعدة من النبيّ ﷺ. فسألها: أمسلمة جئت؟ قالت: لا. قال: أمهاجرة جئتِ؟ قالت: لا. قال: فما جاء بكِ؟ قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي، وقد ذهب مواليّ واحتجت حاجة شديدة فقدِمتُ عليكم؛ لتعطوني وتكسوني وتحملوني. قال: فأين أنتِ من شبّان مكّة؟ وكانت مغنية نائحة. قالت: ما طُلِب منّي بعد وقعة بدرٍ. وفي هذا دلالة واضحة على الانهيار النفسي الذي وصل إليه المشركون بعد هزيمة بدر. فحثّ رسول الله ﷺ عليها بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة. وساعدها على الرغم من كفرها وبقائها على الشرك[1].

ويعلم من هذه الواقعة أهميّة الحفاظ على الأسرار العسكريّة وعدم السماح بإفشائها؛ حيث نجد في بعض الروايات أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هدّدها بالقتل إن هي لم تسلّمه الكتاب الذي كانت تحمل.

معرفة العدوّ:

يحدّثنا القرآن الكريم في آياتٍ عدّةٍ عن الأعداء وخططهم ومؤامراتهم، ويوضح للمسلمين واجبهم تجاههم:

---

(١) انظر: مجمع البيان، وروح البيان، وتفسير الصافي، والمراغي، والميزان، والأمثل، على شيء من الاختلاف في الرواية.

أ ـ أفكار الأعداء وأمانيهم:

ـ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[١].

ـ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٢].

ـ ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٣] (أي ودّ الأعداء لو تلين ليصالحوك).

ـ ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾[٤] (أي تمنّوا تعبكم وألمكم).

ـ ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ...﴾[٥].

ب ـ تآمر الأعداء:

ـ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾[٦].

ـ ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾[٧].

ج ـ سلوك الأعداء:

ـ ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[٨].

ـ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٩].

ـ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾[١٠].

ـ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١١].

د ـ واجب المسلمين تجاه الأعداء:

ـ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾[١٢].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٥.
(٣) سورة القلم: الآية ٩.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١١٨.
(٥) سورة النساء: الآية ١٠٢.
(٦) سورة الطارق: الآية ١٥.
(٧) سورة النساء: الآية ٤٤.
(٨) سورة النساء: الآية ١٠١.
(٩) سورة البقرة: الآية ٩.
(١٠) سورة الممتحنة: الآية ٢.
(١١) سورة آل عمران: الآية ٧٢.
(١٢) سورة المنافقون: الآية ٤.

- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ...﴾[١].
- ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[٢].

التعاليم:

١ ـ لا يجوز للمجتمع المؤمن أن يقيم علاقات المودّة مع الأعداء، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

٢ ـ لا ينسجم الإيمان بالله، مع العلاقة الحميمة مع العدوّ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي... أَوْلِيَاءَ﴾.

٣ ـ عدوّ الله هو في الواقع وحقيقة الحال عدوّ المؤمنين، ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾.

٤ ـ على الرغم من أنّ الكفّار هم أعداؤنا، فإنَّ السبب الأصيل لمعاداتنا إيّاهم هو عداؤهم لله تعالى؛ إذ وردت كلمة ﴿عَدُوِّي﴾، قبل كلمة ﴿عَدُوَّكُمْ﴾.

٥ ـ يؤدّي التعامل مع الأعداء بمودّة ولطف، إلى ازدياد جرأتهم على الكفر ومعارضة الإسلام والمسلمين، ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾.

٦ ـ على المرشد والموجّه أن لا يكتفي بتوجيه الأوامر والنواهي، بل عليه أن يبيّن الأسباب التي دعته إلى توجيه هذا الأمر أو ذلك النهي، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... وَقَدْ كَفَرُوا... يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

٧ ـ على المسلمين أن يراعوا المفاهيم الدينيّة والأحكام الشرعيّة في علاقاتهم تأسيساً وقطيعة وانتهاءً، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

٨ ـ الدين والسياسة لا ينفصل أحدهما عن الآخر (الأمر بقطع العلاقة مع الأعداء هو أمر سياسيّ مبنيّ على فكرةٍ دينيّة)، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

٩ ـ لا يكتفي عدد من الكفّار بالاختلاف في الدين مع المسلمين، بل يسعى بعضهم إلى إخراج المسلمين من بلادهم وأرضهم، ﴿كَفَرُوا... يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

١٠ ـ عداوة الكفّار للمسلمين ناشئةٌ من إيمان المسلمين بالله، ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

١١ ـ العلاقة مع الكفّار تجوز في حالةٍ واحدةٍ، وهي حالة احترامهم لمقدّسات المسلمين، وعندما يكفّون عن التآمر على الإسلام والمسلمين، ﴿لَا تَتَّخِذُوا... وَقَدْ كَفَرُوا... يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾.

١٢ ـ يهتمّ الإسلام بعزّة المسلمين، (ومن هنا ينهى عن إقامة العلاقة مع الجماعات التي تؤدّي العلاقة بها إلى إذلال المسلمين وإهانتهم)، ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾.

١٣ ـ لا يتّسع القلب الواحد لحبّين متعارضين،﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾.

١٤ ـ ينبغي أن يكون الجهاد خالصاً لوجه الله تعالى وطلباً لرضاه، ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾.

١٥ ـ يعلم الله علاقات المؤمنين التي تقام بالسرّ مع الكفّار وغيرهم، ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾.

١٦ ـ الالتفات إلى علم الله يحول دون صدور المعاصي من المسلمين، ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾.

١٧ ـ في التربية لا بدّ من الأمر والنهي، ﴿لَا تَتَّخِذُوا...﴾، والتبرير والاستدلال، ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾، كما لا بدّ من إثارة العواطف والحثّ، ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، وأخيراً لا بدّ من التهديد أيضاً، ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾.

١٨ ـ لا يضمن كثير من المؤمنين حسن العاقبة، فربّما ينقلب بعضهم على عقبيه، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا... ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

١٩ ـ ربّ شخصٍ بدأ حياته مجاهداً، ثم انحرف نتيجة العلاقة بالأعداء إلى أسوأ العواقب، ﴿خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي... ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

٢٠ ـ تفكير بعض الناس بتحسين أوضاعهم وأحوالهم من خلال العلاقة بالعدوّ ضلال وسير بالاختيار والإرادة إلى الهاوية، ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾

إشارات:

□ «ثقف» الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله، ويقال ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذقٍ في النظر، ثمّ يتجوّز فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة.

□ عن عليّ عليه السلام في نهج البلاغة: «ولكن احذر كلّ الحذر، من عدوّك بعد صلحه، فإنّ العدوّ ربّما قارب ليتغفّل». وفي غرر الحكم: «لا تأمن عدوًّا وإن شكر»[١]. وعنه أيضاً: «لا تغترّنّ بمجاملة العدوّ، فإنّه كالماء وإن أطيل سخانه بالنار لم يمتنع من إطفائه»[٢].

□ قطع العلاقة مع الكفّار له مبرّرات عدّة، منها:

أ ـ عدم إيمانهم بدينكم، ﴿كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾.

ب ـ لا يتسامحون مع قائد المسلمين ولا مع أمّته، ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾.

ج ـ يعلنون العداء ويمارسونه عندما تحين لهم الفرصة، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ...﴾.

د ـ يؤذون المسلمين باليد واللسان، ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾.

هـ ـ يتمنّون لو أنّ المسلمين يرتدّون عن الإسلام، ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

التعاليم:

١ ـ يسعى الأعداء للسيطرة على المسلمين من جميع الجهات المتاحة، ﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾.

٢ ـ سكوت العدوّ وسكونه لا يدلّ على صداقته، بل هو يتحيّن الفرصة المناسبة للانقضاض والوثبة، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾.

٣ ـ يجمع العدوّ بين الحرب العسكريّة، ﴿يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، والحرب الثقافيّة والإعلاميّة، ﴿وَأَلْسِنَتَهُم﴾.

---

(١) غرر الحكم، الحكمة رقم: ١١١٣٦. (٢) المصدر نفسه، الحكمة رقم: ٧٦٨٩.

٤ ـ أذى العدوّ باليد واللسان نابعٌ من قلبه الحاقد وأفكاره المنحرفة، ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم... وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

٥ ـ العدوّ يجتمع ويتّحد على العداء والإضرار بالمسلمين، ﴿يَكُونُواْ... يَبْسُطُوٓاْ... وَدُّواْ﴾.

٦ ـ الهدف الأساس للعدوّ من حربه العسكريّة والثقافيّة، هو الإجهاز على الإسلام نفسه، ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

٧ ـ لن يرضى العدوّ، ولن يرفع يده عن العداء إلا إذا تخلّى المسلمون عن دينهم، ويقول تعالى في الآية ٢١٧ من سورة البقرة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾

إشارات:

- علاقة النسب من الأسباب التي تدعو بعضَ المؤمنين إلى إقامة العلاقة مع العدوّ؛ ولذلك يلفت الله تعالى نظر المؤمنين إلى أنّ القرابة والعلاقات النسبيّة لا قيمة لها يوم القيامة.
- عدم جدوى القرابة يوم القيامة، من الأمور التي وردت في القرآن الكريم أكثر من مرّة:
  - ـ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[1].
  - ـ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ صلة القرابة والعاطفة النسبيّة قد تدعو الإنسان إلى التعامل مع العدوّ: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٠١. (٢) سورة البقرة: الآية ١٦٦.

٢ ـ ما الذي يدعو إلى التعامل مع العدوّ؟ فهو على مستوى العواطف والتمنّيات يتمنّى للمؤمنين الكفر، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، وعلى مستوى اليد واللسان لا يصدر منه سوى الأذى، ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم﴾، ويوم القيامة لا يجدي نفعاً، ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾.

٣ ـ على الإنسان أن يتذكّر أنّ العدوّ الكافر لن يجدي يوم القيامة نفعاً، ليقطع الأمل منه، ويزهد في العلاقة به، حتّى لو كان قريباً ومن الأرحام، ﴿لَن تَنفَعَكُمْ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٤ ـ يفصل الله يوم القيامة بين الأقارب المؤمنين عن الكافرين، فعلى الإنسان المؤمن أن لا يلحق نفسه بهم من أجل أيّامٍ معدوداتٍ في الدنيا، ﴿أَوْلِيَاءَ... يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

٥ ـ الإيمان بعلم الله ورقابته الشاملة، من الأمور التي تحول بين الإنسان وبين المعصية، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾

إشارات:

- الأسوة من التأسّي والاتّباع.
- تقدّم أنّ الآيات السابقة نزلت في أحد الصحابة الذي تواصل مع العدوّ بهدف حماية أقاربه؛ ولذلك تدعو هذه الآية إلى تعلّم كيفيّة التعامل مع الأقارب من النبيّ إبراهيم عليه السلام.
- عندما يئس النبيّ إبراهيم عليه السلام من هداية أبيه وتحوّله من الشرك إلى الإيمان قطع صلته به، وأما استغفاره له فقد كان لوعدٍ قطعه له على نفسه، كما ورد في

الآية ١١٤ من سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

□ قدّم الله سبحانه في القرآن أسوتين من الرجال وأسوتين من النساء:

فالنموذج الأوّل من الرجال هو النبيّ إبراهيم عليه السلام، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، والنموذج الثاني هو رسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿لَّكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

ومن النساء قدّم لنا امرأة فرعون والسيدة مريم في سورة التحريم، وذلك في مقابل امرأتي نوحٍ ولوط، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ... وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾. وقد أشار الله سبحانه إلى جماعة من الناس دون أن يسمّيهم وهم أتباع النبيّ إبراهيم وذلك في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾.

هذا في القرآن وأمّا في الروايات فقد ورد مثلاً عن الإمام الحسين عليه السلام قوله: «فلكم فيّ أسوة حسنة»[2]. كما قُدِّمت الزهراء عليها السلام أسوة للمؤمنين في بعض الروايات، كما في رواية عن الإمام المهدي (عجل الله فرجه): «وفي ابنة رسول الله لي أسوة حسنة»[3].

□ خصائص النبيّ إبراهيم عليه السلام في القرآن:

١ ـ أداء الواجب والنجاح في الامتحان، ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾[4].

٢ ـ الخدمة في المسجد، ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾[5].

٣ ـ التسليم الكامل لله تعالى، ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[6].

٤ ـ الإنابة لله والصبر والحلم، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[7].

٥ ـ أمّة في رجل، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[8].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.
(٢) مقتل أبي مخنف، ص٨٦.
(٣) بحار الأنوار، ج٥٣، ص١٨٠.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٢٥.
(٦) سورة آل عمران: الآية ٦٧.
(٧) سورة التوبة: الآية ١١٤.
(٨) سورة النحل: الآية ١٢٠.

٦ ـ الوفاء وأداء الأمانة، ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[١].

٧ ـ الشجاعة والبطولة، ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[٢].

٨ ـ الهجرة إلى الله وترك الأهل والأطان، ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾[٣].

٩ ـ التضحية والإيثار، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[٤].

التعاليم:

١ ـ من الأساليب المجدية في التربية تقديم الأسوة والأمثولة الواضحة، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٢ ـ ليس الأنبياء وحدهم الأسوة، بل أتباع ومن تربّى على أيديهم أسوة أيضاً، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾.

٣ ـ مرور الزمان لا يلغي صفات الرجال التاريخيّين، فالنبيّ إبراهيم عليه السلام كان قدوةً وسوف يبقى إلى الأبد، ﴿كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

٤ ـ ليس من الواجب على القدوة الصالحة أن يتخلّى عن أقاربه وأرحامه إذا كانوا منحرفين، ويقطع أيّ صلةٍ له بهم، بل ينبغي الحفاظ على الوعود المقطوعة لهم إلى أن يأتي النهي الإلٰهيّ عن ذلك.

٥ ـ بعض القدوات حسنة، وبعضها سيّئة، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٦ ـ اتّباع الأنبياء والقادة الإلٰهيّين، من الأمور الواجبة على سائر الناس، ﴿...وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾.

٧ ـ الصراحة وصلابة الموقف تجاه المشركين قيمة ومعيار حسن للسلوك، ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾.

٨ ـ لا ينبغي أن تكون القرابة والعلاقات النسبيّة مانعاً من اتّخاذ المواقف الواجبة، ﴿قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ...﴾.

---

(١) سورة النجم: الآية ٣٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥٧.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

(٤) سورة الصافات: الآية ١٠٣.

٩ ـ معيار البراءة والتواصل والعلاقة وقطعها هو الشرك والإيمان، ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

١٠ ـ البراءة وقطع الصلة ببعض الناس ينبغي أن تبنى على خلفيّة دينيّة، لا على الانتقام والحقد الشخصيّ، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ﴾.

١١ ـ البراءة لا تتمّ بالكلمات فحسب، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ﴾، بل تتجاوز اللسان إلى القلب، ﴿كَفَرْنَا﴾، ثمّ بعده إلى العمل والسلوك، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾.

١٢ ـ ينبغي أن يكون الإيمان خالصاً من أشكال الشرك كلّها، ﴿تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

١٣ ـ قطع العلاقة بالشرك والمشركين يحتاج إلى التوكّل على الله والالتفات إلى المعاد، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ... عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

١٤ ـ التوكّل على الله لا يعني الاتّكالية والانزواء، بل يكتسب التوكّل معناه الحقيقيّ من الموقف الذي يأخذه الإنسان تجاه الأعداء المشركين، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ... كَفَرْنَا... تَوَكَّلْنَا﴾.

١٥ ـ التوكّل هو الدواء الناجع لرفع القلق؛ ومن هنا نجد أنّ المؤمنين يتوكّلون على الله بعد البراءة من المشركين، لرفع أيّ قلق أو خوف من الآثار السلبيّة التي ربّما تترتّب على قطع الصلة بالكفّار، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ... عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

١٦ ـ عليكم أن تحاربوا النفس والأنا في كلّ موقف يمكن أن يؤدّي إلى تعاظم الأنا والشخصانيّة، ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ... كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ، رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا، وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

١٧ ـ التوكّل والإنابة لا يكونان إلا على الله وإليه، ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، ﴿عَلَيْكَ﴾، ﴿إِلَيْكَ﴾، ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، ﴿أَنَبْنَا﴾.

١٨ ـ لا يرى أولياء الله أيّ قيمة ذاتيّة لأنفسهم في مقابل الله، ولا يعطون أنفسهم حقّ التصرّف وتبديل القوانين الإلٰهيّة، ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

١٩ ـ الوجود كلّه ونحن ضمنه، يسير نحو الله ويتوجّه إليه، ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾

إشارات:

- الفتنة لها في اللغة والاستعمال أكثر من معنى، فتدلّ على القتال، والعذاب، والامتحان، فإيذاء الكفّار المؤمنين امتحان لهم لإظهار خبثهم وعنادهم.
- حدّثتنا الآيات السابقة عن البراءة وقطع الصلة بالمشركين، وهذه الآية تؤكّد المعنى نفسه بصيغة الدعاء، بأن نطلب من الله أن لا نكون أداةً بيد الأعداء.

التعاليم:

١ ـ من آداب الدعاء مخاطبة الله سبحانه بصفة الربوبيّة، ﴿يَٰرَبِّ﴾، وكثير من أدعية القرآن تبدأ بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾.

٢ ـ يجب على المسلمين أن يدقّقوا في علاقاتهم الثقافيّة والاقتصاديّة والعسكريّة مع الآخرين؛ كي لا يتحوّلوا إلى أداةٍ في يدهم، ولا يسمحوا للعدوّ بأن يستغلّ شيئاً من الأمور المذكورة للضغط عليهم، ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

٣ ـ الدين والسياسة في الإسلام صنوان، ففي هذه الآية دعاءان أحدهما له طابع سياسيّ والآخر له طابع معنويّ، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا... وَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

٤ ـ من ينبغي أن يلجأ إليه هو الجهة التي تتوفّر على الحكمة كلّها والعزّة كلّها، ﴿رَبَّنَآ... إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

٥ ـ من علامات العزّة أن لا يكون الإنسان أداةً بيد عدوّه، ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً... أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾.

٦ ـ كثير من الأقوياء والأعزّاء تتّسم تصرّفاتهم بقلة الحكمة، وأمّا الله سبحانه فهو العزيز بلا منازع، والحكيم بلا منازعٍ أيضاً، ﴿أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

- يشير الله سبحانه في هذه الآية وفي الآية ٢١ من سورة الأحزاب إلى أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام والنبيّ محمداً ﷺ أسوتان، ويجعل المعيار في هذا الأمر رجاء اليوم الآخر وتعليق الأمل بالله تعالى، ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا...﴾.
- يخبرنا الله سبحانه عن أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام أسوة بعد أن يكرّر كلمة ﴿رَبَّنَآ﴾، في الآيتين الرابعة والخامسة، وكأنّه بذلك يريد أن يخبرنا أنّه ليس أسوة في البراءة فحسب، بل في الدعاء والمناجاة أيضاً.

التعاليم:

١ ـ الأسوة والقدوة ليس لها تاريخ صلاحيّة تنتهي عنده، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

٢ ـ ليس الأسوة هو النبيّ فحسب، بل أتباعه ومن تربّى على يديه أيضاً، ﴿فِيهِمْ﴾.

٣ ـ العقيدة الصحيحة، هي الخلفيّة والقاعدة التي يؤسَّس عليها الاقتداء والتأسّي، ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. (بلى إنّ من يتّخذ قدوة صالحة يضيء نور الأمل والرجاء في قلبه، ﴿يَرْجُوا﴾، وأمّا من يتّخذ أسوةً غير صالحة فإنّه يتراجع ويسير القهقرى، ﴿يَتَوَلَّ﴾).

٤ ـ الإيمان الذي له قيمة هو الإيمان الثابت والمستقرّ، ﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ...﴾. (كان مع الفعل المضارع تركيب يدلّ على الثبات والاستقرار).

٥ ـ إعراض الناس عن الله وأوليائه لا يضر لا به سبحانه، ولا بهم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾

إشارات:

- يعد الله سبحانه المسلمين الذين شعروا بالحيف نتيجة قطع علاقاتهم مع الكافرين، بأنّ الله قد يهدي من قاطعوه لكفره، فيتحوّل إلى صديق حميم وتنشأ بينهم وبينه مودّة الإيمان بدل القطيعة.
- عندما يكون الكفر سبباً للقطيعة، لا بدّ من أن يكون سبب الوصل هو الإيمان المستجدّ، وليست العلاقة الجديدة مبنيّة على ارتفاع التكليف بالقطيعة.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن ييأس المؤمن من هداية الكافر، ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾.

٢ ـ العداوة ليست هي الأصل في العلاقات الإنسانيّة، بل هي الحالة الاستثنائيّة التي ترتفع بارتفاع أسبابها وموجباتها، ﴿أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ... مَّوَدَّةً﴾.

٣ ـ الله سبحانه هو الذي يمسك بالقلوب وبيده تغيير وجهة العواطف إذا أراد، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ... مَّوَدَّةً﴾.

٤ ـ عندما يترك الإنسان مودّة الكفّار لكفرهم، يعوّضه الله مودّتهم بعد إيمانهم، ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ... يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ... مَّوَدَّةً﴾.

٥ ـ لا غرو إن تبدّلت العداوة إلى مودّة، فالله سبحانه هو القادر على ما يريد، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

٦ ـ سوء تصرّف الكفّار، من الأمور التي تتّسع لها رحمة الله وتشملها مغفرته، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٧ ـ عفو الله من مقتضيات رحمته، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾

- ينقسم الكفّار إلى قسمين، قسم منهم يعمل على الوقيعة بالمسلمين ويتآمر عليهم، وهؤلاء هم الذين دعا الله سبحانه إلى مقاطعتهم، والابتعاد عنهم. وقسم آخر مسالمون لا يقاتلون المسلمين ولا يتآمرون عليهم، وهؤلاء لا ينهى الله عن وصلهم على الرغم من عدم كونهم مسلمين.

- السياسة الخارجيّة في الإسلام، مبنيّة على أساس الجذب والتواصل مع الناس وهذا يتحقّق بواسطة الأمور الآتية:

١ ـ الإحسان، ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾.

٢ ـ العدالة، ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾.

٣ ـ الإمهال للبحث والنظر، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[(١)].

٤ ـ قبول اقتراح السلام والمصالحة، ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[(٢)].

٥ ـ المساعدة الماليّة، ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[(٣)].

٦ ـ حفظ أماناتهم، والوفاء بالعهد، واحترام مواثيقهم، والإحسان إلى آبائهم.

- تفيد هذه الآية أنّ الكفّار الذين يعيشون في المجتمع الإسلاميّ، تثبت لهم حقوق اجتماعيّة، وتشملهم عدالة الإسلام.

التعاليم:

١ ـ لا بدّ من التمييز بين الكفّار المسالمين والكفّار المحاربين، ﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ... وَلَمْ يُخْرِجُوكُم﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦٠.

٢ ـ الإسلام دين الإحسان والعدالة؛ حتّى في التعامل مع غير المسلمين، ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾.

٣ ـ يعدّ إعلان المحبّة الإلٰهيّة والإعلام بها، من وسائل التحفيز، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

- اليوم ونحن نشرح هذه الآية ونفسّرها، تهاجم إسرائيل أراضي المسلمين، وسماءهم، بعد أن أخرجت المسلمين من ديارهم، وقتلت من قتلت منهم. وهذه الآية تهتف بالمسلمين جميعاً وتدعوهم إلى أن يكونوا يداً واحدةً على هذا العدوّ. ومن الواضح أنّ هذه الآية من الآيات السياسيّة في القرآن.
- على الرغم من أنّ مضمون هذه الآية قد يستفاد بشكلٍ غير مباشرٍ من الآية السابقة، فإنَّ الله يريد أن تصل هذه الرسالة بوضوح ولا يبقى بعدها مجال للبس وسوء الفهم.

التعاليم:

١ ـ الظلم محرّم في الشريعة الإسلاميّة سواء قام به الإنسان بشكلٍ مباشر وبالاستقلال، أو قام به بمساعدة غيره على الظلم، ﴿أَخْرَجُوكُمْ... وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾.

٢ ـ حتّى إذا وقع على الإنسان ظلم، عليه أن لا يخرج عن حدود العدالة ويترك مقتضيات الإحسان، بل كلّ ما هو مدعوّ إليه، هو مقاطعة الظلم وعدم المساعدة عليه، ﴿يَنْهَىٰكُمُ... أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾.

٣ ـ الاعتداء على ديار الناس محرّم في الشريعة كما الاعتداء على الأنفس والأعراض، وقد شرّع الجهاد لمواجهة أشكال العدوان هذه كلّها، ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ... وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾.

٤ ـ لا تجوز ممالأة الكفّار الحربيّين على الظلم والعدوان تحت أي شعارٍ كشعار العلاقات الإنسانيّة وما شابهها: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾

إشارات:

- تضمّن صلح الحديبية مجموعةً من البنود، أحدهما وجوب إعادة من يهرب من مكّة، ويلتحق بالمسلمين في المدينة، وهذه الآية تتحدّث عن النساء، فتستثنيهنّ من هذا الحكم.
- هذه الآية من الآيات الحقوقيّة الاجتماعيّة.
- مهر المرأة التي تسلم وتلتحق بالمسلمين في المدينة، كان يجب أن يُعاد إلى زوجها المشرك من بيت المال، بمقتضى هذه الآية: ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾[1].
- «عِصَم» جمع عصمة، والعصمة الإمساك، والعصام ما يشدّ به، والعصمة شبه السوار والمعصم موضعها.
- تتجلّى في هذه الآية كثير من ملامح العدالة الإسلاميّة، ومن هذه التجلّيات:

أولاً: لا تترك المرأة المهاجرة وحدها لتواجه مصيرها.

ثانياً: كفر الزوج لا يمنع الإسلام من الحفاظ على حقوقه الماليّة، بل يجب أن يُعاد إليه ما دفعه من المهر إلى زوجته التي أسلمت وتركته.

ثالثاً: يجب تلبية الحاجات العاطفيّة للمرأة التي تهاجر إلى المسلمين وذلك من خلال الأمر بنكاحهنّ، كما في قوله تعالى، ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾، كما يجب الاهتمام بحاجاتها الاقتصاديّة والماليّة، ويُستفاد ذلك من قوله سبحانه ﴿أُجُورَهُنَّ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الآية في: الميزان، والأمثل، والفرقان.

□ قد يكون دافع الهجرة الرغبة في الفرار من الزوج، أو التجسّس على المسلمين في المدينة؛ ولذلك يدعو الله إلى امتحان المرأة لاختبار صدق إيمانها.

□ الكفّار على أقسام[1]:

الكفّار الذين يصرّون على الكفر جميعاً، وهؤلاء هم الذين دُعِي المسلمون إلى مقاطعتهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ... وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

والقسم الثاني هم الذين يتجنّبون معاداة المسلمين، ويتّفقون فيما بينهم على ذلك، وهؤلاء هم الذين يقول الله عنهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ (الآية السابعة من هذه السورة).

والقسم الثالث هم الذين يؤمن بعضهم ويبقى بعضهم الآخر على الكفر، مثلاً تؤمن المرأة وتلتحق بالمسلمين ويبقى زوجها على كفره، أو العكس، ﴿جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾.

□ عبّر الله سبحانه عن المهر في المرّة الأولى بـ«النفقة»، ﴿أَنفَقُوا﴾؛ ولكنّه عبّر عنه عندما تحدّث عن الزواج من المهاجرات بـ«الأجر»، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾. ويبدو من خلال تتبّع موارد استعمال كلمة «الأجر» ومشتقّاتها للتعبير عن المهر أنّه هذه الكلمة تستعمل في مورد الزواج من المرأة الثيّب.

□ يؤدّي إيمان أحد الزوجين في بعض الحالات إلى انفراط عِقد الزواج؛ ويدلّ ذلك على عدم جواز الزواج من الكافر أو الكافرة.

عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «لا ينبغي نكاح أهل الكتاب». ثمّ تلا هذه الآية ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

التعاليم:

١ ـ لا تتبع المرأة زوجها في الدين وأداء التكاليف الدينيّة، بل لها شخصيّتها

---

(١) انظر: تفسير الرازي، والمراغي.

المستقلّة، ومن هنا يجوز لها الهجرة لحماية دينها، ﴿جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾.

٢ ـ يخضع الذي يدّعي الإسلام للامتحان لاختبار صدقه، ﴿جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ... فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

٣ ـ خطر التجسّس يدعو إلى اليقظة الدائمة في موارد احتماله جميعاً، ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

٤ ـ يجب أن تقدّم النظرة الإيجابيّة على سوء الظنّ، ﴿جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾، فقد عبّر الله سبحانه عن المهاجرات بـ«المؤمنات» على الرغم من الدعوة إلى اختبارهنّ.

٥ ـ علم الله بكلّ شيء لا يعفينا من المسؤوليّة عن التثبّت والاطلاع على واقع الحال، ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾.

٦ ـ في التعامل مع الناس علينا أن نجعل المعيار حسن الظنّ، والعمل بظاهر الحال، فالله وحده هو العالم ببواطن الأمور، ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾، وذلك حتّى في الموارد التي يدعوها هو سبحانه إلى التثبّت والاختبار.

٧ ـ للإيمان دور مهمّ في العلاقات الأسريّة. فإذا أسلمت المرأة لا تُعاد إلى زوجها الكافر؛ لأنّ عودتها إليه قد تهدّد إيمانها، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾.

٨ ـ لا ينبغي أن يُسمح للكافر بالتسلّط على المسلمين، وذلك على الصعيد السياسيّ والاجتماعيّ وغيرهما، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1]. بل حتّى على صعيد العلاقات الأسريّة، لا يجوز أن تثبت للكافر سلطة على زوجته المسلمة، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

٩ ـ المجتمع والبيئة الاجتماعيّة لها تأثيرها المهمّ على سلوك الفرد، فالمرأة التي ترجع إلى بيئة الكفر قد تندمج فيها وتذوب شخصيّتها، الأمر الذي يهدّد إيمانها، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٤١.

١٠ ـ يؤدّي كفر أحد الزوجين إلى بطلان الزواج، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

١١ ـ لا ينبغي الرهان على محبّة الرجل الكافر لزوجته المسلمة، فيخشى من تأثير البيئة على الزوجة، وليس بالضرورة أن يكون ذلك من جهة الزوج؛ ولذلك عبّر الله سبحانه بالنهي عن إعادتها إلى الكفّار ولم يقل إلى زوجها، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾.

١٢ ـ الإيمان هو القاعدة التي تقوم عليها مؤسّسة الزواج، والكافر ليس كفؤا للمرأة المسلمة، ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

١٣ ـ انفساخ عقد الزواج بين المرأة المسلمة والرجل الكافر، لا يعني الاعتداء على حقوق الزوج الماليّة، بل يجب دفع المهر له ولو من بيت مال المسلمين، ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

١٤ ـ لكلّ زواج مهر مستقل، إذ يجب إعادة المهر إلى الزوج السابق، وللزوجة الحقّ في المهر من زواجها الجديد، ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ... ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

١٥ ـ حقّ الملكيّة والحقوق الماليّة للكفّار حتّى لو كانوا محاربين محفوظ، ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

١٦ ـ أوّل حاجات المرأة هي الزوج المناسب، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

١٧ ـ الكفر السابق لا يمنع من الزواج من المرأة التي أسلمت بعد كفر، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

١٨ ـ المهر من حقوق المرأة الثابتة، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾.

١٩ ـ يحترم الإسلام الحاجات الغريزيّة، ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾، والحاجات الماليّة، ﴿أُجُورَهُنَّ﴾.

٢٠ ـ لا يجوز لأحدٍ أن يستغلّ غربة المرأة وأنوثتها وهجرتها وحيدةً، ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

٢١ ـ الكفر سبب كافٍ للفراق وانفساخ العلاقة الزوجيّة، ولا يُلتفت إلى الحبّ، ولا العلاقة السابقة، والولد وما شابه ذلك من عناوين، ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

٢٢ ـ حفظ الحقوق قاعدة تسري على الجميع المؤمن والكافر. (فلو أنّ امرأة مسلمة ارتدّت والتحقت بالكفّار يجوز للمسلمين مطالبتهم بمهرها وبما أنفقوا عليها، والعكس صحيح أيضاً)، ﴿وَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقُوا۟﴾.

٢٣ ـ اللجوء من الأمور المقبولة في الشريعة الإسلاميّة؛ ولكن لذلك شروط، أوّلها إخضاع اللاجئ للاختبار، ثانيها عدم الاعتداد بالصفات الشخصيّة كالجمال والقبح، وثالثها احترام حقوق الكفّار الماليّة، ﴿إِذَا جَآءَكُمُ... مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ... وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟... وَلْيَسْـَٔلُوا مَآ أَنفَقُوا۟﴾.

٢٤ ـ الأوامر الإلٰهيّة مبنيّة على العلم والحكمة، ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

إشارات:

- تحدّثت الآية السابقة عن أداء حقوق الكفّار الماليّة، في حالة لجوء الزوجة التي أسلمت والتحاقها بالمسلمين، وفي هذه الآية يحدّثنا الله سبحانه عن الحالة المعاكسة؛ أي عن مطالبة الكفّار بالمال.

التعاليم:

١ ـ يجب أن يصل الحقّ إلى صاحبه، مهما طال الزمان، ﴿فَاتَكُمْ شَىْءٌ... فَـَٔاتُوا۟... مِّثْلَ﴾.

٢ ـ ما يفوت المسلم بسبب إسلامه، يكفله النظام الإسلاميّ له، ﴿فَاتَكُمْ شَىْءٌ... فَـَٔاتُوا۟﴾.

٣ ـ تجوز ملاحقة الكفّار ومطالبتهم بالحقوق الماليّة المترتّبة للمسلمين عليهم، ﴿فَاتَكُمْ... فَعَاقَبْتُمْ﴾.

٤ ـ يجوز للمسلمين النهوض للمطالبة بحقوقهم، بل ربّما وجب عليهم ذلك في بعض الحالات، ﴿فَاتَكُمْ... فَعَاقَبْتُمْ﴾.

٥ ـ على النظام الإسلاميّ حماية الطبقات الفقيرة التي قد يسبّب لها التزامها بالإسلام، بعض الضرر الماليّ، ﴿فَاتَكُمْ شَيْءٌ... فَآتُوا... مِثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾.

٦ ـ على المسلم أن يراعي حدود الله في أخذ الحقوق، فلا يتجاوز عنها كي لا يتحوّل الأمر إلى عدوانٍ، ﴿مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٧ ـ الأمور الماليّة من الموارد التي يُخشى فيها من الزلل؛ ولذلك يجب توخّي الاحتياط، ﴿فَآتُوا... مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٨ ـ على المتضرّر أن يتّقي الله ولا يطالب أو يدّعي أكثر من خسارته، وعلى المجتمع الإسلاميّ أيضاً أن يلتزم بالحدود المعقولة في التعويض عن الأضرار، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

٩ ـ التقوى هي علامة الإيمان الحقيقة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾

إشارات:

□ وقف النبيّ ﷺ يوم فتح مكّة على الصفا، وشرع في أخذ البيعة من المسلمين، وكانوا جميعاً حاضرين نساءً ورجالاً، وهذه الآية تخبرنا عن المضمون الذي تمّت البيعة على أساسه.

وقد ورد في الأخبار أنّه ﷺ كان يبايع النساء بوضع يده المباركة في إناء من الماء وتضع المرأة يدها في الطرف الآخر من الإناء، وفي إحدى الروايات: **«أدخلن أيديكنّ في هذه الماء فهي البيعة»**[1].

□ الشروط المأخوذة في البيعة، هي من التعاليم الأخلاقيّة والاعتقاديّة التي يجب على كلّ من الرجل والمرأة الالتزام بها.

---

(١) تفسير الآية في: مجمع البيان، ونور الثقلين.

التعاليم:

١ ـ المرأة كائن مستقلّ له شخصيّته القانونيّة، وهي تتمتّع بحقوق كاملة لاختيار موقفها الاعتقاديّ والسياسيّ، وقد أعطى الإسلام هذا الحقّ للمرأة منذ أن بزغ فجر الرسالة وكان للمرأة حقّ بيعة النبيّ ﷺ إلى جانب الرجال، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ...﴾.

٢ ـ لا يميّز القائد الإسلاميّ بين المسلمين على أساس الجنس أي الرجولة والأنوثة، بل يفتح بابه لهم جميعاً، ﴿جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾.

٣ ـ الدين والسياسة صنوان لا ينفصلان، ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ (البيعة أمر سياسيّ).

٤ ـ لا ينبغي أن يجعل المسلمون الكثرة وحدها معياراً، وينشغلوا بها عن القيم، فتكثير العدد أمر مطلوب ولكن شرط الاهتمام بالمضمون العقديّ الذي يحمله الملتحقون بالجماعة الإسلاميّة، ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ...﴾.

٥ ـ الأمن من الموضوعات التي يهتمّ بها النظام الإسلاميّ، وذلك على صعدٍ عدّة:

- الأمن الماليّ والاقتصاديّ، ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾.
- الأمن الأسريّ، ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾.
- الأمن على الأرواح، ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ﴾.
- الأمن على الأعراض والكرامات، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾.
- الأمن السياسيّ والاجتماعيّ، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾.

٦ ـ إصلاح العقيدة مقدّم على إصلاح السلوك والسيرة، (الحديث عن عدم الشرك أولا).

٧ ـ الإيمان وحده لا يكفي، بل ينبغي أن يقترن بالالتزام والتعهّد بطاعة وليّ الأمر، ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ﴾.

٨ ـ سلامة المرأة في عرضها وسلوكها، من الأمور المهمّة لاستقرار المجتمع وأمنه، ﴿لَّا يُشْرِكْنَ...﴾.

٩ ـ الشرك من الأمور التي لا مجال للتساهل معها، ولا يقبل أدنى مستوى منه كائنا ما كان، ودليل ذلك ذكر كلمة ﴿شَيْـًٔا﴾، بعد التعهّد بعدم الشرك بالله، ﴿لَّا يُشْرِكْنَ﴾ (وكلمة شيئاً كناية عن الحدّ الأدنى).

١٠ ـ النهي عن المنكر أمر عامّ يشمل ميدان الاعتقاد، ﴿لَّا يُشْرِكْنَ﴾، والاقتصاد، ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾، والمسائل الجنسيّة، ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، والقضايا المرتبطة بالأسرة، ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾، والمجتمع كلّه، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾.

١١ ـ يجب حفظ كرامة الناس وعدم إراقة ماء وجوههم، تحت أيّ عنوانٍ من العناوين غير المشروعة، ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ﴾.

١٢ ـ القائد في المجتمع الإسلاميّ له دور محوريّ وأساس، وعلى الجميع الخضوع له والالتزام بطاعته في الحقّ، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾. (ولم يقل سبحانه وتعالى: «ولا يعصين الله»).

١٣ ـ عندما يرتفع المنكر، يسهل السير في سبيل المعروف. (فقد أشارت الآية إلى المنكرات بالتفصيل، وأما المعروف فقد ذكِر في جملة واحدة)، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾.

١٤ ـ النساء في المجتمع الإسلاميّ إلى جانب الرجال في القضايا الاعتقاديّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، وقد شملتهنّ العدالة النبويّة ولم يميّز (صلى الله عليه وآله بين الجنسين)، ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾.

١٥ ـ يجب أن تكون بنود البيعة واضحة وشفّافة ومنسجمة مع مصلحة المبايعين وأوضاعهم (فالسرقة، والزنا، وقتل الأولاد، وتقاذف التهم بين أعضاء الأسرة، من الأمور التي كانت رائجةً في المجتمع الجاهليّ)، ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن... فَبَايِعْهُنَّ﴾.

١٦ ـ الله يأمر نبيّه ﷺ بالاستغفار والدعاء للذين يقدمون على بيعته، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾.

١٧ ـ التوسّل بالأولياء جائز، ودعاؤهم للمؤمنين مستجاب، ولولا ذلك لما أمر الله النبيَّ ﷺ بالدعاء والاستغفار، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾.

١٨ ـ على الرغم من أنّ الإسلام يجبّ ما قبله فإنّ لدعاء النبيّ ﷺ فائدة وبركة، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾.

١٩ ـ سوابق الناس لا تمنع من الدعاء لهم، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ... إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٢٠ ـ رحمة الله ومغفرته هي السند الأساس الذي يجعل الدعاء مؤثّراً، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ... إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

- التولّي تارةً يكون بمعنى الصداقة، وطوراً يكون بمعنى الولاية والقيمومة، وكلا المعنيين منهيّ عنه في الآية.
- المراد من الذين غضب الله عليهم في الآية اليهود، والمقصود من الكفّار مشركي مكّة، فاليهود يائسون من الآخرة، والمشركون منكرون للمعاد والحياة بعد الموت(١).
- الآية الأولى من هذه السورة تتحدّث عن البراءة من أعداء الله وأعداء المسلمين، والآية الأخيرة تختم السورة بالنهي عن ولاية الكفّار. وهذه السورة هي السورة الوحيدة التي تُفتتح وتُختتم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.
- **المغضوب عليه في القرآن:**

لقد وصف الله عدداً من الأفراد والجماعات بالمغضوب عليهم، أو أعلن غضبه عليهم، وذلك في موارد عدّة من القرآن الكريم:

ـ فعن اليهود يقول سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾(٢).

---

(١) الميزان في تفسير القرآن.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٢.

- وعن المنافقين والقتلة، يقول: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[١].
- وعن العلماء الذين لا يزيّنون علمهم بالعمل يقول: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾[٢].
- كما يعلن سبحانه غضبه على أفراد بأعيانهم، مثل: قارون، وأبي لهب، وبلعم بن باعوراء، وآخرين.

□ اليأس من الآخرة يعني اليأس من قدرة الله وحكمته وعدالته. ومن ييأس من الآخرة يضع نفسه في طريق مسدود. ولا يمكنه تبرير وجوده وحياته في الحياة الدنيا. ومن هنا فإنّ كثيراً من هؤلاء اليائسين يتساءلون: إذا كنّا سوف نموت وننتهي إلى العدم، فلماذا تطول مدّة بقائنا ولماذا لا نموت من هذه اللحظة ونرتاح من العذابات المترتّبة على البقاء مدةً أطول؟ وإذا كنّا جميعاً سوف ندخل في محاق العدم، فلماذا العلم والمعرفة والتعليم والتربية؟ وهذا أمر طبيعيٌّ فإذا كان بناءٌ ما سوف يفجّر بعد مدّة وجيزة، فلماذا الاشتغال بتزيينه وترميمه؟ وإذا كنّا سوف نموت ولا نسأل بعد ذلك عمّا اقترفت أيدينا فلماذا نمنع أنفسنا من ملذّات الدنيا على أشكالها المتنوّعة؟ ولماذا لا نسخّر كلّ شيء في خدمة شهواتنا حتّى البشر الذين يمكن الاستفادة منهم؟

التعاليم:

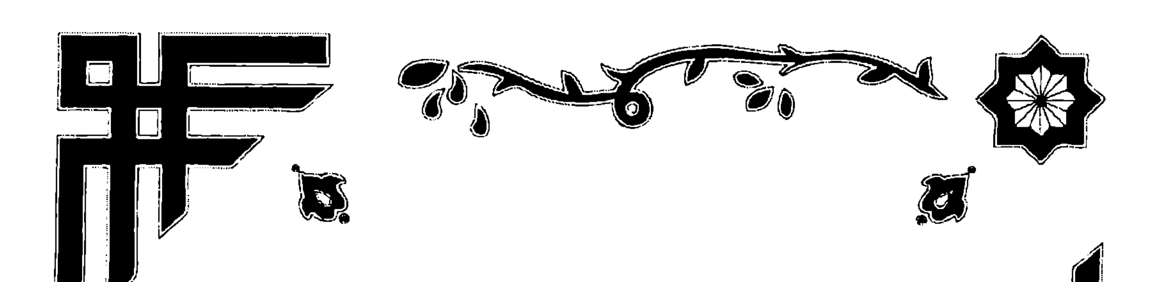
١ - وليّ الله لا يمكن أن يكون وليّ من غضب الله عليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾.

٢ - على الرغم من أنّ أهل الكتاب يؤمنون بالآخرة ويوم القيامة؛ فإنَّ بعضهم يائسون من الحصول على الثواب وهؤلاء قد غضب الله عليهم، ولذلك هم والمشركون المنكرون ليوم القيامة في كفّةٍ واحدةٍ: ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»

---

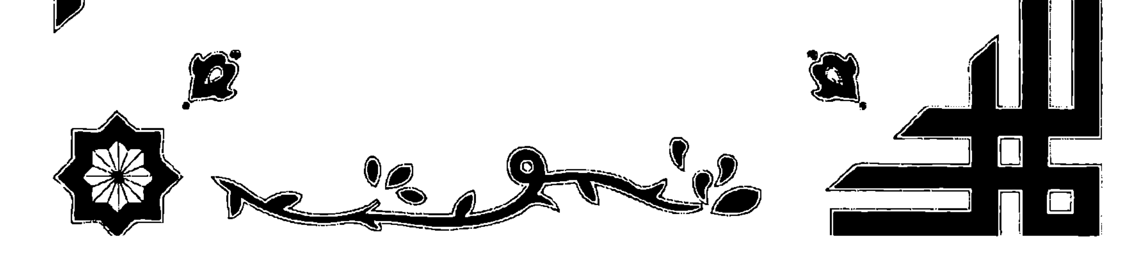
(١) سورة الفتح: الآية ٦. (٢) سورة غافر: الآية ٣٥.



سُورَةُ الصَّفِّ

السورة: ٦١ الجزء: ٢٨

عدد الآيات: ١٤



ملامح سورة الصفّ

سورة الصفّ مدنية، وعدد آياتها أربع عشرة آيةً.

أخذت السورة اسمها من كلمة «صف» التي وردت في الآية الرابعة.

أوضح اهتمامات هذه السورة الحديث عن علوّ الإسلام على غيره من النحل والأديان السماويّة وغيرها، وتتحدّث بعض آياتها عن وجوب الجهاد في سبيل الله.

وتبدأ هذه السورة بكلمة ﴿سَبَّحَ﴾، وتشاركها في هذا الأمر سورتا الحديد والحشر؛ كما تبدأ سورة الجمعة والتغابن بكلمة ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ وتبدأ سورة الإسراء بكلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾، وأخيراً تبدأ سورة الأعلى بالدعوة إلى تسبيح الله سبحانه ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

التعاليم:

١ ـ تتوفّر الموجودات كلّها، بحسب الرؤية الإسلاميّة، على مستوى من الشعور والإدراك، وكلّها مشغولة بتسبيح الله على طريقتها، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا﴾.

٢ ـ من يستحقّ التسبيح والتمجيد، هو الموجود الحائز على العزّة كلّها والحكمة كلّها، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾

إشارات:

- المقت هو الغضب الشديد.
- نجد في القرآن ما يشبه هذا التأنيب، في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[(١)]
- ترك العمل بالقول، تارةً يكون بسبب العجز عن العمل، وطوراً يكون ناتجاً عن اللامبالاة، أو الاستخفاف، أو عدم صدق الاعتقاد، وهو في الحالات الأخيرة يستحقّ اللوم.
- يُشبَّه العالم بلا عملٍ بتشبيهات كثيرة، منها: تشبيهه بالشجرة غير المثمرة، والغيمة التي لا تمطر، والنهر الجافّ، والنحل الذي لا عسل له، والإبرة التي لا خيط فيها، والحمار الذي يحمل أسفاراً.
- ورد في الحديث: «**علمٌ بلا عمل حجّة الله على العبد**»[(٢)]. و«العلم الذي لا

---

(١) سورة البقرة: الآية ٤٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم.

يُعمَل به كالكنز الذي لا يُنفَق منه»[١]. و«**إنّ أشدّ الناس حسرةً يوم القيامة الذين وصفوا العدل ثمّ خالفوه**»[٢]. وعن عيسى عليه السلام: «**أشقى الناس من هو معروف عند الناس بعلمه، مجهول بعمله**»[٣]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**من لم يصدّق فعله قولَه فليس بعالم**»[٤].

- ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّ خلف الوعد من مصاديق هذه الآية، وذلك في قوله: «**عدة المؤمن أخاه نذرٌ لا كفّارة له**»[٥].
- ورد في سبب نزول الآية أنّها نزلت في جماعة من الناس كانوا يظهرون شوقهم إلى الجهاد في سبيل الله؛ ولكن لما صدر الأمر بالجهاد بدأوا باختلاق المبرّرات والتعلّل بالأعذار الواهية. هذا ولكنّ الآية عامّة تنطبق على كلّ من لا يتطابق قوله وشعاراته التي يرفعها مع أعماله التي يقوم بها.

التعاليم:

١ ـ يجب أن يقترن الإيمان بالعمل، وإلا انقلب إلى أمر يستوجب التأنيب والتوبيخ، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

٢ ـ على المؤدِّب أن يشير إلى الإيجابيّات قبل التذكير بالسلبيّات، فالله في هذه الآية أشار إلى إيمان المؤمنين ثمّ طالبهم بالعمل بمقتضى إيمانهم، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

٣ ـ يعدّ التأنيب واللوم من أساليب التربية الناجحة، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

٤ ـ الوفاء بالعهد واجب، وخلفه من الكبائر، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ ما أقبح أن يكون الوجود كلّه في حالةٍ تسبيح دائم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا﴾، ويكون الإنسان متمرّداً يقول الشيء ولا يعمل به، فيغضِب الله تعالى، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) الصدوق، الأمالي، ص٣٤٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص٣٠.
(٣) مصباح الشريعة، ص٣٦٨.
(٤) الكافي، ج١، ص٣٦.
(٥) الكافي، ج٢، ص٣٦٣.

٦ ـ القول الذي لا يصدّقه العمل، من الأمور الخطيرة على الإنسان، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (والكلمتان: «كَبُرَ» و«مقت» تكشفان عن هذا الأمر).

٧ ـ إذا كانت الأمور تحلّ في الدنيا بالقول والخلف، ثمّ الاعتذار، فإنّ الأمور عند الله تعالى، لا تحلّ بهذه البساطة، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ...﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

إشارات:

- «بنيان» هو البناء. و«مرصوص» من الرصاص وهو المعدن المعروف، والمراد من الآية تشبيه متانة الصفوف بالبناء الذي بني بالرصاص في شدّة تماسكه وإحكامه.
- الآية السابقة تنتقد الذين يقولون ولا يعملون بأقوالهم، وأعلن غضبه عليهم بقوله ﴿كَبُرَ مَقْتًا...﴾، وفي هذه الآية يحدّثنا الله سبحانه عن الحالة المعاكسة؛ أي عن الذين يفون بعهدهم لله ويقاتلون في سبيل الله كالبنيان المرصوص، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾.
- ورد في كتب التاريخ أنّ أمير المؤمنين ﷺ كان يقرأ هذه الآية في معركة صفّين ليحرّض المجاهدين على القتال والثبات.

التعاليم:

١ ـ في التربية، الغضب مطلوب كما الحبّ والعطف، ففي الآية السابقة أشار الله تعالى إلى غضبه على بعض الناس، وفي هذه الآية أشار إلى حبّه لبعض الناس، ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾.

٢ ـ الإنذار من الأمور المطلوبة للحيلولة دون وقوع الأخطاء، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ... كَبُرَ مَقْتًا﴾، وفي المقابل ضمان القيام بالأفعال الحسنة يحتاج إلى الحثّ والثناء، ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾.

٣ ـ رضا الله تعالى وحبّه من أهمّ الأمور التي تشجّع المؤمنين على القيام بواجباتهم، وقد يكون الرضا والحبّ أهمّ من الجنّة عند بعض المؤمنين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ...﴾.

٤ ـ الأفعال الصعبة والشاقّة، تحتاج إلى مزيدٍ من الدوافع، من قبيل الحظوة بمحبّة الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ...﴾.

٥ ـ المؤمنون المجاهدون أحباب الله، وهم يعملون في سبيله، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، وهو سبحانه يمنحهم حبَّه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾.

٦ ـ الوحدة والانسجام مطلوبان في جميع الأحوال والظروف، وأمّا في حالة الحرب والقتال فيصبح أكثر ضرورةً وحاجةً، ويجب أن تكون الصفوف متراصّةً لا يمكن اختراقها، ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾

إشارات:

- «زاغ» من «الزيغ»، وهو الانحراف عن جادّة الحقّ. الإنسان بمقتضى فطرته ملازم للحقّ، وترك الحقّ انحراف وزيغ.
- انتقد الله سبحانه في الآيات السابقة القول بلا عمل، وفي هذه الآية ينتقد سبحانه الذين يعملون بخلاف ما يعلمون، فهم يعلمون مقام النبيّ موسى عليه السلام، ومع ذلك يؤذونه.
- يبني الله سبحانه ثوابَه على قواعد العدل والحكمة، كما على أساس فعل الإنسان. يهدي الله الإنسان بالعقل والفطرة، وبواسطة الأنبياء الذين أرسلهم إلى البشريّة، فمن يهتدي يزيده الله هدى، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[1]، وكلّ من ينحرف عن الحقّ بإرادته ورغبته يتركه لا يجبره الله على العودة إلى جادّة الحقّ، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾.

---

(١) سورة محمّد: الآية ١٧.

□ أذى النبيّ موسى والنبيّ محمّد ﷺ:

لقد أوذي النبيّ موسى ﵇، كثيراً من قبل قومه، ومن ذلك ما ذكره القرآن الكريم، في الآيات الآتية:

- ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[١].
- ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾[٢].
- ﴿لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾[٣].
- ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[٤].
- ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[٥].
- ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[٦].

وكما أوذي النبيّ موسى ﵇، كذلك تعرّض النبيّ محمّد ﷺ لأذى المشركين والمنافقين المعاصرين له، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في آيات عدّة، منها:

- ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ﴾[٧].
- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٨].
- ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾[٩].
- وممّا كان يؤذي النبيّ ﷺ، تردّد بعض المسلمين وضعفهم عن القتال، كما ذكر لنا الله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾[١٠]، و﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾[١١]، و﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾[١٢]، و﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٥٥.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦١.
(٣) سورة المائدة: الآية ٢٢.
(٤) سورة المائدة: الآية ٢٤.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.
(٦) سورة الأعراف: الآية ١٢٩.
(٧) سورة التوبة: الآية ٦١.
(٨) سورة التوبة: الآية ٦١.
(٩) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.
(١٠) سورة الأحزاب: الآية ١٣.
(١١) سورة التوبة: الآية ٨١.
(١٢) سورة التوبة: الآية ٤٢.

﴿سَقَطُواْ﴾[1] وكانوا في هذه الآية يتعلّلون بأنّهم إذا شاركوا في معركة تبوك، فسوف يفتنهم النظر إلى النساء الروميّات، فأجابهم الله إنّهم سقطوا في فتنة مخالفة النبيّ، بتخلّفهم عن رَكْبِه.

□ حدّثنا الله سبحانه في الآيات السابقة عن الذين لا يعملون بما يقولون، وعن حبّه للمجاهدين الثابتين في ساحات الوغى، ومن ذلك يُعلَم أنّ الأذى المشار إليه في هذه الآية هو ذلك الناتج عن الضعف والتردّد في مجال الجهاد.

التعاليم:

١ ـ لا ينبغي أن يُنسى تاريخ النبيّ موسى عليه السلام وقصص حياته، لما فيها من عبرةٍ وموعظةٍ، ﴿وَإِذْ...﴾.

٢ ـ المعرفة بتاريخ العظماء والقادة الكبار، تعزّي المرء وتخفّف عنه المصاعب التي يلاقيها في حياته، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ... لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.

٣ ـ في بعض الحالات قد يثير الأقربون المشاكل، ويكون أذاهم أكثر من أذى الأبعدين، ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.

٤ ـ العواطف، من الأمور النافعة في مجال النهي عن المنكر، ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.

٥ ـ لا ينبغي أن يكون أذى الأقربين سبباً لطردهم وإقصائهم، ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.

٦ ـ العلم والمعرفة من أسباب المسؤوليّة؛ حيث يُنتظَر من العارفين وعليّة القوم العمل بما يقتضيه مقامهم المعرفيّ، ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ...﴾.

٧ ـ التصرّف الذي يسبّب الأذى للقادة والعظماء، من الأسباب التي تودي بالإنسان في أودية الضلال والانحراف، ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي... زَاغُوٓاْ﴾.

٨ ـ الانحراف في القول والعمل، يفضي إلى الانحراف في القلب والروح، والشخصيّة والهويّة، والفكر والثقافة، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٩.

٩ ـ المعصية من أسباب الحرمان من الهداية الإلٰهيّة، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

إشارات:

- من المؤكّد أنّ الكتب الموجودة في هذا العصر في أيدي المسيحيّين واليهود، ليست هي الكتب التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام، بل هي ممّا كتبه أتباعهم في فترات زمنيّة لاحقة، وبعض هؤلاء الكتّاب من المعاصرين لهذين النبيّين، وبعضهم ممّن ولِد بعدهم بسنوات. والمسيحيّون واليهود أنفسهم لا يدّعون أكثر من ذلك.

ولكنّ ذلك لا يعني أنّ كل التعاليم الموجودة في هذه الكتب باطلة، ومحرّفة بل يشتمل العهد القديم (التوراة وبعض الأسفار الملحقة بها) والعهد الجديد (الإنجيل وبعض الأسفار كأعمال الرسل وغيرها)، على بعض الحقائق التي نقِلت عن الأنبياء ودوِّنت في الكتب الموجودة حالياً. وفي هذه الكتب بعض العبارات التي تتضمّن البشارة ببعثة النبيّ محمّد ﷺ.

واللّافت أنّ هذه الكتب لا تشتمل على البشارات العامّة فحسب، بل بعضها ينطبق على النبيّ ﷺ بشكلٍ شخصيّ، ومن ذلك كلمة «الفارقليط» التي ترجمت إلى الفارسيّة بـ«المعزّي»، وفي بعض الترجمات العربيّة ترجمت بـ«المعين»، وهي عادة ما يُستند إليها للإشارة إلى هذا الأمر، وقد وردت هذه الكلمة ثلاث مرّات في إنجيل يوحنّا، ونصّ الإنجيل كما يأتي:

«وسوف أطلب من الآب أن يعطيكم معيناً آخر يبقى معكم إلى الأبد»[1].

---

(١) إنجيل يوحنّا، ١٤ ـ ١٦.

«وعندما يأتي المعين الذي سأرسله لكم من عند الآب، روح الحقّ الذي ينبثق من الآب، فهو الذي يؤدّي الشهادة لي»[١].

«ولكنّي أقول لكم الحقّ، من الأفضل لكم أن أذهب؛ لأنّي إن كنت لا أذهب، لا يأتيكم المعين؛ ولكنّي إذا ذهبت أرسله إليكم»[٢].

والمهمّ في العبارات هو الأصل السريانيّ لكلمة معين هذه، فهي في السريانيّة «بارقليطا» وفي اليونانيّة «بيركليتوس»، ومعنى هذه الكلمة «الشخص المحمود» فهي تعادل في العربيّة كلمتي «محمّد» و«أحمد».

ويبدو أنّ آباء الكنيسة وجدوا أنّ الحفاظ على الترجمة الحرفيّة لهذه سوف يضرّ بمصالحهم؛ فلذلك فضّلوا تغيير الترجمة ولو على حساب الحقيقة والدقّة.

وقد ورد في دائرة المعارف الفرنسيّة الكبرى:

«محمّد مؤسّس دين الإسلام ورسول الله وخاتم الأنبياء. وكلمة «محمّد» تعني في اللغة الشخص المحمود، وأصل الحمد الثناء والتمجيد، والاسم الآخر الذي يشتقّ من هذا المعنى هو «أحمد»، ويحتمل أنّ العرب المسيحيّين كانوا يستخدمون هذا الاسم كمعادل لكلمة «بارقليطا». والكتّاب المسلمون كثيراً ما يشيرون إلى هذا الأمر للتذكير بورود هذه الكلمة في الإنجيل باللغة السريانيّة، وقد أشار القرآن أيضاً إلى مسألة البشارة بالنبيّ في التوراة والإنجيل»[٣].

❑ هل كان اسم النبيّ «أحمد»؟

أ ـ تذكر كتب التاريخ والسيرة النبويّة، أنّه كان للنبي ﷺ اسمين منذ نعومة أظفاره، وقد كان يُدعى بهما، وأحد هذين الاسمين «محمّد» والآخر «أحمد». والاسم الأوّل اختاره له جدّه عبد المطّلب، والاسم الثاني اختارته له أمّه آمنة بنت وهب. وهذا الأمر معروف ومتداولٌ في كتب التاريخ والسيرة.

---

(١) المصدر نفسه، ١٥ ـ ٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ١٦ ـ ٨.

(٣) دائرة المعارف الفرنسيّة الكبرى، ج٢٣، ص٤١٧٦؛ نقلا عن: تفسير نمونه عند الحديث عن هذه الآية.

ب ـ كان عمّه أبو طالب يناديه باسم «أحمد» وقد وردت هذه التسمية في الشعر المنسوب إلى أبي طالب، ومن ذلك ما هو موجود الآن في الديوان المنسوب إليه؛ حيث يقول:

أرادوا قتل أحمد ظالموهم وليس بقتلهم فيهم زعيم(١)

ج ـ ولم يقتصر التعبير عن النبيّ ﷺ بهذا الاسم على شعر أبي طالب، بل ورد أيضاً في الشعر المنسوب إلى حسّان بن ثابت الأنصاريّ؛ حيث يقول:

مفجّعة قد شفّها فقد أحمد فظلّت لآلاء الرسول تعدّد(٢)

□ وقد ورد في الحديث عن النبيّ ﷺ، قوله: «اسمي في الأرض محمّد، وفي السماوات أحمد»(٣).

التعاليم:

١ ـ يستحقّ تاريخ النبيّ عيسى عليه السلام التأمّل لما تحتوي حياته من العبر، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى﴾.

٢ ـ عيسى عليه السلام رسول الله، فلا يجوز أن تدّعى له الألوهيّة، ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾.

٣ ـ في منهاج التربية الإلٰهيّة توجد صفوف عدّة ومراحل، كلّ مرحلةٍ تمهّد للمرحلة اللّاحقة لها، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ...﴾.

٤ ـ الإسلام أكمل الأديان السماويّة؛ ويستفاد هذا المعنى من البشارة به، فالبشارة لا تكون إلا بالأمور التي هي أحسن ممّا هو موجود، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾.

٥ ـ أنبياء الله لا يعرفون التحاسد، بل يبشّر أحدهم بالآخر اللّاحق له، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾.

---

(١) ديوان أبي طالب، ص ٢٥؛ وتاريخ ابن عساكر، ج١، ص٢٧٥؛ نقلاً عن: تفسير نمونه.

(٢) ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ، ص ٥٩؛ نقلاً عن تفسير نمونه.

(٣) تفسير البرهان.

٦ ـ عيسى عليه السلام مبشِّر ومبشَّر به. فهو يبشِّر بمجيء النبيّ صلى الله عليه وآله من بعده، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ...﴾، والله سبحانه يبشِّر بولادته؛ حيث يقول: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

٧ ـ في الدعوة إلى الله، ينبغي الالتفات إلى الماضي، ﴿مُصَدِّقًا...﴾، والحاضر، ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، والمستقبل، ﴿...مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾..

٨ ـ عندما تريد التعريف بالأشخاص عرِّف بطريقة لا تترك أيّ مجال للالتباس عند المخاطبين، ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

٩ ـ عندما يستفحل العناد، يلغي أثر البشائر السابقة، وأثر الدلائل الحاضرة، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

إشارات:

- وردت كلمة «أظلم» ست عشرة مرّة في القرآن الكريم، خمس عشرة مرّةً منها ترتبط بالقضايا الاعتقاديّة أو الثقافيّة، ومن ذلك:
  - ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾، تسع مرّات.
  - ﴿كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾، مرّة واحدةً.
  - ﴿كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ثلاث مرّات.
  - ﴿مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، مرّة واحدة.
  - ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، مرّتين.
- الظلم ثلاثة أنواع: ظلم النفس، وظلم الناس، وظلم الدين، ومن بين هذه الثلاثة، أصعبها وأكبرها، هو ظلم الدين.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٥.

التعاليم:

١ ـ من لا يصدِّق بشارة النبيّ عيسى عليه السلام، ولا تؤثّر فيه المعجزات التي أتى بها النبيّ ﷺ، بل يعدّ ذلك كلّه سحراً هو مفترٍ وهو من أظلم الناس، ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

٢ ـ الافتراء على الأنبياء افتراء على الله سبحانه. فهم قالوا للنبيّ ﷺ: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فعدّ الله ذلك افتراءً عليه سبحانه.

٣ ـ الافتراء على الله وعلى دينه من أسوأ أشكال الافتراء، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

٤ ـ من أبشع أنواع الظلم، سدّ سبل المعرفة في وجوه الناس وحرمانهم من الاهتداء إلى الحقّ، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

٥ ـ أسوأ أنواع الظلم، هو الظلم الذي يصدر عن صاحبه بعد إتمام الحجّة عليه، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ... وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾.

٦ ـ نتيجة الافتراء على الله، الحرمان من الهداية الإلٰهيّة، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٧ ـ الهداية والضلال بيد الله سبحانه، ولكنّ الإنسان هو الذي يمهّد المقدّمات المؤدّية إلى أحدها، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

إشارات:

❑ المضمون الوارد في هذه الآية يوجد ما يشبهه في الآيتين ٣٢ و٣٣ من سورة التوبة.

❑ يستخدم العدوّ كلّ الوسائل والأساليب، من أجل إطفاء نور الله سبحانه، ومن ذلك:

- الاتّهام بالرجعيّة والتخلّف، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].
- دعوى أنّ الفكر الدينيّ خيال وأوهام، ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾[2].
- يدّعون أنّ كلام الأنبياء كذب وافتراء، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[3].
- يدّعون سطحيّة آيات الوحي وخلوّها من المضامين المفيدة، ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[4].
- يجعلون لله أنداداً ومنافسين، ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[5].
- يمنعون الناس من الاستماع إلى كلام الله، ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾[6].
- يطعنون في دين المؤمنين، ﴿وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾[7].
- يسخرون من الدين ويهزأون، ﴿ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾[8].
- يسعون في خراب المساجد ومراكز العبادة، ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾[9].
- يحاولون تحريف دين الله، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾[10].
- يبتدعون في بعض الأحيان بعض البدع، ويدخلون في الدين ما ليس منه، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[11].
- يكتمون الحقائق الدينيّة التي لا تنسجم مع أهوائهم، ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[12].
- يعملون التجزئة في الدين، فيؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض الآخر، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[13].
- يخلطون الحقّ بالباطل، ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[14].

---

(١) سورة النعام: الآية ٢٥.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٥.
(٣) سورة الأحقاف: الآية ٨.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٣١.
(٥) سورة ابراهيم: الآية ٣٠.
(٦) سورة فصلت: الآية ٢٦.
(٧) سورة التوبة: الآية ١٢.
(٨) سورة المائدة: الآية ٧٥.
(٩) سورة البقرة: الآية ١١٤.
(١٠) سورة النساء: الآية ٤٦.
(١١) سورة الحديد: الآية ٢٧.
(١٢) سورة البقرة: الآية ١٥٩.
(١٣) سورة البقرة: الآية ٨٥.
(١٤) سورة البقرة: الآية ٤٢.

- يغالون في دين الله، ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾[١].
- يحاربون المسلمين ويقاتلونهم، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾[٢].

❑ وعد الله سبحانه بانتصار الإسلام ثلاث مرّاتٍ:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[٣].
- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٤].
- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[٥].

ولا شكّ في أنّ وعود الله سوف تتحقّق لأنّه سبحانه لا يخلف وعده، ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[٦].

❑ كما تواتر في الحديث أنّ حالة انتصار الإسلام وظهوره على سائر الأديان سوف تكون في عصر الإمام المهديّ عليه السلام.

فعن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال: **«فوالذي نفسي بيده، حتّى لا تبقى قرية إلا وينادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله بكرةً وعشيّاً»**[٧].

❑ يؤكّد تاريخ الإسلام تحقّق الآية الثامنة من هذه السورة، فعلى الرغم من كلّ الاستهزاء والمؤامرات التي كان يقوم بها الأعداء، وعلى الرغم من الحصار والتعذيب الذي كان يمارس ضدّ المسلمين، ومؤامرات الداخل والخارجين

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٧.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٧.
(٣) سورة التوبة: الآية ٣٣.
(٤) سورة الفتح: الآية ٢٨.
(٥) سورة الصف: الآية ٩.
(٦) سورة الروم: الآية ٦؛ سورة الحج: الآية ٤٧.
(٧) كتب التفسير الآتية: مجمع البيان، كنز الدقائق، والبرهان.

والمنافقين والمشركين، بل ووقائع الحروب الصليبية وغيرها، نرى أنّ الإسلام ينتشر يوماً بعد يوم.

التعاليم:

١ ـ يسعى العدوّ بشكلٍ دائم إلى إطفاء سراج الهداية الإلهيّة، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ القرآن نور إلهيّ، ﴿لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ الدين نور، أي مصدر للمعرفة والرشد، والحركة والحرارة، ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ البرامج والخطط التي يقوم بها الأعداء لمواجهة الحقّ جهد انتحاريّ لا يوصل إلى غايةٍ، ﴿نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، وكما يقول الشاعر الإيرانيّ: متى تطفأ الشمس بالنفخ في وجهها، ومتى ينجس البحر ببخار فم الكلب. فالقمر ينشر نوره على الأرض والكلب ينبح في الليالي المقمرة، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

٥ ـ الدعاية السيّئة، من أهمّ الأسلحة التي يستعملها العدوّ في مواجهة الدين، ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ ولكنّها لن تحقّق الغاية المرجوّة منها.

٦ ـ الإسلام دين كامل وخالد، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

٧ ـ لا شيء يمنع من تحقّق الإرادة الإلهيّة، لا الشرك، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1]، ولا الكفر، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٨ ـ الكفر والشرك متّفقان في الموقف من الإسلام، فكلّ منهما يحاول منعه من الانتشار، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

٩ ـ رسل الله يختارهم الله بإرادته وعلمه، ولا يخضع اختيارهم وتكليفهم بهذه المهمّة لرغبات الناس وعواطفهم، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾.

١٠ ـ نصر الإسلام من آثار حقانيّته، ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾.

١١ ـ المستقبل للإسلام، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٣.

١٢ ـ دين الإسلام دين الأمل بالمستقبل، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

١٣ ـ الغلبة تستمدّ قيمتها من ثباتها ودوامها، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

١٤ ـ الأديان كلّها لها تاريخ صلاحيّة تنتهي صلاحيّتها عنده، إلا الإسلام فهو دين خالد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

١٥ ـ أسباب انتصار الإسلام متعدّدة، منها:

أ ـ الإرادة الإلٰهيّة، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾.

ب ـ القيادة الحكيمة، ﴿رَسُولَهُۥ﴾.

ج ـ الحاجة الطبيعية الاجتماعيّة للهداية، ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾.

د ـ التوفّر على الاتّصاف بالحقّ، ﴿دِينِ ٱلْحَقِّ﴾.

هـ ـ الجامعيّة والشمول، ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

إشارات:

□ وعد الله في الآيات السابقة، بظهور دين الإسلام على سائر الأديان، وتفوّقه عليها؛ وهذا التفوّق لا يتحقّق إلا إذا تحقّقت شروط ثلاثة، هي:

أ ـ وجود قانون عامّ وشامل، وهو القرآن الكريم الذي هو نور الله الذي لا يقدر أحدٌ على إطفائه.

ب ـ وجود قائدٍ معصومٍ هو القائم المهديّ بقيّة الله في الأرض.

ج ـ استعداد الناس وهو الأمر الذي تشير إليه هذه الآية.

□ هذه الآيات من طراز ووزن الآية ١١١ من سورة التوبة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾

□ التجارة لها أشكال مفترضة عدّة بعضها ما يأتي:

١ ـ التجارة السيّئة، ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾[(١)].

٢ ـ التجارة التي لا ربح فيها، ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾[(٢)].

٣ ـ التجارة قليلة الربح، ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[(٣)].

٤ ـ التجارة الخاسرة، ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾[(٤)].

٥ ـ التجارة الكثيرة الخسارة، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[(٥)].

٦ ـ التجارة الفاضحة، ﴿الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[(٦)].

٧ ـ التجارة الراكدة، ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾[(٧)].

٨ ـ التجارة المستمرّة والدائمة، ﴿تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[(٨)].

٩ ـ التجارة المنجية، ﴿تِجَارَةٍ تُنجِيكُم﴾[(٩)].

١٠ـ التجارة المربحة، «تجارة مربحة»[(١٠)].

□ عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: **«ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة، فلا تبيعوها إلا بها»**[(١١)].

□ وعنه عليه السلام: **«الدنيا متجر أولياء الله»**[(١٢)]. واللافت أنّ هذا الكلام صدر عن عليّ عليه السلام الذي صدر عنه الكثير من الكلمات في ذمّ الدنيا.

□ نلاحظ في الثقافة الإسلاميّة تشبيهاً لكثير من الأمور المعنويّة بأشياء مادّية. مثلاً:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٩٠.
(٢) سورة: البقرة: الآية ١٦.
(٣) سورة النساء: الآية ٧٧.
(٤) سورة الزمر: الآية ١٥.
(٥) سورة العصر: الآية ٢.
(٦) سورة الحج: الآية ١١.
(٧) سورة التوبة: الآية ٢٤.
(٨) سورة فاطر: الآية ٢٩.
(٩) سورة الصف: الآية ١٠.
(١٠) نهج البلاغة، الخطب، الخطبة ١٩٣.
(١١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٣٢.
(١٢) نهج البلاغة، الحكم، الحكمة ١٣١.

أ ـ الطعام الماديّ، ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[١]، ويشبهه الطعام المعنويّ، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[٢]. وورد في الرواية عن الإمام عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله، «إلى علمه عمّن يأخذه»[٣].

ب ـ يقول سبحانه عن اللباس الماديّ، ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ﴾[٤]، ويقول عن اللباس المعنويّ، ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٥].

ج ـ الزينة الماديّة، ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٦]، والزينة المعنويّة، ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[٧].

د ـ السفر الماديّ، ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾[٨]، والسفر المعنويّ، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾[٩].

هـ ـ الرزق الماديّ، ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[١٠]، والرزق المعنويّ، «وارزقني حجّ بيتك الحرام»[١١].

و ـ الحلاوة الماديّة، «حلاوة الدنيا»[١٢]، والحلاوة المعنويّة، «حلاوة الإيمان»[١٣] و«حلاوة ودّك»[١٤].

ز ـ الثواب الماديّ، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾[١٥]، والثواب المعنويّ، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[١٦].

ح ـ الأب الماديّ، ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[١٧]، والأب المعنويّ، **«أنا وعليّ أبوا هذه الأمّة»**[١٨].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥١.
(٢) سورة عبس: الآية ٢٤.
(٣) رجال الكشي، ج٤، ص٣.
(٤) سورة النحل: الآية ٨١.
(٥) سورة الأعراف: الآية ٢٦.
(٦) سورة الأعراف: الآية ٣١.
(٧) سورة الحجرات: الآية ٧.
(٨) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.
(٩) سورة الانشقاق: الآية ٦.
(١٠) سورة البقرة: الآية ٢٢.
(١١) من أدعية شهر رمضان المبارك.
(١٢) نهج البلاغة، الحكم، الحكمة ٢٥١.
(١٣) بحار الأنوار، ج٨٧، ص ٢٠١.
(١٤) بحار الأنوار، ج٩٠، ص١٤٧.
(١٥) سورة البقرة: الآية ٢٥.
(١٦) سورة التوبة: الآية ٧٢.
(١٧) سورة البلد: الآية ٣.
(١٨) بحار الأنوار، ج٣٦، ص١١.

ط ـ الهجرة الماديّة، ﴿وَهَاجَرُوا﴾[1]، والهجرة المعنويّة، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[2].

□ ورد في الحديث عن عليّ عليه السلام قوله: **«أنا التجارة المربحة المنجية من العذاب الأليم التي دلّ الله عليه في كتابه، فقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾»**[3].

التعاليم:

١ ـ عندما تنادون الناس وتخاطبونهم نادوهم بأسمائهم وألقابهم الإيمانيّة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢ ـ قبل طرح السؤال أو توجيه الأوامر وما شابه، يجب إعداد المخاطب وإثارة اهتمامه، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾.

٣ ـ التجارة ليست عملاً عشوائيًّا بل تحتاج إلى مرشد ودليل، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾.

٤ ـ التجارة المعنويّة لا يدركها حقّ إدراكها، إلا المؤمنون بالله تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ...﴾.

٥ ـ الإنسان يبحث عن الربح بالفطرة، ولكن ليس عن أيّ ربح بل عن الربح الثابت والمستقرّ، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم﴾.

٦ ـ الربح الحقيقيّ، هو النجاة من غضب الله تعالى، ﴿تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٧ ـ دفع الخطر أهمّ من الربح، ﴿تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٨ ـ التجارة لا تنحصر في الأمور الماديّة، ﴿تِجَارَةٍ... تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

٩ ـ اتّباع الأنبياء، تجارة مربحة، ﴿تِجَارَةٍ... تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

١٠ ـ الإيمان له درجات متفاوتة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... تُؤْمِنُونَ﴾.

١١ ـ في الدعوة الله تحسن الاستفادة من الأمور المرغوبة والمحبوبة لدى الناس المدعوّين. فلمّا كانت التجارة من الأمور المطلوبة عند الناس غالباً، حسن

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

(٢) سورة المدثر: الآية ٥.

(٣) تفسير كنز الدقائق، عند تفسير الآية.

استخدامها لتشبيه الأمور الدينيّة بها، لحثّ الناس على التديّن وتحبيب الدين إلى نفوسهم، ﴿تِجَٰرَةٍ... تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾..

١٢ ـ ليس الإيمان مجرّد فعلٍ من أفعال القلب، بل هو جهد بالبدن أيضاً، ﴿تُؤۡمِنُونَ... وَتُجَٰهِدُونَ﴾.

١٣ ـ الإيمان بالله مقرون بالإيمان بالرسول، والجهاد بالمال مقرون بالجهاد بالنفس، ﴿تُؤۡمِنُونَ... وَتُجَٰهِدُونَ...﴾.

١٤ ـ الإيمان والجهاد ليسا من الأمور الموسميّة، بل هما أمران مطلوبان بشكلٍ دائمٍ، ﴿تُؤۡمِنُونَ... وَتُجَٰهِدُونَ...﴾ (الفعل المضارع يدلّ على الاستمرار).

١٥ ـ الإيمان السطحيّ لا ينتج عنه أمر مهم، فالمطلوب هو الإيمان الكامل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ... تُؤۡمِنُونَ... وَتُجَٰهِدُونَ﴾.

١٦ ـ الإيمان مقدّم على العمل، ﴿تُؤۡمِنُونَ... وَتُجَٰهِدُونَ﴾.

١٧ ـ حفظ الدين أهمّ من حفظ المال والروح، ومن هنا وجب بذل الروح للحفاظ على الدين، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾.

١٨ ـ الجهاد من الأحكام الثابتة التي لا ترتفع عن الإنسان، فتارةً يجب الجهاد بالمال، وأخرى بالنفس، وثالثةً بهما معاً، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ... بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾.

١٩ ـ الترتيب المنطقي في توجيه الأوامر، هو البدء من الأسهل إلى الأصعب، ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾.

٢٠ ـ قيمة العمل مرهونة بالإخلاص، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

٢١ ـ ربّ أمر صعب مرّ الطعم، ولكنّه حسن العاقبة مشتمل على المصلحة، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ... خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

٢٢ ـ الإنسان يبحث عن السعادة والخير بالفطرة، وقد وعد الله الإنسان بهذه الأمور وعلّق وعده على فعل بعض المقدّمات، ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾.

٢٣ ـ لا تنال الجنّة بالمجان، بل بالأثمان المناسبة، ﴿تُؤۡمِنُونَ... وَتُجَٰهِدُونَ... وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾.

٢٤ ـ العمل الكامل، يترتّب عليه الثواب الكامل؛ (فقد أشار الله سبحانه في هذه الآيات إلى الإيمان بالله والرسول، والجهاد بالمال والنفس، وبعد ذلك أشار إلى المغفرة والتوبة ودخول الجنّة والفوز العظيم)، ﴿يَغْفِرْ لَكُم... جَنَّٰتٍ... مَسَٰكِنَ... ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢٥ ـ يحتاج تلقّي اللطف الإلٰهيّ إلى الطهارة والتطهّر، ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ... وَيُدْخِلْكُمْ... ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

٢٦ ـ الإنسان بين العذاب الأليم والفوز العظيم، وينال أحدهما بالعمل والمعاملة مع الله، فينجو من العذاب وينال الفوز بذلك، ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ... ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

إشارات:

❑ الدخول إلى الجنّة والمغفرة الإلٰهيّة مصداق من مصاديق النجاة من العذاب، ولكن لما كان النصر والفتح لطفاً آخر، ذكره الله سبحانه بشكلٍ مستقلّ لبيان أهمّيّته.

التعاليم:

١ ـ ليست كلّ أنواع الثواب في الآخرة، بل يثيب الله المؤمنين في الدنيا أيضاً، ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا...﴾.

٢ ـ ينبغي أن يكون الثواب ممّا يحبّ الإنسان؛ ليكتمل الدافع نحو الفعل، ﴿تُحِبُّونَهَا﴾.

٣ ـ يصل المجاهدون المخلصون إلى أحد أمرين، إمّا الشهادة فيدخلون بها الجنّة، ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ﴾، وهو ما ذكِر في الآية السابقة؛ وإمّا النصر المشار إليه في هذه الآية، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

٤ ـ على المؤمن أن ينسب النصر إلى الله، لا إلى التجهيزات ووسائل القتال، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ الأمل بالمستقبل المشرق، من وسائل الدعم الروحيّ للمجاهدين، ﴿نَصْرٌ... وَفَتْحٌ﴾.

٦ ـ لا بدّ لوعود الله من التحقّق:

فهنا نصر: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وفي موضع آخر، يقول سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[1].

وهنا فتح، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، ويقول سبحانه في موضع آخر: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[2].

٧ ـ يمكن الاستفادة من البشارة، لحثّ المجاهدين وتشجيعهم على بذل المهج في سبيل الله، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

إشارات:

- «الحواريّون» هم تلاميذ عيسى عليه السلام وأصحابه المقرّبون، وقد وردت أسماؤهم في الإنجيل المعتمد لدى المسيحيّين[3]. وأصل الكلمة من الحور، وهو الغسل والبياض، وقد أطلِق هذا الاسم عليهم؛ لأنّهم كانوا يلبسون الأبيض، كما كانوا بيض القلوب ويدعون الناس إلى طهارة الباطن وتهذيب النفوس.
- عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ حواريّي عيسى عليه السلام كانوا شيعته، وإنّ شيعتنا حواريّونا، وما كان حواريّو عيسى عليه السلام بأطوع له من حواريّينا لنا، وإنّما قال عيسى عليه السلام للحواريّين: «من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله»، فلا والله ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله لم يزالوا

(١) سورة النصر: الآية ١.
(٢) سورة الفتح: الآية ١.
(٣) تفسير نمونه.

منذ قبض الله عزّ ذكره رسولَه ﷺ ينصرونا ويقاتلون دوننا، ويحرّقون ويعذّبون ويشرّدون في البلدان، جزاهم الله عنّا خيراً[1].

□ من الوسائل الناجعة في الدعوة والمساعدة على الالتزام بالتكاليف، ذكر الحالات المشابهة عند الأمم الأخرى، وذلك كما في هذه الآية: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى...﴾، وفي آيةٍ أخرى في وجوب الصوم: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2].

التعاليم:

١ ـ يجب أن يترقّى المؤمن خطوةً خطوةً. ففي الآيات السابقة حدّثنا الله عن التجارة معه، وفي هذه الآية يطلب من المؤمنين أن يكون أنصاراً له، ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، وهذه درجة أرقى من سابقتها.

٢ ـ لا يحتاج الله إلى نصرة أحدٍ من خلقه، فالنصر والقوّة كلّها منه سبحانه، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ودعوة الله إيّانا إلى النصرة تشريف لنا، ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.

٣ ـ يحاول أنبياء الله جذب الناس إلى الله، وليس إليهم ولا لتكثير الأتباع من حولهم، ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٤ ـ على الرغم من التأييد الإلٰهيّ للأنبياء، فإنّهم كذلك يستفيدون من الوسائل المادّيّة والطبيعيّة في تحقيق ما يريد الله منهم تحقيقه، ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ على القائد الحكيم أن يخبر أنصاره ويحسن تقويمهم، ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ تجديد الدعوة وطلب الإقرار من الأتباع، هو تجديد للبيعة وتوكيد لعهد الوفاء بين القائد والمؤمنين به، ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ... قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

٧ ـ على المؤمنين أن يجيبوا داعي الله إذا دعاهم إلى الطاعة والنصرة، ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ... نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) تفسير كنز الدقائق. (٢) سورة البقرة: الآية ١٨٣.

٨ ـ الإنسان مختار، يمكنه قبول دعوة الأنبياء ونصرتهم فيحظى بسعادة الدارين، ويمكنه الإباء والرفض فيصل إلى الكفر وما يليه من الشقاء، ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ... وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾.

٩ ـ لم يجمع الناس على الإيمان بأنبياء الله، فعبر التاريخ انقسم الناس تجاه الأنبياء إلى مؤمن بهم وكافر، وبالتالي فلا ينبغي أن نُصاب باليأس إذا لم يقبل بعض الناس دعوتنا مهما كنّا محقّين فيها، ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ... وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾.

١٠ ـ الاتّصاف بالإيمان من تجلّيات التأييد الإلٰهيّ أو أسبابه، ﴿فَـَٔامَنَت... فَأَيَّدْنَا﴾.

١١ ـ حظي النبيّ عيسى عليه السلام بالتأييد الإلٰهيّ، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[1]، كما حظي به أتباعه وأنصاره، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

١٢ ـ لا يقصر الله تأييده على نبيّه، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، بل تشمل نعمة التأييد المؤمنين به، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

«والحمد لله ربّ العالمين»

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٨.

الفهرس

سورة الأحقاف ٥ ـ ٤٦
سورة محمد .... ٤٧ ـ ٩٨
سورة الفتح ٩٩ ـ ١٣٩
سورة الحجرات .... ١٤١ ـ ١٩٤
سورة ق .... ١٩٥ ـ ٢٢٧
سورة الذاريات .... ٢٢٩ ـ ٢٦٣
سورة الطور .... ٢٦٥ ـ ٢٩٠
سورة النجم .... ٢٩١ ـ ٣٣١
سورة القمر .... ٣٣٣ ـ ٣٥٧
سورة الرحمن .... ٣٥٩ ـ ٤٠١
سورة الواقعة .... ٤٠٣ ـ ٤٣٥
سورة الحديد .... ٤٣٧ ـ ٤٨٢
سورة المجادلة .... ٤٨٣ ـ ٥١٧
سورة الحشر .... ٥١٩ ـ ٥٥٣
سورة الممتحنة .... ٥٥٥ ـ ٥٨٣
سورة الصف .... ٥٨٥ ـ ٦١٠